تأليف

الدكتور محمد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

مختصر

دستور الأخلاق في القرآن

La Morale du Koran

إعداد المختصر

(كالنص تماماً بلا زيادة ولا نقص)

محمد عبد العظيم علي

تقديم

د. مصطفى حلمي

الأستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار الدعوة

تأليف
الدكتور محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

* ملخص لرسالته الرئيسية لنيل درجة الدكتوراه من فرنسا *

مختصر
دستور الأخلاق في القرآن
La Morale du Koran

دراسة للأخلاق النظرية والعملية في القرآن الكريم
مقارنة
بالنظريات الأخلاقية القديمة والحديثة

إعداد المختصر
(تلخيص وإعادة صياغة وإعادة ترجمة)
محمد عبد العظيم علي

تقديم
د. مصطفى حلمي
الأستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار الدعوة

الطبعة الأولي
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

رقم الإيداع: ٩٦/٩٠١١

الترقيم الدولي: 977-253-113-5

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي ٢ش منشا محرم بك - الإسكندرية
ت ٠ ٤٩٠١٩١٤ - ٤٩٠٧٩٩٨
فاكس: ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة: ١٧ ش توفيق الهلالي - التعاون - فيصل
ت: ٣٨٣٢٧٤٧

درجة الدكتوراه فى الآداب بمرتبة الشرف الأولى

نالها الدكتور محمد عبد الله دراز ، برسالتين وضعهما
باللغة الفرنسية ونوقشتا فى ١٥ ديسمبر ١٩٤٧ بفرنسا
وقد طبعت الرسالتان باللغة الفرنسية على حساب مشيخة الأزهر الشريف عام ١٩٥٠.

الأولى- الرسالة الرئيسية La Morale du Koran

وقام بالتعريب والتحقيق والتعليق لأصل الرسالة الدكتور عبد الصبور شاهين ونشرت بعنوان " دستور الأخلاق فى القرآن" عام ١٩٧٣ طبعة أولى بمعرفة دار البحوث العلمية - الكويت ، ومؤسسة الرسالة - بيروت ، وتتضمن:
فى القسم الأول : دستور الأخلاق النظرية فى القرآن ،
وفى القسم الثانى: دستور الأخلاق العملية فى القرآن .

وقد قام باعداد التلخيص وإعادة الصياغة وإعادة الترجمة
محمد عبد العظيم على
(وهى التى بين يدى القارئ الكريم فى هذا المجلد).

الثانية- الرسالة الفرعية Initiation au Koran

قام بتعريبها الأستاذ / محمد عبد العظيم على
ونشرت بعنوان " مدخل إلى القرآن الكريم" عام ١٩٧١ طبعة أولى بمعرفة دار القرآن الكريم - الكويت ، ودار القلم - الكويت.

وقد لخصها الأستاذ / **محمد عبد العظيم على**
ونشرت ملخصة بعنوان : مختصر مدخل إلى القرآن الكريم.

راجع ترجمة أصل الرسالتين دكتور السيد محمد بدوى

إعداد رسالة الدكتوراه

استغرق إعداد هذه الرسالة ست سنوات من حياة عالمنا الجليل الاستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز . إذ شرع فيها عام ١٩٤١ ، ويضاف الى هذه السنوات ، خمس سنوات قبلها قضاها للتحضير لدرجة الليسانس ودراسة الفلسفة و المنطق والاخلاق وعلم النفس وعلم الاجتماع على ايدى اساتذة السوربون والكوليج دى فرانس . فانعكس اثر هذا التكوين الرصين على رسالته .

وكان قد كتبها وهو فى سن النضج فى حوالى الخمسين من عمره بعد أن تخرج فى الأزهر وعمل به كأستاذ مدة طويلة ، وأجاد اللغة الفرنسية ، فكان عالما كبيرا يكتب دراسة، لا طالبا مبتدئاً يتعلم كيف يكتب .

فلم يكتف بعرض النظام الاخلاقى القرآنى منفردا ، وإنما قارنه بآراء المفكرين والفلاسفة وعلماء الغرب فى اطار النظريات السائدة عندهم من جهة ، وكذلك بآراء العلماء والاخلاقيين والفقهاء المسلمين من جهة أخرى ، وفصّل هذه الآراء وبيّن ما قد يكون فيها من قصور أو خطأ ، ثم عقب ذلك ببسط كمال مبادئ الأخلاق المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فى عرض شامل وكامل .

وتمت مناقشة الرسالة امام لجنة مكونة من خمسة من أساتذة السوربون ، والكوليج دى فرانس فى ١٩٤٧/١٢/١٥ . نال بها المؤلف درجة الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى .

وقد توفى المغفور له الدكتور محمد عبدالله دراز فى يناير ١٩٥٨ . رحمه الله رحمة واسعة . واجزل له العطاء على ما قدمه لخدمة الاسلام والمسلمين.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لكتاب المختصر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وبعد ،

فإن كتاب ((دستور الأخلاق فى القرآن)) للدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله – والذى نضع بين أيدى القراء الكرام مختصره بقلم الاستاذ محمد عبد العظيم على ، يُعدّ من أمهات الكتب فى علم الأخلاق ، بل الكتاب الأم فى الأخلاق الاسلامية لأنه سدّ فراغا فى هذا اللون الخاص من الثقافة الرفيعة سواء فى مكتبة علماء الغرب بسبب (صمتهم المطبق عن علم الأخلاق فى القرآن أو فى المكتبة الإسلامية التى عرفت نوعين من التعاليم الأخلاقية : إما نصائح عملية وإما وصفا لطبيعة النفس وملكاتها) ، إذ قام المؤلف رحمه الله تعالى باستخلاص الشريعة الاخلاقية من القرآن فى مجموعه [1] .

ولمع اسم الدكتور دراز فى قلب باريس وفى أعرق جامعة بفرنسا ، فلم تُزِغ بصره أضواء باريس ، ولم تفتنه ثقافة أوروبا ، فقد عصمته ثقافته الإسلامية بقلعتها الصلبة أن تنفذ إليها السهام ، بل إنه – رحمه الله وأجزل مثوبته – قام وحده بغزو ثقافى مضاد للثقافة الأوروبية فى عقر دارها .

فقد قدّم باجتهاده الخاص الآيات القرآنية المتصلة بعلم الأخلاق فى أرقى إطار يتقبله الفكر الغربى بفروعه الثقافية المتنوعة – لا سيما النفس والأخلاق والتربية والاجتماع.. ولا يسع القارئ بعد استيعاب أدلته والسير مع منطقه الهادئ الرزين الذى يخاطب العقل مقدّماً الدليل تلو الدليل – لا يسعه إلا الدهشة المشوبة بالإعجاب .. إذ يكتشف إعجازاً للقرآن لم نكن نعرفه من قبل – وهو الإعجاز فى مجال علم الأخلاق – فلا نملك إلا الإقرار والاعتراف بأنه حقا وصدقاً من لدن عليم خبير .

وربما لم يكن المؤلف يدرى حينذاك أنه يقدم أيضاً أعظم هدية لأمته الإسلامية – وهى فى أشد الحاجة اليها الآن اكثر من اى وقت مضى – لانقاذها من الأضاليل التى تبغى سلخها من هويتها ووضعها مع قافلة التبعية الذليلة ، باسم ألفاظ جوفاء مزورة كالتنوير

---

[1] مختصر مقدمة المؤلف ص ١.

وإن قام بعض علمائنا بجهد مشكور لاستكمال هذا النقص ولكنهم لم يطلعوا على رسالة الدكتور دراز – لأنها لم تكن قد ترجمت بعد – نذكر منهم الدكتور محمد يوسف موسى ، والدكتور توفيق الطويل والشيخ نديم الجسر والشيخ البيصار والأستاذ أحمد أمين وغيرهم.

وحرية الثقافة والفكر،بينما هى خير أمة أُخرجت للناس إنْ أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وآمنت بالله !

لقد عاش الدكتور دراز عمره مع القرآن الكريم ، واغترف من منابع الثقافة الغربية ماأهله لتوجيه الخطاب الى العقلية الأوروبية بما تفهمه وتقدره ، فقام بتحليل فلسفاتهم الأخلاقية وفضح ثغراتها - لأنها إفراز للذهن البشرى الذى جُبل على النقص مهما أوتى من مواهب الذكاء والعبقرية - وهاهى مذاهب الفلاسفة تتهاوى واحداً وراء الآخر أمام النسق الأخلاقى المتكامل للقرآن الكريم الذى لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ويقصد بالأخلاق بالمفهوم الدارج محاسن الاخلاق والتمييز بينها وبين مساوئها ، ولكن الأخلاق كعلم - أو فرع من فروع الفلسفة - لها تعريف خاص أوسع مدلولا واكثر تشعباً : فان الأخلاق (علم معيارى يدرس ما ينبغى أن يكون عليه السلوك) . وهو بهذا التعريف (أضيق مجالاً من علم النفس من حيث أنه ينصب على دراسة السلوك الانسانى الذى يصدر عن عقل درّاك وإرادة حرة ..)[1] .

ونضيف إليه التعريف بالمثل العليا لأنها السماء التى يدور فى فلكها علم الاخلاق . (فان المثل العليا فى الاخلاق انسانية او ينبغى أن تكون إنسانية عامة لا يحدها زمان و لامكان ، ومطلقة غير مشروطة بنتائجها وآثارها) [2] .

وقد تأرجحت أشهر المذاهب فى العصر الحديث بين النفعية اللذية (بنْ بانجلترا) والعملية البرجماتية (وليم جيمس بأمريكا) ، وبين المثالية كأخلاق الضمير(باطلر) وأخلاق الواجب (كانت) ، وغيرها من المذاهب المتطاحنة ، فصورّها جوستاف لوبون (بالفوضى العميقة) ناقلاً وصف مونتييه (وإليك أيضاً الأخلاق التلذذية والأخلاق النفعية .. وإليك .. وإليك فالأمر هو "ضوضاء أدمغة ") [3] .

---

(1) ص ٢١ من مقدمة كتاب (المجمل فى تاريخ الأخلاق ، سدجويك ، بقلم د/ توفيق الطويل - دار نشر الثقافة بالاسكندرية سنة ١٩٤٩م.

(2) نفسه ص ٣٥ وشذ عن هذا التعريف المذهب الاجتماعى من وضع دوركايم وأوجست كونت إذ هبطا بقيم الأخلاق العليا المطلقة ، وزعما انها مجرد (عادات اجتماعية) وأطلقا على علم الأخلاق (علم العادات الاجتماعية).

(3) حياة الحقائق ، جوستاف لوبون ص ١٠٨.

وهنا يتضح للدارس المستوعب لآراء الدكتور دراز أنه تفوّق على أقرانه من العلماء والفلاسفة فان كان علم وظائف الأعضاء والتشريح يُعنى بالبدن ، فان علم الاخلاق - وفق نظرة عالمنا الكبير - قد وسّع دائرته وطوّع قضاياه ووصفها في مجموعة متماسكة تشمل تشريح العقل والقلب والنفس والإرادة الإنسانية ، جاعلاً من معرفتنا بها أدوات ضرورية لتنمية قدراتنا للسيطرة الواعية على سلوكنا ومقاومة الانسياب التلقائي لصدى الأحداث والتجارب والابتلاءات التي نمر بها طوال حياتنا !

وإلا فتأمل معي بعض كلماته وهو يكتب بحرارة (.. أعكف على الفضائل بدافع من رغبتي في اكتساب الصفات النفسية المتينة ، نقاء قلبي ونور عقلي وقوة إرادتي..) [1] .

ولعل من أبرز الحقائق التي أراد المؤلف منا أن نعيها معه لنفيد منها ، ان القرآن الكريم يوجّه خطابه الى الانسان الحي الواقعي بفضائله ورذائله ، بقوته وضعفه ، محيطا بكل ما يكتنف حياته من صعاب وعراقيل تعوقه عن تحقيق الحياة الفاضلة ، وفي مقدمتها الصراع بين هواتف الشيطان ونوازع النفس الأمارة بالسوء ، وبين الروح العلوية التي نُفخت فيه فجعلته يتطلع الى الارتقاء الروحي والسمو الأخلاقي ، وكأنه يود التخلّص من الهيكل الجسماني الذي يحبسه عن الانطلاق وراء اللا نهائي .

ويحسب تعريفه عن الانسان - ككائن أخلاقي - (كما أنه ناقص فهو في نفس الوقت قابل لاكتساب الكمال عن طريق الجهد الوارد في تعريف الايمان ذاته بقوله تعالى ﴿إنما المؤمنون[2] الذين آمنوا .. وجاهدوا .. أولئك هم الصادقون - الحجرات ١٢ ﴾ ويتابع فكرة التدرج في التقديرات الأخلاقية في القرآن الكريم بدءاً من طلب فعل (الخير) دون زيادة الى الترقي لبلوغ مستوى الكمال الى مالا نهاية .. متمثلاً في التضحية بكل شئ نفيس - حتى النفس- من اجل القيمة العليا الأغلى من الحياة حيث حققه الصحابة - كأوّل تطبيق في حياة الأمة - في موقعة بدر الكبرى .

كذلك نجد الحل لمشكلاتنا الحالية المعقدة وفي بؤرتها - الأزمة الخلقية - نجده في نداء الدكتور دراز بكتابه منذ نحو نصف قرن ، إذ يبرهن عن توافق الأعمال مع الشرع ، ومؤكداً أن الاخلاق هي روح الشريعة التي من دواعي الفخر بها انها تقيم مجتمعاً سعيداً وقوياً ومتضامناً ، فالإسلام وسط واعتدال بين شريعة الخوف وشريعة الحب .

---

[1] أنظر الفصل الرابع - (النية والدوافع).

[2] الفصل الخامس - (الجهد).

وما أبرعه عندما يدمج بوعى وعلم قائم على البرهان ، يدمج شرط (الأخلاقية) بالايمان ، ويعرفه بأن (يقبل المرء مختاراً جميع أوامر الشريعة بخضوع وبلا تردد) (النساء ٦٥) [١]

ثم يكتب هذا التوجيه الذى يستحق بان يُكتب بأحرف من نور (وخلاصة القول فان فكرة طاعة الله عز وجل لا تخلو من الاعتقاد بأن أوامره هى أحكم الوسائل لتحقيق أعظم الخير للإنسانية وللكون كله)[٢] .

هذا هو التقويم الأولى للكتاب حاولت فيه جاهداً الالتزام بالموضوعية ، ثم طغى علىّ الانفعال الوجدانى الشخصى فأحببت إضافته أيضاً استكمالا للتعريف بالكتاب ، لأنه يتضمن جاذبية خاصة كاالمغناطيس ، تشدك اليه ، وتغمرك عند قراءته دوافع قوية للعمل بإرشاداته المخلصة.

لاتفسيرلهذه الجاذبية إلا روح الايمان والإخلاص لمؤلفه الذى يرسم لك لوحات جميلة بفصول الكتاب - بالنص والعقل والعاطفة - بما يمتعك ويسحرك فتنقاد معه برفق الى الروح الشفافة لإنسان عاشق للحق والخير والعدل ، ويريدها لبنى آدم جميعا .

اللهم اجزه عن الاسلام والمسلمين والانسانية خيرالجزاء

***

ويعرض فى الفصل الاول - الالزام - ان القرآن يتوجه الى النفس الانسانية باكملها، ويقدم اليها غذاء كاملا يستمد منه العقل والقلب نصيبا متساويا . إذ ان التمييز بين الخير والشرإلهام داخلى مركوز فى النفس الانسانية .

وحدد منهجه بعرض نظريات المدارس الاسلامية المشهورة ، وقارن نظام الاخلاق فى القرآن ببعض النظريات الغربية .

ويحثنا القرآن الكريم على ان نوجه أنظارنا الى السماء ، ونحن نستند على قواعد صلبة من الواقع. وهكذا يلتقى طرفا الخيط : صعود نحو المثل الاعلى وحفاظ على الفطرة ، خضوع للقانون وحرية للذات . علما بان الانسان مركب من علاقا ت متعددة - منها الحيوية والاسرية والاجتماعية والانسالية والربانية - وهى مؤهلة للتقدم بغير اهمال احداها على حساب الأخرى .

---

[٢٠١] أنظر الفصل الرابع - (النية والدوافع).

ولعل اهم ما يلفت اليه النظر فى هذا الفصل ان القرآن الكريم يعنى عناية فائقة بربط كل تعليم من تعاليمه بالقيمة الاخلاقية التى يتأسس عليها .

***

الفصل الثانى – عن المسئولية :

قسم المسئولية الى ثلاثة اقسام : المسئولية الدينية ، والمسئولية الاجتماعية ، والمسئولية الاخلاقية الخالصة ، ذكرها القرآن فى آية واحدة بنفس الترتيب ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون – الانفال ٢٧ ﴾.

وبعد استبعاد القرآن الكريم لخطيئة آدم عليه السلام ، يقرر المسئولية الفردية لكل انسان – مستبعدا كل مسئولية موروثة او اجتماعية بمعناها الحقيقى . وبعد مناقشات مستفيضة لدعاة الحتمية ، ومعارضيهم فى الفلسفة الغربية منتقلاً الى بحث قضية القضاء والقدر بين المعتزلة واهل السنة والجماعة. يبين كيف حسم القرآن الكريم القضية بقوله تعالى ﴿ إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم- الرعد ١١ ﴾ مفسراً هذه الآية بان الله تعالى لا يفعل ذلك بمبادرة منه ، وإنما يجريه كاجراء مقابل ، وردّ على شئ من جانبنا .

***

الفصل الثالث – عن الجزاء :

يقسم انواع الجزءات الى اخلاقى وقانونى وإلهى ويقصد بالجزاء الاخلاقى تحقيق الشعور الداخلى بالمتعة أو الألم .. بشرط تدخل الجهد ويقدم التوبة ويبين ثراءها فى الإسلام إذ أن التوبة من خصائص الأخلاق الاسلامية ، لا تعرفها المذاهب الاخلاقية الاخرى- حتى المثالية منها – فيعرفها الدكتور دراز بأنها واجب جديد – فوق مستوى الندم – يفرضه علينا الشرع عن اى تقصير فى الواجب .. ووظيفة التوبة وظيفة إصلاحية فى الأخلاق الإسلامية ، ودورها العدول السريع عن الذنب ثم إصلاح الماضى والتخطيط لمستقبل أفضل .. مع تكرار جهودنا بلا يأس – من أجل الإصلاح .. مشبهاً الشرع بسلّم درجاته على الارض ، يعدُ من يريدون الصعود ان يرفعهم الى السماء.

وبعد بيان محاسن الفضيلة وقبح الرذيلة، يشرح تفاصيل النظام العقابى فىالتشريع الاسلامى الذى يميز بين طبقتين مختلفتين "الحدود" التى حددها الشرع بدقة وصرامة ، " والتعزيرات " التى تركها لتقدير القاضى .

ويحسم المؤلف قضية ما يسميه بالضمير الاوروبى الذى ينزعج من إجراءات النظام العقابى فى التشريع الإسلامى لعلاج الاضطراب فى سلوك الانسان . مبينا ان الأمة الاسلامية

لم تكن تنقصها الرأفة والرحمة الانسانية ، ولكنها كانت تتجاوزهما بروح النظام والطاعة لحكم الله تعالى .. مدعما رأيه باحصائيات الجرائم ومبيناً آثار تطبيق الشريعة وآثار القانون الوضعى .. التى تثبت ان القسوة فى حقيقتها هى قسوة نظرية، فمن الناحية العملية كلما كانت العقوبة اشد ، كلما قلت فرص تطبيقها والعكس صحيح ... فالحقيقة أنه – ليس الشرع – وإنما هوالفرد فى نهاية الأمر هو الذى يكون قاسياً على نفسه ومفرطاً فى حق انسانيته .

ويمضى المؤلف مع آيات القرآن الحكيم ليعرضها بمنهج إحصائى مذهل – يعكس مدى ماكابده من عناء (قبل ظهور الكمبيوتر) – ويبوبها بطريقة مبتكرة ليجمع الآيات القرآنية الشاملة للوصايا الايجابية والمحاسن الاخلاقية والفضائل والمحرمات .. والجزاء الإلهى فى الحياة العاجلة وفى الحياة الآخرة للعقوبات المعنوية والمادية .. وهو حصر غير مسبوق ، لم يترك شاردة أو واردة إلا سجّلها فيستخلص منها المعنى ويضعه فى الصدارة فيلفتك إلى لون من التفسير المؤثر الذى ينفذ إلى القلب والوجدان و يُعَدُّ من جوامع الكلم .. وذلك بعد عرض موضوعى للعقوبات والجوائز فى (الكتاب المقدس) ، يوضح للقارئ كيف ان النظرية اليهودية ونقيضها النظرية المسيحية ، تتصالحان داخل دعوة القرآن فى توافق وانسجام ..

ويطالب فى النهاية المربى الناجح ان يلجأ الى اسلوب القرآن الكريم الذى يذكرنا دائماً بالنتائج الطبيعية المترتبة على سلوكنا .. ناقداً الاخلاق العلمانية .. ومفضلاً – بناء على الدراسة الاحصائية التحليلية – الاخلاق القرآنية التى تتجاوزها بشكل قاطع . ويغلق باب الجدل أمام الأخلاق العلمانية ..

***

الفصل الرابع – النية والدوافع :

بعد عرض عميق ومتابعة دقيقة ، يحثنا على التنقيب داخل انفسنا مع مداومة الحرص على تصحيح النية والسلوك معاً ، مع إعطاء القيمة للنية .. ويحسم الامر بقوله ان النية خير، والعمل القائم على النية الحسنة خير اكبر ، لأنه العمل الاخلاقى المتكامل .

كما ناقش النظام الاخلاقى العقلانى – مثل اخلاق قدماء الاغريق والرواقيين .. و" كانت " فى العصر الحديث – باعتباره ممثلا للاتجاه المتشدد فى الاخلاق العقلانية ، لأنه يرى فى الواجب قانونا شكليا للعقل .. والانسان العقلانى يخضع للحكم من حيث طابعه الآمر فقط .. أما الذى يطيع الأمر وهو مدرك تمام عدله ومعقوليته، فانه يشعر تجاه الشرع بقدر

عظيم من الاعجاب والاحترام معاً. ثم يصدر حكمه على "كانت" بانه قلد وجهة نظرالاخلاق الدينية بعد ان جردها من مادتها الحيوية .

ثم عرض آراء الاخلاقيين الاسلاميين، وضرب الامثلة التى تتباين فيها القيمة الاخلاقية تباين الليل والنهار واستخلص حقيقة الاخلاق الاسلامية .. ، وأوضح انها لا تستهدف فقط إقامة العدالة فى الدنيا ، وانما كذلك سمو اشخاصنا .. والارتفاع بها فوق المنافع الارضية والحياة الحيوانية ... وان الغاية العامة المقصودة من الشرع الاسلامى هى صحة النفس .. فان تقوى الله تعالى تتركز حولها تقريبا جميع الاحكام القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة...

***

الفصل الخامس – الجهد:

يوضح المؤلف ان القرآن الكريم يرشدنا ان الانسان كائن اخلاقى ، ناقص ولكنه – عن طريق العمل – قابل لاكتساب الكمال .. ويعرف المؤلف العمل بانه جهاد بقوة وإصرار.

وقد التقط المؤلف كلمات "الجهد والجهاد" من القرآن الكريم مقترنة بالأمر الإلهى فى الآيات الآمرة بالعمل "الفعال " ، مصوراً ما يكابده الانسان فى الحياة ، متحملاً المسئولية لتحقيق ما اسماه " الابداع الخيّر " اى أن يبدع اعمال الخير ما استطاع الى ذلك سبيلا .. ومهما قابله من عقبات .. كما انه ميّز بين جهد المدافعة التى يعارض بها الميول السيئة ، وجهد الابداع عملاً بالآيات القرآنية المعنية بهذا الواجب العام .. باستخدام الفعل " اعملوا " بدون مفعول لاستثارة همتنا بلا تحديد.

***

أما فيما يتعلق بالقسم العملى من الكتاب وهو " دستور الأخلاق العملية فى القرآن الكريم " ، والملحق فى نهاية هذا المجلد ، فقد اتبع فيه المؤلف – رحمه الله – منهج تبويب الآيات لاحسب ترتيب السور فى القرآن وإنما بمنهج منطقى ، وكان غرضه هنا هو إبراز إعجاز النظام الأخلاقى فى أنه يغطى نشاط الإنسان كله – فرداً كان ، أم أسرة ، أم جماعة ، أم دولة حيث يجد المسلم مايشبع حاجته فى مجال الأخلاق العملية.

***

ونرى من حق الاستاذ محمد عبد العظيم علي علينا التنويه بالدور الذى قام بـه فـى تلخيص هذا السفر الضخم ، وقد عرفته عندما ترجم كتاب المستشرق الفرنسى هنرى لاووست (نظريات شيخ الاسلام ابن تيمية فى السياسة والاجتماع)[1] . كما انه له باع طويل وخبرة عميقة اكتسبها من قيامه بترجمة عدة كتب قيمة من الفرنسية الى العربية ، وقد مكنته تجاربه فى الترجمة من الوقوف على المصطلحات والمفردات الفلسفية والاخلاقية .. فضلاً عما يتميز به كباحث صبور ذى جلد على العمل العلمى الدائم ابتغاء مرضاة اللـه ، فوفق الى نقل اصل الكتاب من أرفف مكتبات المتخصصين فى الدراسات الفلسفية والاخلاقية الى عامة القراء ، وحوله باختصاره الواعى الى دليل عملى ارشادى لكل مسلم .. ليجاهد نفسه كسباً للفضائل .. وتقويةً للارادة .. ليسلك بها افضل المسالك طاعة لله عز وجل.

ولولا الحرص على الأمانة العلمية بالاحتفاظ بالعنوان الاصلى للكتاب ، لاقترحت عليه تعديل اسم الكتاب ليصبح (كيف تقتحم العقبة وتكتسب الفضائل الاخلاقية).

ونسال الله تعالى أن ينفع بهذا المختصر .. وأن يوفقنا جميعاً إلى صالح القول وخالص العمل .. والتحلى بمكارم الأخلاق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

مصطفى بن محمد حلمى

الاسكندرية فى ٢٠ ربيع الأول ١٤١٧ هـ

٥ أغسطس ١٩٩٦ م

---

[1] طبع الجزء الأول من هذا الكتاب عام ١٩٧٦ م والجزء الثانى عام ١٩٧٩م وسوف يتم نشر الطبعة الثانية لهما قريباً ان شاء الله مع الطبعة الأولى للجزء الثالث والأخير.

مقدمة المختصر

حصلت فى الستينات على النص الفرنسى لكتابى " الأخلاق فى القرآن " و "مدخل الى القرآن الكريم " من لجنة الفتاوى بالأزهر الشريف بمناسبة مشكلة عرضتها عليها ، ومن وقتها لم تفارقنى هذه الرسالة الرائعة . لأنها - بعد كتاب الله - من أحب الكتب إلى قلبى وأقربها إلى عقلى وأكثرها صحبة لى فى حياتى . ولقد كان حصولى على هذه الرسالة من اكبر نعم الله علىّ اذ فتحت أمامى عالما رحبا من الفكر والثقافة الاسلامية باللغة الفرنسية ، وهو المجال الذى كنت بدأت أطرقه لأعمل فى الترجمة فى الحقل الاسلامى .. فوجدت فيها ترجمات رائعة لأيات كثيرة وأحاديث نبوية عديدة وكمّ هائل من مصطلحات اسلامية وفلسفية وقانونية ودينية .. الخ افادتنى فى مجال الترجمة بما لم استفد به من أية دراسة ، فضلا عن اسلوب المؤلف بالفرنسية الذى يضارع أسلوب أى أديب فرنسى .

ثم شاءت الاقدار بعد ذلك أن التقيت بالأخ المرحوم/ أسعد سيد أحمد - أحد رواد النشر بالقاهرة - وكان مما تحادثنا فيه هذان الكتابان ، وكان من محاسن الصدف ان وجدته يفكر فى إعادة نشر مؤلفات عالمنا الجليل الدكتور محمد عبدالله دراز - المطبوعة باللغة العربية ونشر ترجمة لرسالة الدكتوراة .

وفى أول فرصة اتصل بى كمندوب لدار القلم بالكويت ، لأتولى ترجمة الرسالة الرئيسية " الأخلاق فى القرآن " فانطلقت فى الترجمة . وبعد شهور طلب منى انجاز ترجمة "مدخل إلى القرآن الكريم " اولاً .. فانتهيت منها بتوفيق الله فى شهر يونيو سنة ١٩٧٠ ونشرت فى نفس العام. وعدت الى ترجمة كتاب " الأخلاق فى القرآن " إلى أن ظهرت ترجمة الاستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين كاملة فطلب منى التوقف عن الترجمة لحين التوصل إلى قرار . وبعد ذلك تقرر نشر ترجمة الدكتور عبد الصبور فنشرت بعنوات " دستور الأخلاق فى القرآن " عام ١٩٧٣ .

وانشغلت بعد ذلك بأعمال كثيرة فى الترجمة ، إلى أن بلغتُ سن المعاش وبدأت اتفرغ لأحب الاعمال إلى نفسى . ولاحظت أن الاتجاه الجديد فى عالم النشر هو تلخيص الكتب الهامة وإعادة نشرها بأسلوب مبسط لإتاحة الفرصة لأكبر قطاع من القراء للاطلاع عليها والافادة ببحوثها .

وبعد تجربة لى ناجحة فى التلخيص ، خطرت لى فكرة تلخيص كتاب "دستور الاخلاق فى القرآن " و" مدخل القرآن الكريم " للاسباب الآتية :

١ - ان هذه الرسالة ثمرة جهد علامة وبحاثه من طلائع ورواد الفكر الاسلامى فى القرن العشرين ظل هذا العلم محجوباً عن قراء العربية منذ عام ١٩٤٨ حتى ظهور ترجمتى

لـ "مدخل الى القرآن الكريم " عام ١٩٧١ ، وترجمة الاستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين " دستور الأخلاق فى القرآن " عام ١٩٧٣ .

٢ - ان كتاب الأخلاق فى القرآن بمادته العلمية وتحليله ومناقشاته الاكاديمية وسعة حقل بحثه هو من الصعوبة بمكان . ثم جاء تعريبه . فلم يذلل الكثير من الصعوبات ، مما قصر قراءة الكتاب المعرب والافادة منه على المتخصصين والباحثين بل على القلة القليلة منهم[1] وظل غيرهم من قراء العربية حتى يومنا هذا ، محرومين منه ومن مادته العلمية .

٣ - ان علاقتى بالنص الفرنسى لكتاب " الأخلاق فى القرآن " علاقة قديمة ترجع لأكثر من ٣٥ عاماً . إذ سبق أن ترجمت اجزاء منه وتكررت قراءتى له مرات ومرات اعجاباً به وتعمقاً فى دراسته واستفادة من أسلوبه الفرنسى الرفيع . فضلا عن ترجمة الرسالة الفرعية "مدخل إلى القرآن " . كل ذلك يسّر لى القيام بمهمة التلخيص من اجل أن يعم النفع بنتائج هذا البحث العظيم الذى لا يزال جديداً رغم السنين التى مرت عليه .

وكان منهجى فى هذا الجهد الجديد - المستقل تماماً فى معظمه - والذى أضفته إلى أصل هذا الكتاب الهام كالأتى :

* لما كانت غاية المؤلف عرض الوجه الحقيقى للاسلام ونظام فلسفة الاخلاق فى القرآن والسنة. فقد حافظت - فى المختصر - على هذا الجانب بصورته كاملة وفى أغلب تفاصيله حتى يستفيد منه قارئ العربية مع تلخيص ما رأيت تلخيصه .

* تركزت عملية الاختصار اكثر ما يكون فى المواضع التى تتعلق بالفلسفة وتاريخها وآراء الفلاسفة والنظريات الفلسفية ، وتاريخ الفكر الفلسفى ، وكذلك تاريخ وقضايا وخلافات المدارس والمذاهب الإسلامية الى الحد الذى لا غنى عنه .

* خففت من الاستدلالات المطولة الى القدر الضرورى مع التركيز على النتائج . وكذلك بالنسبة للاستطرادات فى الموضوعات الجانبية والثانوية والفرعية . مع تبسيط عرض الأمثلة واختصارها .

---

[1] هاهو أحد علمائنا الدكتور أحمد عبد الرحمن يكتب عرضا بعنوان " اول دراسة حول الاخلاق الاسلامية فى القرآن والسنة" عن كتاب " دستور الأخلاق فى القرآن " ويقول " ان الرسالة تضخمت تضخما هائلا فبلغت الترجمة العربية ٦٨٠ ص الامر الذى جعل قراءة الكتاب أمراً مرهقاً" (جريدة الشعب ١٩٩٥/٢/٩).

* وفى كل عملى فى المختصر كان الأصل الفرنسى والكتاب المعرب ومسودات ترجمتى السابقة لاجزاء من الكتاب . كل هذا كان أمامى اثناء التلخيص.. أقرأ ثلاثتها وأخرج من القراءة بأحسن ما أجد ترجمةً وصياغةً واختصاراً . فقد كنت اراجع النص الفرنسى على الكتاب المعرب وأعيد صياغة الترجمة أو أعيد ترجمة المقطع من جديد بحسب ما كنت أرى لازما ثم أقوم باختصار الموضوع طبقاً لمنهج الاختصار المذكور. مع الالتزام التام بمضمون الاصل الفرنسى.

* وفى اعادة الصياغة كنت أتوخى اختيار أيسر العبارات وأسهل الجمل وأبسط التراكيب ، وأقصر طرق الربط بين الجمل والأفكار متلافياً كثرة الجمل الاعتراضية والألفاظ الثقيلة والصياغات القديمة والبعد عن حرفية الترجمة لتكون الجمل سهلة وسلسلة ومتدفقة ، والمعنى واضحاً لا لبس فيه ، فلا يحتاج القارئ إلى اعادة قراءة الجملة ليفهم المقصود.

* وهناك مقتطفات من كتب المؤلفين والأخلاقيين الاسلاميين كان المؤلف قد لخصها فى النص الفرنسى ، وكان المعرب قد أثبت نصها العربى الاصلى الكامل من ذات المراجع ، ونظراً لقدم اسلوب هذه النصوص فقد اكتنفها الغموض الشديد ، فآثرت ترجمة الملخص – الذى أورده المؤلف بالأصل الفرنسى – باسلوب عربى عصرى يتمشى مع اسلوب "المختصر" حرصا على وضوح المعنى ، تاركاً لمن أراد الاطلاع على النص الأصلى فرصة الرجوع الى الكتاب المعرب أو الى المراجع الاسلامية ذاتها.

* لم اثبت فى المختصر سند الأحاديث النبوية – التى أوردها المؤلف فى المتن الفرنسى بنصها العربى – باعتبار انها موثقة فى الاصل الفرنسى بمعرفة المؤلف ومنقولة مع النص المعرب. ولم اثبت كذلك من هوامش المؤلف إلا ما لا غنى عنه . فى حين أضفت بأحد الهوامش مقتبسات من "مختصر القضاء والقدر فى الكتاب والسنة " للاستاذ الدكتور فاروق دسوقى والذى قمت بتلخيصه ، وذلك تحقيقاً للفائدة فى موضوع القضاء والقدر. ولتوضيح نقاط أوجزها المؤلف فى المتن الفرنسى إيجازا شديدا ..

* اتبعت خطة مختلفة فى إثبات الآيات القرآنية فى الفصل الثالث (الجزاء) موضحة فى موضعها .

* أضفت المراجع العربية والأجنبية التى كانت قد سقطت من الأصل المعرب .

* ترجمت الفهرس التحليلى للقسمين (النظرى والعملى) طبقاً للنص الفرنسى ، بتفاصيلهما تحقيقاً للفائدة ولسهولة الرجوع إلى الموضوعات . حيث لم يثبت بالتعريب سوى عناوين الفصول الرئيسية فقط.

* صححت كثيرا من أسماء السور وأرقام الآيات وخاصة بفصل الجزاء.

* وفى كتاب "الاخلاق العملية فى القرآن " عدلت ترجمة كثير من عناوين الموضوعات التزاما بالنص الفرنسى وأضفت ترجمة عدة عناوين سقطت ربما نتيجة أخطاء مطبعية. كما اضفت أسماء السور وأرقام الآيات فى متن الكتاب فى نهاية الآيات. واختصرت عدة هوامش للمؤلف.

كم نحن فى حاجة ماسة إلى " الاخلاق " علماً وعملاً فى كل شئون حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. فضلا عن سلوك الافراد والجماعات والهيئات والحكومات ، فان إتمام مكارم الاخلاق كان الهدف الرئيسى من بعثة محمد بن عبد الله ﷺ .

وهذا الكتاب منهاج كامل - علمى وعملى - لحركة إصلاح أخلاقية ، وهو ثمرة بحوث واسعة النطاق لم تترك صغيرة ولاكبيرة تتصل بعلم الأخلاق - شرقا وغربا - فى أية ثقافة أو حضارة أو دين إلا وزنها المؤلف بميزان القرآن وعرضها عرضا أكاديمياً أميناً وبنّاءً من اجل خير الانسانية جمعاء.، وأولى الناس بالأخذ بهذا المنهج عالم العروبة والإسلام امتثالاً لأمر الله تعالى واتباعاً لسنة نبيه الكريم ﷺ ﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾

"اللهم انا نعوذ بك من ان نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لانعلمه"

محمد عبد العظيم على

الاسكندرية فى ٧ ربيع الأول ١٤١٧ هـ

٢٣ يوليو ١٩٩٦ م

مختصر مقدمة المؤلف

١ - وضع المشكلة قديماً:

نظرة سريعة على مؤلفات علم الأخلاق العام لعلماء الغرب تكفى لنلاحظ الفراغ العميق والهائل بسبب صمتهم المطبق عن علم الأخلاق فى القرآن.

إذ أن هذه المؤلفات تذكر باختصار أو بإفاضة المبادئ الأخلاقية فى نظر الوثنية الإغريقية ثم ديانتى اليهودية والمسيحية ، ثم تنقلنا فجأة إلى العصور الحديثة فى أوروبا ، متجاهلة كل مايمس النظام الأخلاقى فى الإسلام. برغم أن العطاء القرآنى فى هذا الموضوع ذو قيمة لاتقدر ، يفيد تاريخ النظريات الأخلاقية سعة وعمقاً وتناسقاً ، كما يفيد المشكلة الأخلاقية ذاتها فى حل مصاعبها الدائمة والمتجددة .. أليس فى هذا الإغفال خسارة فادحة للإنسانية؟

ولو أننا رجعنا إلى الكتب الأوروبية التى تعالج الإسلام بخاصة ، فسوف نجد أن محاولات قد تمت خلال القرن التاسع عشر من أجل استخراج المبادئ الأخلاقية من القرآن. بيد أن إطار هذه المحاولات كان فى الغالب محدوداً - إذ أغفل الجانب النظرى من المسألة فلم يحاول أحد أن يستخلص من القرآن المبادئ الأخلاقية العامة فضلاً عن صياغة قواعده العملية ، كما أن مضمونها كان بعيداً عن المطابقة الدقيقة للنظام القرآنى - ويرجع ذلك إما إلى ترجمات غير صحيحة وإما إلى تلخيص سئ ، وإما إلى السببين معاً.

مما دعانا إلى تناول الموضوع من جديد ، ومعالجته بمنهج علمى دقيق ، من أجل تصحيح هذه الأخطاء ، وملء هذه الفجوة فى المكتبة الأوروبية ، وحتى يتمكن علماء الغرب من أن يروا الوجه الحقيقى للأخلاق القرآنية.

وبالرجوع إلى مكتبتنا الإسلامية ، لاحظنا أنها عرفت نوعين من التعاليم الأخلاقية: إما نصائح عملية (هدفها تقويم أخلاق الشباب بإقناعهم بالقيمة العليا للفضيلة) وإما وصفا لطبيعة النفس وملكاتها ، وتعريفاً للفضيلة وتقسيماً لها. فهى كتب إنسانية محضة ، لم يظهر فيها النص القرآنى كلية أو ظهر بصفة ثانوية.

وهكذا لم ينهض أحد - فيما نعلم - من المسلمين أو المستشرقين حتى الآن ، باستخلاص الشريعة الأخلاقية من القرآن فى مجموعه ، وأن يعرض مبادئها ، وقواعدها فى صورة بناء متماسك مستقل عن كل مايربطه بالأنظمة الأخرى ، وتلك هى المهمة التى قصدنا هنا الاضطلاع بها فى حدود إمكانياتنا.

٢-تقسيم ومنهج:

تحت عبارة "القانون الأخلاقى" نميز بين فرعين مختلفين هما: النظرية والتطبيق. وقد كشفت لنا دراستنا للنص القرآنى عن وجود هذين الفرعين لعلم الأخلاق فى القرآن ، فى صورة بلغت فى الكمال غايته.

الجانب العملى: فى بحث حديث لنا عن الأخلاق العملية فى القرآن فى علاقتها بالأديان السابقة ، اكتشفنا ثلاث خصائص نوجزها فيما يلى:

- أن القرآن – بوصفه حافظاً لما سبقه واستمراراً له – قد تميز بذلك الامتداد الرحب الذى ضم فيه جوهر القانون الأخلاقى كله ، والذى كان متفرقاً فى تعاليم القديسين والحكماء ، الذين تباعد بعضهم عن بعض زماناً ومكاناً ، وربما لم يترك بعضهم أثراً من بعده . وهذه سمة بارزة من سمات القرآن ، وإن كانت ليست أهم سماته ولاأكثرها أصالة.
- تبدو أصالة القرآن فى الطريقة التى سلكها لتقديم تلك الدروس المتنوعة وتقريبها ، إذ صاغ تنوعها فى وحدة ، وساقها على اختلافها فى إطار من الاتفاق. ذلك أنه نزع عن الشرائع كل ماكان إفراطاً وتفريطاً ، وحقق وضع التعادل فى ميزانها ، ثم دفعها جميعاً فى اتجاه واحد ، ونفخ فيها من روح واحدة ، بحيث صار واجباً أن ينسب عن حق مجموع هذه الأخلاق إلى القرآن الكريم.
- وأعجب وأعظم أصالة هو جانبه الخلاّق. إذ رفع القرآن ذلك البناء القديم وجمله ، ثم ضم إليه فصولاً كاملة الجِدّة ، رائعة التقدم ، ختمت العمل الأخلاقى إلى الأبد[1]

وفى نهاية هذا الكتاب عالجنا " أحكام الأخلاق العملية " فى ذاتها وفى طورها النهائى ، مما يوضح رحابة النظام القرآنى وجماله ، كمنهاج كامل للحياة العملية.

وهنا اختلف منهجنا عن غيره ، فقد اكتفينا بقدر من الآيات ذى الدلالة الكافية على شتى قواعد السلوك واتبعنا فى تصنيفها نظاماً منطقياً . إذ جمعناها فى فصول بحسب نوع العلاقة التى تنظمها القاعدة وجعلنا داخل كل طائفة عدة مجموعات صغيرة تحت عناوين فرعية (تعامل الإنسان مع نفسه ومع أسرته ومع الناس ، علاقة الحاكم بالمحكوم ، العلاقة بين الدول والمجتمعات ، كيفية عبادة الله ... إلخ).

---

(١) انظر كتابنا " مدخل إلى القرآن الكريم" الباب الثانى – الفصل الثانى حيث تجد أمثلة عديدة عن هذه الجوانب الثلاثة: إجمال لما سبق ـ وتوفيق وإكمال. (المؤلف)

وهذا الطابع الإجمالى يجد مايكمله فى طابع آخر ، ذلك أن القرآن يقدم لنا أُطُراً لكل مجال على هيئة دوائر مشتركة المركز ، كل دائرة منها قابلة للاتساع والانكماش فى توافق مع المجموع. وقد تتداخل هذه الدوائر ، دون ان تطغى إحداها على الأخرى.

ولقد استطاع القرآن أن يحقق ذلك ، حيث تخير لبيان قواعده صيغاً ذات قالب فريد تقف دائماً فى منتصف الطريق بين المجرد (غامضه ومبهمه) ، وبين المحسوس المفرط فى الشكلية. وجعل الأطر التى يبنيها صارمة ومرنة فى آن واحد.

فنجد وضوح القاعدة يقيم حاجزاً أمام الفوضى واتباع الهوى ، بينما عدم التحديد يتيح للفرد حرية اختيار الشكل المناسب لمثله الأعلى ، ذلك الشكل الذى يوفق بين الواجب العاجل وبين مقتضيات القانون الأخلاقى الأخرى .. فهما أمران : تكييف ومواءمة ، يتحققان بواسطة جهد عاقل. وبهذا بلغت الشريعة القرآنية كمالاً لايتحقق لغيرها : لطف فى حزم ، وتقدم فى ثبات ، و تنوع فى وحدة. كما أتاحت هذه الشريعة للنفس الإنسانية أن تحقق راحة مزدوجة تجمع بين النقيضين: خضوع مع الحرية ، ويسر مع المجاهدة ، ومبادرة مع الاستمرار.

وهذه الحكمة البالغة لم يفهمها الكثير حين عاب البعض على الإسلام أنه لم يحدد أسلوب استشارة الشعب فى القضايا العامة ، ولاشكل الدولة المسلمة (جمهورية أم ملكية؟) ، وطريقة اختيار رئيسها ... وهذا الاهتمام المفرط فى التحديد القانونى قد نراه لدى الذين يضعون القانون (مما يؤدى إلى جعل الحياة رتيبة لاتطاق وأفراد المجتمع نسخاً متكررة لنموذج آلى واحد) ، كما قد نجده لدى المحكومين أنفسهم (ويكون فى هذا تنازلاً كاملاً عن شخصيتهم).

والقرآن لايتبع هذا الاتجاه ولاذاك ، وإنما يختار الموقف الوسط. والواقعة التالية توضح ذلك:

"فعن أبى هريرة ﷺ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: ياأيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج ، فحجوا. فقال رجل: أكل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول الله ﷺ : لو قلت : نعم لوجبت ، ولما استطعتم ؛ ثم قال : ذرونى ماتركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشئ فأتوا منه مااستطعتم ، وإذا نهيتكم عن شئ فدعوه" . وفى رواية أخرى أكثر وضوحاً " قال: إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها ، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم ، غير نسيان ، فلا تبحثوا عنها".

ويذكر ابن حيّان أن الآية التالية نزلت فى ظروف مشابهة ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبدَ لكم تسؤكم. وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدَ لكم ، عفا الله عنها ، والله غفور حليم. قد سألها قوم من قبلكم ثم اصبحوا بها كافرين - المائدة ١٠١-١٠٢﴾ .

هذا الإجراء في القواعد القرآنية اتخذ عن عمد للحد من المبالغة فى السؤال : كيف؟ وكم؟ حتى يتسنى لكل فرد أن يستخدم قدراته العقلية والجسمية والخلقية ، بطريقة تختلف عن غيره.

الجانب النظرى :

هل القرآن كتاب نظرى؟ أو هل يمكن أن نجد فيه مايُلتمس فى المؤلفات والأعمال الفلسفية؟.

إن القرآن ليس عملاً فلسفياً - بمعنى أنه ليس ثمرة فلسفة - كما أنه لايستخدم طرق الاكتساب الفلسفى ، ولايتبع وسائل التعليم التى يتبعها الفلاسفة ، أى طرائق المنهج العقلى التى تقوم على " التعريف ، التقسيم ، والبرهنة ، والاعتراضات ، والإجابات". وهى أمور تؤثر على الجانب العقلى فقط من الإنسان . على حين أن للقرآن منهجه الفريد إذ أنه يتوجه إلى النفس الإنسانية بأكملها ، ويقدم إليها غذاء كاملاً ، يستمد منه العقل والقلب نصيباً متساوياً ، فى ضوء الوحى الذى يغمر النفس دون بحث أو تردد ، ويقدم لها جملة من المعارف ، لاتسبق فيها المقدمات النتائج ..

وهكذا يختلف التعليم القرآنى عن التعليم الفلسفى ، سواء فى المصادر أو فى المناهج .. فهل يفترقان أيضاً فى الموضوع وفى الغاية؟

إن القول بهذا معناه أننا نقرر - بعلم أو بغير علم - أن االقرآن ليس كتاب دين. ذلك أنه مهما تكن الفروق بين الفلسفة والدين ، فإن للفلسفة فى جانبها الأسمى ، وللدين فى جميع أشكاله ، موضوعاً مشتركاً هو : حل مشكلة الوجود (أصله ومصيره) ، وتحديد السلوك الأمثل ، وتحصيل السعادة.

إن القرآن حين يعرض نظريته عن الحق وعن الفضيلة ، لايكتفى بإثارة الذوق السليم ، وبالحث على التفكير والتأمل ، بل إنه يتولى بنفسه التدليل على مايقدم ، وإن الطريقة التى يسوق بها الدليل لتفحم أعظم الفلاسفة ، وأشد المناطقة ، كما تلبى أكثر المطالب واقعية ، وترضى أرقى الأذواق ، وأبسط المدارك.

فلايكفى أن نقول إن القران لاينكر الفلسفة الحقه ولايكفى أن نقول إنه يوافقها ويشجعها ويرتضى بحثها المنصف ، بل نضيف انه يمدها بمادة غزيرة فى الموضوعات وفى الاستدلالات.

وهو لايقدم لنا هذه الحقائق الأساسية مجتمعة فى نظام موحد. ولكن إذا لم يكن هذا النظام الموحد موجوداً ، أفلا توجد فى القرآن جميع العناصر الضرورية والكافية لبنائه؟ اصل الإنسان ، ومصيره ، واصل العالم ومصيره ، ومبادئ السبب والغاية ، وأفكار عن النفس الإنسانية ، وعن الله .. إلخ. وهو موضوع يستحق أن تخصص له دراسة مستقلة.

***

أما هنا فإننا سنركز اهتمامنا على المجال الأخلاقى ، واضعين كل مسألة فى المصطلحات التى تصاغ بها لدى الأخلاقيين المحدثين. ومتخذين من القرآن نقطة انطلاق بحيث نرجع مباشرة إلى نصه لنستخرج منه الإجابة عن كل مسألة. وهنا تكمن الصعوبة إذ أن الآيات المتعلقة بالنظرية الأخلاقية ليست بالكثرة والوضوح اللذين تتميز بهما الأحكام العملية.

فأما أن القرآن قد تحدث عن أسس النظرية الأخلاقية ، فإننا نقول إن القرآن لم يكتف بأن سنّ قاعدة السلوك على وجه أكثر شمولاً وتفصيلاً – وهو مالم يفعله أى نهج عملى آخر – وإنما أرسى تحت هذا البناء الضخم قواعد من المعرفة النظرية أعظم متانة وأشد صلابة. فإذا طرحت عليه السؤال:

على أى أساس ترتكز شريعة الواجب القرآنى؟ ومن أى مصدر تستلهم سلطانها؟

يجيبك بأن التمييز بين الخير والشر إلهام داخلى مركوز فى النفس الإنسانية ، قبل أن يكون شرعة سماوية. وبأن الفضيلة تستمد نفوذها من طبيعتها الخاصة ومن قيمتها الذاتية. وبأن العقل والوحى نور هاد مزدوج لموضوع واحد ، وترجمة مزدوجة لواقع واحد تمتد جذوره فى إعماق الأشياء..

واسأل القرآن عن صفات هذ الشريعة وعن مدى سلطانها؟

يجيبك بأنها شريعة عامة وخالدة ، تكفل للبشرية مطامحها المشروعة ، فى حين تعترض على نزواتها الجامحة ...

وهكذا تجد لكل سؤال إجابة واضحة وإيجابية.. وحكماً محدداً وقاطعاً ، يفرض نفسه كإجابة فريدة ، تؤلف بين أكثر المشاعر والضمائر يقظة ، وأشد العقول عمقاً واتزاناً.

والذى استولى على إعجابنا هو هذا التباين المذهل بين نهج القرآن الذى يقدم به إجاباته ، وطريقة غيره .. فعلى حين أن حقائق الأخلاق الأساسية قد أعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرنا ، نجد أن مجتهدى المفكرين ممن يبحثون عن هذه الحقائق بعيداً عن هداية القرآن يصدرون دائماً عن تردد وارتياب ، ولايصلون إلى فتات منها إلا على فترات متباعدة ، وبعد وقوعهم فى أخطاء فادحة.

٣-دراسة مقارنة:

كان تخطيطنا لهذه الدراسة فى مبدأ الأمر أن تقتصر على عرض القانون الأخلاقى المستمد من القرآن ، وربما من تعاليم النبى ﷺ .

غير أن الأستاذ لويس ماسنيون – الأستاذ بالكوليج دى فرانس والدراسات العليا بباريس – قد أبدى رغبته فى ان نتناول بعض نظريات المدارس الإسلامية المشهورة ، ووضع تحت تصرفنا مؤلفات مكتبته النفيسة .. كما أن الأستاذ رنيه لوسن – الأستاذ بكلية الآداب جامعة باريس – قد اقترح علينا ان نقارن النظرية الأخلاقية القرآنية ببعض النظريات الغربية ...

وقد استجبنا لذلك عن رضا وطيب خاطر ، مما جعل دراستنا أوسع مدى وأكبر حجماً. واصبح عملنا يشبه همزة الوصل ، تلتقى فيه الأفكار الأخلاقية من الشرق بنظيرتها من الغرب ، فى مقارنة محايدة ، بعيدة عن كل فكر مسبق ، وعن أى تعصب مذهبى. رائدها الوحيد الاحتكام إلى العقل السليم مؤيداً بأوثق الأسانيد وأقوى الأدلة.

تُرى هل يؤدى هذا التقريب بين الثقافات إلى تفاهم عملى أرحب ، بحيث تتجمع القلوب الواعية من هنا وهناك ، وتمتد الأيدى بالمصافحة لخير الإنسانية ،،

نأمل .. والله الموفق ..

محمد عبد الله دراز

باريس فى ٨ يونيو ١٩٤٧

الكتاب الأول

القسم النظرى

النظرية الأخلاقية

كما تنبع من القرآن الكريم

مقارنة

بالنظريات الأخلاقية القديمة والحديثة

* * *

الفصل الأول

الإلزام

أى مذهب أخلاقى جدير بهذا الإسم ، لابد له أن يستند على فكرة الإلزام ، لأنها الأساس الجوهرى والمحور الذى يدور حوله النظام الأخلاقى كله. وغياب فكرة الإلزام يؤدى إلى انعدام روح الحكمة العملية ومادتها. لأنــه إذا انعدم الالـزام انتفت المسئولية ، وبانتفاء المسئولية لاتتحقق العدالة ، بـل يسـود الاضطـراب والفسـاد والفوضـى – لا مـن الناحية الواقعية فحسب – ولكن من الناحية القانونية ، وبموجب هذا المبدأ الأخلاقى ذاته.

من هذا نرى إلى اين يريـد أن يـزج بنـا بعـض فلاسـفة الأخـلاق المحدثيـن.. إذ كيف يمكن أن نتصور " قاعدة أخلاقية" بدون " إلزام" . أليس فى ذلك تناقض صارخ....؟

إن الفضيلة – بالإضافة إلى جمالهـا الذاتـى – " مؤثـرة" و "محركـة" بطبيعتهـا ، تدفعنا إلى العمل لكى نجعل منها حقيقــة فعليـة. لأن الخـير الأخلاقـى يتمـيز بتلـك السـلطة الآمرة تجاه الجميع ، وبتلك الضرورة التى يشعر بها كل إنسان بوجوب تنفيذ نفس الأمر ، مهما كانت حالته الشعورية ، مما يجعل مخالفة ذلك بغيضة ومستهجنة.

وسوف نرى كيف يعرض القرآن الكريم هذه الضـرورة التـى أطلـق عليهـا إسـم "أمر" و "كتابة" و "فريضة" .

١ – مصادر الإلزام الأخلاقى:

ذكر الفيلسوف الفرنسى برجسون مصدرين للإلزام الأخلاقى همـا: قـوة الضغـط الاجتماعى ، وقوة الجذب بمعناها الإنسانى الشامل أى ذى النفحة الإلهية.

وأوضح أنه فى حين أن أخلاق الكافة أثر ناشئ عـن الضغـط الاجتمـاعى ، فـإن أخلاق الصفوة الممتازة انطلاق نحـو المثـل الأعلـى. إنهـا قـوة دافعـة مـن الحـب الخـلاق لاتوجه سلوك الفرد وحده إلى وجهة أسمى فحسب وإنما ايضـاً إلـى جـذب المجتمـع معـه وقيادته ، بدلاً من أن يستسلم هو لضغط المجتمع.

والحق أن الأخلاقية الحقيقية لاوجود لها فى حالتى برجسـون .. فمتـى مـاأصبح الإلزام شبه غريـزى ، انتفت صفـة الأخلاقيـة ، كمـا أن تلقائيـة الحـب نقيـض الإلـزام .. فالإنسان فى نظر برجسون يشبه لعبة فى يد إحدى القوى: فهو إما مدفوع بالغريزة ، وإما محمول بالعاطفة ، ولكنه ليس شخصية مستقلة قـادرة علـى المقارنـة والتقدير والاختيـار.

وهذا لايكفى لتحقيق الصفة الأخلاقية ، وإنما يجب أن يجتمع هذان العنصران فى ضمير الفرد ، ثم يخرجان فى ثوب جديد قائم على مبدأ قانونى ، يؤيدهما ويوجبهما " العقل" .

ولهذا نجد القرآن يقف دائماً ضد عدوين قديمين للسلوك الأخلاقى : اتباع الهوى ﴿ ولاتتبع الهوى فيضلك – ص ٢٦ ﴾ ، ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا – المائدة ١٣٥﴾ ، والانقياد الأعمى ﴿ قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون – الزخرف ٢٢-٢٣﴾ فهل الذين يريدون اقتفاء أثر أسلافهم بلا تمييز ، يرضون لأنفسهم ذلك حتى ولو ﴿ كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون – البقرة ١٧٠﴾ ؟ ..

ففي الفرد إذن عنصر عقلى (أى أخلاقى) ، وفى الحكم الأخلاقى هناك العقل والحرية والمشروعية. وهى عناصر أغفلها برجسون فى تحليله فشابه نقص خطير.

ولقد أحسن الفيلسوف " كانت" حين أكد انه اكتشف مصدر الإلزام الأخلاقى فى تلك الملكة العليا فى النفس الإنسانية ، والتى توجد مستقلة عن الهوى وعن العالم الخارجى فى آن واحد.

والقرآن يعلمنا أن النفس الانسانية قد تلقت فى تكوينها الأول الاحساس بالخير وبالشر ﴿ فألهمها فجورها وتقواها – الشمس ٨﴾ وأنها مزودة ببصيرة اخلاقية ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره – القيامة ١٤﴾ وأنه هُدى طريقى الفضيلة والرذيلة ﴿ ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين – البلد ٨-١٠﴾ حقا ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء – يوسف ٥٣﴾ ولكن الإنسان قادر على أن يحكم هواه ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى – النازعات ٤٠﴾ وإذا لم تكن هذه السيطرة على النفس لدى كل الناس ، فإن من عباد الله من يتمتعون بها بتوفيق من الله. وهذا ماقرره رسول الله ﷺ فى قوله " إذا أراد الله بعبد خيراً ، جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه" .

ففى الإنسان إذن قوة باطنة لاتقتصر على نصحه وإرشاده وإنما توجه إليه بالمعنى الصحيح " أوامر" بأن يفعل أولايفعل. فماذا تكون هذه السلطة إن لم تكن هذا الجانب المنير من النفس .. ألا وهو العقل؟ وهذا ماعبر عنه القرآن حين صور حال الكافرين بين أمرين فقال تعالى ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا؟ أم هم قوم طاغون؟ – الطور ٣٢﴾ .إذن ليس وراء حكم العقل وقيادته قاعدة أخرى للسلوك لأنه السلطة الشرعية الوحيدة.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول مع " كانت" أننا "مشرعون ورعايا" فى آن واحد .. وتأنيب الضمير تأكيد لهذه الثنائية .. لأننا إذا قصرنا فى واجب نشعر اننا هبطنا

عن المستوى اللائق بنا ، أى اننا نقر ضمنا بأننا مخلوقات نبيلة قد زلـت. والقرآن لايألو جهداً فى ان يوقظ ويغرس فينا الشعور بهذه الكرامة الأصيلة. فالله أكـرم بنـى آدم وبسط سلطانهم فى البر والبحر .. بل ﴿**وفضلناهم على كثير ممـن خلقنـا تفضيـلاً – الاسراء ٧٠**﴾ وإذا نظرنـا مـن حيث القيمـة الأخلاقيـة للإنسـان يتضـح لنـا أن القرآن لايعتـبر الطبيعـة الإنسانية شريرة بالفطرة ، ولافاسدة فساداً لايرجى صلاحه. بل على العكس إنه يقرر أن الإنسـان مخلـوق ﴿ **فى أحسن تقويـم – التيـن ٤** ﴾ ، وان الذيـن لايؤمنـون ولايعملـون الصالحات يوصفون بالطيش وعدم الاستقرار ﴿ **ان الانسان خلق هلوعاً .. إلا .. – المعارج ١٩-٢٢** ﴾ لانهم هبطوا الى ﴿ **اسفل سافلين – التين ٥** ﴾ والهلاك ليس إلا للذين ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . اولئك كالأنعام، بل هم أضل – الاعراف ١٧٩** ﴾ .

فالمسألة إذن مسأله اختيار حر دنيوى لا علوى ، يؤدى الى استخدامنا الحسن او السئ لملكاتنا العليا . فالتربية " تزكيها " والاهمال " يفسدها " ﴿ **قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها – الشمس – ٩-١٠**﴾

والقرآن لا يتوقف عند ملكاتنا العليا ، بـل يعنـى عنايـة خاصـة بايقـاظ مشـاعرنا النبيلة والشرعية ، على ان تتحرك تحت رقابة العقل . انه يتوجه دائمـاً الـى ذاتنـا .. الـى هذا الجانب المنير من نفوسنا .. الى ملكاتنا القادرة على الفهـم ، وعلـى ان تقدر فـى كـل شئ ما يضر وما ينفع وتقدر القيم على اختلافها .

واذا كـان الأمـر كذلـك ، ألا يمكـن استنتاج ان الانسـان فـى غيـاب أيــة تعـاليم وضعية ، يملك الوسائل اللازمة – الذهنية منها والشعورية – التى تمكنه من التمييز بين ما يجب فعله وما يجب تجنبـه . وحينئـذ يكـون التشـريع بشـأن الخيـر والشـر مـن صميم اختصاصنا نحن ؟

طالما ان فكرة الخير والشر يمكن تعريفها عقلياً بأنهـا " صفـة كمـال او نقـص " موافقة للطبع او مخالفة "مستحقة للمدح او الذم " فان المتكلمين المسلمين لم يختلفوا على صلاحية الانسان للتشريع فى هذه الحـدود. ولكـن هـل كـل مـا نعتـبره خـيراً أو شـراً فـى نظرنا هو كذلك فى حد ذاته؟ او بمعنى آخر ، هل هو كذلك عنـد اللـه سـبحانه وتعـالى ؟ وبالتالى اتكون علينا مسئولية امام الله قبل ان نتلقـى تعاليمـة علـى لسـان رسـله ؟ هنـا .. وعلى هذه النقطة بالذات دارت خلافات المتكلمين ، وتنوعت اجاباتهم ابتداء من العقلانيين (المعتزلة والشيعة الذين يؤكدون مسئوليتنا كاملة بصفـة عامـة) الـى الأشـاعرة (الذيـن ينكرونـها انكـاراً مطلقـاً) وبينهـم الماتريديـة (الذيـن يسـلمون بهـا فـى حـدود الواجبـات

الأولية) . ولكن من لا يرى معنا ان العقلانيين قد بالغوا فى الثقة بعصمة عقل الانسان؟ اليس هناك مجال يستعصى على إدراكه ؟ .

وليس فى مقدورنا أن ننكر أن هذا النمو الفطرى ، قد يخيم عليه الهوى ، وتغلب عليه العادة فتتبدد أشعته فى اتجاهات مختلفة ، بحسب الزمان والمكان والطباع ، فنجد انه فيما عدا بعض الواجبات الأساسية التى تتفق عليها جميع النفوس السوية – سيحل محل اليقين الاخلاقى تدريجياً شتى انواع الاوهام والتردد والضلال .

رأى الفيلسوف " كانت " مدى العقبات التى تعترض طريق الاخلاق اذا اعتمدت على الضمير الفردى كمصدر فريد .. وشعر أنه لابد من اللجوء إلى سلطة عليا تفصل فى الأمر (هذه السلطة ليست المجتمع على كل حال ، لأن الموضوع يتعلق بالسلوك الاخلاقى لا بالتشريع ..) واعتقد انه وجدها فى العقل فى صورته الصافية المجردة برغم اعترافه بعجز العقل عن التوصل إلى تحديد الواجبات الإنسانية (التى يقول إن تقسيمها من اختصاص العلم لا العقل.) وسوف نرى عدم كفاية هذه السلطة فى القيام بهذه المهمة.

إذن .. الناس فى حاجة الى قاعدة صالحة للتطبيق على فطرتهم .. فأين يجدون هذا النور الذى يهدى الضمائر .. ويخلصها من الظلام .. ومن الشكوك ؟.

ليس هناك سوى إجابة واحدة تفرض نفسها . إذ لا يوجد من يعرف مادة الروح وقانون سموها وكمالها سوى خالقها .. **﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير–الملك ١٤ ﴾** فمن ذلك النور اللانهائى أقتبس نورى ، وإلى ذلك الضمير الأخلاقى المطلق أتوجه لهداية ضميرى **﴿ وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم. والله يعلم وانتم لا تعلمون – البقرة ٢١٦ ﴾** .

فبدلاً من ان نقول " العقل المحض" نقول " العقل العلوي " وبدلاً من الاستناد الى تجريد ذهنى تصورى ، نلجأ الى " الحى القيوم العليم الخبير" .. إلى " العقل الإلهى". فنور الوحى وحده هو الذى يتمم نور الفطرة ، لأن الشرع الإلهى الإيجابى هو الذى يكمل القانون الاخلاقى الفطرى المغروس فى النفوس .

وفى القرآن يسير العقل والنقل معاً جنباً إلى جنب **﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد – ق ٣٧ ﴾** . وفى قلب المؤمن نوران **﴿ نور على نور – سورة النور ٢٥ ﴾** بينما الكافر ليس له سوى نور واحد.

هل معنى ذلك أن هناك مصدرين مختلفين للإلزام الأخلاقى؟ كلا .. إنهما طبقتان لمصدر واحد .. الطبقة الأقرب الى الناس أقلهما نقاء ، اما النور المكمل فليس له

معنى أخلاقى إلا من خلال ضمير الفرد ، بشرط ان يعترف به ضمير الفرد إذن فمن يد هذا الضمير نتلقى الأمر المباشر كما أن عقلنا الإنسانى هو الذى يأمرنا بأن نخضع للعقل الإلهى .

وما المقصود بعبارة " العقل يمنح نفسه قانونه " ؟ هل معناها أن العقل يبدع قانونه ؟ ام أنه يتلقاه جاهزاً كجزء من كيانه لكى يفرضه على الإرداة ؟ فالله صانع العقل قد طبع فيه هذا القانون كفكرة فطرية لافكاك منها . لأنه قانون سابق فى وضعه على وجود العقل فاذا استنصح المرء عقله .. معنى ذلك أنه يقرأ فى كتاب فطرته الإنسانية الصافية ما سبق أن فطرها الله عليه ... وبعبارة اخرى إنه ينصت الى ذلك الصوت الإلهى الذى يتكلم داخل كل واحد منا .

واذا كان النوران – الفطرى والوحى – ينبع كل منهما من ذات المصدر الوحيد نستنتج فى النهاية أن الله هو الذى يحدد لنا واجبنا ، وإن كان على شكلين مختلفين " خفى" و " ظاهر " .

نتناول الآن الإلزام الاخلاقى فى الإسلام فى صورة قانون وضعى ..

وهنا نتساءل عما اذا كان للتشريع الإسلامى أكثر من مصدر .. حيث ينسب إليه أربعة مصادر هى :

" القرآن" وهو كلام الله عز وجل ، و " السنة " اى ما نقل عن الرسول ﷺ ، و" الإجماع" أى الحكم المجمع عليه فى الأمة ، وأخيراً " القياس " أى الحكم بطريق التناظر .

بناء على ماسبق لايكون لنا إلا سلطة تشريعية واحدة ، كما يؤكد القرآن ذلك ﴿إن الحكم إلا لله – الأنعام – ٥٧ ، ويوسف ٤٠ ﴾ ﴿ ألا له الحكم – الأنعام ٦٢ ﴾ ﴿ لا معقب لحكمه – الرعد ٤١ ﴾ وبعث الله فينا رسوله ﷺ لا ليكون مجرد خاضع لشرع الله فحسب بل ليكون أول الخاضعين ﴿ وأنا أول المسلمين – الأنعام ١٦٢ ﴾ .

فما المقصود إذن بهذا المبدأ الرباعى ؟

أولاً – القرآن :

لما كان القرآن – فى نظر المسلمين - كلام الله ذاته ، فقد استوفى تلقائياً كل الشروط. لكى يعبر عن الارادة الإلهية .

ثانياً – السنة :

يتفق جميع العلماء على ان السنة مصدر ثان عظيم الأهمية للشريعة الإسلامية بعد القرآن . ويقصد بالسنة مجموع اقوال النبى ﷺ ، وأفعاله ، وتقريراته ، وجميع مواقفه الضمنية استحساناً أو رفضاً .

وقد طلب القرآن من المؤمنين الانقياد لأوامر النبى ﷺ اذا كان ما تتضمنه هذه الاوامر وحيا صريحا او ضمنيا " إذا أمرتكم بشئ من رأيى فإنما أنا بشر ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإنى لن أكذب على الله " " أنتم أعلم بأمر دنياكم " .

وقد حدث ان عاتب القرآن النبى ﷺ فى عدة مواقف ، كما وقعت من النبى ﷺ بعض الأخطاء نتيجة النقص الطبيعى الذى يصيب انتباه الانسان أحياناً. إلا أن النبى ﷺ لا يمكن ان يستمر على رأى خاطىء ، واذا لم يصحح الخطأ بالطرق المعتادة ، فإن الوحى يتدخل حتماً ، وإلا وقعت الأمة كلها فى الخطأ. وبناء عليه فإن الأوامر والأحكام النبوية التى لم يرد بشأنها اعتراض او تصحيح من الوحى أحكام صحيحة تعتبر بحق أحكاماً إلهية نهائية.

والخلاصة أن كل حديث صحيح لم يرد ما ينسخه ، وكان موضوعه ضمن رسالة النبى ﷺ ، هو تعبير عن إرادة الله تعالى ، ويتمتع فى نظر المسلمين بنفس السلطة الأخلاقية التى للنص القرآنى. وإذا مااشتمل الحديث على تفصيلات وتحديدات أكثر مما اشتمل عليه النص القرآنى ، فالحديث يفسر القرآن ، ويحدد مداه ، ويبين مجال تطبيقه.

ثالثاً – الإجماع :

الحق أن سلطة الإجماع تستخلص من القرآن الكريم ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** – آل عمران ١١٠﴾ سواء كان المقصود الأمة المحمدية بأسرها ، أم الجيل الأول الذى شهد نزول الوحى . وآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول – النساء ٥٩** ﴾ تؤكد فى حالة النزاع وجوب الرجوع إلى السلطتين الرئيسيتين .. وبمعنى آخر أنه طالما ان الاتفاق المشترك قائم فلن يكون هناك مقتض للجوء الى معيار آخر فيما يواجه أولى الامر من ظروف .

وتؤكد السنّة أن هذا الامتياز لا يقتصر على عصر الصحابة ، بل يمتد بلا نهاية إلى جميع الأجيال المسلمة. والحديث الصحيح يقول "لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق . لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون . وفى رواية :

حتى تقوم الساعة ". إذن وجود عصبة الحق هذه يستبعد فكرة الاتفاق الإجماعى على ضلالة ، باعتبارها أمراً محالاً من الناحية العملية فى العالم الاسلامى .

وبذلك انتهى الرأى الى اعتبار الاجماع فى أى عصر سلطة عليا لا معقب لها . تحكم على نصوص القرآن والحديث ، ولايهدمها رأى سابق أو لاحق. يسلّم بذلك عامة المسلمين . فيما عدا بعض الخوارج والمعتزلة والشيعة .

ولكن كيف يمكن ان نوفق بين هذا وبين خضوع المسلم وولائه لله ولكتابه ولرسوله ؟ .. وكيف يتفق هذا مع منطق الاسلام الذى يحترم العقل والفكر الناضج حتى فى عقائده الاساسية ويرفض الانقياد الاعمى ؟

ولتوضيح ذلك نقول : بادىء ذى بدء ، ان كلمة ((اجماع)) تترجم عموماً بكلمة consensus وبكلمة consensus ominum (بمعنى اتفاق بين عدة اشخاص او عدة هيئات) ، وهى ترجمة حرفية لا تعبر عن المعنى الاسلامى .

الحقيقة انه لا ينبغى ان نتصور الاجماع على أنه تصويت جماعى ، ناتج عن استفتاء مفروض على شعب بأكمله ، أو على جميع الشعوب الإسلامية ، يشترك فيه أجهل الناس على قدم المساواة مع أعلم الناس .. أو يكون على هيئة مجمّع دينى ، أو جمعية عامة .. يجتمع أعضاؤها المعينون او المنتخبون تحت سقف واحد لمناقشة بعض المسائل العقدية أو الاقتصادية أو السياسية. فالإجماع الذى نحن بصدده لا يشبه بتاتاً أياً من هذه الأنظمة الغربية لامن حيث الموضوع ولا من حيث الشكل .

أما من حيث الموضوع ، فإن دور الإجماع هو حسم مسألة جديدة [1] ذات طابع اخلاقى او فقهى او عبادى . ولا يدخل فى اختصاصه مشاكل الشئون المعيشية ومسائل الدين الاعتقادية .

وأما من حيث الشروط التى ينبغى ان يتم على أساسها التصويت ، فإن القاعدة تركز على جوهر الموضوع ، ولا تعبأ بالشكل الخارجى ، فلا يهم ان يكون الأعضاء

---

[1] نقول " جديدة" لأن المشكلة إذا كانت قد درست من قبل فلذلك وجهان : اما أن تكون المناقشة قد انتهت الى اتفاق وإما الى اختلاف. ففى حالة الاتفاق ، لا جدوى من إعادة دراسة المشكلة بعد حلها. أما فى حالة الاختلاف فيكون للحصول على اتفاق لاحق بعض الفائدة ، ولكن الاتفاق اللاحق لا ينشئ إجماعاً مؤكداً وحاسماً ، لأن الرأى – فى نظر كثير من الأصوليين – لا يموت بموت اصحابه . (المؤلف) .

معينين بواسطة الدولة ام غير معينين ، منتخبين من قبل الشعب ام غير منتخبين ، مجتمعين فى جلسة عامة أم متفرقين فى أنحاء الأرض ، المهم أن يصدر الرأى فى دقة وإحكام. وأن يكون كل عضو مدركاً لاستقلاله الأدبى ، ولمسئوليته الأخلاقية ، وأن يعبر عن رأية فى حرية ، بعد تفكير عميق فى المشكلة المعروضة .

ولا يعتبر عضوا فى هذه الجماعة إلا من توفرت فيه شروط العالم المتخصص فى المادة (أى شروط من يكون له حق الرجوع مباشرة الى المصادر ، ليستقى منها الأحكام على منهج العلماء . أى التمرس على نقد النصوص التى تحتاج إلى إثبات - معرفة اللغة فى أسلوبها الحقيقى والمجازى - إدراك الأفكار الأساسية والثانوية الملفوظة منها والملحوظة - على قدم راسخة فى تاريخ التشريع الاسلامى للمسألة - الإحاطة بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ إن وجد - التعمق فى روح الشرع وغاياته من خلال تطبيقاته فى عهد النبى ﷺ وصحابته) .

وعلى هذا يكون الإجماع وحدة اليقين الراسخ وحقيقته ، اليقين الذى تفرضه حقيقة الاشياء على كل النفوس المستنيرة ، على الرغم من تأثير الظروف الذاتية فى اختلاف الأراء الشخصية. فلو حدث فى ظروف كهذه .. أن انتهى الجهد الفردى الى نفس الحل الذى انتهت إليه جهود الآخرين . فما ذلك إلا لأن هذا الحل قد تجلى من خلال الضمائر الفردية كلها فى وضوح وصدق لا يقبلان المناقشة .

فعصمة الاجماع إذن تكمن فى الرجوع الى مجموع الوثائق القرآنية والنبوية الصحيحة ودراستها دراسة عميقة ، وبناء عليها يؤسس مفكرونا ما يصدرون من احكام .

رابعاً - القياس :

فى حين اقتصرت المدرسة الظاهرية (التفسيرية) على المصادر الثلاثة السابقة (الكتاب والسنة والإجماع) اعتمدت المذاهب الاخرى مصدراً رابعاً وأخيراً ، هو القياس - أو الحكم بطريق التناظر - مقتدية فى ذلك بالصحابة وبرأى أكثر التابعين .

والقياس يفترض بمقتضى تعريفه ، وجود حالة نموذج منصوص عنها فى القرآن أو الحديث أو الإجماع ، تقاس عليها الحالة الجديدة. أما العلاقة المشتركة بين الحالتين ، فإما ان تكون " قياس علة" أو " قياس شبه " وهو السبب الذى صدر من اجله الحكم فى الحالة النموذج .

وبناء عليه إذا كان الطابع المشترك قد عينه النص صراحة أو أقربه الإجماع على أنه سبب صدور الحكم الأصلى ، فليست هناك صعوبة حتى من قبل المدرسة

الظاهرية فى اعتبار هذا الحكم كافياً للحكم السابق . ومس ثم تعميم هذا الحكم ، وتطبيقه أينما توافرت العلة وتأكد ثبوتها .

بيد أنه فى حالة ما إذا كان لا يمكن استخراج هده العلة أو العلاقة السببية إلا بجهد دقيق – قل أو كثر – فهل يجوز اعتبار هذا الدليل – مع كل النتائج المترتبة على ذلك – داخلاً فى نطاق الشريعة الالهية؟

فى راينا ان الاجابة عن هذا السؤال ينبغى ان تكون على درجات . ولكن أليس في سكوت المدرسة الظاهرية ما يمكن اعتباره قيداً على الإسراف فى استخدام الحرية العقلية التى انساق فيها بعض الفقهاء ؟

وبعكس ذلك قطع مذهب المالكية شوطاً أبعد فى الاتجاه المتحرر . فاقتداء بالمسلمين الاوائل ، أباح الإمام مالك البرهنة القياسية ، ليس فقط عند وجود نص يحدد حل مسألة بعينها مماثلة للمشكلة المطروحة ، وإنما استناداً الى الوسائل العامة التى تعتمد عليها الشريعة في القضايا المشابهة .والتى تنبثق من مجموعها تلك الفكرة الثانية التى تقول : إن هذا النوع من المصلحة هدف جوهرى يستهدف الشرع تحقيقه بكل الوسائل الممكنة. أما الحالة الجديدة فهى وسيلة جديدة تستخدم عند اللزوم لتحقيق هذه المصلحة التى يسميها مالك " المصلحة المرسلة " وبفضل هذا المبدأ استطاع هذا الفقيه ان يجد حلاً لعدد من المشكلات الأخلاقية والتشريعية بطريقة فذة ، وإن تعارض الحل بعض الشئ مع حرفية الشريعة.[1]

---

[1] مثال ذلك : هل يجوز فى حال الحرب أن نضرب فى اتجاه جنودنا الذين أسرهم العدو واستتر خلفهم ليضربنا ويحتل أرضنا؟ أم نمتنع عن الضرب رعاية للشرع الصريح ؟ يجيب الامام مالك بالأخذ باخف الضررين. إذ لو امتنعنا عن الضرب احتراماً لهذا العدد القليل من جنودنا ، فإن أكثرية الجيش ستتعرض للهلاك ، وقد لا ينجو الأسرى من نفس المصير ، ويختتم أنه مع الاحتياط للحفاظ على رجالنا الأسرى ، لا ينبغى ان نوقف القتال ولو أصيبوا من جرائه.
ومثال آخر ذو طابع فقهى : هل للقاضى الحق فى أن يأمر بحبس متهم فى سرقة لم يجد ضده دليلاً مادياً أو شهادة أواعترافاً ؟ والشرع يمنع الإضرار بالناس فى أشخاصهم أو أموالهم أو أعراضهم ما داموا لم يستحلوا حراماً . غير أن الإمام مالك يوضح بأن المجرم من النادر أن يقر بجرمه او أن يرتكبه أمام شهود أو أن يؤخذ أثناء اقترافه. فإذا تمسكنا بحرفية الشرع سوف تبقى أكثر الجرائم بلا عقاب ، فى حين يحرص الشرع على اقرار النظام. ولهذا ترى هذه =

إذن فالغاية النهائية من كل جهود الفقهاء ، هى التوصل الى ذلك المنبع الوحيد الذى ينبغى ان يستقى منه الناس حكم الله – الذى نص عليه القرآن فى المقام الاول مباشرة ثم جاء الحديث فبينه وحدده ، ثم يأتى الإجماع ، وبعده القياس لمحاولة كشف هذا الحكم فى روح الكتاب والسنة. إذن المشرع هو الله وحده. واما المصادر الاخرى السابقة فهى مقررة لأمر الله ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

غير أن القرآن لا يقدم لنا الأمر الإلهى كسلطة مطلقة – مكتفية بذاتها كسلطة– لتكون فى نظرنا أساس سلطان الواجب على ضمائرنا ، بل إن مما يثير العبرة حقاً أن نلاحظ – على عكس ذلك – كيف ان هذا الكتاب الكريم يعنى عناية فائقة بأن يقرن كل حكم فى الشريعة بما يسوغه ، ويربط كل تعليم من تعاليمه بالقيمة الأخلاقية التى يتأسس عليها .

وهكذا نرى أن ما كنا نعتقد انه الحلقة الأخيرة فى سلسلة مصادر الالزام ، ثبت انه ليس الاخير . لان العقل الإلهى ، لا يريد أن يتمسك بالناحية الشكلية فى حكمه ، ويجعل من هذه الشكلية المبدأ الاول للإلزام الاخلاقى ، وإنما أحالنا إلى معيار آخر ، أحالنا الى جوهر الواجب ذاته ، إلى نوع العمل ، وإلى قيمته الذاتية . فبتطابق الأمر الإلهى اذن مع تلك الحقيقة الموضوعية يتحقق فى نظرنا تبرير هذا الأمر ، وبهذا التطابق يستحوز على قبولنا ، وعلى هذا القبول يقيم سلطانه الاخلاقى .

ولهذا كان على المؤمنين أن يتخذوا من العقل الإلهى أكمل مرشد أخلاقى يمكن ان يهديهم إلى هذا الجوهر. إذن المصدر الحقيقى للإلزام يكمن فى فكرة القيمة الذاتية ، إنها اعقل ما فى العقل ، وآخر مرجع للحاسة الخلقية .

ونسوق بعض الأمثلة لمنهج القرآن الكريم فى هذا الشأن :

فحين يدعونا الى قبول الصلح ، يؤيد دعوته بتلك الحكمة ﴿ والصلح خير – النساء ١٢٨﴾ ، ولكى يبرر قاعدة الحياء بغض البصر وحفظ الفرج يقول ﴿ ذلك أزكى لهم–النور٣٠﴾ وبعد أمره بتبيين الاسباب قبل إصدار أى حكم يقول ﴿ أن تصيبوا قوما

= المدرسة أنه طالما أنه قد ظهرت بداية دليل ضد المتهم ، فإنه يمكن اللجوء الى اجراءات أقل شدة ، لا لانتزاع اعتراف المتهم ، وانما لحمله على ارشادنا الى دليل واضح . (المؤلف).

بجهالة ، فتصبحوا على فعلتم نادمين – الحجرات ٦ ﴾ وحين أمرنا بكتابة ديوننا ، يفسر ﴿ ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا – البقرة ٢٨٢ ﴾

وفى توجيهه الى التماس القيم الروحية بصفة عامة ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو اعجبك كثرة الخبيث – المائدة ١٠٠ ﴾ ﴿ ولباس التقوى ، ذلك خير– الأعراف ٢٦ ﴾ ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا – البقرة ٢٦٩ ﴾ ولكى يشهدنا على الاساس الذى صدرت عنه الشريعة الإلهية ﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء – الأعراف ٢٨ ﴾ ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان – النحل ٩٠﴾.

٢– خصائص الالزام الاخلاقى :

كل قانون (مادى أو اجتماعى او منطقى... الخ) باعتباره قاعدة عامة وثابتة – لابد وأن يسرى وبلا تغيير على جميع الأفراد الخاضعين له ، بنفس القوة التى يسرى بها على الفرد الواحد فى كل الظروف مهما اختلفت. وكذلك حال قانون الواجب لا يتخلى أبداً عن خاصية الشمول والضرورة برغم أن له طابعاً خاصاً .

وفى القرآن الكريم يتجلى طابع الشمول فى القانون الأخلاقى بوضوح يقطع كل شك. لا لأن مجموع أوامره فى جملتها موجهة إلى الإنسانية قاطبة[١] فحسب ، بل إن القاعدة ذاتها – سواء كانت قاعدة عدل أم فضيلة عامة– واجبة التطبيق بلا تغيير على ذات الشخص كما على غيره [٢] وعلى الأقارب كما على الغرباء ، وعلى الأغنياء كما على الفقراء [٣] وداخل الجماعة الإسلامية وخارجها[٤] وعلى الأصدقاء والأعداء. [٥] وحتى لو لم يتضمن النص الشريعى ما يفيد التعميم ، وحتى لو كان صدور هذا التشريع

---

[١] ﴿قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً – الأعراف ١٥٨﴾ ﴿ليكون للعالمين نذيراً– الفرقان ١ ﴾.

[٢]﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم – البقرة ٤٤ ﴾ ﴿ويل للمطففين .. – المطففين ١–٣ ﴾.

[٣]﴿ .. أو الوالدين والأقربين. إن يكن غنياً أو فقيراً .. – النساء ١٣٥ ﴾.

[٤]﴿ قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ... بلى ، من أوفى بعهده واتقى .. – آل عمران ٧٥– ٧٦ ﴾.

[٥]﴿ ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ... – المائدة ٢ و ٨ ﴾.

بمناسبة ظرف فردى ، فهو من حيث المبدأ قابل للتعميم ، أى يمكن أن تتسع دائرة تطبيقه لتشمل كل الحالات المماثلة . هذا ما قرره الرسول ﷺ [١] وايـده أعتـى خصـوم القيـاس – مثل ابن حزم – باعتبار ان شـمول الحكم هـو نتيجـة حتميـة لشـمول رسـالة النبـى ﷺ ، وتساوى جميع الناس امام الشريعة.

ويطلق على شمول الواجب بمعنى امتداده إلى جميع الأفراد وسريانه على ذات الفرد فى مختلف الظروف "الضرورة المطلقة " . وسوف نرى أن هذا الوصف لا ينطبـق تماماً على معنى الواجب فى نظر القرآن الكريم نظـراً لأنـه لا يلزم الفرد إلا فـى حـدود استطاعته ، ويكون معنى الضرورة هنا أنه لا ينثنى أمام نزوات الفرد الذاتيـة ، او أمـام مصلحته الشخصية .

فالمتشـككون ومرضـى القلـوب لا يذعنـون للشـرع إلا بقـدر مـا يحقـق لهـم مـن منفعة[٢] ، بينما يخضـع لـه المؤمنـون دون قيد أو شـرط . [٣] والقـرآن يعظـم الكـرم فـى السـراء والضـراء علـى السـواء[٤] ، ويمتـدح الشـجاعة التـى تتحـدى الجـوع والعطـش والتعـب[٥]. بـل وينـدد بشـدة بـالذين تعوقهـم مثـل هـذه الصعوبـات العارضـة عـن الوفـاء بواجبهم.[٦] لأن الشرع اذا تكلم فلا ينبغى للمؤمنين والمؤمنات ﴿ ان يكون لهم الخيرة من امرهـم – الأحـزاب ٣٦ ﴾ هل يمكـن ان نجـد صيغـة اقـوى لإثبـات هـذه الضـرورة التـى يفرض القرآن بها الواجب ؟

ومع ذلك فلا ينبغى ان نخلط بين " الضرورة الأخلاقيـة " و"الضـرورة الماديـة " من جهة ، وبين " الضرورة المنطقية " من جهة اخرى .

---

[١] " إنى لاأصافح النساء. إنما قولى لمائة إمرأة كقولى لإمرأة واحدة "

[٢]﴿ اذا فريق منهم معرضون. وان يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين – النور ٤٩ ﴾

[٣]﴿ إنما كان قول المؤمنين ... سمعنا واطعنا – النور ٥٠ ﴾ .

[٤]﴿ الذين ينفقون فى السراء والضراء – آل عمران ١٣٤ ﴾ .

[٥]﴿ ذلك بانهم لايصيبهم ظمأ ولانصب ولامخمصة فى سبيل الله .. الا كتب لهم به عمل صالح – التوبة ١٢٠ ﴾ .

[٦]﴿ وقالوا لاتنفروا فى الحر ، قل نار جهنم اشد حرا – التوبة ٨١ ﴾

" فالقانون المادى" له على أجسادنا إكراه لا مفر منه ، بعكس القانون الأخلاقى الذى يفترض وجود حرية الاختيار : إنه يلزمنا ، ولكنه لا يكرهنا مادياً ، بل يترك لنا فرصة طاعته أو مخالفته . وهذه القاعدة الجوهرية يقررها القرآن سواء فى واجب الإيمان أو فى واجب الفضيلة العملية. [1] وبهذا يكون امام الفرد فرصة الاختيار "واقعيا" لكن هذا الاختيار ليس "حقاً شرعياً" للفرد لأن الضرورة الأخلاقية ضرورة مثالية تفرض نفسها على الضمير بصفة اساسية ، اما " الضرورة المنطقية " فتفرض نفسها على العقل كمسلمة من المسلمات .

ومع ذلك فقد تراءى " لكانت " انه يستطيع ان ينسب ما هو "غير أخلاقى" إلى "ما يتنافى مع العقل " أو "اللاعقلى". إلا أن برجسون أعلن أنه لا يستطيع أن يوافق على هذا الرأى إلا بشروط ... وظلت نظرية " كانت " غير مثبته ، بل نقول غير قابلة للإثبات . ومن الامثلة المطروحة فى باب التناقض ، مثال من ائتُمن على وديعة ثم تملكها رغم تعهده بردها ، حيث نرى ان الموقفين ليس بينهما " تناقض" وإنما " تباين " . فهذا التعهد كان يجب ان يُلتزم به – هذه قضية قانون – ولكنه لم يلتزم به – وتلك قضية واقع. فاين الاستحالة بينهما ؟ .. إنه الصراع الخالد بين المثل الأعلى والواقع ، وخير دليل على عدم تناقضها أنهما يعملان معاً .. اذن فلا نقول "تناقضاً " وإنما "إعاقة" أو "إخفاق ". أى " اعاقة " للمثل الاعلى الذى يميل الى الدخول فى الواقع فيجد ما يمنعه . وهو " إخفاق " للضمائر الأخلاقية فى انتظارها للقيم العليا .

ننتقل الآن الى الخصائص المميزة للقانون الأخلاقى.

تمكن " كانت " بفضل نظرته الثاقبة من إدراك الفرق الشاسع بين القاعدة الأخلاقية وبين أية قاعدة عملية أخرى. ويكمن هذا الاختلاف فى فكرة أرسطو عن "الغاية " و"الوسيلة". أى ما يطلب " لذاته " وما يطلب " لشئ غيره "

ونكتفى هنا بتأييد " كانت " فيما ذهب إليه ، من أنه لما كان كل اعتبار للنتيجة غريباً عن فكرة الواجب ، فإن القانون الأخلاقى لا يحتاج مطلقاً لأية قيمة خارجية عنه

---

[1] ﴿ ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظاً–النساء ٨٠ ﴾ ﴿ لااكراه فى الدين – البقرة ٢٥٦ ﴾ ﴿ لست عليهم بمسيطر–الغاشية ٢٢ ﴾ ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين–يونس ٩٩ ﴾

لتبرر حكمه ، وإنما يجب بل ويكفيه لكى يؤكد سلطانه ، أن يوضح ان هذا العمل إلزامى أو خير فى حد ذاته ، بغض النظر عما يترتب عليه من نتائج حسنه أم سيئة.

وتصاحب هذه السمة المميزة للإلزام الاخلاقى من ناحية التشريع ، سمة أخرى تتصل بالتطبيق. ذلك أن العمل الأخلاقى لا يتمثل فى فعل مادى " مجرد من الوعى أو من الإرادة أو من النية " . فعلى حين تقنع الشرعية " بمادة " العمل وحرفيته الجافة ، فلا غنى " للأخلاقية " عن "روح العمل " . والاسلام يقرر أن قداسة الواجب الاخلاقى تقتضى ان نتأمل هذا الواجب على الأقل لحظة أداء العمل ، أى أن يكون للذهن إلتفاتة إلى الطابع الإلزامى لهذا الواجب دون أى معنى آخر . وإلا اصبحت أكثر الأعمال تمشياً مع النص التشريعى جسدا ميتاً ، ليست له قيمة أخلاقية.[1] وهكذا نرى أن قانون الواجب يتميز بأنه قانون " حرية " و " عقل " و " قيمة ذاتية " وأن نشاطه نشاط " روحى " فى جوهره.

ولكى نقدم القانون الاخلاقى فى القرآن ، ينبغى ان نعود الى خصائصه العامة وإلى بيان شروطه ، وهى ثلاثة: أحدها يتعلق بالطبيعة الإنسانية بصفة عامة ، والثانى بواقع الحياة المادى، والثالث بتدرج الأعمال .

أ - امكانية التصرف.

لعل من نافلة القول التأكيد على فكرة الإمكانية المادية للعمل كشرط لا غنى عنه للإلزام الاخلاقى . فالضمير العام يدرك الحقيقة المسلم بها " انه لا إلزام أمام الاستحالة " والقرآن يؤكد ذلك . ﴿ لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها - الطلاق ٧ ﴾ ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها - الأنعام ٥٢ - المؤمنون ٦٢ ﴾ ﴿ لا يكلف الله نفساً الا وسعها - البقرة ٢٨٦ ﴾.

والظروف التى نزلت فيها الآية الأخيرة تعيننا فى تحديد معنى الاستحالة ، فالآية السابقة تقول ﴿ وإن تُبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله - البقرة ٢٨٤ ﴾ فاعتقد الصحابة انها تنطبق على كل ما يدور فىالضمير من أفكار أو قرارات أو رغبات، أو أحلام يقظة أو تخيلات ... الخ طبقاً لحرفية هذا النص فى عمومه. " فأتوا رسول الله ﷺ ، ثم جثوا على الركب فقالوا : يا رسول الله ، كُلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة ،

[1] انظر الفصل الرابع - الفقرة ١-أ . (المؤلف)

والصوم ، والجهاد ، والصدقة ، وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها . فقال رسول الله ﷺ أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا" .

عندئذ نزلت الآية التى تبين : أن إلزام الإنسان لا يكون إلا فى حدود طاقته ، وأن أحوال النفس التى لا تخضع للإرادة ليست ولا يمكن أن تكون موضوعاً للإلزام المباشر. ، شأنها شأن الانعكاسات والغرائز والشهية والميول الطبيعية

اما الأوامر الدينية المتعلقة بالحب والبغض ، وبالخوف والرجاء ، فيفسرها الشراح عقلياً بأنها ترجع الى أعمال سابقة نشأت عنها هذه الحالات، أو بأعمال مصاحبة أو لاحقة ، ولم يجعلوا لها أصلاً غير إرادى . وعلى هذا الأساس ، فإن حب الله – وهو حالة عاطفية ولا إرادية – يكتسب بعمل إرادى مثل التأمل فى رحمة الله الواسعة ، وتذكر نعمه ، وهكذا أصبح حب الله أمراً فى الحديث " أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه " وكذلك حب الغير " تصافحوا يذهب الغل ، وتهادوا تحابوا ، وتذهب الشحناء. " أما أمر "لا تغضب " فإنه يشير الى آثار هذا الانفعال ولا ينصب على أسبابه ، أى أنه يقصد " لا تنساق وراء الغضب ، مع ما يترتب عليه من نتائج طائشة ، بل قاوم دفعاته السيئة ، ووجهها الى اتجاه اخر". [(١)]

والإيمان إلزام منبثق من أمر واقع غاية فى الوضوح ، لايملك الإنسان أمامه إلا أن يؤمن راضيا." ولذا يجمع القرآن وصاياه عن الإيمان فى وصية واحدة ، هى التفكر المتأنى فى عزلة أو فى صحبه شخص آخر. ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا .. – سبأ ٤٦** ﴾ بعيداً عن تاثير الجماهير

---

(١) نجد علاجاً ناجعاً فى أحاديث " فإذا غضب أحدكم فليتوضأ" ، " إذا غضب أحدكم وهو قائم فليقعد ، فإذا ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع". ويمكن مقارنة هذا العلاج العضوى النفسى بنظرية " ديكارت" ، ونظرية "مالبرانش" فى التحكم فى العواطف. (المؤلف)

ومع ذلك شهد التاريخ الإسلامى جدالا بين الأشاعرة والمعتزلة حول إمكان أن يكلف الله الإنسان " بما لا يطاق " او "بالمحال" ؟ أقر الأشاعرة بإمكان تكليفنا بما لا نطيق وبالمحال ، بينما المعتزلة رأوا العكس [1] [2].

ب – اليسر العملى .

إذن يستبعد من مجال الالزام كل مالا يخضع لقدرتنا خضوعاً مباشراً أو غير مباشر. وليس هذا وقفا على النظام الأخلاقى القرآنى وحده ، وانما هو سمة مشتركة لأى نظام أخلاقى عادل ومعقول ، وبصفة أخص لكل نظام أخلاقى نزل من السماء ، إذ العكس يتنافى مع العدل الإلهى والحكمة الإلهية . والآيات السابقة تؤكد هذا .

أما الآيات التالية فتستبعد من نظام الأخلاق الإسلامى كل ما هو مستحيل ، بل وكل عبء لا يحتمل عادة ، وكل مشقة تستنفد قوى الانسان ولا تتجاوزها.﴿ **يريد الله بكم اليسرولا يريد بكم العسر – البقرة ١٨٥** ﴾ ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج – الحج ٧٨** ﴾ ﴿ **يريد الله ان يخفف عنكم – النساء ٥٨** ﴾ ﴿ **وما ارسلناك الا رحمة للعالمين – الانبياء ١٠٧** ﴾ وتبرز هذه الآيات الكريمة طابع " اليسر" على أنه واقع تاريخى مرتبط بأمة الإسلام ، بينما تشير آية أخرى الى " إصر " كان مفروضاً فى شريعة سابقة ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا – البقرة آخر آية** ﴾. ففى أى دين كان هذا الإصر ؟ وما هو ؟

هل كان هذا الإصر فى الديانة اليهودية ؟ أم فى كل الاديان السابقة ؟ هذا موضوع يستحق دراسة مستقلة . وكل ما نقوله هنا هو ان الإسلام أعاد الأمور الى وضعها الصحيح ، وأن عيسى عليه السلام قد نهض بجزء من هذه المهمة ﴿ **ولأ حل لكم بعض الذى حرم عليكم – آل عمران ٥٠** ﴾ .

---

[1] من يرغب فى الاطلاع على تفاصيل هذا الخلاف الجدلى واسبابه وحججه ، فليرجع إلى الكتاب الأصلى ص ٦٦. (صاحب المختصر)

[2] فى عام ١٩٧١ نوقشت رسالة ماجستير للدكتور فاروق دسوقى عن " القضاء والقدر" ونشرت عام ١٩٨٢ فى ٣ مجلدات ، ولخص محمد عبد العظيم عليّ المجلد الأول بعنوان " مختصر القضاء والقدر فى الكتاب والسنة " نشر عام ١٩٩٤. وفى هذه الرسالة حل حاسم لهذه القضية التاريخية. انظر ص ٧٦ (صاحب المختصر).

نعود الى الامثلة التى توضح سمات " اليسر العملى " الذى اختصت بـه أوامـر القرآن .

بداية نقول إن القرآن لا يفرض عبادات شاقة كقيام أكثر الليل فى تعبد ، بل ولا ينصح به. فقد أمر النبى ﷺ منذ بداية الرسالة بالقيام أكثر الليل وقراءة القرآن ﴿ **قم الليل إلا قليلا ... ورتل القرآن ترتيلا - المزمل ٢-٤** ﴾ واعتاد بعض الصحابة على اتباعه . غير أن نهاية السورة تتضمن درساً يلفت نظر طائفة الصحابة هذه إلى أن ظروفاً قد تطرأ - كالمرض والسفر والجهاد - فتمنعهم من المداومة على هذه العبادة وتأمرهم الآية بالقيام بالقدر الذى تسمح به أحوالهم ﴿ **فا قرءوا ما تيسر منه - المزمل ٢٠** ﴾ وفيما بعد ظهرت روح الغلو هذه فى المدينة لدى بعض الافراد فكانت تواجه باعتبارها لا تتفق مع روح الشريعة.

من مجموع النصوص القرآنية والنبوية السابقة ، يتضح أن الاسلام يعلق أهمية كبيرة على عدة اعتبارات ينبغى الا يغفل عنها المتعبد كاطالة وقت العبادة لكى لاتتحول الى عمل آلى جاف وحتى لا يضطرب ذهنه فيقع فى أخطاء قد تكون جسيمة " لعله يذهب يستغفر ربه فيسب نفسه " أو تتحول العبادة إلى عمل بغيض " ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله " أو يؤدى الإسراف الى تقصير فى نفس العمل " إن المنبت لاأرضاً قطع ، ولا ظهراً ابقى" .

وهناك جانب يتعلق بواجب مفروض فى ظروف عادية ، أو فى ظروف استثنائية ، وبسبب تبدل هذه الظروف أصبح الوفاء بهذا الواجب بأكمله وفى صورته الأولى، مشقة حقيقية. فهل يتحتم رغم ذلك الوفاء به كاملاً ؟ كلا .. وهنا تتجلى الرحمة فى الشريعة القرآنية بتقديمها الحل الذى يوفق الواجب مع الظروف الجديدة ، فيتغير الفعل بدرجات تتفاوت تبعا لمتطلبات الموقف من "استبدال " إلى " تخفيف" الى " تأجيل " الى " إلغاء " ، بحسب ما إذا كان تبدل الظروف تبدلاً نهائيا ودائما ، أم مرتبطاً بظرف أم آخر أو بمجموعة معينة من الناس او الاشياء. .

مثال عن التخفيف النهائى . فالنسبة العددية التى يجب على شعب مسلم احتلت أرضه - أن يواجه بها عدوه بمقاومة مسلحة ، كانت فى أول الأمر واحدا إلى عشرة ﴿**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين - الانفال ٦٥** ﴾ عندما كان الجيش الإسلامى لا يتعدى بضع مئات من الرجال . والغريب أنه بزيادة العدد مع مرور الزمن. وعلى أثر

نوع من الاسترخاء الطبيعى ، لم تعد الأمة مكلفة بمواقف البسالة التـى سجلها الأولـون . ومع ذلك فالمحارب المسلم بفضل إيمانه يتمتع بروح معنوية يتفوق بهـا علـى عدوه فـلا يتساوى معه أبداً . وهنا جاء الحل الثانى والأخير الذى بموجبه أصبحت النسبة واحداً الى اثنين ﴿ **فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مائتين - الأنفال ٦٦** ﴾ .

فـى المثـال السـابق جـاء الحـل التشـريعى فـى مرحلـة لاحقـة ، بينمـا فـى أغلـب الأحيان تنص القاعدة – الى جـانب الحالـة العاديـة - علـى الحالـة الاسـتثنائية وتحـدد لهـا المخرج .

فأحياناً يكون الحل " إعفاء كاملا " كإعفاء العـاجزين مـن واجـب القتـال ﴿ **ليس على الاعمى حرج .. - الفتح ١٧** ﴾ بينما المستضعفون فـى الارض لهـم أن يبقـوا حيـث هم ما داموا لا يملكون وسيلة للهجـرة ﴿ **إلا المستضعفين .. - النسـاء ٩٨** ﴾ وكذلـك المسافر الذى عليه عند الضرورة القصوى أن يأكل أى شىء لكى لا يهلك جوعاً ﴿ **فمن اضطر فى مخمصة .. - المائدة ٣** ﴾ .

وتارة يكون الاعفاء " جزئياً " كتخفيض الصـلاة الرباعيـة الـى النصـف أثنـاء السـفر ﴿ **وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جنـاح أن تقصـروا مـن الصـلاة - النسـاء ١٠١** ﴾. وفى حالة الحرب تؤدى الصلاة أثناء السير على الأقدام أو على ظهـور الـدواب ﴿ **فإن خفتم فرجالاً او ركباناً - البقرة ٢٣٩** ﴾ .

وأحيانـاً يكـون الحـل مجـرد " تـأجيل " فـالمرضى والمسـافرون غـير مـلزمين بالصيام فى شهر رمضـان ﴿ **ومن كان مريضاً اوعلى سفر فعدة من أيام أخر- البقرة ١٨** ﴾.

واحياناً يستبدل العمل المتعذر تنفيذه بعمل آخر أيسر كالمسافر الذى لا يجد مـاء لطهره والمريض الذى لايستطيع استخدام الماء ﴿ **... فتيمموا - المائدة ٦** ﴾

أبرزت الأمثلة السابقة جانب اليسر العملى والرحمـة اللتيـن يتسـم بهمـا الشـرع الالهى ، مما يدل على أن الامـر ليس عارضـا ولا مصـادفـة ، وإنمـا هـو مبدأ جوهـرى ثابت.

وقد كانت العقبة فى هذه الامثلة عقبة طبيعية ، ليست مـن صنـع الانسـان ، فمـا بالنا اذا كانت من صنع الانسان .. ؟ وهو الذى ركبها والمفروض انه قـادر علـى فكهـا . بل قد تصبح هذه الحالة مع الزمن أشبه بطبيعة ثانية يصعب تذليلها

والحل الاصيل الذى تأتى به الشريعة الاسلامية فى هذه الحالة يكون بمواجهتها للحالة ومعالجتها بعناية لكى يتسنى للانسان ان يصعد بالتدريج من الهاوية التى سقط فيها، وعندما يصل الى المستوى الذى يصبح فيه قادرا على تلقى الأمر الأخلاقى ، عندئذ يصدر هذا الامر الذى كان معطلا الى ذلك الوقت

وأوضح مثال موقف القرآن من تلك الآفة الإنسانية التى هى الخمر. إذ بلغ عدد الآيات التى تشير الى حالة السكر أو الى المشروبات المخمرة أو المسكرة – أربع مجموعات ، كانت المجموعة الرابعة والأخيرة هى التى نصت على التحريم القاطع. بينما المجموعات الثلاثة الاولى كانت بمثابة مراحل تدريجية لتهيئة الاستعداد النفسى لدى المؤمين لتلقى حكم التحريم فى النهاية .

هذا الطابع التدريجى ينطبق على الأخلاق القرآنية فى مجموعها. كما ينطبق على النظام الاسلامى بصفة عامة . فمن المعلوم ان القرآن لم ينزل جملة واحدة ، كما نراه اليوم ، وانما نزل على اجزاء متفرقة على مدى ثلاثة وعشرين عاما تنقسم الى فترتين متساويتين تقريبا: الفترة المكية والفترة المدنية. وان المرحلة المكية كان موضوعها الاساسى دعم الايمان ، وتثبيت المبادىء والقواعد العامة للسلوك ، بينما اختصت الفترة المدنية بتطبيق هذه القواعد على القضايا الأخلاقية والتشريعية. ويكفى ان نتفحص مجموع الاوامر و الاحكام المنفصل بعضها عن بعض بمراحل زمنية تتفاوت طولاً وقصراً لكى نرى انها تخضع لمنهج تربوى متدرج رفيع المستوى.

ولم يفهم المشركون هذه الحكمة التشريعية حين اعترضوا ﴿ **لولا نُزّل عليه القرآن جملة واحدة – الفرقان ٣٢** ﴾ وكان الرد والتفسير ﴿ **كذلك لنثبت به فؤادك** ﴾ ﴿ **لتقرأه على الناس على مُكث – الاسراء ١٠٦** ﴾ بينما ادركتها عائشة رضى الله عنها اذ قالت " .. حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام .. ولو نزل اول شئ "لا تشربوا الخمر " لقالوا : لا ندع الخمر ابدا . "

جـ – تحديد الواجبات وتدرجها .

وهكذا نجد الإلزام الأخلاقى فى القرآن مشروطاً بشرطين: أن يكون العمل المستهدف فى حدود الاستطاعة البشرية بوجه عام (اى خاضعا لإرادة الانسان) ، وان يكون ميسور التنفيذ فى الحياة الواقعية. ولايكفى ان يتصف بأنه ممكن وعملى ليدخل فى

عداد الواجبات. وانما سوف نرى سلّما من القيم الإيجابية والسلبية ، مرتبة ترتيباً دقيقاً وحكيماً .

فإذا تجاوزنا الواجبات الأولية التى لا خلاف حولها (مثل عدم الكذب واداء الامانة ونجدة الغير ..) سيظل أمام الفضيلة " الخلاّقة " و" البناءة " ميدان واسع لدرجات لا نهاية لها من الأعمال " الممكنة " و" العملية " . فهل نلتزم بها جميعاً . أم نكتفى ببعضها؟ وبعبارة اخرى هل " الخير" و " الواجب" فكرتان متطابقتان ؟ ألا توجد فوق الواجب درجات متصاعدة فى الثواب يجوز التغاضى عن بعضها دون ارتكاب عمل غير أخلاقى ؟ واذا استفتينا الضمائر الفردية عنها فسوف تتنوع الإجابات. فبينما النفوس ذات العزيمة تضع واجبها فى أعلى درجات الكمال وتجمع بذلك بين الواجب والخير ، نجد العامة تتوقف عند درجة أقل سموا وتحدد واجبها عند الحد الادنى .

ولا نتردد – مهما قيل – فى أن نعتبر " كانت " ضمن الفلاسفة الذين يقولون بتطابق الواجب والخير بمعناهما الواسع ..

ونتوجه للذين يوسعون دائرة الواجبات حتى تضم كل مجالات الخير ، ويرغبون ان يجعلوا أعلى درجات الكمال فى كل مجال ، واجبات إلزامية ملحة. ونسألهم هل يعتبرون مجموع هذه الكمالات واجباً على كل فرد؟ (وان يكن فوق الطاقة البشرية) ، أم يتركون للفرد حرية اختيار مجال الكمال الذى يريده ؟ (واذا استنفدت احدى القيم جهد الانسان كله فاهمل سائر القيم الاخرى هل يرون فى هذا إشباعا لحاجة أخلاقية ؟).

إن الكائن البشرى مركب من علاقات متعددة ، منها الحيوية والشخصية والأسرية والاجتماعية والإنسانية والربانية ... أى أنها مجموعة متكاملة ومترابطة ومتماسكة كلها مؤهلة للتطور والتقدم ، وليس من الممكن إهمال إحداها إلا على حساب زعزعة اوتشويه أو تمزيق " أحسن التقويم " الذى خلق الله الكائن الإنسانى عليه . والحاسة الأخلاقية تقتضى ارتقاء كل هذه المجموعة ككتلة واحدة والسمو بها جميعاً فى نفس الوقت حتى مستوى معين إذ " يتحتم على الإنسان أن يمارس كل القيم بلا استثناء قبل ان يتخصص فى إحداها " .. وهو المفهوم الإسلامى للواجب " إن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً(وفى رواية لزورك ..) فأعط كل ذى حق حقه " .

ينتج عن هذا التنافس بين القيم أن الواجب فى كل فرع من فروع الحياة ، لا ينبغى أن يشغل إلا مساحة معينة من الخير الممكن من نفس هذا الفرع ، كى يتيح للفروع الأخرى الفرصة أن تشبع احتياجاتها وتحصل على نصيبها المشروع من نشاطنا . وهناك حدود عليا تدركها الضمائر السوية بحيث إذا تعدت الفضيلة هذه الحدود ، لا يتبقى منها شيء يسمى فضيلة لانها قد بدأت تضر بفضيلة اخرى

ولكن هذه الحدود العليا –التى تتنوع بحسب استعداد وظروف كل انسان – لا ترسم ميدان الخير الاخلاقى إلا على نحو جزئى وسلبى. ونظراً لاتساع هذا الميدان ورحابته ، فإن كل إنسان يلمس فيه درجات متفاوته من الثواب بحيث أن أى تقصير فى درجة أو أخرى من هذه الدرجات يترتب عليه إما لوم شديد ، وإما تأنيب بين الخفيف والشديد ، وإما انه لا يثير أى رد فعل فى الضمير . أليس فى ذلك اعتراف بان فكرة الخير يجب ان تتضمن قيمتين مختلفتين: حداً أدنى إجبارياً ، وإضافة فوق هذا الحد أكثر اغراء بالثواب ؟ .. ولايتركز اختلاف الضمائر على هذه النقطة ، وإنما يحدث الخلاف عندما يراد أن يكون الجانب الإلزامى هو أدنى الدرجات الممكنة . وهو مقياس لايحقق رضا الناس بصفة عامة. فالرجل الصالح يكون أكثر تشدداً ، لأنه يتصور مستوى الوسط مبهماً لا يستطيع أن يحدد له مقياساً دقيقاً . اذ كيف السبيل الى تحديد هذا الوسط لكل واجب من واجباتنا ؟ ليس هناك مقياس عقلى أو موضوعى يستطيع عقل الإنسان أن يقدمه. وإذا لجأنا الى الضمائر الفردية فسوف لا تتفق فيما بينها على شيء . وإذا تداولنا فيما بيننا لرسم حدود متفق عليها ، فهذا يعنى اللجوء الى التحكم والتعسف. ومع ذلك فإننا فى أمس الحاجة الى هذا التحديد. لأن " شمولية القانون تقتضى قدراً من التجانس فى الأساس " وإلا فلن تدوم أية قاعدة أخلاقية ولن يبقى من القانون غير اسمه خاليا من أى مضمون .

هناك محاولات عقلية بذلت لتحديد واجبنا نحو الغير ، ولم تتوصل إلا للجانب السلبى وهو عدم الإضرار به . وكأن الناس تستحق منا العدل لا البر .. فها هى الأنانية قد أصبحت قانوناً! .. ثم كيف يمكننا تقدير الحد الأدنى الضرورى لواجباتنا نحو الله ونحو أنفسنا؟ عن كل هذه النقاط تقدم لنا الاخلاق الإسلامية توضيحات ثمنية ..

ففيما عدا الواجب المطلق – وهو الايمان – الذى ليس فيه قيود ولا حدود ، فإن الأخلاق الإسلامية ترسم لكل عمل قابل للتحديد درجتين من الخير وتعطى لكل منهما

علامات مميزة ومحددة بدرجة كافية : " الحد الأدنى " الذى يؤدى الهبوط دونه الى الإخلال بالواجب ، ثم "الدرجة الأعلى" التى لا تتجاوز الحد الأقصى. وبعبارة أخرى " الخير الإلزامى " ، والخير الموصى به " ، أى أن ماوصفته الأخلاق الإسلامية بأنه ضرورة ملحة يمثل مشاركة فى كل قيمة من القيم [1].

وفضلاً عن ذلك ، يفسح القرآن فى كل مجال طريقاً لمشاركة أوسع ، ويحث على عدم الاكتفاء بالوقوف عند هذا الحد المشترك ، وإنما على الارتفاع دائماً إلى درجات أكثر جدارة ﴿ **وأن تصوموا خير لكم – البقرة ١٨٤** ﴾ ﴿ **والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً – الفرقان ٦٤** ﴾ ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون ، قل العفو – البقرة ٢١٩** ﴾ . فالقرآن يضع فضيلة " الاسماح " condescendance [2] فوق الحق السائد ، ويلح بصفة خاصة على فضيلة " الإحسان " ﴿ **وأن تعفوا اقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم – البقرة ٢٣٧** ﴾ فإمهال المدين المعسر واجب ، ولكن التنازل عن الديْن عمل جدير بالتقدير ﴿ **وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم – البقرة ٢٨٠** ﴾ . ودفع الظلم عن النفس حق ، ولكن الصبر عليه والعفو عن الظالم " **من عزم الامور** " . وأداء الفرائض خير ، ولكن ﴿ **من تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم – البقرة ١٥٨** ﴾ .

وفى مقابل درجات القيم الإيجابية التى أوضحناها فى مفهوم الخير الأخلاقى ، من السهل التعرف على درجات القيم السلبية فى الجانب المقابل. ومع ذلك ، وبعد توضيح قائمتى القيم المتوازيتين ، فإن سلّم القيم فى نظر القرآن لم يستنفد بعد حتى فى خطوطه العريضة. إذ أن هناك سلما ثالثا نجد فيه النقيضين يتقاربان بحل وسط يربط بينهما ويوثق صلة الاستمرارية .. فبين "القيمة " و " نقيض القيمة " يضع القرآن "اللاقيمة " وبين "المفروض " و " المحرم " يوجد " غير المحرم " .. وحتى فى " المفروض " يفرق القرآن بين ما هو " واجب رئيسى " و" واجبات أخرى " ويليها " الأعمال المتدرجة صعوداً فى الثواب ". أما فى " المحرم " فيحدد القرآن " الكبائر "

---

[1] مثل شهر من الحرمان يفرض على شهواتنا ، وعشر محاصيلنا ، وجزء من اربعين جزءا من الأموال تخصص للفقراء ، وخمس صلوات فى اليوم ... الخ (المؤلف).

[2] هو مجاملة فى شكل عمل او عادة يتم بموجبها منح الغير ماكان يحق للإنسان رفضه له (قاموس لاروس) (المعرب).

وبعدها السيئات الأخرى ، الكبير منها والصغير .. وعلى نفس المنوال ، يوضح درجتين في الأعمال غير المحرمة ، منها " المسموح به " و " المتغاضى عنه".

وآن أن نتساءل عما إذا كانت أدق العقول وأقدرها على التنويع ، تستطيع أن تضيف شيئا إلى هذا التدرج في القيم . ولقد حاولنا دون جدوى أن نعثر على ثغرة واحدة تبرر ما ذهب اليه " جوتييه " من إطلاق وصف "الروح الانفصالية " على الروح الإسلامية وهي التي ابتكرت هذا الترتيب الرائع الذي يعترف هو نفسه بأنه عمل إسلامي صرف .

وكلمة عن مغزى هذا التدرج فيما يختص بكل من " المباح " و " المعفو عنه " نقول ان المباح في القرآن يتعلق باعمال لا تدخل في مجال الأخلاق

أما المعفو عنه فيجب أولاً ألا نعتبره رخصة للتهاون في اخلاق الأفراد أو ميولهم ونزواتهم. وإلا فسوف يُعد ذلك إنكاراً للأخلاق ذاتها ، ولهذا نجد القرآن يقف موقفاً لا يتزعزع ، ويحثنا على أن ننتصر بأي ثمن على ميولنا ورغباتنا الجامحة وعدم الانصياع لها . ﴿ **ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله – ص ٢٦** ﴾ ﴿ **فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا – النساء ٣٥** ﴾ ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه – القصص ٥٠** ﴾ فعلينا أن نختار إما طاعة الله وإما اتباع الهوى. ولهذا يكون " المعفو عنه " من اجل مراعاة الواقع المحسوس الذي يتم فيه نشاطنا دون أن نبلغ حد إلغاء جهدنا وإعفاء أنفسنا من الواجب ، وهكذا نجد أن لطف الشريعة لا يستهدف تقليل الجهد وإنما ترشيده اي ارساءه على اساس عقلي .

٣ – تناقضات الإلزام :

تقابلنا مجموعة من التناقضات العملية للإلزام يشعر كل فكر أخلاقي أمامها أنه في حيرة ، وأن عليه أن يتخذ حيالها موقفاً . نذكر منها تناقضين رئيسيين :

أ – وحدة وتنوع

إذا كانت الأخلاق علماً فيجب ان ينبني على قوانين شاملة وضرورية لا على قضايا خاصة وعارضة. وإذا كانت علماً معيارياً – موضوعه تنظيم النشاط الإنساني – فيجب أن يواجه الحياة في واقعها المحسوس. ولما كانت الحياة في حقيقتها هي التنوع والتغير والجِدّة ، فسوف نجد أنفسنا أمام الخيارات التالية :

فإما أن يكون نموذج السلوك الذى يقدمه هذا العلم ثابتاً وشاملاً ، وإما ان يكون قابلاً للتنويع والتعديل . ويؤدى بنا الفرض الأول الى ثبات الإنسانية على نموذج واحد وخالد فى تطابقه ، ويصبح الفضاء نقطة ، والوقت لحظة ، وتتوقف حركة الكون ، وتنمحى الحياة ويحل محلها فكرة مجردة لا وجود لها إلا فى خيال عالم الأخلاق. وعلى عكس ذلك ، إذا أخذنا فى اعتبارنا عنصر " عدم القابلية للتحلل الى اجزاء أو التصرف " فى العمل المفرد ، مع خضوعه لتقلبات الزمان واختلاف المكان ، فلن يكون هناك مجال للحديث عن قاعدة أو قانون أو علم . فما عساها أن تكون هذه القاعدة الأخلاقية التى مصيرها الموت وقت ميلادها ؟ أوالقانون الذى لايحكم إلا فرداً واحداً ؟ أو العلم الذى لايملك أية عمومية ؟

وبناء على ما تقدم ، إما أن نحافظ على وحدة القانون أو أن نحترم تنوع الطبيعة التى يحكمها هذا القانون .. إما الإبقاء على بساطة القاعدة أو إخضاعها لتعقيد الحياة التى تسرى عليها هذه القاعدة .. إما الصعود إلى المثل الأعلى بصفائه وخلوده أو الهبوط إلى الواقع المتقلب الذى لايثبت على حال .. إما أن ننتصر للجوهر وإما للوجود .. إنهما طرفا الطريق التى علينا أن نسلكها ، وكلما اقتربنا من أحد الطرفين كلما ابتعدنا عن الطرف الأخر . تلك أولى الصعوبات الاخلاقية .

ب - سلطة وحرية .

ترتبط هذه الصعوبة بالسابقة . إذ أن العلاقة التى يعبر عنها لفظ " إلزام " علاقة تتنازعها إرادتان مختلفتان لهما اتجاهات متنافرة. " فالمشرع " يحرص على "سلطته" و " الفرد " يدافع عن " حريته " . ولما كانت سلطة المشرع تظل مستحكمة ما دامت القواعد التى يصدرها هذا المشرع تحتفظ بقوتها وسلامة صياغتها ، فلا تؤثر الظروف فى نفوذها بأى حال لتضعفه أو تحد منه ، هنا يصبح القانون الأخلاقى كالقانون الطبيعى تماما حيث يتلقى الفرد قواعده بسلبية ويطبقها بانقياد أعمى. ومعنى هذا ان " الإلزام " الصرف يقابله " انتفاء للحرية " وخضوع ذليل. ولكن ما جدوى الضمير الذى لايغير حضوره أو غيابه شيئاً هنا فى مجرى الأحداث ؟ إذا ما نحن أرضينا الفرد ومنحناه حرية كاملة فى الاختيار والتصرف ، سوف يتحول " الأمر" إلى مجرد " توصية " يقبلها الفرد أو يرفضها حسب تقديراته الشخصية .

ماذا نفعل ؟ هل ننحاز الى جانب دون الآخر؟ أم نحاول التوفيق بينهما؟ وفى حالة الاختيار .. أى الاتجاهين نختار؟ وفى حالة التوفيق .. فعلى أى أساس يكون؟ هذه هى المشكلة المطلوب حلها . لننظر كيف تنوعت وتباينت الحلول .

سوف نرى فيما يلى كيف أن الحل القرآنى يمكن اعتباره توفيقاً منصفاً للأطراف المعنية ، بينما المذاهب العادية اتخذت اتجاهاً متفاوت الدرجات فى الميل لأحد الطرفين دون الآخر . وسوف نرجئ عرض الحل القرآنى الى خاتمة الفصل ، ونوضح الآن كيف واجه هذه الصعوبات مذهبان شهيران هما نظرية "عيمانويل كانت " و" فردريك روه" . الأول يمثل السلطة الصارمة للواجب العام ، والثانى يدافع عن الأصالة النفسية ضد الثبات المنطقى.

نظرية "كانت" .

لكى يقاوم " كانت " بعض المذاهب التى ألانت الأخلاق واخضعتها لمقتضيات الحياة العصرية برعونتها وترفها ، لم يكتف برسم خط فاصل بين فكرة الأخلاق وفكرة الحياة الحسية ، بل ذهب أبعد من ذلك بكثير. فجرد مفهوم الواجب من كل تجربة حسية ، ومن كل واقع مادى يمكن أن ينطبق عليه ، ثم خلصه من مادته التكوينية التى تتبلور فى هذه القاعدة أو تلك . ولم يُبق منه سوى صفته الشكلية – أى أنه قانون شامل صالح لجميع الإرادات. واستخلص تعريفه للواجب بأنه " كل سلوك يمكن ان يصاغ فى قاعدة عامة، دون أن يصادم العقل " . أى بصلاحية الواجب لأن يكون قانوناً عاماً ، كان "كانت" يميز بين السلوك الأخلاقى وغير الأخلاقى. واعتقد أنه بهذا المعيار استطاع أن يستنبط علم " الواجبات الأخلاقية " .

كما اعتمد " كانت " فى إرساء قاعدة الحكم الخاضع لقوانين العقل العملى المحض على الحكم الذى ينبثق من " الإدراك العادى " . أى أن يكون القانون قانون عقل محض (أى متحرراً من تأثير أى ظرف تجريبى أو حدس أو مادة) ، ويكون قادراً على تحديد الإرادة بطريقة مسبقة . ذلك أن العقل المحض هكذا شأنه سواء فى الاستعمال العملى او فى الاستعمال النظرى "هو عقل واحد يحكم طبقاً لمبادئ مسبقة".

واذا لم تصمد القاعدة أمام تجربـة التمـاثل مـع القـانون الطبيعـى عمومـاً ، فإنهـا تصبح مستحيلة اخلاقياً [1]

نظرية "روه" Rauh

اتخذت نظريات أخرى موقف الدفاع عن الحرية التجريبيـة للـذات . ونجـد هـذا التناقض لدى " جيو Guyau " و " نيتشه Nietzsche " فيقرران أن القيمة الأخلاقية لا توجد مسبقاً فى نظام الأشياء الأزلية ، وإنما هى إبداع إنسـانى يتجـاوز الانسـان بـه نفسـه ليصبح " فوق الإنسان Surhomme " .

ولم يساير الفيلسوف الفرنسى " فردريك روه Frédéric Rauh " هذا الاتجـاه الثورى حتى النهاية. وهو الذى يرمى الى إلغاء فكرة الإلـزام إلغـاء تامـاً ومعهـا الأخـلاق ذاتها. ومع اعتراف هذا الفيلسوف بسمو فكرة الواجب بالنسبة للفرد ، فإنه أراد أن يكـون الفرد مشرعاً لمبادئه وأحكامه الخاصة ، وأن يضعها تحت "التجربـة " وأن يهدم فـى كـل لحظة ما بناه فى اللحظة السابقة...

وعلى الرغم من المسافة التى تفصل بين هذه الفكرة وفكرة "كانت" فإن الفكرتيـن تلتقيان وتتفقان فى بعض المقاييس . ذلك أن كلاً منهما لا يحتفـظ مـن مفهـوم الواجـب إلا بمعناه العام الذى لا ينطوى على اى مبدأ خاص. ثم لا تلبث الفكرتان أن تفترقا...

والخلاصه أن " المثل الاعلى الثابت " هو ذاته تعريف "القانون الأخلاقى" . ولما كان من المحال ان ينتج القانون عن التجربة ، وإنما القانون موضوع للبرهنة او الايمـان. فإن القول بأن "التجربة " هـى مصـدر "الأخـلاق" هـو فـى الحقيقـة تنـاقض وتعـارض فـى المقاييس.

خاتمة الفصل

يتجلـى الآن بكـل وضـوح أن كـلا مـن هـاتين النظريتين لـم تـأخذ مـن الحقيقـة الأخلاقية إلا جانباً واحداً .. وهكذا انتهى الامر بالفلسفة العمليـة إلـى مـاآلت إليـه نظريـة

---

[1] من يرغب فى الاطلاع على نظرية " كانت " ونظريـة روه تفصيـلا : حججهمـا ومناقشـاتهما والرد عليهما يرجع إلى الكتاب ص ٩٩ ومايليها. (صاحب المختصر).

المعرفة . فالمثالية أو الواقعية ، والعقلانية أو المذهب التجريبى ، وطوائف أخرى كثيرة من الأحزاب الفلسفية ، لم تتعارض فيما بينها إلا لأن كلاً منها قد شدد وتمسك بناحية واحدة لاغنى عنها من المعرفة الإنسانية ، وادعى أنها الشرط الكافى والسبب الوافى ، بينما هى فى الواقع عنصر واحد من بين عناصر كثيرة غيرها.

فلكى تشتعل شرارة المعرفة الحقة لابد من التقاء الفكرة بالموضوع ، والشكل بالمادة ، والغرض بالتجربة.

وهذا شأن الأخلاقية .. فلا الصيغة المجردة لقاعدة عامة وحدها ، ولا التحليل الدقيق للحالة الخاصة – معزولاً كل منهما عن الآخر – يكفى لهداية إرادتنا ، وإنما هو توليفة مكونة من مثل اعلى قادم من "اعلى" ومن الواقع الحاضر. ذلك التركيب الذى نجد فيه المرشد الهادى لضميرنا الانسانى الذى هو همزة وصل بين المثل الاعلى والواقع ، وبين المطلق والنسبى ، والذى يناط به دائما التقريب بين هذين الطرفين، وأن يقيم بينهما رابطة متينة بحيث يتسم العمل – الذى ينشأ عن هذا المزج الموفق– بطابع مزدوج يمثل فى آن واحد " ثبات القانون الخالد ، وجِدّة الإبداع الفنى " .

أليست هذه هى فكرة الإلزام ذاتها التى تنبع من التعاليم القرآنية ؟ لننصت الى القرآن وهو يقول ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم – التغابن ١٦﴾ إنه لا يعنى : افعلوا ما بدا لكم حسناً بحسب ما تلهمكم اللحظة .. ولا هى صيغة الواجب الاستبدادى الصارم الذى لا يقبل استثناء ولا تعديلا كما عند كانت . ومع ذلك فالآية الكريمة تتفق معهما فى امتدادهما العميق. فبهذه العبارة الجامعة الواضحة ، يحثنا القرآن علىٰ أن نوجه انظارنا إلى السماء ، ونحن نستند علــى قواعد صلبة من الواقع . وهكذا يلتقى طرفا الخيط : صعود نحو المثل الأعلى ، وحفاظ على الفطرة ، "خضوع للقانون وحرية للذات " .

وقد يقال : هل هذا ممكن ؟ هل هذان الطرفان المتنافران سوف لا يختلفان بعد وئام ؟ وطالما أن كل فرد مفوض فى تحديد واجبه فيما يتفق مع ظرفه الخاص ، أليس مفوضاً فى أن يتبع هواه ، وأن يقلب سلطة القيادة رأساً على عقب ؟ -أبداً . لأن الضمير الذى يخاطبه القرآن ليس الضمير الفارغ البهيمى ، الذى ليس له مرشد سوى فطرته فى حالتها البدائية.(كضمير إنسان الطبيعة عند "جان جاك روسو " أو كضمير الذات الصورية او الذات الخالصة عند "كانت ") . وإنما هو ضمير يجمع بين عنصرين لا يتوفران فى غيره ، فهو مستنير بفضل تزوّده بتعاليم موضوعية حيث الواجبات محددة

ومرتبة بدرجة كافية ، ثم إنه يواجه واقعاً حياً له وقاره فى نفسه . وباختصار إنه "ضمير المؤمن" وخاصيته الفريدة أنه يحمل فى أعماقه شخصية المشرع الحاضر المستعد للإجابة على كل استشارة . ولهذا فإنه لا يليق به - دون ان يخدع نفسه - أن ينساق وراء اعتبارات يعرف انها غير مشروعة فى نظر المشرع .

أما كون الفرد ملزم فى حالة الشك والتردد أن يرجع إلى ضميره يستفتيه ، ويلتزم بتنفيذ ما يجيبه به ، فهذا ما وصانا به رسول الله ﷺ مستوحيا القرآن " الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فلقد استبرأ لدينه وعرضه " " دع ما يريبك إلى ما لايريبك ، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة " ، " استفت قلبك واستفت نفسك . البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب . والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك" .

مثال : من المعلوم فى لعبة الشطرنج أن نقل كل قطعة يتبع نظاماً محدداً .. ومع ذلك هل يمكن القول بان صرامة قاعدة النقل تعوق حركة اللاعب وحريته ؟ الحقيقة أن كل لاعب يمكنه أن ينوع عملياته إلى ما لا نهاية ، بحيث لايمكن أن يتطابق دوران فى اللعب تطابقاً تاماً . وأهم ملاحظة هنا هى أن مهارة كل لاعب لا تنحصر فى طريقته فى تطبيق القاعدة عند تحريك كل قطعة، وانما تتركز فى طريقته فى توجيه الضربات وتنسيق الحركات وممارسة الهجوم. هنا تتجلى عبقرية اللاعب فى قدرته على اكتشاف أقصر الطرق وأضمنها لبلوغ هدفه .

مثل هذا يحدث فى النظام الأخلاقى . فمن بين الواجبات ما يتعين علىّ أداؤه كل يوم او دورياً أو حسب الظروف ، ومنها ما لا تسنح فرصته سوى مرة واحدة فى حياتى. وكل من جسمى وعقلى وأسرتى ووطنى ، وكل صلة من هذه الصلات تطالبنى بنشاط محدد تعينه قاعدة اخلاقية . ومع ذلك استطيع عندما استيقظ فى الصباح أن أنوّع فى برنامج أعمالى اليومية وأحدد خط سيرى كيفما أشاء ، كما أستطيع ان أعدل فيه بالإضافة أو الحذف. وهكذا استطيع أن أملأ صفحة كاملة من حياتى الأخلاقية بالأعمال المجيدة مع احترامى " للقواعد العامة " المتعلقة بهذه الموهبة البشرية . فكيف يمكن المطالبة بقدر أكبر من الحرية يؤدى إلى نسف هذه الحدود ؟ مالم تكن هذه المطالبة دعوة إلى الفوضى أو الى الجنون . بل ان مثل هذه المطالبة هى التى يجب التصدى لها بمقتضى كل حكمة تشريعية جديرة بهذا الاسم .

إننا لا ننشئ " قواعد التشريع " وانما نتلقاها جاهزة من يد مشرعنا صريحة أو ضمنية . اما تحديد " واجباتنا " فإننا " نبنيها" انطلاقاً من المثل العليا وفي حدود استطاعتنا. هذا هو الموقف المعقول واليسير الذى يتخذه قانون الأخلاق القرآنى. فهو يضع الانسان فى مكانه الصحيح . وفى الظروف التى تتناسب تماماً مع فطرته وعقله الخالص .

هناك إذن نوع من المصالحة بين "المشرع" و " الفرد العامل " يسهم كل منهما على أساسها بجهد فى تحديد الواجب . ويتمثل اشتراك المواطن فى السلطة التشريعية "بالتعاون" الذى يعتمد على "تقسيم العمل". ويؤدىالى أن يكمل كل منهما عمل الآخر دون تداخل ، بينما يبقى الشريكان مستقلين احدهما عن الآخر، ولا يلتقيان إلا فى منتصف الطريق .

بل هناك ما هو أكثر وأفضل. فعندما يلتحم " ضميرنا " مع القانون الإلهى المقدس ، يتمثله الضمير ويدافع عنه ، ويجعله " جزءاً منه " .كما لو كان الضمير يشارك فى خلق الحقائق الأزلية. ومن ناحية أخرى عندما نقوم بترتيب مختلف القواعد المقررة ، وتوفيقها بما يتناسب مع ظروفنا الخاصة ، لا نفعل ذلك فى غيبة المولى سبحانه وتعالى ، وإنما تحت رعايته و " إشرافه " و"مراقبته " . فنحن دائماً نستلهمه ، كما لو كان يواصل فى أعماقنا دور المشرع حتى فى أدق التفاصيل . بحيث يمكننا القول ان بين الفرد والمشرع لا يوجد فقط "تعاون " وإنما " اتحاد" بل " اندماج " بين إرادتين .

فأية فلسفة من بين فلسفات الأرض ، تستطيع أن تحقق مثل هذا التماثل الكامل بين مطالب متعارضة تعارضاً صارخاً ؟

إنها وحدها – فى رأينا – الأخلاق الدينية هى التى تستطيع ان تنهض بهذه المهمة . وهذا ما فعله قانون الأخلاق فى القرآن عن جدارة وبلا معقب لحكمه !.

***

الفصل الثانى

المسئولية .

ترتبط بفكرة الإلزام فكرة المسئولية وفكرة الجزاء. وهى أفكار متضامنة لا تنفصل. فوجود إحداها يستتبع بالضرورة وجود الفكرتين الأخريين. وباختفائها تختفيان على الفور. وإذا قيل إلزام بلا مسئولية يعنى وجود إلزام بلا فرد ملزَم. ومن غير المعقول أن نفترض كائناً ملزَماً دون ان تترجم هذه الصفة فى جزاء مناسب ، وإلاكان ذلك تعرية للكلمات من معانيها .

والمسئولية نوع من الإلزام ، وكون الإنسان مسئولاً يعنى كونه ملزماً بالقيام بشئ وبأن يقدم عنه حسابا . ومفهوم المسئولية يفترض – إن لم يكن وجود فكرة إلزام صارم – فعلى الأقل وجود فكرة تعادل مثلاً أعلى قد تحدد مسبقاً ويكون الإنسان بمقتضاه مسئولاً أمام نفسه .

وسوف نتناول فيما يلى الخصائص العامة النابعة من هذه الفكرة ، ثم شروطها من الوجهة الأخلاقية والدينية ، واخيراً جانبها الاجتماعى .

١- تحليل الفكرة العامة للمسئولية :

المسئولية قبل كل شيء استعداد فطرى. وهى قدرة المرء على أن يلزم نفسه أولاً ، وعلى أن يفى بعد ذلك بإلزامه بجهده الخاص. وهى بهذا المعنى الواسع سمة من السمات المميزة التى يستمدها الإنسان من جوهر ذاته .

والمسئولية تتضمن علاقة مزدوجة للفرد المسئول : علاقته " بأعماله " وعلاقته " بقُضاته " الذين يحكمون على أعماله . فمن جهة العمل لا يعبر لفظ المسئولية عن علاقة "واقع" وإنما عن علاقة " حق " تضفى الشرعية على العمل ، ويجب ان تسبق العمل فى أحْكامنا الخاصة .

إن الاشياء المادية (بما فيها جسد الإنسان ونفسه) تؤدى دورها الذى حدده لها قانون الطبيعة بطريقة حتمية لا مفر منها. ولهذا لا مسئولية عليها . أما فى ظل النظام الأخلاقى، فالوضع يختلف لأن الفرد يواجه اختيارات متنوعة يختار منها واحدة لحسابه سواء بمراعاة القاعدة أو بمخالفتها . " فالاحتمالية " و "الضرورة " خاصيتان لمجال المسئولية ومجال عدم المسئولية . وقد اختار الإنسان المسئولية منذ البداية. وعرض القرآن الموقف المتباين للمخلوقات العاقلة وغير العاقلة فيما يتعلق بالأهلية الأخلاقية .

﴿ إنا عرضنا الأمانـة على السماوات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الانسان . إنه كان ظلوماً جهولاً - الاحزاب ٧٢ ﴾ (لأنه انتهكها)

وهذه الأهلية " كامنة " وبعيدة عن تحمل المسئولية " عملاً " . إذ لابد من توفر بعض الشروط (السن والحالة الصحية) فضلاً عن ظروف مادية محدده من أجل إدخال النشاط فى نسيج الاحداث

وينبغى هنا ألا نخلط بين معنيين متميزين للمسئولية ، فطالما أن إعتبارات خاصة - كما سنرى - لم تتدخل بعد ، فالإنسان يظل فى مرحلة المسئولية الطبيعية التى هى من لوازم الموقف . ومعنى مسئوليته فى هذه المرحلة أنه اهل ليكون مسئولاً بالفعل. لأن الإنسان مسئول طبيعياً قبل أن يجعل نفسه أو قبل ان يصير مسئولاً اخلاقياً ، وقد لا يكون موقفه دائماً على وفاق مع مسئوليته الأخلاقية .

فإذا اعطينا تعهداتنا الصريحة ، فأمامنا إمكانية ان نخلص لها أو أن نتنكر . وبمجرد أن نتخذ قرارنا لصالح جانب أو آخر ، ندخل فى مرحلة جديدة ، وتصبح المسئولية التى وقعت علينا مرتدة " إلى الماضى" لا موجهة " إلى المستقبل " لأننا أنجزنا فعلاً تاماً أنشأ هذه المسئولية ، وما أن يتم الفعل ، علينا أن نقدم حساباً .. لمن ؟ وعن ماذا ؟

هذا الحساب يكون موضوعه إنجاز الفعل الملزم أو عدم إنجازه ، والقاضى الذى ينبغى أن نمثل أمامه يكون السلطة التى صدر عنها الإلزام. وهى من ثلاثة أنواع ، فقد نذعن لإلزام أخذناه على أنفسنا ، أو أخذناه من أناس آخرين ، أو من سلطة أعلى. فى الحالة الأولى ، تأتى المسئولية من " داخلنا " . وفى الحالتين الأخريين تأتى المسئولية من "خارجنا " ومن هنا كانت االمسئولية ثلاثة انواع: المسئولية " الدينية " والمسئولية "الاجتماعية " والمسئولية "الأخلاقية " الخالصة .. ذكرها القرآن فى آية واحدة بنفس الترتيب **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون - الأنفال ٢٧﴾** .

وبمعنى معين ، كل مسئولية هى مسئولية أخلاقية متى ارتضيناها. فالمسئولية التى يحملنا إياها غيرنا تصبح بمجرد قبولنا لها مطلباً صادراً من شخصنا . والقرآن يعرض المسئولية الدينية كمسئولية أخلاقية محضة بمناسبة نوع من التحايل حدث فى الصوم **﴿ علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم - البقرة ١٨٧﴾** ولا يكتفى القرآن أحياناً بإصدار الأمر الإلهى وإنما يذكّر المؤمنين بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم بالطاعة **﴿ وقد أخذ ميثاقكم - الحديد ٨ ﴾ ﴿ إذ قلتم سمعنا وأطعنا - المائدة ٧﴾**.

ونستطيع أن نتصور مسئولية غير المؤمن آتية إليه من الخارج ، دون أن تكون له مسئولية نابعة من ذات ضميره . أما المؤمن فلا توجد لديه إحداهما دون الأخرى ، لأن أول عمل فى الإيمان يستلزم الإيمان بالله باعتباره أهلاً للطاعة ، كما أنه أهل للحب والعبادة

وبمعنى آخر يجب – فى نظر الأخلاق القرآنية – أن ترجع أو تلحق كل مسئولية "بمسئولية دينية " . فلا التعهدات الفردية ولا المؤسسات الإجتماعية تستطيع أن تكون مصدر إلزام أو مسئولية إلا بنوع من التفويض من السلطة الإلهية . مثال المحسن الذى يوقع طواعية على صك ، لا يستطيع سحب توقيعه. والشخص الذى يضمن ديناً يصبح مديناً . والمتعبد الذى يقرر أداء عبادة نافلة ويشهد الله عليها يصبح امام إلزام. وباختصار كل من أعطى كلمة لأداء عمل مشروع – ولو كان موعداً – يصبح مسئولاً مسئولية جازمة . والقرآن الكريم يأمر ﴿ وأوفوا بالعهد ، إن العهد كان مسئولاً – الاسراء ٣٤ ﴾ والحديث يقول " آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان" وهو درس من القرآن ﴿ فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون – التوبه ٧٥-٧٧ ﴾ وهذا هو " الإلزام الذاتى " الذى لا يتقرر دون قيد أو تحفظ ، إذ يشترط على الأقل أن يكون موضوعه تحقيق نوع من الخير المطابق للشرع . والرسول ﷺ يقول "من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر ان يعصيه فلايعصه " .

وكذلك الحال بالنسبة للمسئولية الناشئة عن التزاماتنا نحو الأخرين والمستقلة عن إرادتنا الفردية. مثل حق الوالدين فى احترام أولادهما وخضوعهم لهما ﴿ وبالوالدين إحسانا .. واخفض لهما جناح الذل – الإسراء ٢٣- ٢٤ ﴾ فهذا الحق فى نظر القرآن محدود ومشروط ، فهو يتوقف عندما يطلبان منا خيانة الإيمان ﴿ وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما – العنكبوت ٨﴾ أو يرتكبان ظلماً. عندئذ يجب على الاولاد تذكيرهما بالواجب ، بل وفى وسعهم ملاحقتهما أمام القضاء. فحب الحق واحترام العدل أرجح . وبينما قانون نابليون يحرم على الابن أن يشهد على والديه فى قضية مدنية أو جنائية ، يقول القرآن العكس ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على انفسكم أو الوالدين والأقربين – النساء ١٣٥ ﴾ . وعلينا كذلك طاعة رؤسائنا وولاة أمورنا ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول – النساء ٥٩ ﴾ على أن تكون أوامرهم مشروعة. فإن كانت موضع نزاع وجب الاحتكام إلى كتاب الله. وفى الحديث " السمع

والطاعه على المرء المسلم فيما أحب وكره . ما لم يؤمر بمعصية . فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة ".

وعلينا الوفاء بالعقود والتعهدات ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود – المائدة ١﴾ وفي الحديث " المسلمون عند شروطهم " " ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل " " الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً ، أو أحل حراماً " .

فلا يوجد من حيث المبدأ ولا يمكن أن يوجد فى الأخلاق الإسلامية أى تصادم بين واجب المواطن الصالح وواجب المسلم الصالح ، فكلا الواجبين تابعان لنفس القانون النابع من مصدر تشريعى واحد . إلا أنه فى مواجهة اى تشدد من الرؤساء عن هوى او نزوة فان القاعدة غاية فى البساطة "لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق " .

ونفترض الآن أن هذه الأوامر كانت متوافقة ، وأن الواجبات الناشئة من ذواتنا أو من سلطة بشرية كانت كلها مطابقة للقاعدة القرآنية .. هذه الحالة سوف تنتمى الى جهات المسئولية الثلاث ، أى ان المسئولية ستكون أخلاقية واجتماعية ودينية . فهل معنى ذلك أن هذه الدرجات سوف تختلط فيما بينها او سوف يتداخل بعضها فى بعض؟ كلا .. وانما سيحتفظ كل نوع من هذه المسئوليات بخصائصه وشروطه الخاصة .

ولن ينحصر تمايزها فى أن المسئولية الأخلاقية تتحقق دائماً على الفور ، فى حين أن المسئولية الاجتماعية لا تعمل إلا على آجال تتفاوت طولاً وقصراً ، وأن المسئولية الدينية لا تتجلى إلا يوم القيامة . وليس فقط أن الجزاء الإخلاقى لا يتحقق إلا داخل نفوسنا ، وأن الجزاء الاجتماعى يقع مباشرة على أجسامنا وأموالنا وحقوقنا المدنية ويؤثر فى نفوسنا من خلال هذه الأشياء الخارجية ، بينما الجزاء الإلهى يمس النفس والجسم معاً بعقوبة رهيبة او بجزاء حسن فى حياة خالدة . وليس هذا فقط وإنما الشروط التى تنشأ فى ظلها مسئوليتنا الأخلاقية والدينية من ناحية ، ومسئوليتنا الاجتماعية من ناحية أخرى – ليس لها نفس المساحة فى التشريع الإسلامى .

نبدأ بدراسة شروط المسئولية الأخلاقية والدينية التى ترددت فى كثير من الآيات القرآنية . ونؤكد اولاً على الطابع الشمولى لمبدأ المسئولية الذى وسع القرآن نطاقه حتى شمل جميع المخلوقات العاقلة ، دون تفرقة بين عقل إنسانى وعقل " فوق – إنسانى " وبين عامة الناس واشدهم ورعاً ﴿ إنْ كل من فى السماوات والأرض الا آتى الرحمن عبداً– مريم ٩٣ ﴾ ﴿ فوربك لنسالنهم أجمعين عما كانوا يعملون – النحل ٩٢ – ٩٣ ﴾ ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ، ولنسألن المرسلين – الأعراف ٦﴾ ولا شك أن المقصود هنا هى المسئولية امام الله يوم القيامة

ولكن لننظر فى الآيات التالية الى المكانة التى خص بها القرآن المسئولية الأخلاقية . وكيف أنه - حتى فى هذا اليوم الحاسم - يدفع محكمة الضمير الى الأمام لإعداد وتبرير الحكم الأخير ﴿ اقرأ كتابك .. كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا - الإسراء ١٤ -١٥ ﴾ ﴿ علمت نفس ما أحضرت - التكوير ١٤ ﴾ ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت - الانفطار ٥ ﴾ . وهذه الشمولية من ناحية الفرد تتضاعف من ناحية الموضوع . ففى تلك اللحظة تكون جميع الاعمال التى وقعت فى الحياة الدنيا حاضرة فى اذهان اصحابها ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم احداً . وعرضوا على ربك صفاً.. لقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة . بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون : يا ويلتنا ! ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . ووجدوا ما عملوا حاضراً . ولا يظلم ربك أحداً - الكهف ٤٧-٤٩ ﴾ .

بل ان الحساب سوف لا يطلب عن جميع الأعمال الظاهرة والخفية فحسب ﴿وإن تبدو ما فى انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله - البقرة ٢٨٤ ﴾ وإنما عن جملة استخداماتنا لملكاتنا ، ولكل خير فطرى أو مكتسب ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً - الاسراء ٣٦ ﴾ ﴿ ثم لتُسألن يومئذ عن النعيم - التكاثر ٨﴾ والرسول ﷺ يوضح لنا " لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره .. فيم أفناه؟ وعن عمله .. فيم عمل ؟ وعن ماله .. من اين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه .. فيم أبلاه ".

ولتلخيص هذا كله فلن نجد خيراً من قول النبى ﷺ " كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته . الإمام راع ومسئول عن رعيته. والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها . والخادم راعٍ فى مال سيده ومسئول عن رعيته " فكل فرد فى مجاله مسئول عن حسن سير الأمور العامة والخاصة التى وكلت اليه .

بيد أن المسئولية الأخلاقية والدينية - لكى تكون شاملة - لها شروط:

٢- شروط المسئولية الأخلاقية والدينية :

أ- الطابع الشخصى للمسئولية .

المسئولية الأخلاقية والدينية مسئولية شخصية بحتة. وسوف نكتفى ببعض الآيات القرآنية التى تقرر هذا المبدأ الأساسى ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت - البقرة ٢٨٦ ﴾ ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه . ومن ضل فإنما يضل عليها . ولا تزر وازرة وزر اخرى - الاسراء ١٥ ﴾ ﴿ لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا - لقمان ٣٣ ﴾ ...

يتضح من هذا أنه لا يمكن ان يحدث فى مجال الثواب والعقاب أى تحويل أو تمديد أو مشاركة أو التباس ، حتى بين الأباء والأبناء . فضلاً عن الاجداد الأولين ﴿ **تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون – البقرة ١٣٤ ، ١٤١** ﴾ .

وهكذا بجرة قلم تم استبعاد قضية خطيئة آدم . فالقرآن يرفض امتدادها على الناس أجمعين ـ ولا يرى أنها ذات طابع دنيوى كما تصفها العقيدة المسيحية . فقد خُدع آدم عندما أوهمه ابليس انه قد يصبح فى نقاء الملائكة او مخلوقاً خالداً ﴿ **ان تكونا ملكيْن أو تكونا من الخالدين – الاعراف ٢٠** ﴾ يا لها من غلطة نبيلة ! .. ثم كان النسيان ﴿ **فنسى ولم نجده له عزماً – طه ١١٥** ﴾ . ولكن النسيان والنية الطيبة ليسا عذراً مقبولاً أمام الواجب الملزم . كما أن فطرة آدم لم تفسد من جراء معصيته مما لم يستلزم " مخلصاً " آخر غير نفسه . فقد كان يكفيه الاعتراف بذنبه وإظهار ندمه ليغفر له . بل ان الله رفعه إلى درجة المصطفينْ الأخيار ﴿ **ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى – طه ١٢٢** ﴾ لقد وقعت الخطيئة بسبب ضعف عارض وتقصير فى مراعاة الواجب .

ومع ذلك يذكر القرآن حالتين كأنهما خرجتا على مبدأ المسئولية الفردية. فقد قال عن بعض المذنبين ﴿ **وليحملُن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم – العنكبوت ١٣** ﴾. كما صرح بأن ذرية المؤمنين سوف تعامل معاملة آبائهم إذا اتبعوهم فى طريق الإيمان ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم – الطور ٢١** ﴾ مما قد يوهم أن الثواب والعقاب لن يكونا تبعاً لجهد الفرد وحده ، وإنما قد يتأثرا بعمل الآخرين .

نبدأ باستبعاد فكرة تحويل كامل يحرم الفرد الرئيسى من ثواب جهده ، أو يفلت به من عقاب سيئاته . هيهات أن يحدث ذلك . فإن ذات النصوص التى ذكرت الحالتين تؤكد هذه الحقيقة . ﴿ **وماألتناهم من عملهم من شئ – الطور ٢١** ﴾ ﴿ **وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ – العنكبوت ١٢** ﴾ هى اذن اضافة من الثواب أو العقاب تاتى – فيما يبدو – من الخارج ، زيادة على جزاء العمل الفردى . إلا أنه بعد هذا التوضيح لا يزال هناك مايوهم بالتعارض مع النصوص التى تنفى ان ينسب للإنسان ما ليس من عمله.

توضح دراسة الحالة الأولى طريقة الإسلام فى تصور المسئولية الفردية . فالإنسان ليس مسئولاً فقط عن الأعمال التى يؤديها بالتدخل الإيجابى المباشر .. وليس فقط عن القدوة التى تنتشر بين الناس بسبب مهابة صاحبها . إنما عن كل مبادرة – حسنة أم سيئة – يكون لها آثار تتجاوز حدودها او نتائجها المباشرة .. وفى الحديث " من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .. " "ليس من نفس تقتل نفساً ظلماً ، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها " وتلى النبى ﷺ الأية ﴿ **من قتل نفساً**

بغير نفسٍ أو فسادٍ فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً – المائدة ٣٢ ﴾ بل هناك أبعد من ذلك .. فنحن مسئولون ايضاً بصورة ما عن تصرفات غيرنا حين نتركهم يسيئون دون ان نتدخل بالوسائل المشروعة لمنعهم . **﴿ لُعن الذين كفروا من بنى اسرئيل على لسان داود وعيسى بن مريم .. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه – المائدة ٧٩ ﴾** . فالمسئولية الفردية هى من الامتداد حتى تكاد تندمج مع المسئولية الجماعية ، ولكنها ليست هى . لأن الجماعة هى جملة ضمائر فردية تعلم القاعدة الأخلاقية ، وتعلم بمخالفتها ثم لا يكون لها حيال المخالفة موقف اللائم الصريح **﴿ فلما نسوا ما ذكروابه ، أنجينا الذين ينهون عن السوء – الاعراف ١٦٥ ﴾** وليس هذا كل شئ ، فالنتائج البعيدة التى تحدثها أعمالنا الواعية فى المجتمع تدخل فى الحساب سلباً أوإيجاباً ، حتى بعد موت صاحبها " إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أوعلم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" .

أما الحالة الثانية . فلها تفسيرات عديدة تحاول أن تسوغ حكم الآية الذى يسوى "فى الواقع " بين طرفين غير متساويين " فى الحق " . ونسأل عما اذا كان فى الآية الكريمة ما يفيد مثل هذه المساواة . إذ أن كلمة "ألحقَ" تفسر بمعنى " شبّه " او بمعنى "أتبع وضّم " وهناك ما يدعوا إلى الأخذ بالمعنى الثانى .

ثم نجد آيات اخرى تعالج حالات شبيهة ولا تشير إلى معاملة على قدم المساواة. وإنما مجرد مشاركة بلفظ " مع " **﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين – النساء ٦٩ ﴾** . وفى الحديث " أنت مع من أحببت " و " المرء مع من أحب " . إنها إذن حالة خاصة فى إطار المفهوم العام، إنها "الحب فى الله " . وهى حالة الأبناء الذين لم يكتفوا ببنوتهم الطبيعية ، فأضافوا اليها "بنوة روحية " .. فلماذا لا يتحقق مثلهم الأعلى باجتماعهم فى الله مع من كان قدوة لهم فى الدنيا، واتبعوه بدرجات متفاوته فى الكمال ؟ وإلا كان فصلهم إنكاراً لقيمة هذا الحب علماً بأن هذا الاجتماع لا يمنع مطلقاً من وجود تدرج فى الجزاء. كالقطار الذى يقل طوائف مختلفة من المسافرين . وهكذا لا تتعارض الآية الكريمة مع المبدأ العام .. مبدأ المسئولية الفردية التى تظل فردية بكل معنى الفردية

وقد يثار اعتراض عند محاولة فهم " الشفاعة" (اى التوسط عند الله يوم القيامة – سواء من جانب الملائكة او الأنبياء – لصالح الأتقياء ، أو من جانب المؤمنين لصالح إخوانهم) . فما دور الشفاعة ؟ وما مدى هذا التدخل ؟

إذا نظرنا إلى الشفاعة بحسب ما نراه فى حياتنا الدنيا ، فإن مصير المشفوع له سوف يطرأ عليه تغيير جذرى بناء على إلحاح أو ضغط الشفيع فيختلف عما كان قبل هذا التدخل (الذى جاء من الخارج) . وفكرة الشفاعة بهذه الصورة تتضمن أخطاء

فادحة تدخل فى صميم الوثنية العربية التى جاء الإسلام لتصحيحها . فالقرآن الكريم يؤكد فى آيات كثيرة ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه؟ - البقرة ٢٢٥ ﴾ ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه - الرعد ٤١ ﴾ ﴿ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً - طه ١٠٩ ﴾ ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى - الانبياء ٢٨ ﴾ ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً - الزمر ٤٤ ﴾ ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً ، الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى - النجم ٢٦ ﴾ ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لايتكلمون إلا من اذن له الرحمن وقال صواباً - النبأ ٣٨ ﴾ . إذن المفهوم الاسلامى للشفاعة هو :

١- ان الشفيع لا يقترح التدخل ، ولا يسمح لنفسه بأن يتدخل من تلقاء نفسه . وإنما هو الله الذى بيده الأمر ، وهو الذى يأذن له بالكلام.

٢- ان الشفيع لا يتدخل إلا من أجل من يرتضى الله قبوله .

٣- ان الشفيع لا يستند إلى جاهه ، وإنما يتوسل ببعض فضائل المشفوع له التى تطابق الواقع .

إذن الشفاعة بهذا المعنى تسبغ شرفاً مزدوجاً على المدافع والمدافع عنه ، ولكن هيهات ان تكون القضية دائماً موفقة إذ قد يخطئ الشفيع فى الوقائع فيسحب عندئذ شفاعته ، فيقال للرسول ﷺ " انك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، فيقول سُحقاً سُحقاً " .. فإذا ما تكللت جهود الشفاعة بالنجاح فذلك لأن المشفع لهم يستحقون ثواب الله طبقاً لشرائعه ، وتكون الشفاعة فرصة لتتجلى الارادة الإلهية.

ومع ذلك ، فلا ننسى أن هذا الأمر يقوم على الكيف لا الكم ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث - المائدة ١٠٠ ﴾ ولكن لما كان علمنا لا يصل إلى الموازين والمقاييس التى سيزن الله بها القلوب ، فإننا نعجز عن أن نحكم على الناس .. عجزنا على أن نحكم على أنفسنا بأنفسنا . ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى - النجم ٣٢ ﴾ غير أن جهلنا بهذه التفاصيل لا يمتد إلى المبدأ الذى يقرر أن السلوك الفردى هو الأساس الوحيد للتقدير الأخلاقى وما يتبعه من أنواع الجزاء ﴿ وأن ليس للإنسن إلا ما سعى - النجم ٣٩ ﴾ .

ولا يقولن أحد اننا ننظم الكرم الإلهى بأسلوب صارم . فهذا غير صحيح . فالقرآن هو الذى ينظم ذلك ويفرق بين نوعين من الفضل : عام وخاص . فيستخدم الفعل الماضى فى حديثه عن الفضل العام ﴿ ورحمتى وسعت كل شئ - الاعراف ١٥٦ ﴾ ويعرض هذه الرحمة على أنها واقع يضم جميع الأشياء فى الدنيا ، ويتمتع بها الناس جميعاً بنفس القدر. الطيبون منهم والاشرار . وهذا الفضل العام يتبع نظام الوجود ، وهو

شرط للمسئولية ، وبمقتضاه يملك كل إنسان الوسائل الضرورية - المادية منها والأدبية- لفهم الشرع والعمل به . بينما حين يتحدث القرآن عن الفضل الخاص يذكره بصيغة المستقبل ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون - الأعراف ١٥٦ ﴾ ، فهذا الفضل الخاص يتبع نظام القيم وهو جزاء المسئولية . فإذا اختص به الذين أدوا واجباتهم بإخلاص فهذا هو الوضع الطبيعي ، لأن الحكمة القرآنية تستند الى مبدأ ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم - الحجرات ١٣ ﴾ .

ب - الأساس القانوني للمسئولية .

يعلمنا القرآن أن أحداً لن يحاسب على أفعاله ما لم يكن قد علم بالأحكام مسبقا . ويكون هذا الإعلام بطريقين مختلفين : طريق داخلي وطريق خارجي . فقواعد القانون الأخلاقي - في أكثر صورها شمولاً - مسجلة في نفوسنا بشكل ما. ولكي نتعرف عليها، فما علينا سوى استخدام ملكاتنا الفطرية ، باستشارة عقولنا ، أو استفتاء قلوبنا ، أو اتباع دوافعنا الخيّرة . ولما كانت معرفة هذا القانون الفطري في وسع كل إنسان - على تفاوت بين الأفراد- فهل هذه المعرفة تكفي لتأكيد مسئوليتنا نحو انفسنا ؟

لم تنازع المدارس الإسلامية في وجود نوع من المسئولية الشاملة التي تستند إلى هذا الإلزام الفطري . فهل يكفي هذا لتقرير مسئوليتنا أمام الله ؟ هنا اختلفت هذه المدارس . فالمعتزلة يقررون ذلك بلا استثناء . بينما الماتريدية يوافقون عليه جزئياً (فيما يتعلق بالواجبات الأولية) . أما اكثر مدارس أهل السنة فإنهم ينكرونه إنكاراً مطلقاً . ويقررون أننا لسنا مسئولين أمام الله ولا حتى عن واجباتنا الأساسية إلا في حدود تعليم الله لنا بطريقة خاصة وإيجابية. ويستندون في ذلك إلى نصوص القرآن . ﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون - التوبة ١١٥ ﴾ ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً - الإسراء ١٥ ﴾ ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا - القصص ٥٩ ﴾ فقد أوجب الله سبحانه على نفسه أن يعلم الناس قبل أن يحملهم مسئوليتهم ﴿ لئلا يكون الناس على الله حجة بعد الرسل - النساء ١٦٥ ﴾ ﴿ أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما اشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم - الأعراف ١٧٢ - ١٧٣ ﴾ لأن الله يرى أن من الظلم تعذيب القرى التي غفلت عن واجباتها لأنها لم تعرفها ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم ، وأهلها غافلون - الأنعام ١٣١ ﴾ ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ، ذكرى وما كنا ظالمين - الشعراء ٢٠٨-٢٠٩ ﴾ .

فاذا كان هذا شأن الأسوياء من الناس ، فما القول في الضمائر المحجوبة لأسباب طبيعية ؟ لقد أكملت السنّة النبوية لحسن الحظ هذه النقطة " رفع القلم عن ثلاثة :

عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المبتلى (المجنون) حتى يبرأ ، وعن الصبى حتى يكبر (يحتلم)".

وليس معنى ذكر الأطفال مع الحالتين السابقتين ، أنهم جزء مهمل أو يجوز إهماله فى المجتمع الإسلامى. فإن الطفل المسلم له نظامه الكامل كالرجل البالغ. وإذا كانت مسئولية الأطفال مخففة ، فما ذلك إلا لزيادة مسئوليتنا تجاههم .. كآباء وحكام وأساتذة ورؤساء ، تقع على عاتقنا مهمة تربيتهم وتقويمهم . وإن أردنا أن نتطرق إلى الجانب الأخلاقى فقط لكى نوضح ما هو مطلوب منهم ، وما هو متسامح معهم فيه ، فإن الحديث سيطول .. غير اننا نوجز القول فى الآتى .

١ – نعرف قواعد الأدب والاحتشام التى يفرضها القرآن بألا يدخل أحد بيت غيره دون إذن ﴿ لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها – النور ٢٧﴾ ولكن القرآن يتساهل مع الخدم والأطفال لا على سبيل الإعفاء – وإنما يقيدها بمواعيد الراحة ﴿ .. ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحُلم منكم ثلاث مرات ... النور ٥٨ ﴾ .

٢ – فى الحديث " مروا الصبىّ بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، فإذا بلغ عشر سنين فأضربوه عليها " وفى رواية " مروا أولادكم ... وفرقوا بينهم فى المضاجع ".

٣ – علينا ألا ندع أطفالنا – منذ سنيهم الأولى – يأكلون او يستعملون أشياء ليست من حقهم . فعندما لمح النبى ﷺ تمرة من تمر الصدقة فى فم الحسن وهو طفل نهاه قائلاً " كخ ! كخ! إرم بها. أما تعرف أنّا آل محمد لا تحل لنا الصدقة ؟ "

نعود الآن إلى مبدأ العلم بالشرع كشرط ضرورى لتحمل المسئولية . فهل هو العلم الجماعى أم العلم الفردى؟.

مقابل المبدأ الفرنسى القائل " الجهل بالقانون لا ينهض عذراً لأحد " يوجد فى الشريعة الإسلامية صيغة مماثلة " لا عذر لأحد بالجهل فى دار الإسلام " . فهل يكفى الاعلان عن القانون ليكون معلوماً فى وسط معين لتتقرر مسئولية كل من يعيش فى هذا الوسط حتى ولو جهله البعض ؟ لقد قيد الفقهاء هذا المبدأ بحيث ينطبق فقط على المسلمين بالميلاد الذين يعيشون فى مجتمع يمارس واجباته الدينية ، ولا يطبق الا بشأن القواعد العامة المعروفة بوضوح كاف ، لا على التفاصيل التى قد تغيب عن غير المتخصصين .

والحق ان هذا المبدأ يعبر عن نوع من العدالة القانونية التى ترى الناس من الخارج وتحكم عليهم موضوعياً واحصائياً تبعاً لسلوك اوسطهم حالاً . وحتى لايتسع باب

الاحتجاج بالجهل بالقانون امام شتى المخالفات ، مما أوجب النظر الى الامور من هذه الزاوية لحفظ النظام فى المجتمع .

أما فيما يختص بالمسئولية الأخلاقية والدينية التى نحن بصددها ، فانها لاتتقرر إلا حسب حالة الضمير الفعلية ، بشرط واحد هو ألا يزيغ هذا الضمير عن الهدى مختاراً بل يحرص على البحث عنه عند الحاجة ﴿ **ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين – الزخرف ٣٦** ﴾ أى يجب ان يصل القانون الى علمى أنا نفسى سواء بالتربية او الاعلان او الصدفة أم أتوجه إليه بسعيى وبحثى ﴿ **وأوحى الىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ – الانعام١٩** ﴾

أما فى حالة النسيان كظاهرة طبيعية خارجة عن إرادتى ولا ترجع الى خطأ منى ، فهل يكون مقبولاً فى منطق العدالة القائمة على واقع الأمور ان أكون مسئولاً عن مخالفتى للقاعدة . بالطبع لا . فحين دعا المؤمنون ﴿ **ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا .. البقرة آخرها** ﴾ لم يلبث النبى ﷺ أن أضاف " قال الله : قد فعلت ".

جـ– العنصر الجوهرى فى العمل .

عرفنا حتى الأن العلاقة التى تربط الفرد المسئول بالقانون . ورأينا أن المسئولية لا تتقرر ولا تجد مبررها فى نظر القرآن إلا بشروط : أن تذاع شريعة الواجب، وأن يعرفها كل ذى علاقة بها ، وأن تكون حاضرة فى ذهنه وقت إنجازه العمل .

وبالإضافة إلى علاقتنا بالقانون " كعلاقة معرفة " ، لنا علاقة أخرى بالعمل هى "علاقة إرادة " ، يضمهما الضمير الاخلاقى للفرد فى وقت واحد . وإن المحكمة التى مهمتها ان تنسب الأعمال إلى الأشخاص لاتستطيع أن تصدر حكماً عادلاً دون أن تأخذ فى الحسبان الطريقة التى تقع بها هذه الأعمال وعلاقتها بأشخاصنا .

وبادئ ذى بدء ، يجب أن نستبعد العمل اللاإرادى من مجال المسئولية ، حيث تنقصه الإرادة كعنصر تكوينى للشخصية .. والحق أن العمل اللاإرادى من الناحية الإنسانية "حدث " لأنه بلفظ القرآن ليس " مكتسباً لنا " . وإذا كان يطلق عليه وصف "عمل" فإنه وصف غير مناسب .

فهل نقول – على عكس ذلك – إنه يكفى أن يكون العمل مراداً منا لكى ينسب إلينا ؟ – نعم ولا .. نعم إذا كانت نسبة العمل إلينا بقصد تحديد " السببية ". ولا .. إذا كانت نسبته الينا مرادفة " لمسئوليتنا الأخلاقية " عنه . لأن المسئولية ليست مجرد نسبة العمل إلى إنسان جملة ، وإنما لابد من وجود صفة مميزة ، وهى أن يترتب على العمل

وجوب الثواب أو العقاب. وبالتالى فمن الضرورى أن يكون العمل الإرادى متصوراً فى ذهن صاحبه بنفس الطريقة وبنفس وجهة النظر التى تصورها عنه المشرع. ففى علم الأخلاق ، لا توجد طاعة أو عدم طاعة إلا إذا كان هناك توافق كامل بين العمل باعتباره مأموراً به أو منهياً عنه – وبين ذات العمل باعتباره قد وقع فعلاً .

مثال:أنك خرجت لممارسة القنص فى غابة أو الصيد فى بحيرة . ثم اعتقدت – خطأ – أنك صوبت سلاحك نحو صيد فى حين أنك اطلقت النار على إنسان. أو وأنت تريد أن تصيد سمكة أنقذت طفلاً غريقاً . فرغم التماثل بين هذين العملين من " الناحية المادية " وبين الأعمال التى ينظمها القانون ، فإنهما غير متماثلين من " الناحية الكيفية ". لقد أردت عملاً مباحاً او محايداً ، بينما القانون الأخلاقى يقصد عملاً واجباً أو محرماً . وكان الغرض من تنظيم القانون هو حياة الإنسان ، ولكنك لم تقصد حياة الإنسان .. بإنقاذها او بإنهائها ، فضلاً عن أنك لم تقصد إنجاز عمل موجب للثواب أو العقاب . وبناء على ذلك يتوقف الاستحسان أو الاستهجان فى مجال الأخلاق على الصفة المحددة التى تسرى عليها القاعدة . وأى انحراف للإرادة يؤدى إلى النظر إلى الأشياء بطريقة مختلفة – ولو بحسن نية – يبعدها عن مجال تطبيق القانون الأخلاقى .

وعندما يقول القرآن ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم – البقرة ٢٢٥ والمائدة ٨٩ ﴾ نتساءل عن المقصود باليمين. يقول ابن عباس " هو ما يجرى على اللسان فى درج الكلام والاستعمال (لا والله) (بلى والله) من غير قصد اليمين". ولكن مالكاً يفضل انه " حلف الإنسان على الشئ يستيقن أنه كذلك ، ثم يوجد على غير ذلك – فهو اللغو " . ولسنا فى موقف اختيار احد التفسيرين . لأننا نعتبرهما حالتين لعدم المسئولية فى نطاق القانون العام . بل ونرى أن التفسير الأول يتفق أكثر مع آية سورة المائدة التى تذكر الأيمان الخفيفة فى مقابل الأيمان المؤكدة ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ فى حين أن آية سورة البقرة تقابل الأيمان الخفيفة بالأيمان التى ينشأ عن الحنث بها ضرر متعمد ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ . وهكذا يتضح من التفسيرين أن العمل " الإرادى " الذى " انعقدت عليه النية" هو وحده الذى يستتبع المسئولية الأخلاقية

بيد أن " النية " فى حاجة إلى مزيد من التوضيح . ذلك أن هناك نوعاً من الخطأ لا يتعلق بموضوع النشاط ، وإنما بقيمته ، وبمغزاه الأخلاقى . فقد يخطئ المرء لا فى العمل الذى يؤديه ، وإنما فى علاقته بالقانون . فخطئى لم ينشأ عن جهل لأنى مدرك لموقفى ، موقن بالمبدأ الذى يجب ان يخضع له الموقف . ونأخذ مثالاً من القرآن عن المقاتل : فقد ألاحق عدواً . حتى يصبح عاجزاً عن الحركة ، فيطلب السلام ويضع السلاح. وأتساءل عما إذا كان طلبه عن اخلاص أم مجرد حيلة . وبالحكم عليه من خلال

ماضية القريب ، وطبعه الحاقد ، استبعد ان يكون قد تغير فجأة ، فأقتله . والقتل فى هذه الحالة عمل إرادى مقصود. ولكنه ليس مقصوداً بالمعنى الكامل إذ انه مقصود بصفته الطبيعية ، لا بصفته الأخلاقية . لقد قصدت قتل رجل ، ولكنى لم أقصد مخالفة القانون، لأنى بدأت بافتراض أن الرجل خارج على القانون

فالعمل المنجز بهذا الفرق فى النية يوصف بأنه " عمد بشبهة " أو "عمد بتأويل " ويقابله " العمد بغير شبهة " و" الخطأ " . نترك هذا التقسيم ونحاول ان نوضح الفرق بين المخلص وغير المخلص (loyal - déloyal) .

فقد تكون نيتى غير العدائية ، نية موجهة ومصطنعة ، تبرر نية أخرى أبعد عمقاً واكثر تأصلاً فى نفسى . فى حين أن نيتى الثانية لا تبرير لها وهى غير مقبولة فى نظرى ، إذا كلفت نفسى عناء تحليلها لنفسى ، وأن تكون لدىَ الشجاعة فى أن أواجه دوافع عملى الحقيقية . فى هذه الحالة ليس هناك شك فى أن نيتى الثانية هى مجردة من أية قيمة أخلاقية ، وهى عاجزة عن تبرئتى من المسئولية الأخلاقية بأى وجه من الوجوه، مع قدرتها على تبرئة ساحتى أمام القانون. وهذه الحالة تنطبق على المثال السابق عن ملاحقة العدو الجانح إلى السلم ﴿ **ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً – النساء ٩٤** ﴾ وقول النبى ﷺ للصحابى " أقتلته بعد أن قال " لا إله إلا الله " ؟ فما زال يكررها حتى تمنى الصحابى أن لو لم يكن أسلم قبل ذلك اليوم .

أما إذا كانت نيتى مطابقة تماماً لرؤيتى الخاصة ، وفى حدود اقتناعى بأننى لا انتهك القانون (باستثناء حالة ارتيابى فى جهلى . وعدم بحثى عن تبديده) فلا لوم علىّ فى موقف بهذا الصدق والإخلاص ولو كان على ضلال . فالمرء محاسب تبعاً لما فى نفسه على كل حال ﴿ **ربكم أعلم بما فى نفوسكم. إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً – الاسراء ٢** ﴾.

إذن لكى نصوغ الشرط الثالث للمسئولية الأخلاقية نقول : إن العمل المنوط بالمسئولية هو العمل الذى تكون فيه النية كاملة ، أى الذى تستهدف فيه الإرادة ليس فقط الخصائص الطبيعية لموضوعه ، وإنما أيضاً الخصائص الأخلاقية على نحو ما تصوره المشرع . فيجب على الفاعل أن يتناول العمل من نفس الجانب الذى من أجله تقررت الإجازة أو التحريم أو الوجوب ، ومن حيث هو كذلك . وأى اختلاف فى الرأى ، أو أى انحراف فى القصد عن أية صفة من الصفات ، يخرج العمل عن مجال القانون. باعتبار أن العمل الذى نص عليه القانون غير العمل الذى تم إنجازه ، وبالتالى ليس له نفس الحكم. لأنه فى افتراضنا نتج عن خطأ لا إرادى . وهذا ما يؤكده القرآن ﴿ **وليس عليكم**

جناح فيما أخطأتم بهِ ولكن ما تعمدت قلوبكم - الاحزاب ٥ ﴾ ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا - البقرة ٢٨٦﴾ بتفسير الآية الأخيرة الذى ذكرناه

وقد يقال : إذا كانت هذه هى الأهمية التى تخصنون بها النية أو القصد ، وإذا كان هذا هو ارتباط المسئولية الأخلاقية بهذه النية . أفلا يستتبع ذلك - فى رأيك - أن تصبح " النية " هى كل " الأخلاقية " . أو كما يقول " كانت " " إن الشئ الوحيد فى العالم الذى هو خير فى ذاته ، هو الإرادة الطيبة ". هيهات أن يكون الأمر كذلك .. لأن "كانت" يلتزم بسلَم مجرد، حيث الفكرة العامة للواجب وحدة بدون أى تنوع ، وهو لا يتصور الضمير فى واقعه المتعدد والملموس ، ولا يأخذ من العناصر الثلاثة للضمير الأخلاقى (المعرفة والإرادة والعمل) سوى الإرادة .

النية إذن شرط ضرورى للأخلاقية . وبالتالى للمسئولية ، ولكنها ليست بأى حال شرطاً كافياً لهذه أو تلك . هذه هى رؤيتنا لدور النية فى الأخلاق الإسلامية .

د- الحرية .

بعد ما تبينت أهمية كل من " المعرفة " و " الإرادة " ، ألم يكن من المناسب ان نبحث " القدرة " وأن نقرر أن " فاعليتنا " (اى حريتنا) شرط رابع للمسئولية ؟ .. مما لاشك فيه أن مبدأ التناسب بين المسئولية والحرية تمتد جذوره فى أعماق الضمير الإنسانى . فاذا أخذنا الانسان كما هو - فإلى اى مدى يمكننا ان نتحدث عن مسئوليته؟

لا يغيب عنا أن مشكلة الحرية قد أثارت منذ القدم صراعاً بين مذهبين على تعارض تام فى المجال المجرد على الأقل : مذهب الحتمية ومذهب عدم الحتمية

فإذا أصغينا إلى أحدهما ، فلن يكون هناك مجال للإرادة الإنسانية الحرة بمعناها الصحيح . فقد قال " شوبنهور " " هناك أناس طيبون وآخرون خبثاء ، مثلما يوجد حملان ونمور ، فالأولون يولدون بمشاعر إنسانية ، والأخرون يولدون بمشاعر أنانية . وعلم الأخلاق يصف أخلاق الناس ، مثلما يصف التاريخ الطبيعى خصائص الحيوانات " ويذهب " سبينوزا " إلى القول بأن الأعمال الإنسانية مثل الظواهر الكونية .. وهذا "كانت" - بطل الحرية الذى جعل منها أساس الحاسة الأخلاقية - يحدثنا عن نوع من الحتمية تتعلق بالصرامة العلمية ، فيؤكد أننا لو كنا نعلم جميع الظروف الحالية والسابقة ، فإنه يمكننا التنبؤ بأعمال الإنسان بنفس الدقة التى نحدد بها كسوف الشمس . وكان على "كانت" لكى ينقذ الحرية ومعها المسئولية - أن يخرجهما من مجال التجربة ومن عالم الظواهر ، ثم يحبسهما فى عالم مجهول يرى أنه غير قابل للمعرفة ، وهذا يتساوى مع

إنكارهما في واقع الأمر .. وجاء " هوم " فلم يتردد فى القول صراحة " إن شعورنا بالحرية ليس إلا وهماً."

أما أنصار الاختيار الحر ، فإنهم يرون أن مسئوليتنا قطعية عن كل عمل مقصود لأن " الإرادة والحرية مترادفان " .. و " ديكارت " لا يضارعه أحد لانه أفسح مجال النشاط الى أبعد الحدود ، لا فى مجال العمل فحسب بل وفى مجال المعرفة أيضاً فإرادتنا في نظره هى التى تحكم او تمتنع ، وتؤكد أو تنكر. وتتجلى هذه الحرية فى الشك المنهجى أى فى القدرة التى نملكها لكى نرفض طواعية كل آرائنا العادية المسبقة (والمكونة من غير روية) ، وكل معارفنا السالفة المستمدة من حسنا أو المستخلصة من تدبرنا العميق .. سواء كان ذلك لكى نحدد موقفنا النهائى عن مدى صحتها أو خطئها ، أو لكى نعلق حكمنا بلا قيد أو شرط . غير أن هذا النشاط يتجلى بشكل إيجابى فى أحكامنا العادية – ورغم أن هذه الاحكام لايحددها إدراكنا – فإنها قد تسبق هذا الإدراك أو تتجاوزه .. كما يحدث ذلك فى جميع الحالات التى نرتكب فيها خطأً نظرياً .. هذا الخطأ الذى لايعدو أن يكون سوى حكم إرادى أصدرناه عن الأشياء التى نتوهم أننا على بينة من أمرها ، فى حين اننا لم نكن ندركها فى واقع الأمر. وحتى إذا رضخنا لحكم الواقع ، فاننا نفعل ذلك عن اختيار حر ، لأننا كنا نستطيع المقاومة وعدم التسليم (وحسبنا فقط أن نعتقد أن من الخير الاقرار – بناء على ذلك – بحقيقة حرية اختيارنا التى لالبس فيها).

نقتصر الآن على القضية الأخلاقية .. فهل نحن مصدر قرارتنا فى عملنا للخير والشر ؟ وهل نحن علة قراراتنا ؟ أم أنها نتيجة محتومة لفطرتنا الثابتة ، أو لحالات ضمائرنا السابقة : افكارنا او مشاعرنا ؟

أولع الجبريون بأن يصوروا لنا الطابع الفطرى فى إطار صارم بعيد عن المرونة. فاعتبروا الميول الطيبة أو الخبيثة فطرة منذ الميلاد .. فكيف اذن نكون مسئولين عن فطرة ليست صنعتنا ولا صنعة إدراكنا ؟ .. ثم هم لم يبرهنوا على الطابع الثابت لغرائزنا ، فى حين أثبت علم النفس المقارن أن غرائز الإنسان أقل ثباتاً وأكثر قابلية للتغيير عن غرائز الحيوان . وقد باشر الإنسان سلطانه على الحيوانات المتوحشة فصارت بالترويض طيعة مستأنسة . والقرآن من جانبه يقرر قدرة الإنسان المزدوجة على أن يطهر كيانه الجوانى أو يفسده ﴿قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها – الشمس ٩-١٠﴾ وإذا كانت بعض عناصر الطبع تستعصى على أى تطوير أو تقدم ، فتستبعد من مجال أى إلزام أو مسئولية . كأن يكون المرء - بطبيعته – حزيناً أو مرحاً ، متشائماً أو متفائلاً .. فهو ليس مسئولاً عن شذوذه النفسانى شأن المريض عن عيوبه الجسمانية .

ولقد أثارت مشكلة تحديد الإرادة عن طريق الدوافع او العلل ، فى الفلسفة الإسلامية ايضا نفس التيارات الثلاثة التى نجدها لدى الأخلاقيين الأوروبيين ، والتى تستنفذ كل الحلول الممكنة .

أولاً : مذهب جمهور أهل السنة ومعهم قليل من المعتزلة ، ويرون أنه لكى يتم اختيار أحد النقيضين اختياراً نهائياً وتحقيقه بمعرفتنا يجب توافر بعض الشروط الخاصة ، وأن تكون له علة تقتضيه اقتضاء ، بحيث يصبح من المستحيل اختيار النقيض. وإلا ظل الإنسان المختار فى حالة إمكان دون أن يبلغ درجة الفعل. وثانياً مذهب الخوارزمى والزمخشرى الذى اكتفى ببعض الأسباب المرجحة بدلا من اشتراط وجود علة موجبة . وأخيراً مذهب أكثرية المعتزلة ويرون أن الاختيار الإرادى لا يتطلب وجود شئ سوى ذاته . وقد ذكرنا أننا لا نميل إلى رأى المعتزلة. فهذا الاختيار المعتسف ينبغى استبعاده من موضوعنا ، لا لأنه أدنى درجات الحرية فحسب - كما قال ديكارت - وإنما لأننا نرى أن الإرادة اللامبالية ارادة ناقصة ... هذا ولقد تردد الرازى وبعض الأشاعرة بين المذهبين المتطرفين .

ومن جانب آخر التقى برجسون مع " كانت " من طريق آخر ، فكلاهما قرر عجز إرادتنا التجريبية والشعورية عن أن تفعل شيئاً سوى أن تتلقى عملها جاهزاً من ذات أخرى ، أطلق أحدهما عليها " الذات الأساسية " وسماها الآخر " الذات الماهية المعقولة". وليست هذه هى الحرية بالمعنى الذى يشغلنا . لأنها بدلاً من أن تدعم المسئولية الأخلاقية، فإنها تقوضها . إذ لما كانت إرادتنا تنبثق من طبعنا ، وكان طبعنا مفروضاً علينا قدراً مقدوراً ، فإننا نظل فى حلقة مقفلة : لا أحد يقدر أن يكون سوى ذاته .

أما الحرية التى نبحث عنها فإنها تكون ذات طابع يسيطر على الطبيعة ولا يخضع لسيطرتها ، أو تكون - كما قال سبينوزا - " طبيعة فاعلة " لا " مفعولة" ، وتكون فى مجال آخر غير الطبيعة الواقعية الكائنة ، أو التى فى طريقها إلى التكوين .

والواقع أننا عندما نجيب بالإيجاب على سؤال : هل نحن ما نزال " أحراراً " فى قرارتنا مع وجود امزجتنا وعادتنا وافكارنا وعواطفنا الحالية ؟ .. فإننا نقرر بأننا شئ أكثر من مجموع هذه الحقائق ، وأننا نملك فوق كل هذه الأنشطة الخاصة نشاطاً آخر أسمى ، هو نشاط "ذاتٍ محسوسة وكلية " قادرة على أن تنظم نفسها بألف طريقة مختلفة.

ولتحديد هذا المعنى نقول نريد أن نعرف ما إذا كنا ونحن نختار الشر فى ظروف ترجحه ، كنا نستطيع أن نختار الخير (أو العكس) .. وبمعنى آخر هل نحن حقاً صنّاع ثوابنا أم شركاء فى تعاستنا الأخلاقية عندما نختار ما نختاره ؟

إننا لا نذعى أن لدى جميع الناس قوة متساوية على فعل الخير والشر ، وبأن هذه القوة موجودة لدى نفس الفرد فى شتى الظروف . ان الهبوط أيسر من الصعود سواء بالمعنى المادى أو بالمعنى الأخلاقى . حتى لقد قيل أن الإرادة بصفة عامة لديها الميل إلى متابعة الخير المحسوس (الحاضر) ، أكثر من متابعة الخير الروحى (البعيد) ، وأنها تجد صعوبة فى الخضوع لأوامر العقل ، أكثر من اتباع الميول الفطرية والعادات الموروثة أو المكتسبة . والأصح أن نقول إن جميع الأفراد لا يجدون نفس المتعة فى كل الرذائل ، فلكل شخص نقطة ضعفه . حيث تكون مقاومته أقل أمام بعض الغوايات عن غوايات أخرى. إلا أنه لا يجوز المبالغة فى تصوير هذه الصعوبة حتى نجعل منها نوعاً من الاستحالة.

يقول ليبنز "كل قوة تعمل حيث تكون السهولة أكثر والمقاومة أقل. أليس هذا قانوناً عاماً ؟ فلماذا تريدون أن تجعلوا القوة الأخلاقية استثناء من هذه القاعدة؟ " إن التفكير على هذا النحو يؤدى بنا الى مغالطة منطقية واضحة . وذلك حين نضع فى ظروف غير متساوية ، مصطلحين يراد المقارنة بينهما. والحق أن أى قوة عمياء مستسلمة لذاتها ، موكولة إلى معطياتها الفعلية ، لا تظل على حالها إذا وضعنا خلف جهازها مهندساً ماهراً يضبطها تبعاً لحاجته ويحسن استخدام امكانياتها.

وهكذا المسئولية الأخلاقية .. يراها دعاة الحتمية غير موجودة فى أى مكان عند الإنسان ، بينما يؤكد خصومهم أنها موجودة فى كل مكان فيه قرار منعقد عليه النية. مهما تكن درجة اكراه الطبيعة المادية أو الاجتماعية أو النفسية حتى وإن بدا هذا الإكراه فى ظاهره غير قابل للمقاومة

فما موقف القرآن الكريم إزاء هذه المشكلة؟٠

لنتذكر اولاً عنصرين جوهريين من عناصر الإجابة :

١- غيبة أفعالنا المستقبلة ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً - لقمان ٣٤ ﴾ .

٢- قدرة الإنسان على ان يطّهر أو يفسد كيانه الداخلى ﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها - الشمس ٩-١٠﴾ .

ونضيف عنصرين آخرين .

٣-عجز كل المؤثرات أن تمثل إكراهاً على قراراتنا . والقرآن يذكرنا بهذه الحقيقة : ان أكثر النصائح إقناعاً بالحكمة ، أو اقوى الغوايات اغراء بالشر ، لا تستطيع ان تؤثر على سلوكنا ، دون قبول او رفض ناتج عن ارادتنا الحرة. وينقل لنا مقولة الشيطان يوم القيامة

﴿ وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى . فلا تلومونى ولوموا أنفسكم – ابراهيم ٢٢ ﴾ ويقول القرآن ﴿ نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر – المدثر ٣٧-٣٨ ﴾ .

٤ – الإدانة الجادة الصارمة لاتباع الهوى وللتقليد الأعمى ﴿ .. ولكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه – الاعراف ١٧٦ ﴾ ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون – الصافات ٦٩-٧٠ ﴾ ، وإن كانت هذه الأعمال فى تقدير الضمير العام لا مسئولية عليها .. أو عليها مسئولية مخففة .

وهذه النصوص لا يذعن لها أنصار الحتمية ، بينما يؤيدها المدافعون عن الاختيار الحر.

والغريب أن هذا التشدد الذى لا يسمح بأى عذر أمام مصاعب أحوالنا الداخلية – يفسح المجال للتسامح اذا تعلق الموقف بإكراه مادى – سواء جاء من الخارج – كتهديد معتد – أو كان نابعاً من كياننا العضوى كالجوع. فالمؤمن إذا تعرض لتعذيب الكفار لا إثم عليه إذا نطق بالكفر ليتخلص من التعذيب . ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه – إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان – ولكن من شرح بالكفر صدراً ، فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم – النحل ١٠٦ ﴾ وكذلك إذا حمله الجوع على اكل طعام محرم ﴿ فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم ، فإن الله غفور رحيم – المائدة ٣ ﴾ وايضاً تعفى المرأة من إثم الدعارة إذا أكرهت عليها ﴿ ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء – إن أردن تحصنا – لتبتغوا عرض الحياة الدنيا . ومن يُكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم – النور ٣٣ ﴾ . ولكن هذا الترفق لا يقابله أى عفو عن القتل أو السرقة أو هتك العرض تحت التهديد بإكراه خارجى حتى لو ارتكبت تحت التهديد بموت مرتكبها إذ عليه أن يقاوم ولو دفع حياته ثمناً لمقاومته. فهذه الجرائم ليس فيها عفو لمن يستبيح ارتكابها لانقاذ حياته . لأن الفعل هنا فعل ارادى مقصود وإن لم يكن برضا الفاعل ، أو طلباً للذة المخالفة .

وهكذا رأينا أن الإرادة الإنسانية فى علاقتها بأحداث الطبيعة الداخلية والخارجية، هى فى نظر القرآن – حرة مستقلة . فهل هى مستقلة استقلالاً مطلقاً ؟ اى هل خالق الطبيعة – سبحانه وتعالى – لا يتدخل فى نشاط الانسان ؟ هذا السؤال يثير القضية الميتافيزيقية او العقائدية .. قضية " القضاء والقدر " [1].

---

[1] انظر "مختصر القضاء والقدر فى الكتاب والسنة" ص ٦٠ فيما يلى (صاحب المختصر).

سبق أن نشرنا باللغة العربية (المختار ١٩٣٢) لمحة تاريخية قدمنا خلالها عرضا ناقداً للآراء المختلفة التى برزت فى الفكر الإسلامى إزاء هذه القضية . ونكتفى هنا بعرض خطوطها العريضة.

أدى غموض لفظ " نظرية القدر prédestinationisme " إلى فهمه بمعنيين مختلفين: فبالمعنى الدقيق هى النظرية التى تنفى نفياً مطلقاً وجود أى نشاط إرادى فعلى للإنسان . أما بالمعنى الواسع ، فيقصد بها فقط "سبق العلم الإلهى" . فإن الله قد خلق كل طاقات وقوى هذا الكون بما فى ذلك ملكة إرادتنا ، طبقاً لتدبير سابق ، وهو يعلم مسبقاً كيف ستعمل هذه القوى ، كما يعلم الأحداث التى ستنتج عن ذلك العمل . ولكن لم يتحدد ما إذا كان الله – سبحانه وتعالى – يتدخل أم لا فى سير كل هذه القوى بعد بدء حركتها ، وبهذا المعنى الثانى يمكن القول بأن الفكر العربى كله فكر قدرى ، مع بعض الاستثناءات . ومن جهة أخرى ليس هناك اثر للفكرة العكسية (أى التى تخرج أعمالنا من العلم الإلهى المسبق) فى الفترة السابقة على ظهور الإسلام ، ولا بعد ظهوره وحتى بداية العصر الاموى . إلا أنه فى عام ٨٠ هـ اعتنق هذه الفكرة المتطرفة شخص بالبصرة يدعى " معبد الجهنى " أعدم كمرتد ، وتبعته فكرته بلا عودة . غير أن الحادثة اثارت الفكر الفلسفى عن المشكلة.

وابتداء من بداية القرن الثانى الهجرى . لم تلبث أن ظهرت مدرسة المعتزلة (مع ظهور واصل به عطاء المتوفى عام ١٣١ هـ) التى أخذت نفس لقب " القدرية " وان كانت بطريقة مخففة . وتقول ان الله يعلم يقيناً فى أى أمر سوف يستخدم الإنسان ملكاته ، ومدى القدرة التى منحه إياها ، والله يتركه يفعل ما يشاء تحت مسئوليته الكاملة. غير أن المدرسة الجبرية – وصاحبها " جهم بن صفوان " اعترضت لأنها ترى أن العمل الإرادى كالعمل اللاإرادى تماماً لا يختلفان إلا فى الظاهر ، نظراً لعجز الإنسان عن أقل حركة ، فهو بين يدى الله " كالريشة فى مهب الريح " . فى الوقت الذى تؤكد فيه الفرقتان انتماءهما إلى الإسلام الصحيح ، وتؤيدان آراءهما بالنصوص القرآنية .

والحق أننا نرى فى هذه المناقشة تبايناً اساسياً فى فهم الصفات الإلهية التى لا يتم فهم كمال احداها إلا على حساب كمال الأخرى . فإن ﴿ الله خالق كل شئ – الزمر ٦٢ ﴾ والله سبحانه هو الموجود العادل بحق ﴿ ان الله لا يظلم مثقال ذرة – النساء ٤٠﴾ ويستدل من ذلك ، أنه لا يمكن أن نتصور أن الله – وقد سنّ شريعة الواجب الإنسانى بما يستتبعه من مسئولية وجزاء – إلا ولابد أنه زود الإنسان بالوسائل الضرورية لتمكينه من اداء العمل .

ونلاحظ أن القدريين حين ارادوا أن يؤكدوا وحدانية الخالق – لم يصلوا إلى حد إنكار الشريعة الأخلاقية ، كما أنهم لم ينسبوا إلى الله أى ظلم ، ولكنهم تصوروا الشريعة الأخلاقية الآمرة على أنها رمز لقانون إيضاحي صرف ، وأن الجزاء أثر طبيعي لنظام الأشياء. وعلى عكسهم فإن الأحرار – وهم فى حرصهم على الدفاع عن العدل الإلهي – لم يقصدوا رفع الإنسان إلى طلاقة الإله ، ولكنهم ألمحوا إلى وجود نوع من الاستثناء فى الفعل الخلاّق ، رغم أن أسبقية المقدور قد حدّت من مدى فكرة أن " كل ما هو موجود مخلوق لله " باعتبار ان الله موجود فيستحيل أن يكون مخلوقاً لنفسه. فلماذا لا يؤدى منطق التجربة إلى وضع قيد آخر على الأفعال الإنسانية .وهكذا إذا دفعنا هذين التعليلين إلى اقصى حد ، فإننا نصل – بعكس ما هو معروف – إما إلى إلغاء الإرادة الإنسانية ومعها حقيقة الواجب ، وإما إلى وضع قيود كبيرة على مجال علم الإرادة الإلهية . ثم جاءت مدارس أهل السنة لتوفق بين هذين المفهومين المتعارضين ، استناداً الى مبدأ المشاركة. فتكون كل من الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية لا تتوقفان عن العمل فى آن واحد* فى إنتاج الأعمال الإنسانية التى توصف بأنها إرادية ، غير أن عمل كل منهما يختلف عن عمل الأخرى باعتبار أن عمل الله عمل خلاّق ، بينما عمل الإنسان ليس أكثر من أنه تفتّح على الفعل الإلهى لكى يتلقى منه العمل جاهزاً فى اثناء تسخير الإنسان وحشده لقواه.

وهكذا دارت المناقشة بين المدارس حول الأعمال الظاهرة. وكان الغرض من السؤال المطروح معرفة من هو خالق حركاتنا الخارجية الإرادية ؟ – " إنه نحن ، دون تدخل من الله " كما أكده البعض ، أو " إنه الله دون مشاركة منا " كما قال الآخرون . واعتقدت المدرسة الثالثة انها تمسك بطرفى الخيط حين قالت " إنه الله ، مع تدخل إرادتنا" .

وحين لاحظوا أن ممارسة الإرادة هي نفسها حدث يحتاج إلى بيان ، تساءلوا : من ذا الذى يوجه إرادتنا ؟ .. وعند الإجابة انقسموا إلى طائفتين : الأولى وهم القائلون بسبق القضاء . (تلاميذ ابى الحسن الأشعرى المتوفى فى بغداد عام ٣٢٤ هـ) والثانية خصومهم (تلاميذ أبى منصور الماتريدى من بخارى المتوفى فى سمرقند عام ٣٠٣ هـ). وهكذا عادت النظريات الجديدة إلى نفس الموقف المتعارض القديم الذى واجه المدارس السابقة ، بعد أن انتقلت القضية الى المجال الداخلى للعمل الإنسانى.

والواقع أننا نجد فى القرآن البراهين التى تؤيد الاتجاهين . فمن ناحية : ينسب القرآن إلى الإنسان قدرته على إفساد نفسه أو إصلاحها ، ومن ناحية أخرى يقرر أن إرادتنا مثل قلوبنا وزكائنا ،ادوات بين يدى الله يقودنا بها كيفما يشاء ﴿ كذلك زينا لكل أمة

عملهم – الأنعام ١٠٨ ﴾ ﴿ فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للإسلام – الأنعام ١٢٥ ﴾ ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله – الدهر آخرها ﴾ ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه – الأنفال ٢٤ ﴾ . وإذا حاولنا التوفيق بين الاتجاهين ، نجد القرآن نفسه يمدنا بالمبدأ ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم – الرعد ١١ ﴾ أى أن الله* لا يفعل ذلك بمبادرة منه . وإنما يجريه كإجراء مقابل ، وردٍ على شئ من جانبنا . فعندما نشعر مثلاً بالفرح أو بالانقباض لمعرفة الحقيقة أولممارسة الفضيلة .. وحين نقرر أن هذه الآثار تحدث فينا بواسطة قوة عليا غيبية ، نجد أن سوابقها قد صدرت عن إرادتنا ، فنحن الذين بدأنا وانفتحنا على النور أو تحولنا عنه . ﴿ ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نُقيّض له شيطاناً فهو له قرين – الزخرف ٣٦ ﴾ ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون – المطففين ١٤ ﴾ ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه – الأعراف ١٧٦ ﴾ .

ويتعارض موقف القرآن على خط مستقيم مع موقف " كانت " فى مشكلة الاختيار الحر ، فيقرر القرآن الاستقلال الكامل لإرادتنا فى الاحداث الطبيعية مقابل حتمية " كانت " فى نظام الظواهر . أما فى النظام الماهى المعقول l'ordre noumenal فإن هذا الاستقلال – على العكس – يفسح المجال لتبعية (مزدوجة بل ثلاثية) للارادة الإلهية .. فالزوج الذى يودع نطفة ولده لا يخلقه . والزارع لا يفلق الحب ولاينضره . وكذلك إرادتنا – كملكة اختيار – فى حيز القوة هى صادرة عن فعل الخالق والطريقة التى تحقق بها الإرادة ذاتها تخضع لسلطان الخالق* .. ولو خالف العمل إرادة الله التشريعية فإنه لا يصطدم بإرادة الله الخلاّقة . فلابد من إجازة مرور لكى يتم العمل الإنسانى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله – الدهر آخرها ﴾ .

وفضلاً عن مساعدة الله بعدم الاعتراض ، فانه أحاط قدرتنا على الاختيار بجهاز قوى ومعقد " يتألف من العقل والحواس والنزعات والجاذبية الحسية والقيم الروحية والرؤية الداخلية (أى الضمير) والنور الخارجى (تعاليم الوحى أو غيرها)" وتصدر من هذا الجهاز كل قرارتنا التى هى أشبه بعملية انفاق من هذا الكنز العظيم . وهذا الكلام متفق عليه بالاجماع .

إلا أن هناك مساعدة خاصة يمنحها الله لبعض العباد ويحرم منها آخرين . وهنا يبدأ النقاش بين اهل السنة الذين يقرونها ، وبين القدرية (معتزلة وشيعة) الذين ينكرونها مطلقاً .. ويرون أن هذا الامتياز لا يكون متفقاً مع العدالة الإلهية . وهذه النظرة لها أساس من الحق . إذ يبدو لازماً – لتتحقق عدالة السماء – أن يتوافر حد أدنى من القدرة

الإنسانية الضرورية والكافية للوفاء بواجبنا واثبات مسئوليتنا على أن يكون ذلك عاماً وموزعاً على الجميع على حد سواء ، وفى متناول كل إنسان .

ولكن هل يمكننا أن ندّعى أن الخالق قد خلق الناس جميعاً فى نفس الظروف المواتية لحب الخير وقصد الحق .. بصرف النظر عن تنوع الصفات الوراثية وآثارها على أحكامنا وقراراتنا ؟ وفى الحديث " الناس معادن كمعادن الذهب والفضة" فضلاً عن أن القرآن يصنف الناس بصفة عامة إلى ضالين ومهتدين ، وكلا الفريقين مدين بحالته لمشيئة الله *. ﴿ بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان – الحجرات ١٧ ﴾ ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً– المائدة ٤١ ﴾ .

ويقرر القرآن أن الله يتدخل بطريقة إيجابية ومادية لدى عباده فى اللحظات الحاسمة ، كى يصرف عنهم الإغراءات السيئة ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن – يوسف ٣٤ ﴾ ويجنبهم السقوط فى الفاحشة ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء–يوسف ٢٤ ﴾ ويقوى إرادتهم ﴿ ولولا أن ثبتناك ، لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً–الاسراء ٧٤ ﴾ ويجعل لهم نوراً لكى يروا بوضوح ﴿ ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رأى برهان ربه – يوسف ٢٤ ﴾ ويزرع الثبات فى قلوبهم ﴿ فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين– الفتح ٢٦ ﴾ ويزين الإيمان فى أعينهم ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان – الحجرات ١٠ ﴾ والدعوة إلى دار السلام عامة ولكن الهدى مقصور على الذين شاء الله لهم الهدى ﴿ والله يدعو إلى دار السلام. ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم – يونس ٢٥ ﴾ . ولقد لجأ المعتزلة إلى التعسف فى تفسير هذه الآيات .

من أجل ذلك عرفت النفوس الكبيرة فى كل زمان أن ما تفعله من الحسن ومن الأحسن هو من فضل الله . وأن عليها دائماً أن تلتمس مساعدته حتى يثبتها على هذا الطريق .

فإبراهيم واسماعيل يدعوان ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك . البقرة ١٢٨ ﴾ وسليمان ﴿ رب أوزعنى ان اشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ – النمل ١٩ ﴾ وعيسى ﴿ وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً – مريم ٣٢ ﴾ والراسخون فى العلم ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا – آل عمران ٧﴾ . وهذه النفوس تثق فى فضل الله تعالى أكثر مما تثق فى قواها الخاصة . ﴿ وإلا تصرف عنى كيدهن ، أصب إليهن وأكن من الجاهلين – يوسف ٣٣ ﴾ ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى – يوسف ٥٣ ﴾ ﴿ قل أعوذ برب الناس – الناس ١ ﴾ والدعاء النبوى المأثور " اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين. إنك إن تكلنى الى نفسى تكلنى الى ضعف وعروة ، وذنب وخطيئة ،

وتقربنى إلى الشر . وتباعدنى من الخير ، وإنى لا أثق إلا برحمتك " . ولذلك كانت صيغة دعاء المسلمين فى كل يوم مرات ومرات . ﴿ إياك نعبد ، وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم - الفاتحة ٤-٥﴾ فبعد أن يبذلوا جهدهم الإنسانى* ، ليخضعوه لإرادة الله وحده ، يلتمسون معونته على الفور ليهدى خطاهم على الصراط المستقيم .

وبذلك تتفق نصوص القرآن مع نظرية أهل السنة ، التى تقرر وجود درجة أخرى من تبعية إرادتنا لإرادة الخالق ، ولكننا لا نستطيع تقرير ذلك إلا بتحفظين من القرآن .

أولهما : أن فضل الله الذى يمنحه بعض العباد ، ويمنعه عن آخرين ليس فيه محاباة أو اعتساف . لأن الإرادة الإلهية تعمل بحسب مقتضيات العلم والعدل المطلقين . فهى تتدخل لصالح من يستحقون التدخل ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها - الفتح ٢٦** ﴾ ولصالح من يعترفون بالفضل ﴿**أليس الله بأعلم بالشاكرين - الأنعام ٥٣** ﴾ والذين يتعطشون له وهم أهل لاستقباله ﴿ **فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم - الفتح ١٨** ﴾ أما الذين هم بعكس ذلك ، فإن الله يتركهم فى عماهم وصممهم ﴿ **ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون - الأنفال ٢٣** ﴾ . وموجز القول إن الله لا يضل إلا الأشرار ، ولا يهدى إلا من يرجع إليه.*

والثانى : أنه فى هذه الظروف الإيجابية والسلبية ، لم يحدث أن قيل إن الإرادة الإلهية تؤثر تأثيراً مباشراً على الإرادة الإنسانية أو تشلها أو تحل محلها ، وإنما دور المنح الإلهية هو توفير قدر من المساندة تحفظ الجهد ، وتيسر المهمة تيسيراً واضحاً ، حين يريهم الأمور على حقيقتها ، وحين يحبب إلى قلوبهم الحق والفضيلة ، غير أن الله لا يؤدى المهمة بالنيابة عنهم .

والمشكلة التى تفرقت المدارس الإسلامية بشأنها هى : عندما يطلب الله منا أن نستخدم قدرتنا على الاختيار - بعد أن يكون قد وضع تحت تصرفنا الإمكانيات العامة والخاصة - هل يظل سبحانه بعيداً عنا تماماً ؟ ألا يتدخل لصالح أى جانب؟ ألا يضع هنا - دون علمنا - دفعة علوية مباشرة وفورية فى صورة مساعدة أو ترك ، أو تقوية أو إضعاف للطاقة .. بحيث يرشد نشاطنا ويحدد حركته فى اتجاه أو آخر .. دون أن نشعر ؟

تلك هى القضية التى لم يفصح فيها القرآن بطريقة واضحة ، بل يبدو هنا أنه التزم حذراً مقصوداً على أن يؤجل صدور الرد الى وقت لاحق حين تتجلى الحقيقة العليا،

عندئذ سوف يقدم الله سبحانه حجته البالغة ﴿ قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين – الأنعام ١٤٩ ﴾ .

ولهذا لم يقف المسلمون الأولون من السلف ولا الحكماء من الخلف عند هذا الموضوع الذى اعتبروا بحثه غير رشيد وغير مفيد . إذ أن المشحنة لا يمكن أن تحل حلاً حاسماً بأية وسيلة من وسائلنا العادية وبأنوار العقل المحدودة . والحق أن مسألة "الحتمية العلوية " لا تطرح إلا من باب الفضول العقلى وبواسطته ، وما ينشأ عنه لا يهم الجانب الأخلاقى ، ولا الإيمان ولا التقوى .

أما ما يتعلق بالجانب الاخلاقى – موضوع دراستنا – فإن ما يهم معرفته هو الطريقة التى يتصور بها الإنسان عمله . وفى كلمة واحدة : نيته وقصده . فبمجرد أن نلجأ الى تبنى القرار واعتماد تنفيذه نصبح متضامنين مع فاعله الحقيقى . فإذا لم نكن السبب الأخلاقى للعمل فى ذاته جوهراً وصفةً، فنحن هذا السبب من حيث تكييف هذه الصفة .

وهكذا نرى القرآن يعلن مسئوليتنا أمام الله فى نفس الآية التى تبدو فيها الإرادة الانسانية تابعة للإرادة الإلهية تبعية كاملة ﴿ يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ولتُسألُن عما كنتم تعملون – النحل ٩٣ ﴾ إذن فإن مبدأ المسئولية يظل فى جميع الفروض مبدأ صحيحاً دون مساس[1].

---

[1] "مختصر القضاء والقدر فى الكتاب والسنة" المرجع السابق.

* ص ٤٨-٤٩ . الابتلاء لغة هو الامتحان والتمحيص والاختبار . ويعنى دخول العبد فى الموقف الابتلائى دخولاً اضطرارياً جبرياً ، يواجه العبد فيه بسلوكين متضادين عليه أن يختار واحداً منهما . فتجاه الابتلاء بالشدائد أمامه الصبر والرضا أو الجزع والاعتراض ... وحيال الابتلاء بالنعيم أمامه الشكر لله بالقلب واللسان والجوارح أوالغرور والبخل .. ثم تأتى المرحلة الثانية وتتمثل فى تحرك إرادة العبد لاختيار احد السلوكين أو الفعلين المتضادين او بين الفعل والترك .. ثم قيام الاستطاعة البشرية بتنفيذ ماتم اختياره. وعلى ذلك يكون الإنسان مسئولاً مسئولية كاملة عن اختيار فعله والقيام بتنفيذه ومحاسب عليه. فمقومات الموقف الابتلائى " جبر على الإنسان " فى حين أن سلوك الإنسان حيالها " فعل اختيارى . "

* ص ٦٣ ... إن الله يهدى من يشاء . وقد شاء سبحانه أن يهدى من يختار الأخرة . وهو سبحانه يضل من يشاء . وقد شاء أن الذى يختاره الله للضلال هم الذين يريدون الدنيا – أى أن الهدى الإلهى لا يمد الله به إلا من يختار الإيمان ، كما لا يمنع الله الهدى إلا عن الكافرين –

= ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق .. ﴾ أى أن الصرف والختم والإمداد بالضلال إنما يتنزل على العبد بعد اختياره .. فإن الله حسب سنته قد امدهم بما يطلبون ... وهذا دليل قوى على الاختيار والضمان الإلهى الذى لا يتغير ... وهو الأساس الأول للحرية الإنسانية البعيدة كل البعد عن الجبرية .

* ص ٦٦ . وتعريف الاختيار البشرى - كفعل نفسى محض للإنسان - هو تحريك الإرادة البشرية الحرة فى الموقف الابتلائى لتوجيه النية وتصويب القصد وتحديد العزم نحو فعل دون الآخر ، أو نحو الفعل دون الترك أو العكس .

* ص ١٠٥ - ١٠٦ . الإنسان الذى يتعامل مع أوامر الله التشريعية ونواهيه .. على أنها اختيارية يأخذ منها ما يشاء ويترك ما يشاء حسب هواه ... هو إنسان عاص وكافر ومريد للدنيا وراغب عن الآخرة . أما الذى يتعامل مع أوامر الله هذه ... على أنها كونية إجبارية وليست تخييرية - وتكون كالأوامر الكونية لباقى المخلوقات - وذلك قدر طاقته واستطاعته وما أوتى من تقوى . هذا الإنسان يكون قد اختار الآخرة وعزم عليها ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله امراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ .
* ص ٦٤ ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله . إن الله كان عليماً حكيماً . يدخل من يشاء فى رحمته . والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴾ هذه الآية تثبت للإنسان إرادته ومشيئته الحرة المختارة . ولكنها تؤكد انطواءها -ككل شئ فى الوجود - تحت مشيئة الله سبحانه مع كون المشيئة الإنسانية حرة تماماً ، ولكنها أيا ما اختارت فى الموقف الابتلائى فهو بمشيئة الله وقدره. ليس هناك اختيار للإنسان خارج عن قدر الله. وإن جاز أن نضرب مثلا يوضح ذلك - ولله المثل الأعلى نقول إن المجرة تحوى عديداً من المجموعات الشمسية التى تحوى عديداً من الكواكب. وكل كوكب يدور فى فلكه الخاص دورة خاصة به حول شمسه ، ثم تدور المجموعة الشمسية بكاملها دورة جماعية داخل المجرة. ثم نجد المجرة - بكامل مجموعاتها الشمسية وبما تحويه كل مجموعة - تدور دورتها الخاصة فى الفضاء. فحركة الكوكب الذى يدور داخل المجرة حول شمسه لاتتعارض إطلاقا مع حركة شمسه أو حركة المجرة. بل أنها متضمنة فيها ومتمشية معها فى تناسق وتوازن وإحكام. وكذلك مشيئة الله المطلقة- ولله المثل الأعلى- ومشيئة العبد الحادثة التى تتحرك حركة ذاتية نابعة من ذات العبد. ولكن فى المجال الذى حدده الله سبحانه بمشيئته المطلقة.. (صاحب المختصر).

٣ - الجانب الاجتماعى للمسئولية :

رأينا أن الشروط اللازمة والكافية لقيام المسئولية أمام الله وأمام أنفسنا هى أن يكون العمل شخصياً ، إرادياً ، ثم بحرية (أى بدون إكراه) وبوعى كامل ، وعن معرفة بالشرع . فهل تظل هذه الشروط مطلوبة لتقرير المسئولية أمام المجتمع الإسلامى الذى ينظمه القرآن ؟

سوف نرى كيف يتغير موقف القرآن تغيراً ملموساً بمجرد أن تكون المسئولية مسئولية أمام الناس . ذلك أن العلاقة بين الواقع الخاضع للحكم القانونى والفرد المنوط به المسئولية ، تتخفف على الفور من التشدد فى التحديد وتصبح فى غنى عن مجموعة هذه الشروط .

ومع ذلك فعلينا أن نميز فى المجال القانونى بين المسئولية الإصلاحية (أى المدنية) وبين المسئولية الجزائية (أى العقابية) تلك التى تظل وثيقة الصلة بالمسئولية الأخلاقية بانحصارها على الإنسان البالغ السوى عندما يكون عمله مصحوباً بنية .

فى دراسة اجتماعية عن المسئولية ، أوضح " بول فوكونيه " أن تخفيف عبء المسئولية المعمول به فى المجتمعات الأوروبية الحديثة يرجع تاريخياً إلى عهد قريب . وأثبت أن الأطفال والمعتوهين وحتى الحيوانات والأشياء كانت تعامل على أنها مسئولة عقابياً ، وكانت تدان على هذا الأساس . حدث ذلك فى مجتمعات بنى اسرئيل واليونان وروما مهد حضارة الغرب .

وقد بلغ الجزاء العقابى مداه فى أوروبا المسيحية حيث ظهرت الدعاوى ضد الحيوانات - أولاً- فى فرنسا فى القرن الثالث عشر ، ثم انتشرت فى وسط أوروبا واستمرت حتى القرن الثامن عشر ، بل حتى القرن التاسع عشر عند السلافيين فى الجنوب .

أما فيما يتعلق بالأطفال والمجانين فلم تكن النظرة لهم دائماً مشوبة بالظلم: ففى قانون الألواح الاثنى عشر كانت مسئولية الطفل غير البالغ مخففة فى بعض الجنايات ولكنها غير مستبعدة . وكذلك وضع الذين لم يبلغوا الحُلُم . ثم حدث تطور ربما فى عهد " هادريان " أعفى فيه الأطفال الصغار . وفى القرن الثامن عشر أعدم بانجلترا طفل فى الثامنة بسبب القتل أو الحريق . أما المجانين فقد كان القضاة فى فرنسا يصدرون الأحكام بالعقوبة العادية ضدهم ، ثم يختص البرلمان بتخفيفها أو بإلغائها . ولكن لا تخفيف فى جريمة الاعتداء على الذات الملكية. وهكذا يتضح أن قصر العقوبة على الإنسان البالغ السوى جاء فى نهاية مرحلة من التطور انحسرت خلالها المسئولية شيئاً فشيئاً

ثم ينتقل المؤلف إلى بحث الظروف المنشئة للمسئولية العقابية عملياً في المجتمعات المختلفة ، فيعرض أمامنا تطوراً ثانياً لفكرة المسئولية حيث تحولت من كونها فكرة موضوعية فى البداية إلى فكرة ذاتية أكثر فأكثر . ويختتم بحثه - بعد عدة تحفظات - قائلاً إنه فى الحدود التى يحتفظ فيها الجزاء بصفات القصاص (بمعنى الانتقام المنظم أو الدية ، أو الكفارة الدينية) كان العمل الجسدى الخاطئ وحده كافياً لتقرير مسئولية المتهم ولا سيما إذا كان ناشئاً عن إهمال أو صدفة محضة.

وفى اقدم القوانين الرومانية (قانون الألواح الاثنى عشر) كانت الضحية التى بتر لها عضو على أثر جناية متعمدة ، كان من حقها أن تقتص إذا لم تقبل الدية . وفى القانون الصينى كان القاتل سهواً أو مصادفة يعاقب بالجلد مائة جلدة أو بالنفى . وفى التوراة عوقب القاتل غير المتعمد بنوع من النفى ، وكان لصاحب الدم أن يقتله إذا غادر منفاه قبل المدة المحددة . وفى القانون الكنسى كانت تفرض كفارات قاسية لسنوات عديدة للتكفير عن خطايا لا إرادية ارتكبت عن جهل . وفى انجلترا حتى القرن التاسع عشر لم يكن القاتل غير المتعمد يفلت من الإدانة مع مصادرة أمواله إلا بعفو من الأمير . وكان هذا الوضع سائداً ايضاً فى القانون الفرنسى القديم .

غير أن دراسة " بول فوكونيه " لم تعبأ بأى تحديد زمنى أو جغرافى أو عنصرى . وهى تجوب حقبا من التاريخ وأجزاء شاسعة من سطح الأرض تضم مجتمعات متنوعة اشد التنوع ابتداء من القبائل الاسترالية , وقبائل شمال افريقيا . حتى اوروبا الحديثة . مارة بالصين وبالهند البرهمية ، وفارس ، وبنى اسرئيل واليونانيين والجرمانيين والرومان ، ومجموعة الشعوب المسيحية. حتى نظام "دراكون" الذى استمر فى أثينا لحين الغزو الرومانى. مما جعلنا نتساءل عن الفكرة التى على أساسها تم اختيار وثائق الدراسة ؟ ولماذا اختار مجتمعاً دون آخر ، وعصراً دون غيره وجزءاً من الكرة الأرضية دون آخر ؟

وكان المؤلف قد أجاب فى مقدمته بأنه قصر حقل بحثه على المجتمعات التى أمكنه أن يؤيد الأحداث بالوثائق المؤكدة. فهل كان هذا المؤلف أكثر أطمئناناً لوثائق قبائل شمال أفريقيا والقبائل الاسترالية . و " الافستا " " والفيدا " وقانون حمورابى ، عن المجتمعات الإسلامية وعن القرآن ؟ وأشد ما أثار دهشتنا أن المؤلف - على طول مسيرته من الصين إلى مراكش ، ومن القرن السابع حتى الآن - كان يسير بمحاذاة مجتمعات اسلامية ، وكان همه أن يدور حولها وأن يتجاوزها .. وربما كان المؤلف يجهل حكم الشريعة الاسلامية فى هذا الموضوع ، على الرغم من إشارته إليها إشارة غير مباشرة (بهامش كتابه ص ١٢٢)

وأياً كان الدافع إلى هذا الإغفال المتعمد ، فإنـه أدى إلـى نقص خطـير وقصـور كبير فى النتيجتين اللتين أراد المؤلف تقديمهما فى صورة قانون عام ، بسبب اعتماده على استقراء غير كامل .

فعلى عكس ما قرره "فوكونيه" ، لـم يكـن حصـر الجـزاء العقـابى علـى الإنسـان البالغ السوى فى العالم الإسلامى يرجع إلى عهد قريب ، بل إنه قديم منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، ولم يتحرك قيد أنملة منذ أن أعلنه مؤسس الإسلام ﷺ " رفع القلم عن ثلاثة ، عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يبرأ ، وعن الصبى حتى يكبر. " ومـن بـاب اولى.. الحيوانات حيث قال ﷺ " العجماء جبار "[1] . ولقد ذهبـت المدرسـة الظاهريـة فـى تفسير هذه النصوص إلـى حـد إعفـاء مـالك الحيـوان مـن أى غـرم علـى سـبيل الجـزاء ، وكذلك الذين يحملون همّ الأطفال والمعتوهين .

أما صيغة " فوكونيه " الثانيـة ، فانهـا تبـدو هـى الأخـرى منهـارة أمـام التشـريع القرآنى رغم القيود التى أثبتها المؤلف ، لأن القـرآن حيـن قـرر الديـة والكفـارة فـى حالـة القتل الخطأ ، إنما كان ذلك لإعفاء القاتل غير المتعمد من أية عقوبة بدنية .

وفيما عدا القانون الرومانى – الذى يبدو أنه تطور فـى الاتجـاه الصحيـح – أمـا كان من واجب المؤلف أن يستثنى النظـام الإسـلامى مـن الضـلالات التـى ذكرهـا حـول المسئولية العقابية . ذلك النظام الذى استبعد تلك الضلالات بضربـة واحـدة ودون تـردد . وكان هذا الاستثناء سيعنى فى نفس الوقت الاعتراف للشريعة الإسلامية بسمتها الثورية ، تلك السمة التى لا يمكن أن تخضع للتفسير الطبيعى استناداً إلى مقدمات تاريخيـة ، إلا إذا افترضـنا – على غير أساس – أن التاريخ العربى القديم – الذى لا ندرى عنه شـيئاً – قـد اشتمل على تطور معين قد حدث وأدى إلى أن يكون الإسلام هو نهايته . وهذا الافتراض .لا شك يؤدى الـى مفارقـة غـير معقولـة مؤداهـا أن الصحـراء العربيـة تكـون قـد تمـيزت بطبيعتها فبدأت وانهت نهضتها الاجتماعية قبل الأوان ، متجـاوزة بذلـك فـى تقدمهـا بقيـة اجزاء الكرة الأرضية .

إن المسئولية العقابية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية -كما قلنا – تظل قريبـة الشبه بالمسئولية الأخلاقية . وهذا القـول صحيـح مـن وجـوه كثـيرة ، غـير أن المسـئولية الأولى تتميز بسمات جوهرية.

---

[1] بقاموس "من المصباح المنير" "جرح العجماء جُبار بالضم أى هدر . قـال الازهـرى معنـاه أن البهيمة تنفلت فتتلف شيئا فهو هدر (صاحب المختصر).

ورغم أن العمل الداخلي والخارجي لا ينفصلان فى العقل فيما يتعلق بالمسئولية الأخلاقية أو العقابية – فإن العنصر الأساسى للمسئولية الأخلاقية هو حركة الضمير .. وبالتالى فإن العمل البدنى وحده لا ينشئ مسئولية أخلاقية ، وكذلك العمل الإرادى (ما لم يكن مصحوباً بنية) . فضلاً عن أن النية وحدها غير مصحوبة بالعمل المادى – تعجز عن إنشاء المسئولية القانونية . وأما العقوبة فتستهدف دائماً عملاً خارجياً .. وعندما يتطلب الأمر إظهار الإرادة ، فإنه لا يكفى لانشاء العمل الاخلاقى اتخاذ قرار داخلى ، وإنما بالتنفيذ – الذى يمد مفعول القرار ويحافظ عليه – تنشأ مسئوليات جديدة ،أو تقوى المسئوليات القائمة ويتسع مداها .

فهل المقابل لذلك صحيح فى نظر الإسلام ؟ وهل الحدث الموضوعى الصرف يمكن أن تترتب عليه عقوبة ؟ رأينا أن الحكم العقابى يستند الى العمل الإرادى المخالف للقانون لكى يبرر صفته الجزائية . وبالتالى فإن القاضى عندما ينظر إلىالعنصر الذاتى كشرط لإثبات الإدانة ، فإنه يكون قد افترض سوء نية المتهم استناداً الى قرائن خارجية. وبذلك يكون قد وضع نفسه فى موقف موضوعى لأن القاضى – ولو كان نبياً – لا يستطيع ان يدرك اسرار الضمير الإنسانى . والرسول ﷺ يقول " إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىّ ، ولعل بعضكم يكون الحن بحجته من بعض ، فأقضى على نحو ما أسمع. فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار . "

وأخيراً يختلف هذان النوعان من المسئولية (العقابية والأخلاقية) اختلافاً أشد وضوحاً فى آثارهما ، عن اختلافهما فى نقطة انطلاقهما . وإذا كان الشر يتركز أساساً فى مبدأ الإرادة ، فإذا ما غير المتهم موقفه تجاه القانون فإنه يحصل على البراءة حتى أمام الله الحكم العدل . والقرآن يفيض بالوعود للتائبين عن ذنوبهم . فهل تكفى التوبة والندم والعدول عن الذنب لإعفاء المذنب من العقوبة التى يستحقها ؟ حالة واحدة نص عليها القرآن هى حالة "الحرابة " أى التمرد مع استخدام السلاح ﴿ **إلا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم – المائدة ٣٣-٣٤** ﴾ وهى حالة فريدة فى الشريعة الإسلامية برغم خلاف الفقهاء حول هذا النص [1] . ولقد ميزت النظرية العامة

---

[1] فريق اول وسع هذا الإعفاء ليشمل جميع الجزاءات المتعلقة بالحقوق العامة ، بينما يستثنى فريق ثان أيضا القاتل الذى لم تعف عنه اسرة المجنى عليه ، ويتحفظ فريق ثالث بالنسبة للاضرار التى لم يتنازل عنها أصحاب الحق فيها. وفريق رابع – منهم الإمام مالك – يضيّق نطاق هذه التوبة فى حدود ماتختص به وماتتميز به عقوبة الحرابة (أى تطبيقها على المحاربين=

فى الإسلام بين مسئوليتين ناشئتين عن نظامين أحدهما ينظم الحياة الدنيا ، والثانى ينظم الآخرة ، وتظل فاعلية التوبة قائمة فى الإطار الاخروى ، دون أن تتجاوزه إلى المجال الاجتماعى . وفى السنّة طُبّق حد الزنا على التائبين الذين اعترفوا طواعية وطلبوا إقامة الحد عليهم ... وذلك لوقف الآثار السيئة للجريمة . ولتهدئة مشاعر الذين انتهكت حقوقهم .. ولصيانة المجتمع من العدوى الأخلاقية . وهى نظرة تضم الماضى والمستقبل معاً .

بيد أن البون بين الجانب الأخلاقى والجانب القانونى – يصبح شاسعاً بمجرد أن ننتقل من المسئولية العقابية إلى المسئولية المدنية

ولا نجد فى الشريعة الإسلامية الخلط الذى أشار إليه " فوكونيه " فى الشرائع الإغريقية والرومانية والعبرية .. الخ بين الحالة العارضة ، وبين الفعل الخطأ بحسن نية، وانما الأمر على العكس – كما ذكرنا – هو أن العمل الإرادى ليس من الضرورى أن يكون مقصوداً .

وإذن فعلى حين يُفترض فى المسئولية العقابية وجود النية المخالفة للقانون . تماماً كالمسئولية الأخلاقية ، نجد المسئولية المدنية تكتفى بمجرد وجود الارادة ، وهنا يكمن أحد الفروق الرئيسية بين هذه المجالات المختلفة ، فإذا كان الضرر الذى ترتب على خطأ أو غفلة لا يحتم عقوبة بدنية على الفاعل ، فإنه يلتزم بتعويض مالى لصالح الضحية .

ولقد قرر القرآن ﴿ وماكان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ . ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصّدقوا – النساء ٩٢ ﴾ وطبقت السنّة القاعدة على كل ضرر يقع عن غفلة على نفس الغير أو على ماله . ومن هنا كانت المسئولية المدنية على الطبيب ، أو على من يمارس الطب ولم يكن الطب معروفاً عنه ، يقول الحديث " من تطبب ، ولم يُعلم منه قبل ذلك الطب ، فهو ضامن " . وكذلك – تبعاً لأغلب المذاهب – مسئولية مالك الماشية الذى أهمل حبس قطيعه فهرب وأتلف حقل جاره . وهكذا يتجلى العنصر الموضوعى فى المسئولية المدنية فى الشريعة الإسلامية . مع ملاحظة أن المسئولية الأخلاقية لا تستبعد تماماً هنا ، باعتبار أن الإهمال كان نتيجة نقص فى الإنتباه وينبغى اعتبارها خطأ او نصف خطأ .

= غير القتلة أو غير اللصوص) . وترى هذه المدرسة الأخيرة أن المحاربين التائبين يستحقون كل العقوبات المتصلة بالحق العام العادى والأحوال الشخصية: أى حق الله مثل حد الخمر.

كيف نفسر بطريقة أخرى الكفارات التى قررها القرآن فى حالة القتل اللاإرادى أى القتل الخطأ ؟

المسلم الذى كان سبباً غير متعمد فى هلاك أخ له يجب أن يعتق أخاً آخر رقيقاً فضلاً عن التعويض المستحق لأولياء الدم . فإذا استحال عليه ذلك وجب عليه صيام شهرين متتابعين (آية ٩٢ سورة النساء) . ولكن هذه الغلطة السلبية فى الانتباه لا يترتب عليها التجريم الإيجابى والعقابى للعمل الخارجى ، الذى تكفى صفته الموضوعية الغالبة لتقرير العقوبة المدنية .

وإليك حالة أخرى تمثل خروجاً على المبادئ المقررة وتضع نهاية للتناقض بين المسئولية المدنية وأنواع المسئوليات الأخرى .

فبينما تتميز هذه الأنواع دائماً بالصفة الفردية الدقيقة ، نلمح عنصراً جديداً يظهر فى تعويض الأضرار الناجمة عن خطأ . وهو عنصر جماعي شديد القوة ، إذ أن التعويضات التى يتقاضاها الضحايا لا يتحمل الفرد منها إلا جزءاً ضئيلاً ، لأنها توزع على مجموعة كبيرة من الناس البالغين الأسوياء - كل بحسب إمكانياته . فإذا لم توجد هذه المجموعة ، تتحملها الدولة كأحد مصارف الزكاة من باب النفقات المخصصة لأداء ديون الافراد ﴿ والغارمين - التوبة ٦٠ ﴾ .

والعنصر الجماعى هنا يتدخل ليقلل من مساوئ موضوعية واقعية . والتضامن الذى نراه هو نوع من التعاون على الخير الذى يتحقق عند مواجهة الأزمات . على سبيل التبادل بين الناس فى المجتمع الواحد . وإلا وقع على الفرد عن خطأ غير مقصود عقوبة فادحة مقصودة ، فتتسع الهوة بين المسئولية الاجتماعية والمبدأ الأخلاقى ... لقد جاءت مشاركة الجماعة ملائمة تماماً حتى تهدأ ثورة الضمير .

خاتمة الفصل .

حين نقرِّب بين العناصر المختلفة التى توصلنا إليها فى هذه الدراسة ، يصبح من السهل تحديد الفكرة القرآنية عن " المسئولية " .

لقد تبنى القرآن وجهة نظر الفلسفة الاخلاقية وأقر سائر الشروط التى تتمشى مع المقتضايات المشروعة لأعظم الضمائر استنارة وحرصاً على العدالة .. كل هذا دون ان ينتظر التطور البطئ المتردد الذى حدث فى الفكر البشرى القديم والحديث عبر السنين إلى أن انتهى إلى ما كان قد قرره القرآن دفعة واحدة ودون أن يتزحزح عن موقفه الأول منذ ثلاثة عشر قرناً أو يزيد .

فالمسئولية إذن ترتبط ارتباطاً وثيقاً ووظيفياً بالشخصية الإنسـانية ، ولا يسـتطيع أن يتحملها سوى الإنسان البالغ العاقل ، الواعى بتكاليفها التى يتمثلها أمام نظره وقت أداء العمل . فإذا ما تحدد الشخص ، يكون بعد ذلك مسئولاً عن الأفعال التـى يؤديها بإرادتـه الحرة. لأن الإرادة والحرية مترادفان من الناحية العملية . ولا توجد أية قوة فـى الطبيعة – ظاهرة أو باطنة – تستطيع أن تحرك أو توقف النشاط الداخلى لإرادة الإنسان

وقد تستطيع الطبيعة أن تحرمنا من الظروف المادية المواتية لتنفيذ قراراتنـا ، أو من الخصائص التى تيسر وتحبب إلينا قراراتنا الخيرة .. لكنها لا يمكنهـا أن تخـترق فينـا قدرتنا على الاندفاع الجرئ الذى نستطيع أن نؤديـه علـى الرغم مـن كـل شـئ ولـو علـى حساب متعتنا . وحتى عندما يرضخ الإنسان أمام إكراه خارجى أو أمام ضرورة حيوية ، فإنه يفعل ذلك بحرية ايضاً بعد أن يكون قد وازن بين المساوئ والمحاسن . وان يكون قد اختار افضل ما يناسبه . وعن هذا الاختيار يحاسب الإنسان بقدر إحسانه أو إساءته .

وأخـيراً فـإن المبـدأ القرآنـى للمسئولية ذو نزعـة فردية ، يستبعد كـل مسـئولية موروثة أو جماعية بمعناها الحقيقى.

هـذه المبـادئ التـى تتبعناهـا بعنايـة ، واسـتخلصنا منهـا أدق النتـائج فـى المجـال الأخلاقى والدينى ، قد ورد عليها بلا شك – عدة استثناءات فى المجال الفقهى ، لـم نغفـل أهمها . ويظل العمل الإرادى للإنسان الفرد العاقل ، دائماً هو الموضوع الوحيد للمسئولية وتظل أيضاً نية الشر شرطاً ضرورياً للعقاب .

وعندما حدث خروج على هذه القاعدة الأخيرة (فى المسئولية المدنيـة) وللمـرة الوحيدة ، استجابة لمطالب أخرى لا تقل عنهـا شـرعية ، لـم نتوانـى فـى إلحاقها بمخالفـة أخرى من شأنها التخفيف من آثار الأولى. بحيث يظل المشرع الإسلامى حاضراً – حتـى وهو بعيد عن المجال الأخلاقى الصرف ، وأثناء موازنته للمصالح العاجلة – لم تغب عنه المبادئ الاساسية للتجريم .

***

الفصل الثالث

الجزاء.

تتكون العلاقة بين الإنسان والقانون من ثلاثة أزمنة ، كنا في نقطة البداية مع فكرة الإلزام . أما مع فكرة الجزاء فتكتمل دائرة هذه العلاقة الجدلية ، إنها الوحدة الأخيرة في الثالوث والكلمة الأخيرة في الحوار بعد المسئولية.

والجزاء هو رد فعل القانون على موقف الأشخاص الخاضعين لهذا القانون ، ولما كان القانون الأخلاقي مطلباً لنفوسنا لا يقاوم ، وفريضة صارمة على ضمير الجماعة وحكماً مقدساً للضمير الكامل النقي ، مما نشأت عنه المظاهر الثلاثة للمسئولية التي انتهينا من دراستها . فإن للجزاء أيضاً ثلاثة ميادين : الجزاء الأخلاقي ، والجزاء القانوني والجزاء الإلهي ، التي سوف نتناولها في هذا الفصل.

١- الجزاء الاخلاقي:

كثر التساؤل عما إذا كان يوجد أو يمكن أن يوجد جزاء أخلاقي - أليس في استهداف غاية أخرى للنشاط الإنساني سوى أداء الواجب لذاته - تنكر لطبيعة القانون الأخلاقي المنزهة عن كل غاية ؟ أليس بين اللفظين تنافر كامل ؟.

في رأينا أن هذا الاعتراض سببه خلط مؤسف بين علم الأخلاق وبين النزعة الأخلاقية ، بين مقتضى العدالة في ذاتها وبين الأهداف التي تنشدها الإرادة . ولا نرى ما يمنع من أن يكون لقانون ما جزاء صارم دون أن يدعونا لأن نجعل من هذا الجزاء حافزاً لجهدنا على العمل.

نعم إن فكرة القانون في ذاتها تحتم وجود جزاء محدد تحديداً دقيقاً . ولو كان القانون الأخلاقي لا يترتب على احترامه أو الإخلال به أية نتيجة لصالح أو ضد الفرد الخاضع له . فإنه لا يكون عديم الاثر فحسب وإنما يكون متحكماً وغير معقول ، بل لا يكون ملزماً ، أي لا يكون ذاته.

المهم هو أن نعرف ما هذا الجزاء الذي نضفي عليه وصف " أخلاقي " . يجب بطبيعة الحال استبعاد فكرة الثواب والعقاب الذي يمس حواسنا الخارجية . لأن مثل هذا الجزاء لن يكون أخلاقياً .. فهل ينبغي أيضاً أن نستبعد فكرة الشعور الداخلي بالمتعة أو الألم ؟ وهل رضا الضمير والندم من المشاعر الغريبة عن الحياة الأخلاقية؟.

إن الشعور بالمتعة أو الالم بعد ان نحسن التصرف أو نسئ ، هما رد فعل لضميرنا على ذاته أكثر من كونهما رد فعل القانون علينا . إنهما ترجمة طبيعية للقاء شعورين متوافقين أو متنافرين في ذوقنا الخاص ، تبعاً لما يكون شعورنا بالواقع على اتفاق أو اختلاف مع المثل الأعلى . فإما أن نتمتع بحالة من السلام والراحة نتيجة لهذا التوازن الداخلي ، وإما أن نعاني ونتألم من التناقض والضعف في قوانا وكأنه تمزق داخلي لذاتنا.

هذا التفسير النفسي يتفق مع النصوص الإسلامية ، فالحديث يقول " إذا ساءتك سيئتك ، وسرتك حسنتك فأنت مؤمن " أي أن هذا الشعور ليس جزاء وإنما هو ترجمة وتعريف للإيمان ذاته (ذي النزعة الأخلاقية) ، وحديث آخر " المؤمن يرى ذنبه فوقه كالجبل يخاف أن يقع عليه ؟ والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره " أي أن درجة شدة اللوم الداخلي تعكس وتحدد درجة صدق الإيمان.

ولكن إذا كان الندم لا يعتبر جزاء ثوابياً ، هل يمكن أن نعده جزاء اصلاحياً ؟ – لا.. لأن ما يعيد الاعتبار للقانون المنتهك ليس شعوراً معيناً وإنما موقف جديد للإرادة.. إنه التوبة. أما الندم فليس هو التوبة ، وإنما هو مقدمة لها وتمهيد. وقد يحدث في حرارة الندم أن تقع التوبة أو قد لا تقع ، فتهبط حرارة الندم إلى درجة الصفر ، ويصبح الندم دون أثر في الإرادة ودون غد في السلوك .. والندم نتيجة طبيعية للصراع الداخلي وليس جزاء ، أما التوبة فهي جزاء وليست أثراً طبيعياً ، والجزاء الأخلاقي يفترض تدخلا من الجهد . والتوبة واجب جديد يفرضه علينا الشرع على أثر أي تقصير في الواجب ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون – النور ٣١** ﴾ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً – التحريم ٨** ﴾ وهي واجب شديد الإلحاح والاستعجال لأنه إذا تعرض لأي تأجيل سوف تتعرض فائدته لخطر الزوال. لأن استمرار الإرادة في موقفها الخطأ ينشأ عنه خطأ متجدد في كل لحظة. ﴿ **ولم يصروا على ما فعلوا – آل عمران ١٣٥** ﴾ والإنسان الذي يريد أن يغتنم في حاضره كل شهوة ، وأن يؤجل توبته إلى النزع الأخير يعيش في وهم . ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيئات ، حتى اذا حضر احدهم الموت قال انى تبت الآن – النساء ١٨** ﴾.

وبين التوبة العاجلة والثبات على الموقف الآثم ، نجد الحل البليد ، أي أن يأسف الإنسان على الماضي ، ثم يؤخر الإصلاح إلى وقت لاحق . وهنا يكمن الخطر لأن المغفرة لمن يتوب من فوره ﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ، ثم يتوبون من قريب – النساء ١٧** ﴾ ﴿ **والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم – آل عمران ١٢٥** ﴾ ولقد أوضح النبي ﷺ أن هذه المهلة تعادل فسحة

العمر " إن الله ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر" . ولكن اذا كان الأجل غير معلوم فمن الحكمة أن نكسب الوقت وان نكون على أهبة السفر.

نقول إن التوبة جزاء إصلاحى ، ولكن كيف نتصور أن موقفاً لاحقاً يمكن أن يصلح موقفاً سابقاً وقع فى الماضى ..؟

اذا كانت التوبة تعنى الأسف على الذنب ، والعزم على عدم العودة فقط فإن ذلك لا يكفى ، لأنها لن تؤدى وظيفتها الإصلاحية فى مجال الأخلاق الإسلامية ، التى تطالب الإرادة بأن يكون لها موقف يضم الماضى والحاضر والمستقبل ويتجلى فى الأفعال ، أى فى اتخاذ سلوك جديد وتجديد البناء الذى تهدم ، وبتعبير القرآن ﴿ .. وأصلح .. أو .. وأصلحوا- **البقرة ١٦٠ – والأنعام ٥٤ – والنحل ١١٩** ﴾ ﴿ **ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا – المائدة ٩٣** ﴾ أى جملة الشروط التى تحقق الغفران الموعود.

فالمطلوب للتوبة النصوح : العدول السريع عن الذنب ، ثم اصلاح الماضى والتخطيط لمستقبل أفضل.

ونوضح فكرة " الإصلاح " .. فإذا كان الخطأ فى اهمال واجب . فالإصلاح يعنى " تداركه" أى أداؤه بطريقة مناسبة عاجلة أو آجلة ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت – الكهف ٢٤** ﴾ ﴿ **فعدة من ايام أخر – البقرة ١٨٥** ﴾ . وإذا كان الذى حدث شراً ، يكون معنى الإصلاح " عوّض" وإذا استحال ذلك فبمحو اثره ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات – هود ١١٤** ﴾ وإن الذين ﴿ **خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها – التوبة ١٠٢ – ١٠٣** ﴾.

ولقد فرقت السنّة بين نوعين من الأخطاء : الأخطاء التى تنتهك واجباً شخصياً وتسمى "حقوق الله " ، والأخطاء التى تضر بحق الغير ، ويطلق عليها " حقوق العباد " . وحقوق الله موجودة فى جميع الواجبات ، إما خالصة ، وإما مختلطة بحقوق العباد.

لقد أسفنا على ما اقترفنا من إثم ، ودعونا الله أن يغفره ، وعزمنا على ألا نعود إليه ، وبذلنا طاقتنا فى مقابلة السيئة بالحسنة ، كل هذا جميل وحبيب إلى الله ، ولكنه لا ينشئ التوبة الكاملة . إذ يجب أن نحصل على إبراء صريح ومحدد من الذين اسأنا إليهم، والحديث يقول " من كانت لـه مظلمة لأحد ، مس عرضه أو شئ ، فليتحلله منذ اليوم، قبل ألا يكون دينار ولا درهم . وإن كان له عمل صالح أحد منه بقدر مظلمته . وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه " " أتدرون مس المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال إن المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا . وقذف هذا وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ،

وضرب هذا . فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار" " الدواوين ثلاثة : ديوان يغفر ، وديوان لا يغفر ، وديوان لا يترك. فالديوان الذى يغفر : ذنوب العباد بينهم وبين الله . والديوان الذى لا يغفر : الشرك. والديوان الذى لا يترك: مظالم العباد".

وهناك ملاحظتان بشأن التوبة : أولاهما : أن الكفار الذين يدخلون الإسلام ليس عليهم إجراء إصلاحى عن الماضى لأن التحول إلى الايمان يطهّر جميع الذنوب التى سلفت ﴿ **قل للذين كفروا ، إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف – الانفال ٣٨** ﴾ والثانية : أن تأثير التوبة النصوح الكاملة لا ينهار بسبب العودة الى الذنب . وفى هذه الحالة ما علينا سوى تكرار جهودنا للإصلاح بلا يأس ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون – الانفال ٣٣** ﴾ ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً . إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له – الزمر ٥٣– ٥٤**﴾ والأحاديث كثيرة فى هذا الباب ، نذكر الحديث القدسى : " قال الشيطان : وعزتك يارب لاأزال أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم . قال الله : وعزتى وجلالى ، لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى. "

فى الصور التى قدمناها عن التوبة بالمعنى المركب وجدنا ان التوبة تنشئ جزاءاً إصلاحياً يكلفنا به الشرع.. ولكن ألا يوجد فوق ذلك جزاء أخلاقى يمارسه علينا القانون الأخلاقى تلقائياً بحسب موقفنا تجاهه . ؟

بلى وهذا الجزاء الأخلاقى سابق فى وجوده على الجزاء الإصلاحى الذى لا يفرضه علينا القانون إلا لكى يوقف أثر هذا الجزاء العاجل . فإما ألا يكون للإلزام الأخلاقى أى معنى ، وإما ان يكون لممارسة الفضيلة وهجر الرذيلة بعض الأثر – شعورياً كان أم لا شعورى – لصالحنا أو ضدنا . وبغير ذلك يصبح خضوعنا للشرع لا جدوى منه.

ونتساءل هل خلق الإنسان من أجل القانون أم أن القانون خلق من اجل الإنسان ؟ فى رأينا أن الرأيين يعبران عن جانبى الحقيقة ، والقرآن يعلن ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون – الذاريات ٥٦** ﴾ ويؤكد ﴿ **مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون – المائدة ٦** ﴾ ﴿ **من أهتدى فإنما يهتدى لنفسه – الاسراء ١٥** ﴾ ﴿ **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه – العنكبوت ٦** ﴾ ﴿ **ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه – فاطر ١٨**﴾.

فإذا قرينا القولين سوف نحصل على الحقيقة الكاملة. فالإنسان وجد من أجل تنفيذ الشرع (الذى هو عبادة الله) ، ولما كان الشرع قد وجد من اجل الإنسان ، إذن فإن الإنسان قد وجد من أجل نفسه . والشرع غاية ولكنه ليس الغاية الأخيرة ، إنه حد وسط بين الإنسان كما هو مجبول على التطلع إلى الحياة الأخلاقية أو على الكفاح من اجل كماله- وبين الإنسان كما ينبغى أن يكون فى قبضة الفضيلة الكاملة . أى أنه حد وسط بين الإنسان العادى والولى ، بين الجندى والبطل.

والشرع أشبه بسلّم درجاته على الأرض ، يعدُ من يريدون أن يتسلقوه أن يرفعهم إلى السماء . ولنقتبس من القرآن مثل الكلمة الطيبة ﴿ **كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أُكلها كل حين بإذن ربها.. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار – ابراهيم ٢٩-٣١** ﴾ هذا التشبيه ينطبق على الصدق والكذب العمليين والنظريين . وإليك بعض الأمثلة التى ساقها القرآن عن اثر ممارسة الخير والشر فى النفس الانسانية.

محاسن الفضيلة:

١- الصلاة ﴿ تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ ، ﴿ ولذكر الله أكبر – العنكبوت ٤٥ ﴾ الذين يؤدونها بروحها يجدون فيها هاتين الوظيفتين . فهى تجعلهم روحياً على اتصال بمنبع جميع الكمالات.

٢- الصدقة : لها اثر مزدوج .. "تطهر" النفس و " تزكى " نضارتها.

٣- الصوم : يحفظنا من الشر ، ويدفع عنا سيطرة الحواس ، ويجعلنا أقدر على احترام القانون. وهو وسيلة لبلوغ التقوى .

٤-الممارسة والحكمة : الأداء الدائم للأعمال الفاضلة يجعل الإنسان حكيماً ، وشجاعاً فى خصومته كريماً فى يسره . ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين ... – المعارج ١٩-٢٤** ﴾

قبح الرذيلة:

١- أثرالسكر : الخمر والميسر ، يزرعان البغضاء والعداوة بين الناس ، ويمنعان ذكر الله والخمر " أم الخبائث و "مفتاح الشرور" . فالعقل إذا ذهب فلا سيطرة لنا على أنفسنا.

٢-أثر الكذب : من الرذائل الخصبة فى الشر ، كما أن الصدق من الفضائل الخصبة فى الخير. وفى الحديث " إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً . وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار.

وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً " ﴿ **إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله – النحل ١٠٥** ﴾ والنبى ﷺ لا يكتفى باعتبار الكذب رأس الفساد ، وإنما يقدمه على أنه صفة النفس الكافرة من حيث تنافره مع الإيمان " الأخلاقى " " لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن " " إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان ، وكان على رأسه كالظلة . فإذا نزع عاد إليه الإيمان " .

٣- **أثر الرذيلة على السلوك:** لا يكفى القول بأن الخير " يطهر " القلب ، وأن الشر " يفسد" النفس ، إذ أن اثرهما أبعد من ذلك ، بما لهما من انعكاسات حتى على الذكاء . اذ أن اضطراب الهوى يشوش مرآة الفكر ، ويشوه إدراكها للحقيقة . ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون – المطففين ١٤** ﴾ على حين أن التوازن الناشئ عن الصلاح يجعل الإنسان قادراً على التمييز بين الحق والباطل والخير والشر. ﴿ **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً – الأنفال ٢٩** ﴾ .

٤- **النفس بأكملها** : وهكذا تتلقى كل قوة من قوانا نصيبها من الجزاء الأخلاقى. فنفسنا بأكملها هى التى نسعى لإنقاذها ولكمالها ، أو لضلالها وفسادها . ﴿ **قد افلح من زكاها ، وقد خاب من دساها – الشمس ٧-١٠** ﴾ وفى كلمة واحدة نقول: إن الجزاء الأخلاقى الثوابى يتمثل فى الحسنة والسيئة ، أى فى كسب القيمة أو خسارتها ﴿ **كلا إن كتاب الفجار لفى سجين .. كلا إن الكتاب الأبرار لفى عليين – المطففين ٧و١٨** ﴾ .

٢- الجزاء القانونى:

حين تنتقل من المجل الأخلاقى إلى المجال القانونى ، يكون الجزاء الثوابى قد فقد نصف معناه ، إذ لم يعد يحتفظ من طابعه المزدوج (الثوابى والعقابى) إلا بالجانب الثانى . وذلك باعتبار أن (الجزاء) هنا يعنى اساساً " العقوبة" بالمعنى الواسع للكلمة الذى يشمل على السواء الإجراءات التأديبية (التعزيرات) والإجراءات العقابية بمعناها الحقيقى (الحدود).

والمجتمع الإسلامى – شأنه شأن الأمم المتحضرة – لم يحرص على أن يمنح جوائز مادية للذين يؤدون واجبهم. لأن هؤلاء يقنعون بنوع من الجزاء السلبى (حماية القانون ..) ، ثم بجزاء شامل من الرأى العام (الرعاية والتقدير) واخيراً بأهلية الغَيْرة الوطنية (التى تجلب لهم الحياة الكريمة .. وتتيح لهم دوراً فى الشئون العامة .. كشغل وظيفة قاضى أو رئيس الدولة ..).

أما النظام العقابى فى التشريع الإسلامى فيميز بين طبقتين مختلفتين : " الحدود " التى حددها الشرع بدقة وصرامة ، و "التعزيرات " التى تركها لتقدير القاضى. والطائفة الأولى تتعلق بعدد قليل من الجرائم [1] هى الحرابة والسرقة ، وشرب الخمر ، والزنا ، والقذف . وتختص الطائفة الثانية بسائر الجرائم الأخرى.

وليس أهم ما يميز الطائفة الأولى أن العقوبة فيها محددة تحديداً دقيقاً كماً وكيفاً.. وإنما – فضلاً عن ذلك – أنها ذات صبغة مطلقة ، أى لا يتوقف تطبيقها لا على حالة المذنب (له سوابق أم لا ، قابل للإصلاح أم لا ، يخيف الناس أم لا) ولا على مشاعر الضحايا ، صحيح أن الضحايا لهم الحق فى عدم ملاحقة المجرم أمام القضاء ، أو العفو عنه عفواً تاماً فيسقط الجزاء الشرعى . ولكن متى بلغت الجريمة السلطة – أى اصبحت الجريمة عامة – يصبح الجزاء من شأن الصالح العام . ويجب تطبيقه بلا هوادة أو رأفة .. ويكون اصحاب الحق وكأنهم تنازلوا عن حقهم . وعندئذ لامجال للتنازل أو لحل وسط أو رجعة.

معروفة قصة المرأة الشريفة التى سرقت وجاء أحد الصحابة يتشفع لها عند رسول الله ﷺ فخطب فى الناس قائلاً " أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم . إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها " . وحادثة أخرى أكثر دلالة : أن صفوان بن أمية لما وصل إلى المدينة مهاجراً . أراد أن يستريح فى المسجد فنام وتوسد رداءه ، فجاء سارق فأخذ رداءه ، فأخذ صفوان السارق إلى رسول الله ﷺ الذى أمر بقطع يده . فقال له صفوان: إنى لم أرد هذا.. وهو عليه صدقة فقال الرسول ﷺ "فهلا قبل أن تأتينى به " وفى حديث آخر " تعافوا الحدود بينكم . فما بلغنى من حد فقد وجب " . والسرقة تحتم قطع يد السارق بنص القرآن ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما – المائدة ٣٨ ﴾ .

---

[1] هل تشمل القتل العمد ؟ أكثر الفقهاء يقولون لا.. وحجتهم أن حق ولى القتيل يغلب على حق الجماعة . بينما المالكية ترى أن عفو أهل القتيل يخفف العقوبة ولايلغيها ، فيعفى من عقوبة الإعدام وتطبق عليه عقوبة أخرى (مائة جلدة وسجن عام ، أو تغريب) . وهذا الخلاف لاموضع له إلا فى حالة القتل العادى (فى مشاجرة مثلا). أما حالات القتل البشع أو المتعمد .. فكل المذاهب ترى وجوب الإعدام وعدم الأخذ بعفو الأفراد. (المؤلف).

والحرابة عقوبتها إما الموت ، وإما تقطيع الأيدى والأرجل ، وإما النفى ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً ، أن يُقتّلوا أو يُصلّبوا أو تُقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض - المائدة ٣٣ ﴾ .

وعقوبة الزانى المنصوص عليها فى القرآن الكريم هى مائة جلدة ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة – النور ٢ ﴾ وطبقاً للأحاديث يضاف " تغريب عام" . والقرآن لا يفرق بين البكر والمتزوج . ولكن المأثور عن النبى ﷺ وصحابته إثبات هذا الفرق وبمقتضاه يستحق المحصن الذى ثبتت عليه جريمة الزنا عقوبة الموت كأشنع ما يكون . ولقد كان الجزاء فى البداية بالنسبة للنسوة الزانيات الحبس ﴿ حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً – النساء ١٥ ﴾ إشارة إلى انتظار تطور فى التشريع ، فجاء حديث النبى يفرض هذه السبيل " خذوا عنى . قد جعل الله لهن سبيلاً. الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر . الثيب جلد مائة ثم رجم بالحجارة . البكر جلد مائة ثم نفى سنة" .

والقاذف يستحق ثمانين جلدة ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فأجلدوهم ثمانين جلدة – النور ٤ ﴾ .

أما عقوبة تعاطى الخمر ، فليس فى القرآن ولا فى الحديث نص يحددها ، غير أنه جرت العادة فى عهد الرسول ﷺ أنه كان نفر من المؤمنين يجتمعون حول شارب الخمر فيضربونه بالعصى والنعال .. الخ. ولقد جمع الخليفة الأول كبار الصحابة واستشارهم فى تحديد عدد ضربات شارب الخمر ، فقدروه بأربعين ضربة (بزوج من النعال). وفى عهد عمر رضي الله عنه استشارهم مرة أخرى . وانتهى الأمر إلى ثمانين جلدة (مستبدلاً كل ضربة نعل بضربة سوط). وهناك حديث يؤكد صحة هذا التقدير " أخف الحدود ثمانون " . وهكذا اتفق العقل مع النقل.

وفيما عدا عقوبات الحرابة الاستثنائية ، نرى الضمير الأوروبى المعاصر ينزعج من الاجراءت القاسية التى يتخذها الإسلام لعلاج الاضطراب فى سلوك الإنسان وبعض جرائم القانون العام .. فى هذا العصر الذى بلغت فيه رقة المشاعر درجة يزداد فيه الاتجاه إلى عدم تعريض عتاة المجرمين – بحجة أنهم ضعاف الإرادة – للآلام البدنية الرهيبة عندما يتعرضون للسقوط فى حياتهم الخاصة أو العامة ؟ ولهذا توقف كثير المجتمعات الإسلامية عن تطبيق الحدود الإسلامية منذ زمن بعيد بسبب اتصالها وتأثرها بالعالم الأوروبى.

والمهم أن نعرف ما إذا كانت هذه الحساسية الشديدة تستند إلى أساس متين من العقل أو من المصلحة الحقيقية للأفراد والجماعات . فما معنى التردد في تطبيق العقوبة .. عند الموازنة بين القانون المنتهك وبين حق الفرد الذى خرق القانون ؟ ألسنا نمنح الفرد أهمية أكبر أو – وهى نفس النتيجة – نمنح القانون أهمية اقل ؟ .. إن الضمير العام الذى لا يتردد فى أن يضرب انحراف أفراده بقسوة ، يثبت – ليس عدم حساسيته أمام الآلام الانسانية – وانما توقيره العميق واحترامه الشديد للقانون الذى تعرض للانتهاك . هذا هو المقياس الصحيح لمعرفة المسافة التى تفصل بين المفهوم الأخلاقى المعاصر ، عن نفس المفهوم فى المجتمع المسلم الأول .. وماذا كان انطباع هذا المجتمع عن الوفاء فى الحياة الزوجية ؟ وإلى أى مدى كان استنكاره للخيانة الزوجية ؟ واحتقاره للّص والمخمور والنمام ؟ الحقيقة أن هذه الأمة لم تكن تنقصها الرأفة والرحمة الإنسانية ، ولكنها كانت تتجاوزهما بروح النظام والطاعة لحكم الله ﴿ **ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله** – النور ٢ ﴾ . أما فيما يتعلق بحق الفرد فى احترام شخصه وحقه فى الأمن، فمن البديهى أنه لا يستحقهما إلا من يعرف كيف يحافظ على كرامة الإنسان.

على أنه ينبغى أن نضيف أن هذه القسوة على اللصوص ما هى إلا قسوة نظرية وظاهرية . فمن الناحية العملية ، كلما كانت العقوبة أشد ، كلما قلت فرص تطبيقها ، وكلما ضعف إغراء مخالفة القانون ، وكلما اختفت العقبات أمام استتباب النظام . وما علينا إلا الرجوع إلى السجلات القضائية فى البلاد التى تعاقب على السرقة بالحد القرآنى كالعربية السعودية (حيث يكاد الناس أن يكونوا معصومين) ، والبلاد التى تعاقب بالغرامة أو الحبس (حيث تجد أعداداً من الناس الذين لا يرجى صلاحهم).

وعلى الرغم من فداحة جرم الزانى ، يبقى اسلوب السنّة فى معاقبته (وهى رجم كائن إنسانى وكأنه كلب مسعور) يثير فى النفوس الرعب . غير أن بعض التوضيحات سوف تبدد هذا الشعور.

ذلك أن القرآن أحاط تشريعه عن هذه الجريمة بعدة احتياطات تجعل إثبات الجريمة غاية فى الصعوبة من الناحية العملية إن لم يكن مستحيلاً . فالمبلّغ الذى لا يعتمد على أربعة رجال عدول صادقين ، يشهدون شهادات متطابقة لا على سكنى امرأة مع رجل أجنبى فى حجرة واحدة فحسب ، وإنما على وصف الواقعة المحددة – هذا المبلّغ يعاقب بثمانين جلدة ، بتهمة البلاغ الكاذب ، وترفض بعد ذلك شهادته أمام القضاء ﴿**والذين يرمون المحصنات.. فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً – النور ٤** ﴾ لذلك لا نجد فى السنّة حالة واحدة قامت فيها الإدانة بالزنا على شهادة الشهود ، بل إن الحكم كان يصدر على أساس اعتراف واقرار تلقائى من المذنب نفسه . وحتى هذا

الإقرار لا يكفى فى ذاته لفرض الإدانة ، بل يجب التأكد من أن المعترف يدرك تماماً ما يقول .. وأن يصر على إقراره حتى النهاية . بل إن كثيراً من الفقهاء لا يرتبون على هذا الإقرار أى اثر إلا إذا كرره أربع مرات بدلاً من الشهود الأربعة. مع بقاء قاعدة أن براءة كل فرد هى الأساس الأول. بمعنى أنــه لابد من أن تستنفد كل الفروض المتاحة لمصلحة المتهم.

والملاحظة الأخيرة هى التأكيد على أن الشريعة الإسلامية لا تبحث عن كشف الجرائم الخاصة . ولا تلزم احداً أو تدعوه إلى الاعتراف بها . لأن القرآن والسنّة لهما موقف واضح وصريح . فالقرآن يحرم استطلاع اسرار إخواننا ﴿ولا تجسسوا .. - الحجرات ١٢ ﴾ مما يقطع نصف الطريق على الواشين . وعلى ذلك فلا يعرض على القضاء إلا الرذيلة التى تتفشى وتتحدى. أما من يستتر على ذنبه فسوف يعرض على محكمة أخرى غير محكمة البشر والحديث يقول . " ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه". وحتى إذا فاجأت احداً يسرق أو يرتكب خطأ أخلاقياً شخصياً ، فإنه ينبغى علىّ قبل تقديمه إلى العدالة مراعاة الظروف التى أقدم فيها على فعلته فأسلّم محترف الجريمة الشرير ، أما المسكين الذى ربما أخطأ صدفة فقد يستحق أن يشمله عفونا . فضلاً عن أن الرسول ﷺ يستهجن ميل بعض الناس أن يثرثروا بما فعلوا " كل امتى معافى إلا المجاهرين . وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره الله ، فيقول : عملت البارحة كذا وكذا . وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه".

أما الذين يجيئون يطلبون العقاب لإشباع رغبة طاهرة فى نفوسهم إلى التوبة ويتحملون فى ثبات أشد الآلام ، ويرون فى ذلك وسيلة للتخلص من الدنس الأخلاقى ، فإننا لا نملك سوى التعاطف معهم والإعجاب بلمحتهم البطولية . وقد قال الرسول ﷺ عن ماعز " لقد تاب توبة لو قسمت على أمة لوسعتهم " كما أثنى على المرأة الجهنية فقال " لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من اهل المدنية لوسعتهم . وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله ..؟ ".

إذن إنه ليس الشرع . وإنما هو الفرد - فى نهاية الأمر - هو الذى يكون قاسياً ومفرطاً فى حق إنسانيته.

وفيما عدا الحدود ، فإن ما يتبقى من مخالفات للقانون الأخلاقى ، أو القانون الاجتماعى يستوجب عقوبات تأديبية متنوعة ، لم تحددها الشريعة ولم تحرص على تحديدها . وهى بطبيعة الحال لا تشمل عقوبتى الموت والقطع. باعتبار أن الأولى خاصة بالقتلة والزناة ، والثانية خاصة بالسارقين وقطاع الطرق. وعلى حين أن دور المحكمة فى

الحدود ينحصر فى إثبات الوقائع التى متى ثبتت تطبق العقوبة تلقائياً ، فإن دور المحكمة فى العقوبات التأديبية يتجه فى المرحلة الثانية إلى اختيار العقوبة التى ينبغى تطبيقها ، حيث يتحرك ذكاء القاضى فى حرية ، وتحت مسئولية ثقيلة ، ومع مراعاة شتى الاعتبارات ، ليؤدى دور الطبيب المعالج فيصدر الحكم ما بين التأنيب على انفراد ، أو أمام العامة .. حتى السجن زمناً يطول أو يقصر ، أو الجلد بحيث لا تصل الى عدد الجلد فى الحدود..

٣- نظام التربية القرآني ، ومكان الجزاء الالهى:

درسنا حتى الآن التشريع القرآنى فى الجزاء الأخلاقى والجزاء القانونى ، ورغم اختلافهما فإنهما ينتميان إلى مجال الواقع ، وانهما يقعان فى هذه الحياة الدنيا. وعلينا الآن دراسة الجزاء الإلهى وامتداده ، ثم تحديد مكانته فى نظام التربية الاخلاقية القرآنية .

تنتشر فى العالم غير الإسلامى فكرة غريبة مؤداها أن محمداً ﷺ لم تقابله صعوبة فى تحويل الشعب العربى إلى الإسلام . ويعزون ذلك إلى أن حرارة الجو المحرقة وظروف الحياة القاسية كانت من العوامل المؤثرة لجذب العرب إلى " حياة أفضل " وكأنه قال لهم : افعلوا ما آمركم به وسوف يعطيكم الله جنات وأنهاراً تأكلون فيها وتشربون بغير حساب . ولم يقتصر ذيوع هذه الفكرة - " جنة محمد " - فى الأدب الشعبى الغربى فقط ، وإنما رددها كثير من المؤرخين والفلاسفة الغربيين (منهم "كانت " وج . ديمومبين) الذين لم يفلتوا من تأثير هذه الأفكار الدارجة المأخوذة عن مصادر من الدرجة الثانية والمنقولة شفاهة.

أما الذين اطلعوا على التاريخ العربى الإسلامى فانهم يعجبون من هذا الأسلوب فى عرض الأمور ، ويستطيعون أن يقولوا إنها تستند إلى معلومات مشوهة ، وتبتعد كل البعد عن الحقيقة الواقعة ، حتى إنها لتتجاهل سمات هذا الشعب الأصيلة فى الزهد والقناعة المعروفة عنه فى كل زمان ، وما اشتهر به من روح الفروسية والشعرية المتحمسة. وما أقل ما تعبر هذه الصورة عن المثالية الإسلامية ونزاهة تصوراتها . أما نحن فإننا لا نريد ان نتوقف امام مثل هذه الاعتبارات العامة ، نظراً لأن الفصل فى هذا الموضوع لا يكون إلا بالرجوع إلى النصوص ذاتها . فإذا قرأنا القرآن أدركنا تماما الأسلوب الذى يقرر به الالزام الأخلاقى . واقتنعنا بأن الصياغة التى يتجلى من ثناياها هذا الإلزام هى أدق تركيباً من أن تنتهى إلى مثل هذه الصورة المنفرة التى يريدون تصويرنا بها فى نظر الناس.

ونرى أن الأفضل لو بدأنا ببعض نصوص الكتاب المقدس - كما حفظها لنا التراث المسيحى ، لكى تعيننا على إبراز إحكام وثراء المفهوم القرآنى فى هذا الموضوع.

طرق التوجيه فى الكتاب المقدس

نرجع اولاً إلى **العهد القديم** . وننظر الى نوع العقوبات والجوائز التى قررها كجزاء عن مراعاة الوصايا الإلهية أو مخالفتها . وفيما عدا بعض المواضع النادرة ندرة شديدة والتى يقدم فيها الخير الأخلاقى لذاته . ننظر كيفية تعليل الأوامر:

لما حرّم الله فاكهة الشجرة على الأسرة الأولى قال "وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ، ولا تمساه ، لئلا تموتا - التكوين ٣: ٢ " [١] .وحين خاطب قابيل - قاتل أخيه هابيل - قال " فالآن ملعون أنت فى الأرض .. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها - التكوين ٤:١١-١٢ " . وعندما فسدت الأرض بعد ذلك بزمن ، وعوقبت بالطوفان بارك الله نوحاً وبنيه فقال " اثمروا وأكثُروا واملأوا الأرض - التكوين ٩:١ " وهل قوبل إذعان إبراهيم للإرادة الالهية إلا " بذاتى أقسمت ، يقول الرب، إنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ، ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة ، وأكثّر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطئ البحر . ويرث نسلك باب أعدائه - التكوين ٢٢:١٦-١٧ " . ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه الأفكار مألوفة لدى ذرية ابراهيم ، فهى تعد جوهر صيغة السلام والمباركة ، فإن اسحاق يبارك يعقوب بهذه الكلمات : "فليعطك الله من ندى السماء ، ومن دسم الأرض ، وكثرة حنطة وخمر ، ليستعبدْ لك شعوب ، وتسجد لك قبائل - التكوين ٢٧:٢٨-٢٩ " . ويقول الرب ايضاً لإسرائيل (يعقوب): " أثمر واكثُر، أمة وجماعة أمم تكون منك ، وملوك سيخرجون من صلبك ، والأرض التى أعطيتُ ابراهيم واسحاق لك أعطيها ، ولنسلك من بعدك أعطى الأرض - التكوين ٣٥:١١-١٢".

ونصل أخيراً إلى موسى الذى ينمى نفس الهدف ويعظ بنى إسرائيل وينقل إليهم هذه الدعوة الإلهية " وتعبدون الرب إلهكم . فيبارك خبزك وماءك ، وأزيل المرض من بينكم ، لا تكون مسقطة ولا عاقر فى أرضك ، وأكمل عدد أيامك ، أرسل هيبتى أمامك ، وأزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم ... الخروج ٢٣:٢٥-٢٧ " . ثم يقول بعد ذلك فى مرحلة أخرى " إذا سلكتم فى فرائضى ، وحفظتم وصاياى ، وعملتم بها . أعطى

[١] قارن ذلك بالقرآن ﴿ فتكونا من الظالمين - البقرة ٣٥ - الأعراف ١٩﴾. (المؤلف)

مطركم فى حينه وتعطى الأرض غلتها ، وتعطى أشجار الحقل أثمارها . ويلحق دراسكم بالقطاف ، ويلحق القطاف بالزرع ، فتأكلون خبزكم للشبع وتسكنون فى أرضكم آمنين، واجعل سلاماً فى الأرض فتنامون ، وليس من يزعجكم ، وأبيد الوحوش الرديئة من الأرض ، ولا يعبر سيف فى ارضكم ، وتطردون أعداءكم فيسقطون أمامكم بالسيف ، ... لكن إن لم تسمعوا لى ، ولم تعملوا كل هذه الوصايا .. فإنى أعمل هذه بكم ، أسلط عليكم رعباً وسِلاً وحمّى .. وتزرعون باطلاً زرعكم ، فيأكله أعداؤكم ، وأجعل وجهى ضدكم فتنهزمون امام أعدائكم – اللاويين ٢٦:٣-١٧".

ويقول فى موضع آخر كذلك " ومن أجل أنكم تسمعون هذه الأحكام وتحفظون وتعملونها ، يحفظ لك الرب إلهك العهد والإحسان ، اللذين أقسم لآبائك ، ويحبك ويباركك ويكثّرك .. لا يكون عقيم وعاقر فيك ، ولا فى بهائمك ، ويرد الرب عنك كل مرض... وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك – التثنية٧:١٢-١٦" . وانظر أيضاً ١١:١٣ وما بعدها".

ولنا ان نتساءل – أمام غزارة هذا الأمر وحيد الفكرة – عما إذا كان موسى وهو يصرخ بترتيله : " ترشد برأفتك الشعب الذى فديته ، تهديه بقوتك إلى مسكن قدسك – الخروج ١٥:١٣" . قد قصد بهذا " المسكن " شيئاً آخر غير الأرض الموعودة وراء نهر الأردن ، بلد الكنعانيين ... الخ .. ومع ذلك فهذا هو التفسير الذى نجده فى فقرة أخرى " سكناه تطلبون ، وإلى هناك تأتون ، وتقدمون إلى هناك محترقاتكم ، وذبائحكم وعشوركم ... التثنية ١٢:٥-٦"

وهكذا لا نقابل فى أى موضع منذ آدم إلى آخر عهد موسى اية اشارة إلى حياة اخرى بعد الموت ، كأن الإيمان بالحياة الآخرة لم يكن فى عقائدهم.

العهد الجديد : هنا نستمع إلى نبرة جديدة تماماً ، ونحس أننا انتقلنا من طرف إلى أقصى الطرف الاخر ، وأن صلتنا بالدنيا تنقطع ، وأن ما فيها من غنى وعظمة قيود ينبغى أن نتحرر منها ، وإن نظرتنا لم تعد إلى الأرض وإنما موجهة نحو السماء . قال المسيح لأحد المؤمنين الجدد " إن اردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك ، وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى – متى ١٩:٢١ ، ومرقص ١٠:٢١ " وقال لتلاميذه " فلا تطلبوا أنتم ما تأكلون ، وما تشربون ، ولا تقلقوا . فإن هذه كلها تطلبها أمم العالم . وأما أنتم فأبوكم يعلم انكم تحتاجون إلى هذه ، بل اطلبوا ملكوت الله . وهذه كلها تزاد لكم ... بيعوا مالكم وأعطوا صدقة ، اعملوا لكم أكياساً لا تفنى ، وكنزاً لا ينفد فى السموات ... لأنه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً – لوقا ١٢:٢٩-٣٤". ونفس التعاليم يقدمها تلاميذ المسيح . فقد كتب القديس بولس فى رسالته إلى

تيموثاوس " أوصى الأغنياء فى الدهر الحاضر ألا يستكبروا ، ولا يلقوا رجاءهم على غير يقينية الغنى ، بل على الله الحى ، الذى يمنحنا كل شئ بغنى للتمتع ... مدخرين لانفسهم أساساً حسناً للمستقبل لكى يمسكوا بالحياة الأبدية -٦:١٧-١٩" . " لا تحبوا العالم ، ولا الأشياء التى فى العالم ... وهذا هو الوعد الذى وعدنا هو به ، الحياة الأبدية - رسالة يوحنا ٢:١٥و٢٥ ".

وهكذا نجد أن الأمل الإنجيلى مكانه دائماً فى الأخرة ، فى حياة ما بعد الموت ، إلا فى موضع واحد[١] وعد فيه المسيح بمكافأة مزدوجة فى الآخرة وفى الدنيا (نجدها فى إنجيل مرقص ١٠:٣٠ ولكنها غير موجودة فى إنجيل متى ١٩:٢٩).

نظام التربية القرآنى :

يمكننا الآن أن ندرس دعوة القرآن ، وأن نحدد علاقتها بدعوة الكتاب المقدس .. فنجد النظرية اليهودية ، ونقيضتها النظرية المسيحية تتصالحان داخل دعوة القرآن فى توافق وانسجام ، فضلاً عن عناصر جديدة أضافها القرآن إلى هذا البناء فزاد بها رحابة وثراءً.

الاستناد الى سلطة الأمر فى تعليل الحكم :

وفى الاحصاء الشامل الذى أجريناه ، أثار دهشتنا ندرة التعاليم القرآنية التى تستند الى سلطة الامر ذاته فى تعليل حكمها . فلم نجد سوى عشر آيات كلها مدنية (البقرة ٢٧٥ - النساء ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ٢٤ بها تكرار و ١٠٣- التوبة ٦٠ - المجادلة ٣ - الممتحنة ١٠) فليس مألوفاً فى القرآن أن نجد الصيغة " الكانتية " " افعل كذا لأنه هكذا فرض " استناداً على الشكل المجرد من مادته.

غير أن غياب علة معلنة لا يعنى بالضرورة عدم وجود علة مضمرة . ذلك أن الإيمان يقتضى خضوعاً غير مشروط للأمر الإلهى وإن بدا فى ظاهر الأمر قسوة أو تحكم ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من

---

[١] ربما يستحسن أن نستثنى أيضاً بعض الفقرات فى رسائل القديس بولس حيث وعد الأولاد المطيعين بالأعمار الطوال على الأرض (الرسالة الأولى إلى أهل افسيس-٣) ووعد عامة الناس بزيادة كل نعمة (مادية) (الرسالة الثانية إلى اهل كورنثوس ٩:٨-١١) وحيث يفسر كثرة الوفيات والمرضى بمخالفة الواجب الدينى (الرسالة الأولى إلى كورنثوس ١١:٢٩-٣٠) (المؤلف).

أمرهم – الاحزاب ٣٦ ﴾ ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم – النساء ٦٦ ﴾ ومع ذلك فباسم هذا الإيمان نستطيع أن نستشف سبباً خفياً ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم ﴾ إلا أن الامر الإلهى يتنزه عن أن يأخذ فى نظرنا أى شكل من التحكم والاستبداد ، بل إنه يتمثل لنا دائماً متصفاً بالعلم والحكمة والاقناع الكامل بحيث يتحقق له انقياد ضمائرنا الكامل . (انظر النساء ١١ – ١٢ – ٢٤ – التوبة ٦٠ – الممتحنة ١٠).

وبخلاف هذه الأحكام الآمرة ، سوف نرى أن الوصايا القرآنية ترتكز على أسس متنوعة يمكن حصرها فى ثلاثة مجموعات كبيرة : أ – المسوغات الذاتية – ب – اعتبارات البيئة – ج– اعتبارات النتائج المترتبة على العمل.

أ – المجموعة الأولى : المسوغات الذاتية

نقصد بهذه العبارة الاستناد إلى قيمة أخلاقية مرتبطة بالإلزام لدعم هذا الإلزام عقلياً .

وهناك ثلاثة نماذج للارتباط بين القيمة والموضوع . على اساسها نقدر الموضوع ونحدد قيمته سواء كان فعلاً أو قاعدة أو موقفاً أو نظرية . أولا : إما بأن ترجع قيمة الموضوع الى طبيعته الخاصة (اى لما يتضمنه من قيم تتصل بمعناه الخاص) ، ثانياً : أو ان تُستخلص قيمته من حالة سابقة هو امتداد لها (أى بسبب القيم التى يعكسها حين يتطلع الى اصله) ، ثالثاً : أو أن تتصل قيمته بحالة لاحقة هو سبب لها (اى بسبب القيم الى يأتى بها ويحققها بعد ذلك) .

ولما كان المراد فى جميع الأحوال هو التوصل إلى حكم أخلاقى . فإن القيمة المطلوبة ينبغى ان تتصف بنفس الصفة الاخلاقية ، وان يكون ارتباطها بالموضوع ارتباطاً طبيعياً – اى تحليليا – وليس ارتباطاً اتفاقياً ناشئاً عن حكم تشريعى.

ولقد اخترنا الأيات القرآنية التى سوف نقدمها الأن ، بطريقة تحقق هذه الشروط، وتشدد على النزعة الاخلاقية بوسائل ولأغراض أخلاقية وتلفت الانتباه أساساً الى الخصائص الذاتية بوصفها ذاتية..

وراعينا فى اختيارنا أن يقتصر على الأيات التى تتعلق بالتعاليم القرآنية المستقلة عن التى وردت بالقرآن عن الرسالات السابقة ، وان تكون على درجة كافية من جلاء المعنى . وان يكون المقام الاول فيها للمسوغ الذاتى.. علماً بان القرآن يستخدم فى الغالب المبادئ المسوغة فى شكل تفسير ، وتكون احياناً موضوع الأمر ذاته ، أى كعلة وكأمر معلول.

كيف يدعو القرآن الى منهجه العام؟

إنه يحرص على أن يرينا ما هو هذا المنهج ، وما ليس فيه فى ذاته ، وينفى عنه نقائص كل مذهب باطل أو نفعى ، ويؤكد الصفات المتميزة والكفيلة باقناع العقول المغرمة بالحقيقة . انه يعلن انه ليس بقضية منفعة ، ولا بنظام يستهدف منه مؤسسه اى أجر ﴿ قل لا اسألكم عليه أجراً - الأنعام ٩٠ ﴾ [٧ آيات مكية][1] . ولا بنظام يفرض بالإكراه وإنما هو دعوة لتبليغ تعاليم لا يتم الايمان بها إلا بموافقة حرة ﴿ لا إكراه فى الدين . قد تبين الرشد من الغى - البقرة ٢٥٦ ﴾ ﴿ وقل للذين أتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ - آل عمران ٢٠ ﴾ [١٧ آية مكية و ٤ مدنية] .

وانه ليس بقول شاعر ولا كاهن ولا عالم ﴿ بل قالوا أضعاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر - الانبياء ٥ ﴾ ﴿ فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون - الطور ٢٩ ﴾ [٩مكية] ولا مجنون [١٠ مكية] . وليس إلهاماً شيطانياً ﴿ وما تنزلت به الشياطين - الشعراء ٢١٠ ﴾ [آيتان مكيتان] . ولا اختراعاً مبنياً على الكذب ﴿ قالوا لولا اجتبيتها، قل إنما أتبع مايوحى إلىّ من ربى - الأعراف ٢٠٣ ﴾ [١٧ مكية] ولا تعبيراً عن الهوى ﴿ وما ينطق عن الهوى - النجم ٥٣ ﴾ . انه النور الإلهى ﴿ قد جاء كم برهان من ربكم ، وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً - النساء ١٧٤﴾ [١٢مكية ٥ مدنية] الذى يريكم وجهة الخير ﴿ هدى للمتقين - البقرة ٢ ﴾ [٣٠ مكية و١٤ مدنية] ويضعكم على أقوم صراط ﴿ إهدنا الصرط المستقيم - الفاتحة ٥ ﴾ [٢٠ مكية و٦ مدنية] . إنه أحسن حديث ﴿ الله نزل أحسن الحديث - الزمر ٢٣ ﴾ إنه المنهج الثابت ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت

---

[1] درج المؤلف فى الاصل الفرنسى على ان يذكر بمتن الكتاب المعنى المراد وأن يشير إلى رقم السورة ورقم الآية بالهامش. ثم قام المعرب بإثبات نص آية واحدة كاملاً فى المتن إلى جوار المعنى المراد ، مع الابقاء على بيانات الهامش كما كانت. ولقد رأينا أن ندرج فى متن "المختصر" نص آية واحدة كاملاً كما فعل المعرب . وان نضيف العدد الاحصائى للآيات بين قوسين مضلعين[ ] . مع عدم ذكر عدد الآيات إذا كان العدد آية واحدة. واستبدلنا أرقام السور بأسمائها. ولم نثبت بهوامش المختصر أرقام الآيات والسور باعتبار أنها موجودة فى الأصل لمن اراد الرجوع إليها (صاحب المختصر).

- ابراهيم ٢٧ ﴾ والحكم الفاصل ﴿ إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل - الطارق ٥ ﴾ [٣ مكية] الموافق للفطرة ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها - الروم ٣٠ ﴾ والأمر الوسط ﴿ وعلى الله قصد السبيل - النحل ٩ ﴾ إنه امتداد لملة الخير وتأكيد لها ﴿ قل بل ملة ابراهيم حنيفاً - البقرة ١٣٥ ﴾ [٦ مكية و٣ مدنية] وهو العدل ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً - الأنعام ١١٥ ﴾ [٢ مكية] وهوالحق ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم - البقرة٢٦ ﴾ [٤٧ مكية و ٢٣ مدنية] الشديد الوضوح ﴿ قل إنى على بينة من ربى - الأنعام ٥٧ ﴾ [٧ مكية و ٤ مدنية] والعلم ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة - البقرة ١٢٩ ﴾ [٢ مكية و٧ مدنية] والحكمة [٥ مكية و٨ مدنية] وهو العروة الوثقى ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها - البقرة ٢٥٦ ﴾ [آية مكية وآية مدنية] وهو شفاء القلوب ﴿ موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور - يونس ٥٧ ﴾ [٣ مكية] ، وزكاة للنفوس ﴿ ويزكيهم - البقرة ١٢٩ ﴾ [٢ مكية و٤مدنية] وهو يمنح الحياة بالمعنى العلوى للكلمة ﴿ أوَ مَنْ كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس - الأنعام ١٢٢ ﴾ [٢ مكية وآية مدنية] .

إذن مجموع الآيات بشأن الخصائص المميزة للمنهج العام هو ٢٠٩ آية مكية و ٨٠ آية مدنية .

فإذا انتقلنا من العام إلى التفاصيل ، ومن المنهج العام إلى الأحكام ، سوف نجد أيضاً الفضائل الرئيسية العملية ، إما مأموراً بها لذاتها (بدون تعليق فى الغالب) وإما مقررة كغاية لأفعال خاصة ، أو كمصدر لقيم تتحقق للنفس الإنسانية.

***

ونجد فى الآيات التالية على الاقل الوصايا الإيجابية التى تتوفر فيها هذه الشروط التى تأمر أو تدعو إلى:

- عناية الفرد بتعلّم واجباته وتعليمها لغيره ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم - التوبة ١٢٢ ﴾ [٢ مكية وآية مدنية]
- الجهد الأخلاقى ﴿ فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة أو إطعام - البلد ١١-١٧ ﴾
- اتباع القدوة الحسنة ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة - الاحزاب ٢١ ﴾ [آية مكية و٣ مدنية]
- الافعال المتزنة (الوسط) ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلاً - الاسراء ١١٠ ﴾ [٢ مكية]

• الاستقامة ﴿ واستقم كما أمرت - الشورى ١٥ ﴾
• التنافس فى فعل الخير وعمل الأفضل ﴿ فاستبقوا الخيرات - البقرة ١٤٨ ﴾ [آية مكية و ٣ مدنية]
• الا عمال الحسنى ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً - هود ٧ ﴾ [٣ مكية]
• الأقوال الحسنى ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن - الإسراء ٥٣ ﴾
• الصدق ﴿ وكونوا مع الصادقين - التوبة ١٧١ ﴾ [آية مكية و٢ مدنية]
• العفة والاحتشام ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أذكى لهم - النور ٣٠ ﴾ [٢ مكية و ٥ مدنية]
• استعمال الأشياء المكتسبة بالحلال ﴿ كلوا مما فى الأرض حلال طيباً - البقرة ١٦٨ ﴾ [أية مكية ٤ مدنية]
• الشجاعة والجلد والثبات ﴿ والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس - البقرة ١٧٧﴾ [٢ مكية وآية مدنية]
• لين الجانب والتواضع ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً - الفرقان ٦٣ ﴾
• التأنى والتبصر فى الأحكام ﴿ إذا ضربتم فى الارض فتبينوا ، ولا تقولوا لمن القى إليكم السلام لست مؤمناً - النساء ٩٤ ﴾ [٣ مدنية]
• الإحسان العام ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان - النحل ٩٠ ﴾ (من الفعل المتعدى بمعنى فَعَل الخير أو أتْقَن،ومن غير المتعدى (احسن اليه) بمعنى رحمه)
• الإحسان العام إلى الوالدين ﴿ وبالوالدين إحساناً - الأنعام ١٥١ ﴾ مع تشريفهما وطاعتهما والرقة لهما والاهتمام بهما ﴿ فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما . وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً - الإسراء ٢٣ ﴾
• معاملة زوجاتنا معاملة حسنة ﴿ فإمساك بمعروف او تسريح بإحسان - البقرة ٢٢٩) [٤ مدنية]
• التحدث الإنسانى معهن والتشاور المتبادل ﴿ فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جناح عليهما - البقرة ٢٣٣ ﴾ [٢ مدنية]
• سد حاجة أسرنا بقدر مواردنا ﴿ ومتعوهن على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره - البقرة.٢٣٣ ﴾ [٣ مدنية]
• تعويض الزوجات فى حالة الطلاق ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين - البقرة ٢٢٩ ﴾ [٤ مدنية]

• المعونة الواجبة لذوى القربى ، والجيران الأقربين والأبعدين، والغرباء ابناء السبيل وللمحرومين من الإرث بصفة عامة ، وهى معونة تقتطع مما يكتسب بالحلال ومن أفضلها ﴿ وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب – البقرة ١٧٧ ﴾ ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون – آل عمران ٩٢﴾ ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم – المعارج ٢٤ ﴾ [٥ مكية و٩مدنية]

• دعم الفقراء واليتامى فى حالة المجاعة ﴿ أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة – البلد ١٤﴾

• تحرير الأرقاء ﴿ فك رقبة – البلد ١٣ ﴾ [آية مكية و ٢ مدنية]

• الأمانة والنزاهة ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط.لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا – الأنعام ١٥٢ ﴾ [٢ مكية وآية مدنية]

• السخاء ﴿ وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية – الرعد ٢٢ ﴾

• العدل ﴿ وإذا حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل – النساء ٥٨ ﴾ [٥ مكية و٦ مدنية] والميزان العمودى الذى لايميل ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم – الإسراء-٣٥﴾ [٢ مكية]

• الإدلاء الصادق لكل شهادة تطلب ﴿ ولا تكتموا الشهادة – البقرة ٢٨٢ ﴾ [٣ مدنية] ولو فى غير صالح أقربائنا أو أنفسنا ﴿ كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين – النساء ١٣٥ ﴾ [آية مكية وآية مدنية]

• إعادة الأمانة لصاحبها ﴿ فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته – البقرة ٢٨٣﴾ [آية مكية و٢ مدنية]

• الوفاء بالوعود المقطوعة [١] وبالكلمة المعطاة ، وباليمين المقدمة ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا – البقرة ١٧٧ ﴾ [٢ مكية و ٢ مدنية]

• الكرم وإنكار الذات ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة – الحشر ٩ ﴾ [آية مدنية]

• التسامح والكرم نحو الجاهلين ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين – الأعراف ١٩٩ ﴾ [٣ مكية وآية مدنية]

• الرد بالخير على الشر ﴿ ويدرءون بالحسنة السيئة – الرعد ٢٢ ﴾ [٢ مكية]

---

[١] يلاحظ التركيز والتحديد اللذين أعلن بهما القرآن هذا الواجب فى العلاقات الدولية ﴿ ولاتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ، أن تكون أمة هى أربى من أمة .. النحل ٩١ ﴾ وكأنها خطبة قصيرة ملتهبة فى مشكلة عصرنا الكبرى .. مع فضح الأسباب الحقيقية للصراع الدولى التى تكثر من الفساد فى القرن العشرين. (المؤلف)

● الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ينهون عن المنكر﴾ [٢ مكية و ٣ مدنية]

● وفى ذلك كان المؤمنون متضامنين ﴿ بعضهم أولياء بعض - التوبة ٧١﴾

● تشجيع إصلاح ذات البين والإحسان ﴿ لا خير فى كثيرمن نجواهم إلا من أمر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس - النساء ١١٤ ﴾

● تعاون الجميع لتسود الفضيلة والنظام ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى - السابقة ﴾

● التواصى بالصبر والرحمة ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة - البلد ١٧ ﴾

● التمسك بالوحدة المقدسة ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا - آل عمران ١٠٣ ﴾

● توثيق روابطنا المقدسة ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل - الرعد ٢١ ﴾

● عاطفة الأخوة الروحية والدعاء لها (وهى روح الجماعة) ﴿ يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا - الحشر ٩ ﴾ ﴿ يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا - السابقة ﴾

● الدعوة إلى الحق بأحكم الطرق وأصدقها ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن -النحل ١٢٥ ﴾

● وبالجملة كل الطرق المقبولة (عقلاً ونقلاً) [١١ مدنية]

***

- ولماذا لا نذكر فى نفس المجموعة بعض الأمثلة فقط من واجباتنا نحو الله ..؟

● الإيمان بالله ﴿ ولكن البر من آمن بالله - البقرة ١٧٧ ﴾ [آية مكية وآية مدنية]

● طاعته ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول - النور ٥٤ ﴾

● التفكر فى كلامه وافعاله تعالى ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شئ - يونس ١٨٥﴾ [٣ مدنية]

● دوام ذكره ﴿ أذكوا الله ذكراً كثيرا - الأحزاب ٤١ ﴾

● الاقرار بفضله ﴿ وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون - النحل ٧٨ ﴾ [٤ مدنية]

● التوكل عليه ﴿ قل حسبى الله - لا اله الا هو - عليه توكلت - التوبة ١٢٩ ﴾ [آية مكية وآية مدنية]

● تعليق كل وعد على إرادته ﴿ ولا تقولن لشئ إنى فاعل ذلك غداً إلا ان يشاء الله - الكهف ٢٣ ﴾

● حب الله ﴿ والذين آمنوا اشد حباً لله - البقرة ١٥٦ ﴾ [٢ مدنية]

• عبادته ﴿ اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم - البقرة ٢١ ﴾ [آية مكية وآية مدنية]

وكل هذه الوصايا مسوغة بالنص ذاته ومجموعها ٦٧ آية ملكية و ٩١ آية مدنية.

ونذكر فيما يلى المحاسن الاخلاقية التى يزين بها القرآن تفسيراته ، ويمتدح بها شعيرة او قاعدة ، ليطلق للإرادة طاقة قوية ، فى الوقت الذى يحصرها داخل الفعل ذاته دون غيره:

* فالعمل الخير والأكثر خيراً ﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى - البقرة ٢٦٣ ﴾ ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلاً - النساء ٥٨ ﴾ [٢ مكية و٦ مدنية]

* وهو خير هائل ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً - البقرة ٢٦٩ ﴾ [٤ مدنية]

* وهو خير حقيقى (على الرغم من المشاعر المناقضة) ﴿ أذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم - البقرة ٢٢١ ﴾ [٢ مدنية]

* وهو أكثر حسناً ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن - النساء ١٢٥ ﴾ [آية مكية و٢ مدنية]

* وهو أكثر عدلاً ﴿ ذلكم أقسط عند الله - البقرة ٢٨٢ ﴾ [٢ مدنية]

* وهو أعظم قيمة ﴿ ولذكر الله أكبر - العنكبوت ٤٥ ﴾

* وهو مقياس التقوى ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون - البقرة ١٧٧ ﴾ [آية مكية و ٣ مدنية]

* وهى مقتضى الإحسان ﴿ متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين - البقرة ٢٣٦ ﴾

* ومقتضى التقوى ﴿ حقاً على المتقين - البقرة ١٨٠ ﴾ [٢ مدنية]

* ومقتضى الشكر ﴿ رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً - الإسراء ٢٤ ﴾ ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف - قريش ٣-٤ ﴾ [٤ مكية وآية مدنية]

* وهو مقتضى البسالة وسمو النفس ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل - الأحقاف ٣٥﴾ [٢ مكية وآية مدنية]

* وهو مقتضى التفانى من أجل الضعفاء ﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين - النساء ٧٥ ﴾

* وهو مقتضى الاهتمام بالبائسين الذين نتعاطف معهم سواء بأن نضع أنفسنا ذهنياً مكانهم ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم - النساء ٩ ﴾ أو بأن نتذكر ماضينا عندما كنا معذبين وجهلة وضالين ﴿ كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا - النساء ٩٤ ﴾ [آية مكية وآية مدنية] ، أو بأن ندرك وضعنا البشرى وحاجتنا إلى الغفران الإلهى ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم -النور ٢٢ ﴾

* من طبيعته أن يطهر القلوب أو يجعلها أكثر ظهراً ﴿ ذلكم ازكى لكم وأطهر - البقرة ٢٣٢﴾ [٦ مدنية]

* من طبيعته شرح الصدور ، وزيادة قوتها ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم - النور٢٨ ﴾ [آية مكية و ٤ مدنية] والتعبير مباشرة عن الفكرة والتأثير على القلب بفاعلية ﴿ إن ناشئة الليل هى اشد وطئا وأقوم قيلاً - المزمل ٦ ﴾

* تثبيت النفس او زيادة ثباتها ﴿ ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم - البقرة ٢٦٥ ﴾ [٢ مدنية] ، وهو ما يجلب للنفس الطمأنينة ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب - الرعد ٢٨ ﴾ [٢ مدنية] . وينزع عن النفس الشكوك ﴿ وأدنى ألا ترتابوا - البقرة ٢٨٢ ﴾ ويبعد عنها اللا أخلاقية ﴿ إن الصلاة تنتهى عن الفحشاء والمنكر- العنكبوت ٤٥﴾ ويمنح التقوى أو يقرب منها ﴿ لعلكم تتقون - البقرة ١٨٣ ﴾ [٤ مدنية] ويجنب الوقوع فى الظلم اللاإرادى وما يتبعه من الندم ﴿ أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين - الحجرات ٦ ﴾ ويعيد صلتنا بالله ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً - الفرقان ٧١ ﴾

* وباختصار أن الكيف هو الذى يحقق القيمة حتى ولو لم تكن تتناسب مع الكم ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث - المائدة ١٠٠ ﴾

* وقد يدفع القرآن تحليله إلى أبعد من ذلك ، فلا يكتفى بعلاج العناصر الأخلاقية منفصلة عن العناصر العقلية والروحية ، بل إنه لا يتردد فى شرح صفاتنا ومفاهيمنا وعقائدنا وطرائق عملنا ، وأن يقيّم بعضها ببعض . ولذلك نجد بعض الفضائل العملية تستمد بعض قيمتها من أنها تعكس الإيمان وتبرهن على صدقه ﴿ ولكن البر من آمن بالله ... وآتى المال على حبه ذوى القربى .. الخ البقرة ١١٧ ﴾ [٢ مكية و٢ مدنية]

* والإيمان يأخذ قدره باعتباره صفة امتياز القلوب المتواضعة والحساسة ﴿ واذا سمعوا ما انزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق - المائدة ٨٢ ﴾ [آية مكية و ٢ مدنية] . وهذه الحالة النفسية وهذا الموقف الروحى من شيم العلماء ﴿ يقولون آمنا به كل من عند ربنا - آل عمران ﴾ [٧ مكية و٢ مدنية]

* والتعاليم القرآنية بصفة عامة تستمد قيمتها باعتبارها موجهة إلى من يملك من الناس الفعل الراجح والقدرة على التعلم والتامل والتعمق ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء .. ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً، وما يذّكر إلا أولو الألباب- البقرة ١٦٤﴾ [٢٦ مكية و٤ مدنية]

* وفتح الآذان لنذير القرآن هو أول سمات الحياة ﴿ لينذر من كان حيّاً ، ويحق القول على الكافرين - يس ٧٠ ﴾ والتمسك بتعاليمه دليل على البصيرة ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم . فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها - الأنعام ٥٠ ﴾ [٧ مكية وآية مدنية] . وعلى العقل الناضج ﴿ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون- البقرة ١٨٦﴾ [آية مكية و ٢ مدنية]

* واخيراً حين نعيشها كما عاشها رسول الله ﷺ فتلك هى العظمة الأخلاقية ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم - نون ٤ ﴾ وإذا عملت بها جماعة تكون هذه الجماعة خير الأمم ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس - آل عمران ١١٠ ﴾ [٢ مدنية]

هذه هى صيغ المدح الأخلاقى [٦٤ مكية و ٦٦ مدنية].

***

ونجد طريقة **تعليم الفضيلة لذاتها** - دون مسوغ آخر غير ما ينتج عن المبدأ الاخلاقى وعن تحليل خصائصها الذاتية ، نجدها فى **الواجبات السلبية** التى تحرم السيئات او التى تدين طابعها المنفر . ولهذا نشير الى الآيات القرآنية التى تقرر المحرمات:

▫ قتل الانسان نفسه ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم - النساء ٢٩ ﴾

▫ هتك العرض أو الشروع فى أعمال تمهد له ﴿ ولا تقربوا الزنا - النساء ٢٤ ﴾ [٢ مكية و ٢مدنية]

▫ ممارسة البغاء او المعاشرة غير الشرعية ﴿ محصنين غير مسافحين ولا متخذى اخدان - النساء ٢٥ ﴾ [٣ مدنية] أو اى عمل غير اخلاقى ظاهراً او خفياً ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن - الأعراف ٣٣ ﴾ [٣ مكية]

▫ الكذب ﴿ واجتنبوا قول الزور - الحج ٣٠﴾

▫ التباهى بالنفس ﴿ ألم ترى إلى الذين يزكون أنفسهم ؟ بل الله يزكى من يشاء - النساء ٤٩ ﴾ [آية مكية ، آية مدنية]

▫ اتباع الرغبات الطائشة ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا - النساء ١٣٥ ﴾

▫ التشبه بالكفار ﴿ لا تكونوا كالذين كفروا - آل عمران ١٥٦ ﴾ [٣مدنية]

▫ اشتهاء مال الغير ﴿ ولا تمدّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم - الحجر ٨٨ ﴾ [٢ مكية وآية مدنية]

▫ جمع المال والمبالغة فى حب الأموال ﴿ وتأكلون التراث أكلاً لماً . وتحبون المال حباً جماً - الفجر ١٩ -٢٠ ﴾

▫ مشية الخيلاء ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحاً - الإسراء ٣٧ ﴾

▫ اللبس غير المحتشم (للنساء) ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهم إلا لبعولتهن .. النور ٣١ ﴾ [٣مدنية]

▫ استعمال مال مكتسب بطريق غير مشروع والانتفاع بشئ غير طاهر (حقيقة ومجازاً) ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب - النساء ٢ ﴾ ﴿ والرجز فاهجر - المدثر ٥ ﴾

▫ قتل الاولاد (ولو بدافع الفقر الشديد سواء وقع أو يخشى وقوعه) ﴿ ولا تقتلوا اولادكم خشية إملاق - الإسراء ٣١ ﴾ [٢ مكية]

▫ إيداء أقل عمل ينم عن عدم توقير شيخوخة آبائنا ﴿ فلا تقل لهم أف ولا تنهرهما - الإسراء ٢٣ ﴾
▫ سوء معاملة زوجاتنا (بالتكدير والابتزاز والحرمان ..) ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً - النساء ١٩ ﴾ [٦ مدنية]
▫ إراقة دم الإنسان ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق- الإسراء ٣٣﴾ [٣ مكية]
▫ التسبب فى الدمار أو الفساد فى الأرض ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون - البقرة ١١ ﴾ [آية مكية وآية مدنية]
▫ أن يكون المرء عدوانياً حتى مع أعدائه ﴿ ولا يجرمنّكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا- المائدة ٢ ﴾ [٢ مكية و آية مدنية]
▫ الانتفاع بمال الغير (فضلاً عن امتلاكه) بدون رضاه ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون - البقرة ١٨٨ ﴾ [٢ مدنية]
▫ المساس بأموال اليتامى إلا بأشرف الطرق (من أجل استثمارها) ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن - النساء ٦﴾ [٢ مكية وآية مدنية]
▫ معاملة اليتيم بجفوة ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم - الماعون ٢ ﴾
▫ استعمال العنف معه ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر - الضحى ٩ ﴾
▫ معاملته باحتقار ﴿ كلا بل لا تكرمون اليتيم - الفجر ١٧ ﴾
▫ إهمال الفقير ﴿ ولا تحاضّون على طعام المسكين - الفجر ١٨ ﴾
▫ تعنيف السائل ﴿ وأما السائل فلا تنهر - الضحى ١٠ ﴾
▫ اختيار الأشياء الخبيثة للإنفاق منها ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون - البقرة ٢٦٧ ﴾
▫ إعطاء الهبة من اجل تحقيق مصلحة ذاتية ﴿ ولا تمنن تستكثر - المدثر ٦ ﴾
▫ أن يراد بالإحسان ثناء الآخرين ﴿ يمنون عليك أن أسلموا.قل لا تمنوا .. الحجرات ١٧﴾
▫ الإدلاء بشهادة الزور ﴿ والذين لا يشهدون الزور - الفرقان ٧٢ ﴾
▫ خيانة الثقة ﴿ لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم - الأنفال ٢٧﴾
▫ دخول بيوت الغير بدون إذن أو سلام ﴿ لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها - النور ٢٧ ﴾ [٣ مدنية]
▫ الانسحاب من اجتماع بدون إذن من الرئيس ﴿ وإذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه - النور ٦٢ ﴾

□ اغتياب اخواننا ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً - الحجرات ١٢ ﴾ وترصّد اسرارهم ﴿ ولا تجسسوا - السابقة ﴾ وفضحهم والسخرية منهم ﴿ لا يسخر قوم من قوم - الحجرات ١١ ﴾ ان نطلق عليهم أسماء للاستهانة بهم ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب - السابقة ﴾

□ التآمر من أجل الظلم والعدوان ﴿ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان - المائدة ٢ ﴾

□ تقطيع علاقاتنا المقدسة وإحداث الفرقة والفتنة ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا - المائدة ٢ ﴾

□ نسيان الله ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم - الحشر ١٦ ﴾

□ ضعف الإيمان به ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . فقالوا هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا- الانعام ١٣٦ ﴾

□ عدم طاعة الله ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من امرهم- الاحزاب ٣٦ ﴾.

□ إشراك أى شئ بالله ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون - البقرة ٢٢ ﴾ [آية مكية وآية مدنية]

□ تعريض اسم الله لما لا يليق ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم - البقرة ٢٢٤ ﴾ [آية مكية و ٢ مدنية]

وهذه هى المحرمات مسوغة بخصائصها الذاتية [٣٣ مكية و ٤٧ مدنية]

***

وأخيراً نوضح كيف يبين القرآن التسويغ الدقيق . إذ أنه فى مقابل القيم الإيجابية التى فى الفضيلة ، سوف نجد هنا نقيض القيمة الذى فى الرذيلة باعتبار أن أى سلوك مخالف للقاعدة المقررة أو عدم الإيمان بالحقائق العليا ، سوف يدان ليس فقط لأن ذلك يؤدى إلى هلاك اصحاب هذا السلوك - وإنما أيضاً لأنه يستتبع ظهور النقائص التالية إما متزامنة وإما متتابعة:

☒ الضلال: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى- البقرة ٧ ﴾ [٣١ مكية و١٧ مدنية]

☒ الغفلة: ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون-الأعراف ١٧٩ ﴾ [٢ مكية]

☒ الخبط فى الظلمات ﴿ وتركهم فى ظلمات لا يبصرون-البقرة ١٧ ﴾ [٧ مكية و ٢ مدنية]

☒ الانحراف والابتعاد عن الصراط المستقيم ﴿ وإن الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون - المؤمنون ٧٤ ﴾ [٢ مكية و ٢ مدنية]

☒ طريق الشر ﴿ إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً - النساء ٢٢ ﴾ [آية مكية وآية مدنية]

☒ انقلاب القيم ﴿ يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم اللـه ، فيحلـوا مـا حرم الله – التوبة ٣٧ ﴾ [٣ مكية و ٣ مدنية]

☒ المشى المقلوب ﴿ أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى ، أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم – الملك ٢٢ ﴾

☒ السقوط والهلاك ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السـماء فتخطفـه الطير أو تهـوى به الريح فى مكان سحيق- الحج ٣١ ﴾

☒ اتباع الرغبـات العميـاء ﴿ ولكنـه أخلد إلـى الأرض واتبـع هـواه – الأعراف ١١٩ ﴾ [٦ مكية و٢ مدنية]

☒ عبادة الأهواء ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه – الجاثية ٢٣ ﴾ [٢ مكية]

☒ المبادلة الخاسرة ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل اللـه – البقرة ٩٠ ﴾ [آية مكية و ٣ مدنية]

☒اختيار صاحب ملعون ﴿ ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً – النساء ٣٨ ﴾ [آية مكية و ٢ مدنية]

☒ اتباع العـدو والتحـالف معـه ﴿ إنـا جعلنـا الشـياطين أوليـاء للذيـن لايؤمنـون – البقـرة ١٦٨﴾ [٣ مكية و ٢ مدنية]

☒ لقب وضيع ﴿ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون – الحجرات ١١ ﴾

☒ تقليد الظالمين ﴿ إنكم إذن مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنـم جميعـاً – النساء ١٤٠ ﴾ [٢ مدنية]

☒التشبيه بشئ حقير ﴿ فمثله كمثل الكلب – الأعراف ١٧٦ ﴾ [٥ مكية]

☒التشبيه بشئ مكروه ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضـاً ، أيحب أحدكـم أن يـأكل لحـم أخيـه ميتـا فكرهتموه – الحجرات ١٢﴾

☒العمى ﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أفلا تتفكرون – الأنعام ٥٠ ﴾ [١٣ مكيـة و ٤ مدنية]

☒الصمم ﴿ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون- الأعراف ١٠٠ ﴾ [١٣ مكية و٣ مدنية]

☒ الجهل ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين – الأنعام ٣٥ ﴾ [١٨ مكية و٣ مدنية]

☒ نقص العقل أو سوء استخدامه ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسـون أنفسكم وأنتـم تتلـون الكتاب ؟ أفلا تعقلون ؟ – البقرة ٤٤﴾ ﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً – النسـاء ٧٨ ﴾ [٥ مكية و١٣ مدنية]

☒ العلم الضيق ﴿ ذلك مبلغهم من العلم – النجم ٣٠ ﴾

☒المعرفة السطحية ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا – الروم ٧ ﴾

☒ رفض ما لم تدرك مغبة رفضه ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله - يونس ٣٩ ﴾ [٢ مكية]

☒ المجادلة بدون الاستناد إلى علم أو نور هادى ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير -الحج ٣ ﴾ [آية مكية و ٣ مدنية]

☒الدفاع عن قضية لا يدعمها يقين ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة . قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده - البقرة ٨٠ ﴾ [١٧ مكية و ٥ مدنية] ولا برهان ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً - آل عمران ١٥١﴾ [٦ مكية و ٢ مدنية] ولا تجربة ﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم - الكهف ٥١ ﴾ [٦ مكية و ٢ مدنية]

☒ الحكم السئ ﴿ فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون- الأنعام ١٣٦ ﴾ [٢ مكية]

☒ حجة منهارة ﴿ والذين يحاجّون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم -الشورى ١٦ ﴾

☒ بدون أساس ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوارة والإنجيل - المائدة ٦٨ ﴾

☒ القابلية للكسر ﴿ أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم - التوبة ١٠٩ ﴾

☒ اقصى الضعف ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون-العنكبوت ٤١ ﴾

☒ تقليد الجاهلين الضالين من الأقدمين ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون - الزخرف ٢٣ ﴾ [٢ مكية و ٦ مدنية].

☒ التمسك بالتخمينات البسيطة ﴿ إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً - النجم ٢٣ ﴾ [٩ مكية و ٢ مدنية]

☒الباطل ﴿ ليحق الحق ، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون - الانفال ٨ ﴾ [١٠ مكية و ٤ مدنية]

☒لا واقع له ﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ - العنكبوت ٤٢ ﴾ [٢ مكية]

☒مجرد أسماء ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان - يوسف ٣٣ ﴾ [٣ مكية و ٢ مدنية]

☒ اختلاق الكذب ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون- آل عمران ٧٥﴾ [١١ مكية و ٤ مدنية]

☒ تدابير الشيطان ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان - المائدة ٩٠ ﴾

☒ الضلال ﴿ لا إكراه فى الدين . قد تبين الرشد من الغى - البقرة ٢٥٦ ﴾ [آية مكية وآية مدنية]

☒ الخفة نهج الحمقى ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم - الأنعام ١٤٠ ﴾ [آية مكية و٢ مدنية]

☒ المبالغة وتجاوز الحدود ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير حق-المائدة ٧٧﴾ [٧ مكية و ٢ مدنية]

☒ الفعل السئ ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء - البقرة ١٦٩﴾ [آية مكية و ٦ مدنية].

☒ فعل الفجور ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء - البقرة ٢٦٨ ﴾ [٢ مكية و ٤ مدنية]

☒ فعل المنكر ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر - النور ٢١﴾ [٣ مدنية]

☒ فعل العمل القبيح (الذى يحقرنا فى نظر أنفسنا) ﴿ لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم - غافر ١٠ ﴾ [آية مكية وآية مدنية]

☒السلوك الفاسد والشاذ والمنحل ﴿ فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون - الحديد ١٦ ﴾ [٥ مكية و١٠ مدنية]

☒ السلوك الظالم ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله - البقرة ١٤٠ ﴾ [١٩ مكية و ١١ مدنية]

☒ ظلم المرء نفسه ﴿ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه-البقرة ٢٣١ ﴾ [٤ مكية و٣ مدنية]

☒جسامة الخطأ ﴿ والفتنة أكبر من القتل - البقرة ٢١٧ ﴾ ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين ، واتخذ من الملائكة إناثاً . إنكم لتقولون قولاً عظيماً - الإسراء ٤٠ ﴾ [٣ مكية و ٣ مدنية]

☒ جريمة واحدى الكبائر ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حوباً كبيراً - النساء ٢ ﴾ [٢ مكية و ٨ مدنية]

☒ إثم القلب ﴿ ولا تكتموا الشهادة . ومن يكتمها فإنه آثم قلبه - البقرة ٢٨٣ ﴾

☒ خيانة النفس ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم - البقرة ١٨٧ ﴾

☒ عدم نقاء القلب ﴿ أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم - المائدة ٤١ ﴾

☒ النجاسة (بالمعنى الأخلاقى) ﴿ إنما المشركون نجس. فلا يقربوا المسجد الحرام - التوبة ٢٨ ﴾ [٤ مدنية]

☒ الانهزام أمام الغواية ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً - طه ١١٥ ﴾

☒ الشك ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم - التوبة ٤٥﴾ [٣ مدنية]

☒ الانتهازية ﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً . ولئن اصابكم فضل من الله ليقولن - كأن لم تكن بينكم وبينه مودة - يا ليتنى كنت معهم ، فأفوز فوزاً عظيماً - النساء ٧٢- ٧٣ ﴾

☒ ربط الشئ بالمنفعة ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين - النور ٤٨ ﴾

☒ قسوة القلب ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك . فهى كالحجارة أو اشد قسوة - البقرة ٧٤ ﴾ [٢ مكية و ٢ مدنية]

☒ التكبر بغير مبرر ﴿ إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه - غافر ٥٦ ﴾ [٢ مكية]

☒ إهتمام منحرف، وحماسة لأى شئ ﴿ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون-الشعراء ٢٢٥﴾

☒ اقوال تتناقض مع الافعال ﴿ وأنهم يقولون مالا يفعلون - الشعراء ٢٢٦ ﴾

☒ التمسك بالأرض ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض - الأعراف ١٧٦﴾

☒ الابتعاد عن الله ﴿ ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة - المائدة ٩١ ﴾ [آية مدنية]

فأى خاتمة طبيعية نختتم بها هذا الحشد من النقائص ، أفضل من أن نقول مع القرآن ، إن هذه النقائص لا تؤدى فحسب إلى إظلام النفس وحجبها ﴿ وقد خاب من دساها - الشمس ١٠ ﴾ [٢ مكية] ، ولا إلى مرض القلب وفساده ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً - البقرة ١٠ ﴾ [٦ مدنية] بل إلى موت الروح ﴿ إنك لا تسمع الموتى - النمل ٨٠ ﴾ [٤ مكية] . وأكثر من ذلك فإن القرآن ينظر إلى الذين اختاروا الكفر اختياراً لا رجعة فيه أنهم أسوء المخلوقات و أحطها على الأرض ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم والبكم الذين لا يعقلون - الأنفال ٢٢﴾ [١ مكية و٣ مدنية]

ألا يكفى لأوصاف الذم وألقاب اللوم ٢٤٧ مكية و ١٧١ مدنية ؟

لقد نهض القرآن فى إنجازه التربوى على مثل هذه الاعتبارات الأخلاقية الخالصة ، وهى تعكس مدى ثراء المفردات اللغوية التى استخدمها القرآن للإشادة بالفضيلة ، والتنديد بالرذيلة.

ب- المجموعة الثانية : اعتبارات البيئة .

إننا الأن فى مرحلة انتقالية وسيطة بين التسويغات الذاتية والجزاءات الظاهرية . وهى مرحلة تعتبر مدخلاً وفترة تريث تسبق منطقة الجزاءات.

لا شك ان " الرأى العام " بمعنى الشعور الذى نجده عندما نكون موضع اعجاب اخواننا فى المجتمع أو العكس .. هذا الاعتبار يكون له أثره على الإنسان عندما يكون داخل المجتمع أو يتوقع ان يعلن سلوكه للمجتمع فى وقت لاحق. أما إذا كان

الإنسان فى عزلة لا يراه الناس ، فإن المثل العليا التى غرست فى نفسه بالتربية سوف لا تجعله يبالى بالناظرين إليه .. مثل المؤمنين ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ، ولايخشون أحداً إلا الله – الأحزاب ٣٩ ﴾ ﴿ يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم – المائدة ٥٤ ﴾ .

أما إذا تعقد الموقف وهاج الشر وقوى الإغراء وأمن الإنسان من اكتشاف سره، فإن " المشاهد المحايد " الذى كتب عنه " آدم سميث" و " الأنا الاجتماعى " عند برجسون ، وكل أشباح المجتمع الإنسانى سيكون لها أقل الأثر على سلوك الإنسان.

إلا أن القرآن يضعنا فى وسط مختلف عن ذلك تماماً ، إنه يضعنا أمام واقع حى، حاضر فى أنفسنا فى كل زمان ومكان .. لا أقصد الملائكة الحفظة الذين يرافقون الانسان أينما كان ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه – الرعد ١١﴾ ولا الملائكة الكرام الكاتبين ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد – ق ١٧ ﴾ بحيث ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد – ق ١٨ ﴾ ، وإنما أقصد حضور الله سبحانه وتعالى الذى قال عن نفسه ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار – الرعد ١٠ ﴾ ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه – يونس ٦١ ﴾ ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا – المجادلة ٧ ﴾ ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد– ق ١٦﴾ ﴿ يعلم ما تفعلون – الشورى ٢٥ ﴾ و ﴿ يعلم ما فى قلوبكم – الاحزاب ٥١ ﴾ و ﴿ أحاط بكل شئ علماً – الطلاق ١٢ ﴾ و ﴿ شهيد على ما تفعلون – يونس ٤٦ ﴾ ﴿ إنى معكما اسمع وأرى – طه ٤٦ ﴾ .

ولكن هل حاول القرآن أن يوقظ فينا الخوف من بعض العقاب أو الأمل فى بعض الثواب ، وهو يذكرنا بهذه الحقائق ؟ لقد راعينا فى اختيارنا لآيات المجموعة الثانية تجنب الآيات التى قد تشتمل على أى تنبيه من هذا النوع ، وأوردناها فى المجموعة الثالثة.

وأثناء اجتيازنا لهذه المنطقة الوسيطة سوف نمر بدرجات من التنبيهات المتفاوتة فى القيمة وفى مستويات الوعيد ، حرصنا على جمعها فى أربعة مراحل رئيسية حسب موقف الأفراد الموجهة اليهم الآيات.

اولاً : موقف المرحب الصريح والمؤيد للنظام وللسلوك الملتزم مع اشتماله على عدة درجات متفاوتة . ويناسب هذا الموقف أن تكون صيغة الآيات حبيبة ومطمئنة تحرص

على الإشارة إلى الارادة الطيبة التى تظهر تدريجياً إلى حيز الوجود دون ذكر أى مظهر ضعف . ومع إثارة الانتباه إلى حضور الله وعلمه المحيط ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم - البقرة ٢١٥ ﴾ ﴿ الذى يراك حين تقوم - الشعراء ٢١٨ ﴾ [٢ مكية و ٧ مدنية] . ذلك أن المؤمن الصادق يجد فى هذه الفكرة ما يدعم جهوده ، ويغذى طاقته من أجل الثبات على الهدى والحرص على نوعية أعماله ، وطهارة نواياه .. ويغلب هنا الشعور بالارتياح وبالقوة البناءة إنه جاذبية الحب. ولقد جعل منه الرسول ﷺ تعريف الكمال ذاته حين أجاب " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. "

ثانياً : موقف التجاوب مع أحكام الشرع بصفة عامة ، مع عدم استبعاد احتمال وقوع الخطأ . هنا يكون موقفنا فى ظروف عادية قبل انجاز العمل ، ويصدر الأمر - امام اختيارين للارادة - فى شكل مجرد بعض الشئ لا يبالى باختيارنا. ولن نقرأ " إن الله يرى ما تفعلون من خير " ولن نقرأ كذلك " حذار أن تفعلوا الشر " بل سوف نقرأ "هذا هو الواجب ، وسيرى الله عملكم تجاهه" ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم. ولا تُسألون عما كانوا يعملون - البقرة ١٤٩ ﴾ [٣ مكية و ٢٥ مدنية]

ثالثا : وهو موقف الانقياد من حيث المبدأ. غير أن بعض الظروف الخاصة قد تدخل شيئاً من التغيير. لهذا فإن اللهجة تبدأ فى ان تكون أكثر جدية . وموضوع المفسر يستمر، والصيغة المجردة تبقى كما كانت فى المجموعة الثانية ، مع التأكيد على معنى الالزام أكثر من معنى التحريم كما لو كان هناك ميل متوقع للمخالفة . ويغلب عنصر " المنع " من الآن فصاعداً على عنصر " الدفع " ﴿ فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه- البقرة ١٨١ ﴾ [٢ مكية و ١٤ مدنية] . وهنا تتضارب المشاعر التى تحركت ويتغلب عليها شعور الحياء من الله الذى اذا سيطر على عقولنا أدى الى خشيتنا من أن نرتكب شيئاً يجعلنا نخجل امام جلال الله . والرسول يوصى " استحيوا من الله حق الحياء" . قلنا: إنا نستحيى من الله يارسول الله والحمد لله . قال " ليس ذلك. ولكن الاستحياء من الله حق الحياء : أن تحفظ الرأس وما وعى. والبطن ما حوى . وتتذكر الموت والبلى . ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، وآثر الاخرة على الأولى . فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء " . وإذا حدث أن وقع المرء فى خطأ أو ضعف ، فما ذلك إلا لغياب فكرة الحياء من الله التى أدركت يوسف حين ﴿ رأى برهان ربه - يوسف ٢٤ ﴾ وعندئذ سرعان ما نذكر الله ، ونبكى على تلك الغفلة ، ونسترد مكاننا فى المجتمع الالهى ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم . ومن يغفر الذنوب إلا الله ..؟ -آل عمران ١٣٥ ﴾.

وهكذا رأينا فى هذه المراحل الثلاثة أن الأمر أمر تربية أخلاقية على أساس من المشاعر الدينية . كانت فى الأولى الحب وفى الثالثة الحياء . أما فى الثانية فكان "الحذر" بسبب تعادل القوتين لكى نستمر على الصراط المستقيم.

رابعاً : وهو موقف التمرد الذى يتخذه الكفار . وهو على نقيض المرحلة الأولى حيث نرى هنا موقفاً ضد الشرع صراحة وبلا رجعة . ولذلك نجد الآيات تسرد كثيراً من الجرائم التى سبقت ، ولا يخطئ المستمع فى ملاحظة ما تتسم به الآيات من طابع التهديد والوعيد ﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ؟ فإن لله يضل من يشاء ويهدى من يشاء. فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . إن الله عليم بما يصنعون** – فاطر ٨﴾ [١٣ مكية و ١٦ مدنية].

فما المقصود بهذا التحذير؟ .. إنه على الأرجح نداء من بعيد إلى الإنسان العاقل الذى بداخلهم ، لعل تكرار الطرق على الباب يؤدى إلى فتحه وانطلاق الروح وانبعاث الجسد الميت . وهو مؤقتاً موضوع للتفكر والتدبر- إذا بقى لهم شئ من التفكر – الى أن يروا ما ينتظرهم من المصائب .. وما هذه المصائب ؟ ومتى تقع ؟ وكيف ؟ لم يُذكر شئ حتى هذه المرحلة.

وهكذا تنتهى المنطقة الوسيطة [٢٠ مكية و ٦٢ مدنية].

وبنهاية هذه المرحلة الأخيرة نصبح على عتبة " الجزاء " بمعناه الصحيح.

جـ – المجموعة الثالثة : اعتبارات النتائج المترتبة على العمل.

نتائج طبيعية .

لاحظنا ندرة الأيات التى تتحدث عن " الجزاءات الطبيعية " أى الآثار النافعة والضارة التى تنتج عن السلوك الأخلاقى فى الاحوال العادية ، كالصحة والمرض .. دون تدخل ظاهر من الارادة العليا . وميزنا بين نوعين من المبررات المسوغة : منها الفردية ومنها العامة.

أما الوصايا المسوغة بالخير الفردى الناتج عن تنفيذها ، فلم نجد سوى أربع آيات[1]:

---

[1] وهناك آية خامسة ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت ايمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا – النساء ٣ ﴾ لم نذكرها هنا. فلقد فسرها عدد قليل من المفسرين بالتعليل الاقتصادى " أى=

- ﴿ ولا تُؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً - النساء ٥ ﴾

- ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم - المائدة ١٠١ ﴾

- ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلا بيبهن.ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين- الاحزاب ٥٩﴾

- ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك . ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً - الاسراء ٢٩ ﴾ فاللوم والعسر نتيجة للبخل والتبذير.

وأما الأوامر المعلقة بالخير العام فهى أكثر عدداً :

- ﴿ ادفع بالتى هى أحسن . فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم - فصلت ٣٤ ﴾

- ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر - المائدة ٩١ ﴾

-وعقاب القاتل يجب أن يستهدف المذنبين وحدهم ﴿ ولكم فى القصاص حياة-البقرة ٧٩﴾

- والنزاع الذى يتفشى فى جيش أو فى شعب يستتبع هزيمته وزواله ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم - الانفال ٤٦﴾

- وتسليح الجيش فى زمن السلم يكون من اجل إرهاب العدو ﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم - الانفال ٦٠ ﴾

- فى حالة القتال يجب الحذر وعدم وضع السلاح حتى اثناء الصلاة وذلك كاجراء وقائى لاى هجوم مفاجئ ﴿ ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة - النساء ١٠٢ ﴾

- ولماذا القتال ؟ .. إنه فى سبيل ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، هناك أهداف وسيطة حددتها الآيات:

أ- وقف عنف الكافرين ، وكسر قوتهم العدوانية ﴿ وحرض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا- النساء ٨٤ ﴾

ب- منع الفساد والفوضى من الانتشار فى الأرض ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض - البقرة ٢٥١﴾

= تلاقى عبء عائلى " بينما أكثر المفسرين واصحاب الرأى منهم يرون أنها اسباب اخلاقية.
" ابتعدوا ماأمكن عن ارتكاب أى ظلم" وهو تفسير أدق باعتبار أن كلمة "تعولوا" لاتعبر عن المعنى الأول إلا فى وجود مفعول به مباشر. وهو غير وارد بالآية. (المؤلف)

ج-حماية المؤسسات الدينية من الهدم ﴿لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد-الحج ٤٠﴾

د- عقاب المعتدين وإغاثة المؤمنين ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين - التوبة ١٤ ﴾.

هذه هي كل الآيات التي وجدناها تشير إلى الجزاءات الطبيعية [٢ مكية و ١٢ مدنية].

ولكن عندما تتجه الغريزة والذكاء والإيمان والعقل ، وواجبي ومصلحتي - كلها - نحو نقطة واحدة ، وعندما أسمع من كل جوانب نفسي ذات النداء وذات الأمر . هل من حقي أن اقول أنني لم استجب إلا لصوت وحيد ، وأن الدافع كان الواجب ليس إلا ، وأن العوامل الأخرى لم يكن لها أي تاثير على قراري ؟ وكيف أتحقق من ذلك ؟ ....

الحق أن هذه المسألة خارج الموضوع الذي نبحثه ، إلا أنه ينبغي أن نعلم أنه على الرغم من نوايانا ومن مشيئتنا ، فإن نظام الطبيعة كثيراً ما يختلط بقضايانا الأخلاقية .. ويؤثر عليها ، وينتج بها نتائج لا تلبث أن تمسنا في أعماقنا.

وهذه الحقيقة حرص القرآن على التأكيد عليها كما في الأمثلة الكثيرة السابقة ، ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما " إن للحسنة لنوراً في القلب ، وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق وقوة في البدن ، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة لسواداً في الوجه، وظلمة في القلب ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق ، وبغضاً في قلوب الخلق " .

النتائج غير الطبيعية (أو الجزاء الإلهي).

الأخلاق القرآنية - شأن الأخلاقيات الدينية - لم تقع في التناقض الفلسفي الذي عزل العنصر الأخلاقي عن العنصر الحسي ، ثم عاد بعد فوات الأوان يوفق بينهما . والأخلاق القرآنية تتصور الانسان من اول وهلة في تركيبته المتكاملة التي يتعاون فيها القلب والعقل دائماً مع الإراداة ، وترى أن خلود الروح ووجود الله نقطة انطلاق وعقيدتان مبنيتان أولاً على ذاتهما وتنشآن نظام الجزاء . ان إله القرآن الذي هو إله جميع الكتب المنزلة هو الخالق والمشرع . وهو في نفس الوقت المكافئ العادل . وفي ظل هذه المفاهيم فإن التفكير في نوعيات الجزاء سوف يجد رحابة أوسع ، وسوف يقدم الاجابة التي تناسب شتى المقتضيات . فإذا كان الإنسان الذي كرس كل كيانه لأفعاله سوف يتحمل نتائج هذه الأعمال بكيانه كله . فإن هذا هو العدل كل العدل .. ومن جهة أخرى فإن الفعل الإرادي الذي سن الله به شريعة الواجب ، يكون متمشياً في ذات الفكر الإلهي. مع الفعل الذي حدد به الله - سبحانه - المبدأ العام للجزاء ﴿ وما محمد الا رسول قد

خلت من قبله الرسل . أفإن مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً . وسيجزى الله الشاكرين – آل عمران ١٤٤ ﴾ [١١ مكية و ٢ مدنية].

فضلاً عن أن الربط بين الفضيلة والسعادة ، وبين الرذيلة والعقوبة ، والفصل بين الأبرار والأشرار – الذى يُذكر هنا على أنه واقع ، أو وعد أو أمر – ترد فى القرآن أحياناً كخاتمة لتفكير استنباطى نابع من مفهوم الإله الحكيم العادل **﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون – الجاثية ٢١﴾ ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ؟ – ص ٢٨ ﴾ ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ – ن ٣٥ ، ٣٦﴾.**

ولكى يكون هذا الاستنباط قاطعاً ، ينبغى أن يقتصر على الفكرة العامة للثواب دون الدخولْ فى كيفيته . إذ هل يمكن أن نجد علاقة عقلية بين العمل العابر للإرادة الإنسانية أو حتى الجهد الدائم فى هذه الحياة المتناهية ، وبين الجزاء اللامتناهى فى حياة الخلود . وإذا كان مثل هذا الثواب لا يتعادل مع اعمالنا فى حد ذاتها ولن يكون . فقد يعتبر وعداً وعهداً .. أو مقابلاً فى عقد مبرم بين الله والإنسان **﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة – التوبة ١١١ ﴾** والمهم ان تكون لأعمالنا قيمة أخلاقية أى أن تكون نقية وبلا عيوب ، وأن تستوفى شروط قبولها عند الله ، وهو ما يستحيل التحقق منه فى وضعنا الراهن.

وعلى ضوء درجات هذه الفروق يمكنك أن تفسر الحديث النبوى الذى يصرح بأن قبول الصالحين فى الجنة منحة من فضل الله " لن يدخل أحداً عمله الجنة . قالوا ولا انت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا . إلا أن يتغمدنى الله برحمته" . وتقارنه بالآيات القرآنية التى تذكر ان الميراث السماوى ثمن مستحق عن اعمالنا **﴿ أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون- النحل ٣٢ ﴾ ﴿ أورثتموها بما كنتم تعملون – الزخرف ٧٢ ﴾.**

٤- الجزاء الإلهى :

طبيعة وكيفية الجزاء الإلهى .

على حين تجعل التوارة السعادة الموعودة فى طيبات هذه الدنيا ، ويحصرها الإنجيل تقريباً فى الآخرة ، نجد القرآن كما أوضحنا يضم هذين المفهومين ويوفق بينهما. إنها مصالحة يقصد القرآن بها إعادة الوحدة الأولية إلى عنصرين متكاملين لحقيقة واحدة عمد كتّاب الكتاب المقدس بصورة ما على فصلهما ، حين ألح كل فريق إلحاحاً شديداً

على العنصر الذى تركه الآخر . ولكن هذه المصالحة وحدها لا تفسر النظام القرآنى . إذ أن القرآن بعد أن أتم هذا التوفيق زاد الوصف ثراء بإضافة عناصر جديدة.

ونذكر أولاً الآيات التى يقتصر فيها القرآن على تقرير مبدأ الجزاء الإلهى بايجاز ودون أن يحدد طبيعته وأنه سوف يقع فى موعدين على الصالحين والطالحين على السواء. ويقول القرآن عن الصالحين ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار - البقرة ٢٠١ ﴾ [٨ مكية و٣ مدنية] . وعن غير الصالحين ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ؟ - البقرة ٨٥ ﴾ [٦ مكية و ٩ مدنية].

وهناك آيات أخرى تحدد طبيعة الجزاء الإلهى على نحو يتفاوت فى تفاصيله ، وسوف نحاول أن نعرض الجزاء الإلهى: فى الحياة العاجلة ، وفى الحياة الآجلة.

أ- الجزاء الالهى فى الحياة العاجلة.

ينفرد القرآن بالاعتدال فى التعبير عن هذا الجزاء العاجل . فهو فى جانب كبير منه جزاء ذو طابع أخلاقى عقلى وروحى . اما الطابع المادى الخالص منه فتمثله نسة ضئيلة للغاية من الآيات إن لم تكن نسبة سلبية ، وذلك على عكس المنهج العبرانى.

١- غياب الجانب المادى.

الآية الوحيدة التى ذُكر بها وعد بخير حاضر يتضمن فى ظاهره عنصراً مادياً هى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب - الطلاق ٢-٣ ﴾ والآية الثانية اقل تحديداً للجانب المادى ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا - الطلاق ٤ ﴾ وفى آية ثالثة لا يدل التعبير على معنى واحد وإنما يحتمل التأويل ﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة - النساء ١٠٠ ﴾ فيحتمل معنى " يجد فى الأرض حرية ورخاء " أو " يجد فى الأرض النجاة من أعدائه ، وممارسة نشاطه فى دائرة أوسع " والتفسير الثانى يتفق أكثر مع السياق ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - النساء ٩٧ ﴾ . ونفس الإبهام نجده فى وعد المهاجرين ﴿ لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر - النحل ٤١ ﴾ والوعد لأهل الخير أكثر تعميماً ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة - الزمر ١٠ ﴾ وفى الخطاب الموجه إلى الكافرين يكسو السعادة طابع سلبى شديد ﴿ ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى . ويؤت كل ذى فضل فضله - هود ٣ ﴾.

أما بقية الآيات فليست وعوداً ولا إنذارات مباشرة ، وإنما هى حقائق تاريخية قديمة أو معاصرة لفترة نزول القرآن ، تجد تفسيرها فى علاقتها بالوقائع الأخلاقية . وأكثر الآيات تركز على الجانب العقابى من الجزاء أو المسبب للحرمان ، فهذا البلد أو تلك الجماعة كانت تعيش فى امن ورغد من العيش ، تجد نفسها بين يوم وليلة مهددة بالخوف والجوع ، أو تقع عليها مصيبة تهلك حرثها وثمارها وتنضب مواردها. وبعض الآيات ينسب هذا البلاء إلى عدم الإيمان بالله وجحود فضله ﴿ **وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان. فكفرت بأنعم الله . فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون – النحل ١١٢** ﴾ ﴿ **ذلك جزيناهم بما كفروا – سبأ ١٧** ﴾ وفى آيات أخرى ، يفسر القرآن هذا التحول إما بفرط اطمئنان الناس لمستقبلهم (ناسين قدرة الله) ﴿ **قال : ما أظن أن تبيد هذه ابداً ، وما أظن الساعة قائمة .. فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية .. – الكهف ٣٥ – ٤٣** ﴾ ، وإما للإخلال بالواجبات الاجتماعية وعدم الإحساس ببؤس إخوانهم ﴿ **أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين ... فأصبحت كالصريم .. كذلك العذاب – القلم ٢٤ – ٣٣** ﴾.

وجملة القول أن القرآن يفسر التحول بوقوع الكبائر الإنسانية ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت ايدى الناس -الروم ٤٠** ﴾ ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض – الاعراف ٩٦** ﴾ ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوارة والإنجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم – المائدة ٦٦** ﴾ ﴿ **وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه – الجن ١٦** ﴾ والآية الأخيرة توضح أن الفضل الموعود ليس مكافأة وإنما هو اختبار وابتلاء.

أما فى الحالات شديدة الخطر كالفساد العام فان المجرمين لا يدفعون من اموالهم وإنما من حياتهم باستئصالهم ﴿ **وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظاملة – هود ١٠٢** ﴾ ﴿ **فحق عليها القول فدمّرناها تدميراً – الإسراء ١٦** ﴾ هذا مع استثناء الذين يحسنون ويشكرون ﴿ **نجيناهم بسحر .. كذلك نجزى من شكر – القمر ٣٤- ٣٥** ﴾.

يتضح من كل ذلك أن الأمر ليس أمر عقوبة مقدرة ، وانما درس يستخلص من التاريخ الإنسانى ليلفت انتباه الأغنياء والأقوياء الى وهن وعرضية امنهم وترفهم.

٢- عنصر تأييد المؤمنين.

هناك مجال أسمى من الحياة البدنية والمادية المحضة حيث يكون الإنشغال عزيزاً على الناس. إنه الانشغال على مصير المثل العليا والمشاعر الجماعية . وهنا نجد الوعود القرآنية مباشرة وصريحة واكثر عددا فإزاء تحالف الكفار والمنافقين فى

معارضتهم الضارية للنبى والصحابة ، لم يكتف القرآن بمواساة المؤمنين بقوله ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً – آل عمران ١٢٠ ﴾﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا – الحج ٣٨ ﴾ وإنما وعدهم بالتأييد الايجابى ﴿ وأن الله مع المؤمنين – الأنفال ١٩﴾ ﴿مع المتقين – البقرة ١٩٤ ﴾ [٣ مدنية] ﴿ مع الصابرين–البقرة ٢٠١ ﴾ [٣ مدنية] وهو ﴿ولى المؤمنين–آل عمران ٦٨﴾ و ﴿ مولى الذين آمنوا–محمد ١١﴾ ﴿ فنعم المولى– الحج ٣٨ ﴾ [٣مدنية] .

وإذا كانت القدرة ينفرد بها الله فإنه يعطى بعضها لأوليائه ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين – المنافقون ٨ ﴾ ﴿ فإن حزب الله هم الغالبون – المائدة ٥٦ ﴾ وتأييدهم ﴿ نصرمن الله وفتح قريب – الصف ٣ ﴾ و ﴿ لينصُرنَّ الله من ينصره – الحج ٤٠ ﴾ ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم – محمد ٧ ﴾ ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين– الروم ٤٧ ﴾ ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون – الصافات ١٧١ – ١٧٣ ﴾ ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى – المجادلة ٢١ ﴾ ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين – آل عمران ١٩٣ ﴾.

أما خصوم المؤمنين فإن مصيرهم إلى الهزيمة وإلى الندم ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون – آل عمران ١٢ ﴾ [آية مكية و ٢ مدنية] والذل ﴿ أولئك فى الاذلين – المجادلة ٣٠ ﴾ والخزى ﴿ وأن الله مخزى الكافرين – التوبة ٢﴾ ﴿ وليُخزِىَ الفاسقين – الحشر ٥﴾ [٢ مدنية] وتدمير قوتهم ﴿ دمر الله عليهم . وللكافرين أمثالها – محمد ١١﴾ لأن ﴿.. الظالمين بعضهم اولياء بعض – الجاثية ١٩﴾ و ﴿وأن الكافرين لا مولى لهم – محمد ١١ ﴾ لانهم ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم . ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون – التوبة ٣٢﴾ [٣ مدنية] ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله – الروم ٤﴾.

ويمضى أحد النصوص فى ذلك إلى النهاية ، فيفتح الآفاق أمام المؤمنين المخلصين ليس فقط بانتصار دعوتهم العادلة ، والفوز للمدافعين عنها. ، وإنما بتسلم مقاليد الحكم فى الدنيا ﴿ ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم – النور ٥٥﴾.

ونعلم أن ذلك قد تحقق ودام عدة قرون بقدر ما بقيت تلك الشروط متحققة .
وإذا كان هناك تغيير قد حدث بعد ذلك ، فإنه ايضاً طبقاً لهذا القانون ﴿ أن الأرض يرثها عبادىَ الصالحون – الأنبياء ١٠٥﴾ إن الفضيلة الاجتماعية ليست أقل الفضائل المطلوبة لأهلية الحكم ، وإذا كنا نشاهد حكماً غير دينى يستمر ويزدهر فى ظل الاتحاد والعدل أطول زمناً من حكم المؤمنين إسماً وقد ركنوا إلى المنحل من الأخلاق وإلى الفوضى والعصيان ، فإن ذلك تصديق لما أعلنه القرآن ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم – محمد آخر آية ﴾

٣-الجانب العقلى والأخلاقى.

ولكن الجزاء الإلهى لا يتوقف عند هذا الحد. وإنما يتعمق أكثر ليصل إلى أعمق ملكاتنا وأسماها ، ليكون بذلك مكملاً ضرورياً للجزاء الأخلاقى الحق.

فعندما قلنا إن الخير يضئ الروح ويزكى القلب ويقوى الإرادة الصالحة ، وإن الشر دنس وعمى وانحطاط ، كنا نقصد أن هذا اتجاه أكثر منه واقع ، وخطوة أولى لتاريخ طويل. ولكى تنطلق هذه الحالة الناشئة فى احدى السبل المفتوحة أمامها ، تحتاج إلى مبدا قادر على التوجيه إلى هذا الاتجاه أو ذاك . وها هو المبدأ الفعال .. إنه خالق هذا الكون هو الذى سوف يتكفل بقيادة هذه الفطرة إلى الوجهة التى تميل إليها.

فالذين يكافحون من أجل دعوة الله ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا – العنكبوت ٦٩ ﴾ ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه – التغابن ١١ ﴾ ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور – البقرة ٢٧ ﴾ [٤ مدنية] ﴿ ولهديناهم صراطاً مستقيماً – النساء ٦٨ ﴾ [١ مكية و ٤ مدنية] والذين يلتزمون الصدق والأمانة ﴿ يصلح لكم اعمالكم – الاحزاب ٧١﴾ ﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً – الأنفال ٢٩ ﴾ ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به – الحديد ٢٨ ﴾ ﴿ وأصلح بالهم-محمد ٥ ﴾ ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى-مريم ٧٦﴾ [١ مكية و ١ مدنية] ﴿هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم-الفتح ٤﴾ [٢ مدنية]

أما غير المؤمنين الذين تصدوا للإيمان وللشرع ﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم- النحل ١٠٤ ﴾ [٦ مكية و ١٣ مدنية] ﴿ ويضل الله الظالمين – ابراهيم ٢٧ ﴾ [٣ مكية و ١ مدنية] ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية – المائدة ١٣ ﴾ ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم . فلا يؤمنون إلا قليلاً – النساء ١٥٥ ﴾ [٦ مكية و٥ مدنية] ﴿ فأصمهم وأعمى أبصارهم – محمد ٢٣ ﴾ ويزيد مرضهم ﴿ فزادهم الله مرضاً – البقرة ١٠ ﴾ ﴿ ويمدهم فى طغيانهم – البقرة ١٥ ﴾ ويصيبهم بالنفاق ﴿ فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم – التوبة ٧٧ ﴾ وحين نسوا الله ﴿ فأنساهم أنفسهم – الحشر ١٩ ﴾ ويتركهم للشيطان ﴿نقيض له شيطاناً – الزخرف ٣٦ ﴾ ﴿ يخرجونهم من النور إلى الظلمات – البقرة ٢٥٧ ﴾.

ولكن الظالمين ليسوا وحدهم الذين يلقون هذا المصير الذليل. فإن على المؤمنين أنفسهم أن يتذكروا أن نورهم وإلهامهم هبة من فضل الله تعالى ، يمكن أن تسحب منهم بمجرد أن يغيروا من موقفهم ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك – الإسراء ٨٦ ﴾ [٢ مكية] . وهكذا بلغ عدد الأيات التى تذكر ردود الفعل الأخلاقية الفورية ٢٣ مكية و ٤٠ مدنية.

٤- الجانب الروحى.

وفى الجزاء الإلهى العاجل عنصر يتمثل فى التعديل الذى تحدثه أفعالنا فى علاقتنا مع الله. ذلك هو موقفنا تجاه الشرع الذى يجد الرد العاجل من الله بالقبول أو عدم القبول ، فنصبح عنده مَرضيّاً عنا أو غير مرضى ، ونكسب حب الله أو نفقده وهو حب يطلب لذاته. كل ذلك قبل أى رد فعل خارجي . . والقرآن يبرز هذا الجانب ويؤكده : ﴿ إن الله يحب المحسنين - البقرة ١٩٣ ﴾ [٤ مدنية] ﴿ يحب المقسطين - المائدة ٤٢﴾ [٣ مدنيـة] ﴿ يحب الصابرين - آل عمران ﴾ ﴿ يحب المتقين - آل عمران ٣١ ﴾ [٣ مدنية] ﴿ يحب التوابين ويحب المتطهرين- البقرة ٢٢٢ ﴾ [٢ مدنية] ﴿يحب المتوكلين - آل عمران ١٥٩ ﴾ ﴿ فاتبعونى يحببكم الله - آل عمران ٣١ ﴾ ﴿ يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص - الصف ٦١ ﴾ ﴿ يناله التقوى منكم - الحج ٣٧ ﴾ والله يذكر من يذكره ﴿ فاذكرونى أذكركم - البقرة ١٥٢ ﴾ ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه - فاطر ١٠ ﴾ والصابرون ﴿ عليهم صلوات من ربهم ورحمة - البقرة ١٥٧﴾ ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة - الفتح ١٨ ﴾ ﴿ اتبع رضوان الله-آل عمران ١٦٢﴾ [٢ مدنية] ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم - الزمر ٧ ﴾ ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا .. أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه.. رضى الله عنهم ... المجادلة ٢٢ ﴾ ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون-النحل ١٢٨﴾ أى يخشونه ولايفعلون الشر [٢ مكية] ﴿ وهو يتولى الصالحين-الاعراف ١٩٦﴾[1] وهو ﴿ ولى المتقين-الجاثية ١٩﴾ [٢ مكية].

ونقيض ذلك موضح كذلك إذ أن ابتعادنا عن الإيمان أو عن القاعدة يؤدى إلى انقطاع فى علاقتنا مع الله تتفاوت درجات إمكان إصلاحه ، فنتعرض لعدم رضا الله وغضبه ولعناته بالإضافة الى العقوبات الايجابية ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً - الإسراء ٣٨ ﴾ والله ﴿ لا يحب الفساد - البقرة ٢٠٥ ﴾ ﴿ لا يحب المفسدين - المائدة ٦٤﴾ [٢ مدنية] ﴿ لا يحب المعتدين - البقرة - ١٩٠ ﴾ (الذين يبدأون بالعدوان أو

---

[1] يلاحظ أن هذا "الاتحاد" وهذا "الحلف" مع الله تحددهما السور المدنية على انهما إمداد عسكرى للدفاع عن المؤمنين وحمايتهم ، بينما فى السور المكية - ولم يكن القتال قد شرع - فهما على الأرجح العزاء الروحى. بل حتى فى السور المدنية توجد آيات تعطى لها مدلولاً أخلاقياً صرفاً ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور - البقرة ٢٥٧ ﴾ (المؤلف).

يتمادون فيه) ﴿ لا يحب الظالمين - آل عمران ٥٧ ﴾ [آية مكية و ٢ مدنية] ﴿لا يحب المسرفين - الأنعام ١٤١ ﴾ [٢ مدنية] ﴿ لا يحب الخائنين - الأنفال ٥٨ ﴾ ﴿ لا يحب المستكبرين - النحل ٢٣ ﴾ ﴿ لا يحب الكافرين- آل عمران ٣٢ ﴾ [آية مكية و آية مدنية] ﴿ لا يحب من كان مختالاً فخوراً - النساء ٣٦ ﴾ [آية مكية وآية مدنية] ﴿ لا يحب كل كفار اثيم- البقرة ٢٧٦ ﴾ ﴿ لا يحب من كان خواناً أثيماً - النساء ١٠٧ ﴾ ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر - الزمر ٧ ﴾ ﴿ ولا يرضى عن القوم الفاسقين - التوبة ٩٦ ﴾ ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم - النساء ١٤٨ ﴾ ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون - الصف ٣ ﴾ ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً - فاطر ٣٩ ﴾ ﴿ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً - غافر ٣٥ ﴾ ﴿ والذين يحُاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب - الشورى ١٦ ﴾ ﴿كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم... أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله - آل عمران ٨٦﴾ [آية مكية وآية مدنية] و ﴿ لعنهم الله بكفرهم- البقرة ٨٨ ﴾ [آية مكية و ١٣ مدنية]﴿ من يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها، وغضب الله عليه ولعنه - النساء ٩٣ ﴾ ﴿والذين ينقضون عهد الله .. أولئك لهم اللعنة - الرعد ٢٥ ﴾ ﴿ إن الذين يرمون المحصنات .. لعنوا فى الدنيا والآخرة - النور ٢٣ ﴾ ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره - الا متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله - الانفال - ١٦ ﴾ ﴿لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شئ - آل عمران ٢٨ ﴾ .

وعدد آيات الجزاءات الروحية العاجلة ٢٠ مكية و ٥٨ مدنية.

قصور الجزاء العاجل.

وهكذا نجد - على المستوى المادى والعقلى والأخلاقى والروحى ، تجاه الفرد أو الجماعة - رداً إلهياً على سلوكنا حسنا كان أم سيئاً . غير أن كل هذا لا يكفى فى نظر العدالة العليا.

فهى مجرد عينات او مقدمات للعدالة الكاملة ، لأن الجزاءات الإلهية فى هذا العالم ليست شاملة ولا كاملة ﴿ ويعفو عن كثير - الشورى ٣٠ ﴾ ﴿ وإنما توفون أجوركم يوم القيامة - آل عمران ١٨٥ ﴾ شأنها شأن الجزاءات الطبيعية والجزاءت الانسانية.

ثم إن ضروب السعادة والتعاسة يختلط بعضها ببعض فى الحياة الدنيا ، فمن جهة يدفع الصالحون ثمن أخطائهم وإن قلت - بما يلاقونه من آلام ومن صعوبات ﴿فأثابكم غماً بغم - آل عمران ١٥٣ ﴾ ﴿ قل هو من عند أنفسكم - آل عمران ١٦٥﴾ ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك - النساء ٧٩ ﴾ . ومن جهة أخرى فإن أشد القلوب

قسوة وأكثر النفوس سواداً لا تعدم أن تفعل بعض الأعمال الصالحة – التى قد تكون مغرضة أو عفوية – أى غاب عنها الإيمان بالسلطة الإلهية الآمرة . ومع ذلك فلا يحرمون من جزائهم عنها . بل ان مكافأتهم مضمونة تدفع لهم نقداً وعداً من خيرات هذه الدنيا . بحيث تظل جرائمهم غير مسددة وتنتظر السداد يوم القيامة ﴿ .ن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون .. ليس لهم فى الآخرة إلا النار .. – هود١٥ ﴾ بحيث ان هذا " الاختلاط " لا يبقى له أثر يوم القيامة وبعد أن يستقر كل فريق فى مقامه الأبدى.

وأخيراً إن ما يقع لنا من خير أو شر فى هذه الدنيا ، لا ينبغى أن ننظر إليه على أنه مجرد ثواب أو تكفير لما بدر منا ، وإنما هو فوق ذلك ابتلاء ومحرك لمزيد من الجهد ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا .. – البقرة ٢١٤ ﴾ [آل عمران ١٤٠ /١٤٢، ١٥٢، ١٦٦، التوبة ١٦، الأنبياء ٣٥، العنكبوت ٢/٣ ، الروم ٤١ ، السجدة ٢١ ، محمد ٣١].

من هذه الاعتبارات الثلاثة تتجلى ضرورة وجود جزاء آخر يتصف بالكمال الخالص ، يكون الحصيلة النهاية للجهد فى نهاية المطاف ، أى عالم للجزاء فقط .. لا يتصور إلا هكذا .. فى مقابل هذا العالم الحافل بالالتزامات المتزايدة على الدوام .

كيف أخبر القرآن بذلك ؟ هذا ما سوف نبحثه حتى نهاية هذا الفصل .

ب- الجزاء الالهى فى الحياة الاخرة .

لا تعالج الآيات القرآنية هذا الموضوع بطريقة واحدة . فبعضها يعرض فكرة عامة غير محددة ، بينما البعض الأخر يقدم تحديداً دقيقاً إلى حد ما ، سلبيا أم ايجابيا، مادياً أم روحياً ، وسوف نرى فيما يلى نماذج كثيرة :

١ -نذكر فى البداية الآيات التى تكتفى بذكر الاسم النوعى للمقام الابدى المخصص للصالحين والعصاة – جنة أو نار – بدون تفاصيل وهى [١٩ مكية و ٨ مدنية] عن الجنة و [٦١ مكية و ٥٠ مدنية] عن النار [مجموعها ٨٠ مكية و ٥٨ مدنية] .

٢ -ومجموعة أخرى من الآيات لا تحدد اسم المقام الأبدى ، وتذكر مصير كل فريق فى صيغ تتفاوت فى درجة الابهام كالآتى :

فقد أعلن للصالحين :

- البشرى ليس إلا ﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة – البقرة ٩٧﴾ [٤ مكية و ٥ مدنية]

● الأمل والرجاء ﴿ وترجون من الله ما لايرجون- النساء ١٠٤ ﴾ [٢ مكية و آية مدنية]
● الوعد الحسن ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى - النساء ٩٥ ﴾ [آية مكية وآية مدنية]
● الفوز ﴿ إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون-المؤمنون ١١١ ﴾ [٢ مكية و ٢ مدنية]
● سيجدون فى الله رحمة هائلة ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً-الأحزاب ٤٧ ﴾
● عملهم لا يضيع ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى - آل عمران ١٩ ﴾ [٣ مدينة]
● عملهم لا ينكر ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه - آل عمران ١١٥ ﴾ [آية مكية و آية مدنية]
● لهم من الله الشكر ﴿ فإن الله شاكر عليم - البقرة ١٥٨ ﴾ [٢ مكية و ٣ مدنية]
● هم المفلحون ﴿ أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون - البقرة ٥ ﴾ [٩ مكية و ١٢ مدنية]
● لهم حسن المآب ﴿ والله عنده حسن المآب - آل عمران ١٤ ﴾ [٧ مكية و ٢ مدنية]
● أعمالهم تنفعهم ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله - البقرة ١٨٤ ﴾ [٥ مكية و ١٧ مدنية]
● سيجد المحسنون ما قدموا ﴿ ما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله - البقرة ١١٠﴾ [آية مكية و ٢ مدينة]
● تكون أعمالهم أكثر حسناً ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا - الشورى ٢٣ ﴾ [آية مكية و آية مدينة]
● يستردونها كاملة ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم - البقرة ٢٧٢ ﴾ [٤ مكية و٦ مدنية]
● ستكون مضاعفة ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة - البقرة ٢٤٥ ﴾ [٣ مكية و ٥ مدنية]
● تبعاً لأحسن أعمالهم ﴿ بأحسن ما كانوا يعملون - النحل ٩٦ ﴾ [آية مكية وآية مدنية]
● مع زيادة من فضل الله ﴿ للذين احسنوا الحسنى وزيادة - يونس ٢٦ ﴾ [٣ مكية و ٢ مدنية]
● جزاؤهم مضمون ﴿ وقع أجره على الله - النساء ١٠٠ ﴾ [٤ مكية و ١٠ مدنية]
● الجزاء عظيم وهائل ﴿ أجر عظيم - آل عمران ١٧٢ ﴾ [٥ مكية و ١٦ مدنية]
● خير مما فعلوا ﴿ فله خير منها - النمل ٨٩ ﴾ [٢ مكية وآية مدنية]
● وهو أجر كريم ﴿ وأعد لهم أجراً كريماً - الأحزاب ٤٤ ﴾ [٣ مكية و ٦ مدنية]
● لا انقطاع له ﴿ لهم أجر غير ممنون - فصلت ٨ ﴾[٤ مكية]

- مقام مشرف ومُسعد ﴿ مُدخلاً كريماً - النساء ٣١ ﴾ [٢ مدنية]
- عيشة راضية ﴿ فهو فى عيشة راضية - القارعة ٧ ﴾
- عيشة سعيدة ﴿ إن الأبرار لفى نعيم - الانفطار ١٣ ﴾

وقد بلغت آيات الوعود بالسعادة ٦٦ مكية و ١٠٠ مدنية .

الإنذار المقابل.

أما الإنذار المقابل فإنه يتكرر كثيراً ، وإن كان أقل تنوعاً . وإذا لم تكن الصيغة مبهمة مثل . و﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون - الشعراء ٢٢٧ ﴾ فيقتصر انذار الذين يعملون السوء بأنه سيرد لهم "المثل". فإن للكافرين والظالمين والمنافقين والمستكبرين والمجرمين والمعتدين بوجه عام ، الشقاء والإقامة السيئة والعقوبة القاسية والعذاب الأليم المخزى والخالد . مجموع الآيات ٩٤ مكية و ٦٦ مدنية.

٣-وما هى الجنة وما هى النار فى المفهوم القرآنى ؟ وما طبيعة هذا الثواب وهذا العقاب ؟

لقد عرضهما القرآن على هيئة مزدوجة : روحية ومادية ، لهما أحياناً طابع ايجابى وأحياناً طابع سلبى.

وسوف نتناولهما فيما يلى - كل على حدة - غير أننا نود ان نقول كلمة عن المرحلة الانتقالية ما بين الحياة الدنيا والآخرة .

تذوق اولى (حياة البرزخ).

منذ اللحظة الأولى التى يدعى فيها الصالحون بتسليم ارواحهم ، يتلقون البشرى التى تنتظرهم ، وتقابلهم الملائكة بالترحيب والتحية قائلين ﴿ سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون - النحل ٣٢ ﴾ . والشهداء سوف يكونون ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون - آل عمران ١٧٠ ﴾.

أما الهالكون فمع النَفَس الأخير من الحياة يبدأون بمواجهة الواقع المر ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم ، أخرجوا أنفسكم . اليوم تجزون عذاب الهون - الأنعام ٩٣ ﴾ ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوهم وأدبارهم . وذوقوا عذاب الحريق - الانفال ٥٠ وانظر محمد ٢٧ ﴾ .

أما الفترة التى تفصل الموت عن البعث فليس بالقرآن بيان عنها . وكل ما ذكر عن قوم نوح أنهم ﴿ أغرقوا فأدخلوا نارا - نوح ٢٥ ﴾ وعن فرعون وقومه ﴿ النار

يعرضون عليها غُدُوّاً وعشياً – غافر ٤٦ ﴾ . إلا أن السنّة تتحدث عن تلك الضربات المروعة التى يوجهها الملائكة للكافرين لتعذيبهم بعد الاستجواب الذى يعقد معهم عقب الدفن. وطبقاً للسنة فان الموتى يشعرون فى قبورهم إما بالفرحة وإما بالحزن وهم يبصرون مقدمات إقامتهم المستقبلة الماثلة أمامهم ليل نهار " إذا مات أحدكم فإنه يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى . فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن اهل النار " .

أما بعد البعث فإن القرآن يصف حياة أهل الجنة وحياة اهل النار تفصيلياً . وسوف نرى فى هذا الوصف كيف أن العنصر الأخلاقى والعنصر المادى دائماً جنباً إلى جنب . وسوف نتناول بالتحليل والتصنيف الآيات القرآنية الخاصة بالحياة السعيدة لضيوف السماء والآيات الخاصة بحياة الهالكين التعيسة . وذلك تحت عنوانين :

الجنة .

المتع الروحية : يتحدد الجانب الروحى من السعادة العلوية بصورة سلبية اولاً بالوعود التالية :

* الأمن وعدم الخوف ﴿ فلا خوف عليهم – البقرة ٣٨ [١٢ مكية و ٨ مدنية]
* لاحزن ﴿ ولاهم يحزنون – السابقة ﴾ [١٠ مكية و ٨ مدنية]
* لا خزى ﴿ يوم لا يخزى الله النبىّ والذين آمنوا معه – التحريم ٨ ﴾
* تكفير السيئات ومحو الذنوب ﴿ والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً – البقرة ٢٦٨ ﴾ ﴿ كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم – محمد ٢ ﴾ [١٦ مكية و ٢٤ مدنية]
* الرحمة (بمعنى [1] دفع الشرور عمن يحبهم الله) ﴿ ففى رحمة الله هم فيها خالدون – البقرة ٢١٨ ﴾ [١٢ مكية و ١١ مدنية] .

غير أن الفرح الروحى والإيجابى أكثر تنوعاً ـ لأن حياة السعداء حياة كلها:

* أخوة وحب متبادل (مبرأ من كل كدر) ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍ ، إخواناً على سرر متقابلين –الأعراف ٤٣ ﴾ [٤ مكية] .

---

(١) بلغت مرونة بعض الألفاظ العربية أن مدلول الكلمة الواحدة يتسع ويضيق ويتلون بحسب ماإذا كان بمفرده أو مصحوباً بلفظ آخر له صلة به. مثل " الرحمة" إذا قرنت "برأفة" تعنى "الكرم" ومع "الفضل" تعنى التخليص من العقوبة ، وبمفردها تجمع المعنيين معاً ويدخل فيهما معنى "الحماية" (انظر الأنعام ١٦ وغافر ٩) (المؤلف).

* تأمل فى الجمال الإلهى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة - القيامة ٢٣ ﴾
* حبور وفرح ﴿ فهم فى روضة يحبرون - الروم ١٥ ﴾ ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة - عبس ٣٩ ﴾[٥مكية] .
* شرف ومجد ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً - الإسراء ٧٩ ﴾ [٣ مكية]
* تضئ السعادة وجوههم ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله - آل عمران ١٠٦﴾ [٥ مكية و آية مدنية].
* يشعرون بالتفوق على خصومهم الذين سخروا منهم ﴿ يسخرون من الذين آمنوا . والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة -البقرة ٢١٢ ﴾ [آية مكية وآية مدنية]
* أثناء سيرهم إلى الجنة سيكون لهم نورهم الذى ينتقل أمامهم وعلى يمينهم ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم -الحديد ١٢ ﴾ [٢ مكية و آية مدنية].
* سيدخلون مجتمع كبار أصحاب الفضائل ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين- النساء ٦٩ ﴾ [٢ مكية و آية مدنية].
* فى صحبة أسرهم واصدقائهم ﴿ يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم - الرعد ٢٣ ﴾ [٥ مكية]
* تستقبلهم الملائكة عند وصولهم بالتحية قائلين ﴿ هذا يومكم الذى كنتم توعدون - الانبياء ١٠٣ ﴾ [٢ مكية]
* وبعد استقرارهم تزورهم الملائكة "يدخلون عليهم من كل باب " بكل تهنئة وأمانى السلام ﴿ سلام عليكم بما صبرتم . فنعم عقبى الدار - الرعد ٢٣ ﴾ [٢ مكية]
* يستقبلهم الرحمن الرحيم بالسلام ولهم ﴿ قدم صدق عند ربهم - يونس ٢ ﴾ ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام - الاحزاب ٣٣ ﴾ ﴿ سلام قولاً من رب رحيم - يس ٥٨ ﴾
* ويقربهم إليه ﴿ أولئك المقربون - الواقعة ١١ ﴾
* يرفعهم إلى أعلى الدرجات ﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة - النساء ٩٦ ﴾ [٤ مدنية].
* سيكون لهم أعظم مكان بالقرب من الملك القادر ﴿ فى مقعد صدق عند مليك مقتدر - القمر ٢٥ ﴾
* ينالون رضوانه ﴿ ورضوان من الله أكبر - التوبة ٧٢ ﴾ [آية مكية وآية مدنية ﴾ .
* الرضا متبادل ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه - المائدة ١١٩ ﴾ [٢ مكية و ٤ مدنية]
* سعادتهم مزدوجة : عن أنفسهم بما قدموا من اعمال ﴿ لسعيها راضية - الغاشية ٩ ﴾ وعن مصيرهم . وهم دائمو الحمد لله على ما هداهم ، وعلى إنجاز ماوعدهم ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا .. الأعراف ٤٣ ﴾ ﴿ .. الذى صدقنا وعده - الزمر ٧٤ ﴾ [٣ مكية].
* لا وجود لأحاديث اللغو والباطل ، والإثم والاتهام بالإثم ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً - الواقعة ٢٥ ﴾ [٣ مكية].

* بل السلام المتبادل ﴿ إلا قيلاً سلاماً سلاماً - الواقعة ٢٦ ﴾ [٥ مكية]
* واالتسبيح لله ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم - يونس ١٠ ﴾

مجموع آيات وصف المتع الروحية فى الجنة ١٠٢ مكية و ٧٠ مدنية .

السعادة الحسية .

لقد أبدت الانسانية فى كل زمان ميلها الطبيعى لتوفر لنفسها درجة معينة من الرفاهية (كالاهتمام بتحقيق الصحة والراحة والابتعاد عن الالم والموت) ولتحسين ظروفها المعيشية . وما جهود العلم والتكنلوجيا إلا لهذه الغاية. وهى غاية جديرة بالشرعية اذا لاحظنا ان كل تقدم يتحقق فى هذا المجال يؤدى الى وفر فى جهد العمل البدنى والى اتاحة مزيد من الفرص لازدهار الروح والتفرغ لقضايا تجريدية .

وانطلاقا من هذه الرؤية فإن اى نظام للجزاء الاخلاقى لا يلبى هذه المطالب الاولية للحياة المادية يكون بصراحة نظاماً ناقصاً . وما كان لهذا العيب بالذى يمكن ان يجد له مكاناً فى النظام القرآنى . الذى لا يقتصر فحسب على أن يضمن للصالحين البعد عن الموت فى الآخرة ﴿ لا يذوقون فيها الموت - الدخان ٥٦ ﴾ والحماية من كل الشرور ﴿لا يمسُّهم السوء - الزمر ٦١ ﴾ إنما ايضاً الابتعاد عن اماكن العذاب ﴿ أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها - الانبياء ١٠١ ﴾ فضلاً عن تحقيق الراحة ﴿ فَرَوْحٌ وريحان - الواقعة ٨٩ ﴾ ﴿لا يمسهم فيها نصب - الحجر ٤٦ ﴾ وباختصار يضمن لهم السلام ﴿ ادخلوها بسلام آمنين - الحجر ٤٦ ﴾ فمن اسماء الجنة "دار السلام" . وان كان ذلك هو الجانب السلبى فقط . إذ ان الناس لا يشعرون بالرضا الكامل لمجرد أنهم لا يتألمون.

ولكن النكبة ان الصراع من اجل الرفاهية لا يبدو أنه يقترب من نهايته .. بل إنه يتزايد بنسب متضاعفة .. فكل نقطة تقدم تثير الشهية الى نقطة اخرى أعلى منها .. وهكذا بحيث يمكننا القول بإننا بصفة عامة نكرس وقتا اطول للبحث عن اسباب راحتنا اكثر من الوقت الذى نستمتع فيه بالراحة . ولكثرة إنهماكنا فى هذا الاتجاه فإن ما كان مجرد وسيلة اصبح غاية حقيقية نجرى وراءها . مما يجعلنا نقرر ان هذا الحرص الجامح على السعادة المادية يعتبر انحرافاً من الضمير فى عصرنا الحاضر .

وهب ان جميع المتع المشروعة والمرغوبة - الروحية منها والمادية - تحققت لنا طواعية ودون جهد منا . ألا نكون بذلك قد كسبنا كل شئ دون أن نخسر اى شئ؟ أليس هذا هو المثل الاعلى .. الذى اذا كان غير قابل للتحقيق فى حياة الابتلاء ، فماذا يمنع من تحقيقه فى عالم الجزاء ؟

لماذا يريد البعض الاصرار بأى ثمن على استبعاد اى عنصر حسى ايجابى فى السعادة العلوية ؟ لا شك ان الحكيم لا يلتمسه لذاته إلا أنه ايضاً لا يرفضه إذا قدم له . هل من حقنا أن نرفض يداً صديقة تمتد إلينا لتقدم هدية؟ او لتعلق على صدرنا وساماً ؟.. إن قيمة هذه الاشياء فى مدلولها ومغزاها أكثر مما فى مادتها .. إنها رموز وشهادات رضا لا نستطيع رفضها فى وجه من يعطيها لنا دون ان نخطئ فى حق الذوق الأخلاقى.

فمن رأينا انه ينبغى ان ننظر من هذه الزاوية إلى وصف القرآن للجنة . وهو وصف لا يتعارض فيه سرور القلب مع جاذبية الإطار الشاعرى الذى يظهر فيه هذا السرور.

***

لقد قمنا فيما تقدم باستخراج الجانب الروحى من السعادة العلوية فى مظهرها المزدوج – الايجابى والسلبى – ثم راينا المظهر المادى السلبى للسلام العلوى ، فلننظر الآن الى مدى الجمال الحسى الذى يقدم لنا القرآن فيه " الملك الكبير " ﴿ وإذا رأيت ، ثَمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً – الانسان ٢٠ ﴾

* لنتصور حديقة رحيبة إلى درجة أن ﴿ عرضها السموات والأرض – آل عمران ١٣٣﴾ [آية مكية وآية مدنية]

▫ حيث الاستمتاع بحرية الانتقال والاستراحة فى أى مكان ﴿ نتبوأ من الجنة حيث نشاء – الزمر ٧٤ ﴾

▫ حديقة ذات ظل دائم الامتداد ﴿ وظل ممدود – الواقعة ٣٠ ﴾

▫ ذات مناخ معتدل لا يفسده حر شمس ولا شدة برد ﴿ لايرون فيها شمساً و لا زمهريرا – الانسان ٣١ ﴾

▫ إنها مكان للإقامة السعيدة والانتعاش ﴿ خير مستقراً واحسن مقيلاً – الفرقان ٢٤ ﴾

▫ مساحة تخترقها الأنهار ﴿ فى جنات ونهر – القمر ٥٤ ﴾

▫ ﴿ أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى –محمد ١٥ ﴾ .

▫ تتفجر فيها ينابيع الماء ﴿ فى جنات وعيون – الحجر ٤٥ ﴾ [٧ مكية]

▫ عيون ذات عطر متنوع ويمتزج بها الخمر اللذيذ ﴿ .. مزاجها كافوراً .. مزاجها زنجبيلاً – الانسان ٥ ، ١٧ ﴾ [٣مكية]

▫ فى هذه البقاع المباركة تنمو الفواكه المتنوعة ﴿ لهم فيها من كل الثمرات– محمد ١٥﴾ [٧ مكية و آية مدنية] .

□ بكثرة ﴿ وفاكهة كثيرة – الواقعة ٣٢ ﴾ [٣ مكية]
□ تدنو على أفرعها لتكون فى متناول ايديهم ﴿ وجنى الجنتين دان – الرحمن ٥٤﴾ [٣ مكية]
□ ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة – الواقعة ٣٣ ﴾ [٢ مكية]

* ثم نتصور أن هذا البساط الأخضر الواسع ، المحلى بخيوط من الفضة ، تظهر فيه مبانى رائعة ﴿ مساكن طيبة – التوبة ٧٢ ﴾ [٢ مدنية]

□ مكونة من طوابق عليا ﴿ غرف من فوقها غرف مبنية – الزمر ٢٠ ﴾ [٦ مكية]
□ على شاطئ الماء أو ﴿ تجرى من تحتها الأنهار – البقرة ٢٥ ﴾ [٩ مكية و٢٠ مدنية]
□ مؤثثة تأثيثاً فاخراً : عروش .. مقاعدها عالية ﴿ فيها سرر مرفوعة – الواقعة ٣٤ ﴾ [٢ مكية]
□ مقاعد مرصعة بالذهب والأحجار الكريمة ﴿ سرر موضونة – الواقعة ١٥ ﴾
□ محلاة بأقمشة بطانتها حرير ﴿ بطائنها من استبرق – الرحمن ٥٤ ﴾
□ مخادع وسجاد وأطقم سفرة ﴿ أكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة – الغاشية ١٤ ﴾

* واخيراً نتصور هذه القصور الفاخرة تملؤها حياة ملكية على مستوى راق فى أمسية باهرة .

□ جماعة تضم رجالاً ونساء واطفالاً وأجداداً واصدقاء ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم – الرعد ٢٣ ﴾ [٥ مكية]
□ كل فى زينته ﴿ وحلوا أساور – الإنسان ٢١ ﴾ [٣ مكية و آية مدنية]
□ يلبسون الحرير ﴿ ولباسهم فيها حرير – الحج ٢٣ ﴾
□ لونه مريح ﴿ ثياباً خضراً – الكهف ٣١ ﴾ [٢ مكية]
□ وقد (استندوا) فى مقاعدهم (متقابلين) ﴿ متكئين عليها متقابلين – الواقعة ١٦ ﴾ [٨ مكية][٤ مكية]
□ يتحدثون فى سرور ويستدعون ذكرياتهم البعيدة ﴿ يتساءلون–الصافات ٥٠﴾ [٣ مكية]
□ مستغرقين فى هنائهم ﴿ فى شغل فاكهون –يس ٥٥ ﴾
□ ليس عليهم إلا أن يأمروا بما يشاءون ﴿ ولهم ما يدّعون – يس ٥٧ ﴾ [٣ مكية]
□ فى خدمتهم غلمان لهم شباب خالد يشبهون اللؤلؤ المنثور ﴿ يطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون – الطور ٢٤ ﴾ [٣ مكية]
□ يحملون بأيديهم أطباقاً وأكواباً ﴿ من ذهب – الزخرف ٧ ﴾
□ ﴿ واباريق وكأس من معين – الواقعة ١٨ ﴾

□ وأوانى أخرى من فضة ﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة – الإنسان ١٥ ﴾
□ مع ضمان حصتهم ﴿ رزق معلوم – الصافات ٤١ ﴾
□ صباحا ومساءً ﴿ بكرة وعشياً – مريم ٦٢ ﴾
□ يسارع الغلمان بتقديم ما يشتهون من ﴿ شراب – الصافات ٤٥ ﴾ [٦ مكية] وطعام ﴿ ولحم طير – الطور ٢٢ ﴾ [٢ مكية] ﴿ وفاكهة مما يتخيرون – الواقعة ٢٠ ﴾ [٢ مكية و آية مدنية] .

مجموع هذه الآيات ٩٧ مكية و ٢٧ مدنية .

وفى كلمة واحدة كل ﴿ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين – الزخرف ٧١ ﴾ سيكون ملكاً لعباد الله الخاضعين لله باخلاص .

□ وكل أمانيهم تتحقق ﴿ لهم فيها ما يشاءون –النحل ٣١ ﴾ [٢ مكية]
□ وأكثر من ذلك ﴿ ولدينا مزيد – ق ٣٥ ﴾

نجمع الخطوط الثلاثة التى رسمناها عن الأرض والمبانى والسكان ، ونضعها على الأساس الأخلاقى والروحى الذى وضعناه من قبل ، سوف نجد بين أيدينا اللوحة القرآنية لحياة الفردوس موصوفة بقدر الطاقة التى تتحمله لغة البشر وخيالهم .

***

وهناك بعض الملاحظات ينبغى أن نذكرها :

أولاً : أن القرآن لا يكتفى بأن عدّد متع الجنة على اختلافها – المعنوية منها والحسية– وإنما جعل بينهما تدرجاً ، واحتفظ للاعتبارات الروحية بأعلى درجة . فضلاً عن أنه يخبرنا بأن هناك ﴿ رضوان من الله اكبر – التوبة ٧٢ ﴾ يفوق كل نعم الجنة . وأن رحمة الله وفضله بصفة عامة ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون – الزخرف ٣٢ ﴾ ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا – يونس ٥٨ ﴾ . وإذا كان المثل العربى يقول " الجار قبل الدار " فإن القرآن قد ذكر الدخول المجيد للنفس المطمئنة فى المجتمع الإلهى ، قبل ذكر الجنة ﴿ فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى – الفجر ٢٩ ﴾.

ثانياً : إذا كان منهج دراستنا قد جعلنا نفصل بين عنصرى السعادة فى هذا البحث ، فإن هذا التقسيم غير وارد بالقرآن. فضلاً عن أن الصورة الكاملة التى قدمناها لكل عنصر ليست مقدمة فى القرآن على هذا النحو ، وإنما نجد أوصاف الجنة موزعة فى سور كثيرة ومجزأة أجزاء صغيرة بحيث لا نقابل فى اغلب الاحيان سوى بعض الخطوط الموجزة مذكورة فى كل موضع فى ثنايا الحديث .

وفى رأينا أن هذا المسلك له مدلول مزدوج :١ - إنه لا يثير الحس ، ولا يشبع الفضول ولا يلح الالحاح الكافى لإحداث تأثير على الذهن (كالذى يحدثه رسم له حدود تحدده) واذا كان يمس القلب فبخفة واعتدال ٢- إنه لا يتمثل لنا كثمرة علم محدد أو خيال جامح . وانما كتعليم معتدل منقطع فى نزوله ومرتبط بخطة مرسومة (منزهة عن التجربة والتصحيح) .

ثالثاً : وأبرز ملامح السعادة الحسية التى تتكرر فى القرآن ﴿ **جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ تلك اللذة التى يثيرها منظر الماء الجارى حين نراه من أعلى ، إلا أن القرآن يومئ الينا بسعادة أحلى مذاقاً وبمعنى أكثر عمقاً وبواقع أخلاقى رفيع هو نسيان كل حزن، وذهاب كل حقد من القلوب ﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار - الأعراف ٤٣** ﴾.

رابعاً : أما فيما يتعلق بطعام الجنة ، فإن تفسير آية ﴿ **فواكه وهم مكرمون - الصافات ٤٢**﴾ يفيد أن أهل الجنة يأكلون لمجرد اللذة والبهجة لا لحاجتهم لحفظ حياتهم وصحتهم.

خامساً :- أن شراب الجنة ﴿ **شراباً طهوراً - الإنسان ٢١** ﴾ لا يغشى العقل ﴿ **لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون - الصافات ٤٧** ﴾ ﴿ **لا يصدعون عنها - الصافات ٤٧** ﴾ ولا يصحبها كذب ولا ثرثرة ولا إثم ﴿ **لا لغو فيها ولا تأثيم - الطور ٢٣** ﴾.

سادساً : أن القرآن يثير دهشتنا بنبل اسلوبه وهو يتحدث عن الزوجات فى الحياة الدنيا حين يذكر أن نعمة الزواج فى الدنيا قبل كل شئ هى فى السكينة والمودة والحنان والرحمة . ﴿ **لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة - الروم ٢١** ﴾ أما الزوجات فى الجنة -التى لا يتكرر ذكرهن إلا نادراً- فإن القرآن لا يشير إلى معاشرة لهن مع الرجال وإنما يذكر أن الحياة معهن ستكون حياة حب متبادل بين شباب من سن واحدة . ﴿ **عرباً أترباً - الواقعة ٣٧** ﴾ ﴿ **وكواعب اترابا - النبأ ٣٣** ﴾ فضلاً عن أن صفاتهن الأخلاقية تفوق الصفات الحسية ﴿ **ازواج مطهرة - البقرة ٢٥** ﴾ ﴿ **فيهن خيرات (أولاً) حسان- الرحمن ٧٠**﴾ ﴿**قاصرات الطرف (أولاً) عين - الصافات ٤٨** ﴾ ﴿ **قاصرات الطرف أتراب - ص ٥٢** ﴾ ﴿ **حور مقصورات فى الخيام - الرحمن ٧٢** ﴾.

سابعاً : وفى الحديث عن أمور الجنة لا ينبغى أن ننسى أن هناك خلقاً جديداً له نظام غير معلوم ﴿ **وننشئكم فيما لا تعلمون - الواقعة ٣٥** ﴾ ﴿ **إنا انشأناهن إنشاءً - الواقعة ٦١** ﴾ ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة اعين - السجدة ١٧** ﴾ وفى الحديث القدسى "أعددت لعبادى الصالحين ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " مما جعل ابن عباس يقول " ليس فى الدنيا من الجنة شئ إلا الأسماء " .

ولكن يبدو أن هذه الأصالة لا تنفى أصالة الواقع المحسوس . لأن النصوص تميل إلى تحديد فرق بين الحياتين فى الدرجة لا فى الطبيعة .

النار.

التقابل ملفت للنظر بين الخطوط التى ذكرناها عن مقام الطائعين وبين خطوط مقام العصاة التى سنوردها فيما يلى:

عقوبات معنوية سلبية (أى الجانب الحرمانى) .

☒ بطلان الأعمال ﴿ **حبطت أعمالهم – البقرة ٢١٧** ﴾ [٦ مكية و ١٨ مدنية]
☒ خيبة املهم فيما كانوا ينتظرون من الأوثان التى أشركوها مع الله ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل – فصلت ٤٨** ﴾ [٨ مكية]
☒ يأسهم من رحمة الله ﴿ **فأولئك يئسوا من رحمتى – العنكبوت ٢٣** ﴾
☒ ومن غفرانه ﴿ **لم يكن الله ليغفر لهم – النساء ١٣٧** ﴾ [٣ مدنية]
☒ ومن رؤيته ﴿ **إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون – المطففين ١٥** ﴾
☒ ومن نظرته وتزكيته لهم ﴿**ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم-البقرة ١٧٤**﴾ [٢مدنية]
☒ حرمانهم من النور (الذى سيبحثون عنه لدى المؤمنين دون جدوى) (قارن مع إنجيل متى ٢٥:١-١٢) ﴿ **قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً – الحديد ١٣** ﴾
☒ ومن السمع والبصر والكلام (لحظة البعث) ﴿ **ونحشرهم .. عمياً وبكماً وصماً – الإسراء ٩٧**) [٣ مكية] .
☒ **ومن جميع تمنياتهم** ﴿ **وحيل بينهم وبين ما يشتهون – سبأ ٥٤** ﴾
☒ يأسهم من الحياة الآخرة ﴿ **قد يئسوا من الآخرة – الممتحنة ١٣** ﴾
☒ حيث لا نصيب لهم فيها ﴿ **أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة – آل عمران ٧٧** ﴾ [آية مكية و ٣ مدنية]
☒ **وحيث يهملون** ﴿ **فاليوم ننساهم – الأعراف ٥١** ﴾ [٢ مكية]
☒ **مخذولين** ﴿ **فتقعد مذموماً مخزولاً – الاسراء ٢٢** ﴾
☒ **مبعدين** ﴿ **... مذموماً مدحوراً – الاسراء ١٨** ﴾ [٢ مكية]
☒ دون نصير او حليف ﴿ **ما لهم من ولىّ ولا نصير – الشورى ٨** ﴾
☒ ﴿ **لا تفتّح لهم أبواب السماء – الأعراف ٤٠** ﴾
☒ لن يقبل دفاعهم عن أنفسهم ﴿ **ولا يؤذن لهم فيعتذرون – النحل ٢٢١** ﴾ [٣ مكية]
☒ وفى كلمة واحدة : **فشلهم** ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون – الأنعام ٢١** ﴾ [٩ مكية]
☒ **وخسرانهم** ﴿ **أولئك هم الخاسرون – البقرة ٢٧** ﴾ [٢٢ مكية و ٩ مدنية] .

عقوبات معنوية إيجابية.

☒ يمثلون أمام الله منكّسى الرءوس ﴿المجرمون ناكسو رءوسهم-السجدة ١٢﴾ [٥ مكية]

☒ سود الوجوه ﴿ وجوهم مسودة - آل عمران ١٠٦ ﴾ [٢ مكية]

☒ وجوهم صارمة مستاءة ﴿وجوه يومئذ باسرة - القيامة ٢٤﴾ .

☒ مغطاة بالظلام والغبار ﴿ووجوه يومئذ عليها غَبَرة، ترهقها قَتَرة-عبس ٨٠﴾ [٣ مكية]

☒ يتمنون أن يباعد بينهم وبين سيئاتهم ﴿ وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً - آل عمران ٣٠ ﴾

☒ ولكن الكتاب هنا احصى كل الأعمال حتى أتفهها ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها - الكهف ٤٩ ﴾

☒ من أبدانهم وحواسهم شهود يشهدون عليهم ﴿ تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم - النور ٢٤ ﴾ [٢ مكية وآية مدنية]

☒ جرائمهم محمولة على ظهورهم ﴿ يحملون اوزارهم على ظهورهم - الانعام ٣١ ﴾ [٢ مكية]

☒ ﴿ سيطوقون ما بخلوا به - آل عمران ١٨٠ ﴾

☒ مذمومين ﴿ مذموماً مدحوراً - الإسراء ١٨ ﴾ [٢ مكية]

☒ ملومين ﴿ملوما مدحورا - الإسراء ٣٩﴾

☒ ممقوتين ﴿ لمقت الله اكبر من مقتكم أنفسكم - غافر ١٠ ﴾

☒ تغطيهم الإهانة والإذلال ﴿ سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله - الانعام ١٢٤ ﴾ [٦ مكية و آية مدنية]

☒ يعرضون أمام الله ويشير اليهم الشهود باحتقار ﴿ يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم - هود ١٨ ﴾

☒ يتمنون أن لو لم يعرفوا حسابهم وأن لو كان الموت قد أفناهم ﴿ .. ولم أدر ما حسابية ياليتها كانت القاضية -الحاقة ٢٥ ﴾ [٤ مكية]

☒ يرون العذاب المحتوم يقترب ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب-يونس ٥٤ ﴾ [٣ مكية]

☒ يشعرون بانقطاع صلتهم بزعمائهم واتباعهم ﴿ وتقطعت بهم الأسباب - البقرة ١٦٦ ﴾

☒ يشعرون بعجزهم عن إرجاع الزمن أو العودة إلى الأرض ﴿ يا ليتنا نرد - الانعام ٢٧﴾ [٣ مكية]

☒ ليس أمامهم إلا عض اصابعهم مع تأوهات الندم ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه - الفرقان ٢٧ ﴾

ومجموع آيات العقوبات المعنوية ١٠١ آية مكية و ٤١ مدنية.

عقوبات بدنية .

هذه العقوبات يمكن عرضها من جانبها السلبي الذي ينحصر في الحرمان من الحاجات الأساسية – فهم جياع عطاش لا يجدون ما يهدئ جوعهم وعطشهم ﴿ **لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً – النبأ ٢٤** ﴾ ﴿**ليس لهم طعام إلا من ضريع – الغاشية ٦** ﴾ ، غير أن الآيات القرآنية التي تصف العذاب الإيجابي عددها أكثر وفرة :

☒ في مقابل منازل المختارين نرى على النقيض مقام المعذبين : إنه سجن ﴿ **وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً – الإسراء ٨** ﴾

☒ له أبواب كثيرة يخص كل طائفة باب ﴿ **لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم – الحجر ٤٤** ﴾

☒ السجّانون أقوياء وغلاظ ﴿ **عليها ملائكة غلاظ شداد – التحريم ٦** ﴾ [٢ مكية]

☒ السجن تحت الأرض مقسم إلى سراديب كثيرة بعضها أكثر عمقاً من بعض ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار – النساء ١٤** ﴾

☒ النار مغلقة عليهم بإحكام ﴿ **عليهم نار مؤصدة – البلد ٢٠** ﴾ [٢ مكية]

☒ حفرة مملوءة بالنار ﴿ **حفرة من النار – آل عمران ١٠٣** ﴾

☒ نار ملتهبة ﴿ **تصلى ناراً حامية – القارعة ٩** ﴾ [٢ مكية]

☒ يُسمَع لها زمجرة وهدير عن بعد ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً – الفرقان ١٢** ﴾

☒ كأنها بركان ثائر ﴿ **سمعوا لها شهيقاً وهي تفور – الملك ٧** ﴾

☒ تقذف شراراً في حجم القصور ﴿ **إنها ترمي بشرر كالقصر – المرسلات ٣٢** ﴾

☒ وهم موثقون في القيود ﴿ **مقرنين – الفرقان ١٣** ﴾ [٢ مكية]

☒ الأعناق والأيدي والأقدام مقيدة ﴿ **الأغلال في أعناقهم – غافر ٧١** ﴾ ﴿ **فيؤخذ بالنواصي والأقدام – الرحمن ٤١** ﴾ [٨ مكية]

☒ مقيدون في سلاسل طويلة ﴿ **إنا اعتدنا للكافرين سلاسل – الإنسان ٤** ﴾ [٣ مكية]

☒ يسحبون على وجوهم ﴿ **الذين يحشرون على وجوههم – الفرقان ٣٤** ﴾ [٣ مكية]

☒ يُدفَعون فيها ووجوهم إلى النار ﴿ **فكُبّت وجوههم في النار – النمل ٩٠** ﴾

☒ في مكان ضيق ﴿ **ألقوا منها مكاناً ضيقاً – الفرقان – ١٣** ﴾

☒ إلى عذاب لا نظير له ﴿ **لا يعذب عذابه أحد – الفجر ٢٥** ﴾

☒ يتعرضون فيه لعقاب الإحراق ﴿ **وذوقوا عذاب الحريق – الأنفال ٥٠** ﴾ [آية مكية و ٣ مدنية]

☒ هم غذاء جهنم ﴿ **فكانوا لجهنم حطباً – الجن ١٥** ﴾ [٢ مكية و ٣ مدنية]

⊠ كلما أرادوا الخروج منها من شدة الكرب والألم - يُدفعون إلى وسط النار ويُضربون بهراوات من حديد ﴿ ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها - الحج ٢١ ﴾ [آية مكية وآية مدنية]

⊠ يحيط بهم العذاب من كل جانب ﴿.. ناراً أحاط بهم سرادقها - الكهف ٢٩ ﴾ [٤ مكية]

⊠ يلفح اللهب وجوهم ﴿ تلفح وجوههم النار - المؤمنون ١٠٤ ﴾ [٢ مكية و آية مدنية]

⊠ يسلخ الجلد ﴿ نزاعة للشوى - المعارج ١٦ ﴾

⊠ يحرق اللحم ﴿ لوّاحة للبشر - المدثر ٢٩ ﴾

⊠ يصل إلى القلوب ﴿ تطلع على الأفئدة - الهُمَزة ٧ ﴾

⊠ الذهب الذى جمعه البخلاء سوف يحمى فى النار وتكوى به الجباه والجنوب والظهور ﴿ يحمى عليها .. فتُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم - التوبة ٣٥ ﴾

⊠ لهم فيها صراخات وتوسلات ﴿ وهم يصطرخون فيها - فاطر ٣٧ ﴾

⊠ لهم فيها زفرات ونحيب ﴿ لهم فيها زفير وشهيق - هود ١٠٦ ﴾ [٢ مكية]

⊠ كلما احترقت جلودهم كستهم جلود أخرى لكى يذوقوا عذاب ذلك وهكذا إلى ما لا نهاية ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب - النساء ٥٦ ﴾

⊠ وفوق عذاب الحريق هناك عذاب الماء المغلى الذى يغمسون فيه ثم يوضعون فى النار بالتناوب ﴿ يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون - غافر ٧١ ﴾ [٢ مكية]

⊠ يصب الماء المغلى على رؤسهم فيذيب جلودهم وأحشاءهم ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود - الحج ١٩ ﴾ [أية مكية و ٢ مدنية]

⊠ وعندما يشربون منه تتشوى وجوهم وتتمزق امعاؤهم ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم - محمد ١٥ ﴾ ﴿ يشوى الوجوه - الكهف ٢٩ ﴾ [١٠ مكية و آية مدنية]

⊠ لهم شراب آخر أكثر عفناً يستطيعون بالكاد ابتلاعه ﴿ ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - ابراهيم ١٧ ﴾ [٢ مكية]

⊠ وهناك طعام الزقوم يغلى فى البطون كالرصاص المذاب ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون - الدخان ٤٣ ﴾ [٢ مكية]

⊠ أطعمة اخرى خانقة ، وأيضاً عذاب أليم ﴿ وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً - المزمل ١٢﴾

⊠ مثل الريح المحرقة ﴿ فى سموم وحميم - الواقعة ٤٢ ﴾

⊠ ومثل ظل مزيف من الدخان ﴿ وظل من يحموم - الواقعة ٤٢ ﴾ [٢ مكية]

⊠ وتوالى شدة البرودة وشدة الحرارة كما فسر البعض كلمة " غساق " ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق - ص ٥٧ ﴾ [٢ مكية]

⊠ وباختصار سوف توقع عليهم عقوبات وآلام دائمة وبلا انقطاع ﴿ عاملة ناصبة - الغاشية ٣ ﴾

بلغت آيات العقاب البدنى ٧٤ مكية و ١٥ مدنية .

على أن هذه العقوبات المادية هى مجرد وسيلة للإيلام المعنوى ألا وهو الخزى ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته -آل عمران ١٩١ ﴾ ، ومما يزيد هذا الشقاء انهم لن يجدوا حولهم قلباً عطوفاً معزياً لأن روابط الماضى سوف تتقطع ويحل محلها جوار سئ ﴿ إن ذلك لحقٌ تخاصم أهل النار - ص ٦٤ ﴾ فلن يتبقى لهم من اصدقائهم سوى:
البغض ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين - الزخرف ٦٧ ﴾
والتلاعن ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها - الأعراف ٣٨ ﴾ ﴿ ويلعن بعضهم بعضاً - العنكبوت ٢٥ ﴾

***

لقد قصدنا بهذا التصنيف أن نقدم للقارئ شرحاً دقيقاً لمنهج القرآن فى دعوة الناس ، وتوضيح نسبة الآيات التى تتمثل فى كل قطاع من المجموع الكلى . وأمام ثراء وكثافة الأسلوب القرآنى لا نملك أن ندّعى أن الإحصاء الذى قدمناه يخلو من أى عيب ، وإنما يكفى أننا قدمنا وصف الوقائع الرئيسية فى جداول كل فى إطارها الخاص ، ولكى نبرز نتيجة الدراسة ، يحسن تلخيصها فى الجدول الاجمالى التالى الذى يوضح ارقاماً تتحدث بابلغ من أي لغة :

جدول تكرار أساليب الدعوة المختلفة

الحث على الواجب استناداً إلى	الآيات		مجموع الآيات	
	المكية	المدنية		
سلطته الشكلية		١٠	=	١٠
قيمه الداخلية	٦٢٠	٤٥٥	=	١٠٧٥
مشاعر دينية (حب ، حياء ..)	٢٠	٦٢	=	٨٢
نتائج طبيعية	٢	١٢	=	١٤
الجزاءات الإلهية :				
١- مبدأ الجزاء العام	١١	٢	=	١٣
٢ - مبدأ الجزاء فى موعدين	١٤	١٢	=	٢٦

الحث على الواجب استناداً إلى	الآيات			مجموع الآيات
	المكية	المدنية		
٣ – الجزاء الإلهى فى الدنيا :				
أ – مادى		١	=	١
ب – دنيوى	٥	٣١	=	٣٦
جـ – عقلى ومعنوى	٢٣	٤٠	=	٦٣
د – روحى	٢٠	٥٨	=	٧٨
٤ – الجزاء الإلهى فى الأخرة :				
أ – أسماء الدار الآخرة – الجنة	١٩	٨	=	٢٧
النار	٦١	٥٠	=	١١١
ب–إعلان ثواب أو عقاب غير محدد				
ثواب	٦٦	١٠٠	=	١٦٦
عقاب	٩٤	٦٦	=	١٦٠
جـ – ثواب أو عقاب محدد:				
سعادة روحية	١٠٢	٧٠	=	١٧٢
سعادة حسية	٩٧	٢٧	=	١٢٤
صيغة كاملة	٤	–	=	٤
عقوبات معنوية	١٠١	٤١	=	١٤٢
عقوبات مادية	٧٤	١٥	=	٨٩
الإجمالى	١٣٣٣	١٠٦٠	=	٢٣٩٣

خاتمة الفصل.

ينحصر أشد نقد موجه للأخلاق الدينية بصفة عامة فى الزعم بأن هذه الأخـلاق تهمل شأن كل من الضمير الفردى والجماعى ، وأنهـا تستمد قوتهـا وسلطانها مـن إرادة علوية غريبة عن طبيعة الأشياء ، وأنها تفرض نفوذهـا بجاذبيـة الثـواب وبـالتخويـف مـن العقاب اللذين قررتهما .

ادركنا الآن مما سبق أن هذا الاعتراض لا صلـة لـه بـالأخلاق الإسـلامية مـن قريب أو بعيد.

فالقرآن كما رأينا – يقرر أن النفس الإنسانية مطبوع فيها قانون أخلاقى فطـرى منذ خلقت وأن النبى ﷺ يدعو كلاً منا بأن يستفتى قلبـه ليعرف مـا عليـه فعلـه ومـا عليـه

تركه ، وأن المذاهب الإسلامية - حتى أكثرها محافظة - تتفق على التسليم للعقل الإنسانى بمجال خاص يتمتع فيه بقدرة على التقدير والتشريع بحيث يتم عقلياً تحديد الخير والشر ، إما كصفة كمال أو نقص ، وإما كموافق للطبع أو مخالف له . وأن نقطة الخلاف بين هذه المذاهب انحصرت فى ما إذا كان يجب أن نعتبر حكم العقل حكماً نهائياً .. وما إذا كان يتفق دائماً وفى كل مكان مع طبائع الأشياء .. وما إذا كان على الأخص يتفق مع العقل الإلهى . ثم ان جميع هذه المذاهب تجمع على أن الضمير مزود بسلطة كافية لتأكيد مسئوليتنا أمام أنفسنا ، ثم تختلف حول ما إذا كان لديه ما يكفى من هذه السلطة لإثبات مسئوليتنا أمام الله ..

ولقد قرر الفقهاء - فيما عدا عدداً من المعتزلة وما شابههم - أنه لإيجاب مسئوليتنا أمام الله لابد من شريعة إيجابية وصريحة تأتى من عند الله متوازية مع هذا القانون الضمنى المستودع فى فطرتنا . ولا يكون دور هذه الشريعة إبطال هذا القانون الفطرى وإنما تأكيده ومنحه سنداً قوياً بعد تنقيته وتطهيره ، وذلك باعتبارهما معاً حقيقيتين لا تتعارضان أبداً . على أن مشروع التطهير هذا يجب أن يبدأ مبكراً بالتحذير من ضلالات العقل قبل وقوعها ، وبإيقاظ الضمير النائم تحت أنقاض الأوهام .

وحتى تتيح الشريعة للضمير الفردى أن يمارس دوره بطريقة حرة ومشروعة فإن الأطر التى تحددها هذه الشريعة لا تكون نقاط انطلاق لما هو حلال وماهو حرام فحسب ، وإنما فى نفس الوقت لما هو معقول وما هو غير معقول باعتبار أن كل ضلالة تخالف العقل كما أنها تخالف الشرع كما قال ابن تيمية . ولقد رأينا مدى عناية القرآن وهو يصوغ أوامره ، بأن يعلن مطابقتها للعقل وللحكمة وللحقيقة وللعدالة وللاستقامة ، فضلاً عن قيم أخرى يقوم عليها بناء الضمير الأخلاقى ذاته . لقد رأينا أيضاً كيف يبرز القرآن الآثار التى تنتج فى النفس من جراء ارتباطها بالفضيلة ، والتأثير الذى يمارسه العمل على القلب والروح ، كما رأينا مدى أهمية الندم والتوبة .

هذا ما يتصل بالضمير الفردى.

غير أن الإنسان كما أنه كائن عاقل فهو فى نفس الوقت كائن اجتماعى ، وهو عند ملتقى قوتين - باطنة وظاهرة - يتلقى منهما الأوامر معاً أو على التوالى . بحيث يحق لنا القول بأن كل إنسان يعيش فى مجتمع إنما يأتيه الجزء الأكبر من غذائه الروحى ومن مُثُله العليا من خارج نفسه أولاً ، على أن يرفضها أو أن يستبدل بها غيرها أفضل منها ، بعد أن يكون قد هضمها واجترها وتدبرها .. إذن ما نصيب الجماعة الإسلامية من السلطة الأخلاقية ؟

هذا النصيب على الرغم من كونه محدوداً ، إلا أنه من الأهمية بمكان ، لأن حدوده هى الحدود التى تفرضها العدالة الفطرية والقواعد العامة للعدالة المنزلة . ونحن ندين بالولاء والتقدير والطاعة " للإجماع " (بوصفه القرار الإجماعى للهيئة التشريعية المختصة) وكذلك لكل أمر صادر عن السلطة التنفيذية لإقرار النظام وتحقيق الخير العام. وأن أى تفصيل إدارى مهما يكن تافهاً فى ذاته إلا أنه باعتباره موضوعاً لأمر شرعى ، ينال بهذه الصفة قوة القانون الأخلاقى .

والدليل على أن الضمير العام فى الإسلام ليس وهماً ولا نسخة متكررة من الضمير الفردى ، هو التزام الحكام بتوقيع العقوبات الشرعية على كل من يستحقها حتى بعد توبته بهدف تطهير الجو الذى دنسته الجريمة ، وترضية الضمير العام ، وللتحذير من تقليد المثل السيئ على الرغم من كون العفو مكفولاً عن ذنوب من صلح حاله وصفت سريرته . كما أن أى ضرر يقع على إخواننا فى المجتمع - ولو مع عدم علمهم - يظل على عاتق من تسبب فيه حتى يحصل على عفو اصحاب الشأن استناداً إلى قداسة حق الغير فى نظر الاسلام .

وهكذا - من الناحية الأخلاقية - يقتضى انتهاك الحق العام جزاءات أخرى أكثر من الندم والتوبة وصلاح الحال .

إلا أن وراء أوامر الضمير الفردى والضمير العام ، نظاماً أكثر منهما صرامة .. ألا وهو نظام الفطرة الكونية الشاملة بقانونها عن السببية ، الذى - على ضوئه - بحثنا الحذر والحكمة على ان نحسب ونقدر مقدماً نتائج أى عمل قبل الشروع فيه . غير أن هذه الاعتبارات الغائية لا تكتسب الصفة الشرعية من وجهة النظر الاخلاقية - إلا إذا كانت تتمشى مع الواجب ولا تحيد عنه .

واذا كان الأمر كذلك - يستطيع أى مربى ناجح أن يلجا إلى مثل هذا الأسلوب لدعم تعاليمه التربوية .. وهذا على كل حال ما فعله القرآن بتذكيرنا الدائم بالنتائج الطبيعية المترتبة على سلوكنا ..

وبينما الاخلاق العلمانية تتوقف عند المنابع العقلية التى يستقى منها علماء الأخلاق العلمانيون براهينهم عادة - كل بحسب ما يتراءى له - لتقرير أسس الالزام الأخلاقى ... وبينما هذه المنابع تنحصر فى : الاقتضاء الأخلاقى البحت ، والضرورة الاجتماعية فى جوهرها ، والحس أو الذوق العملى السليم . فإن الأخلاق القرآنية لا تتوقف عند هذه الاعتبارات ، وإنما بعد أن اشتملت عليها - تتجاوزها ، وتتمم كمالها

بمبدأ أعلى منها بكثير .. هو الإيمان بحاكم مشرع لا غنى عن سلطته العلوية للتصديق على اى قرار يصدر بعيداً عن هذا الحاكم.

وعلى هذا الأساس رأينا كيف أن الحكم أو الأمر القرآني يستند إلى ثلاثة أسباب مختلفة : أولاً : إلى السلطة التشريعية الوحيدة التى سنت التشريع ، وثانياً : إلى الشعور بمعية الله الحبيبة المهيبة وحضورها الدائم وثالثا : إلى توقع توقيع الجزاءات الإلهية .

وعندما وصلنا إلى هذه النقطة ، رأينا منهج التعليم القرآني يبدو مرة اخرى فى صورة مركبة بل مزدوجه التركيب ، تستهدف الحياة الدنيا والحياة الآخرة معاً ، وتحذر الإنسان من أنه سوف يلقى فى الحياتين الجزاءات الأخلاقية والبدنية والروحية المترتبة على أعماله.

ولما تساءلنا عن مدى تأثر عرض القرآن للحياة الآخرة بعد الهجرة[1] رأينا استنادا الى النصوص – ان السعادة الروحية والسعادة الحسية مقررتان فى المرحلتين المكية والمدنية مع قلة تكاد تبلغ حد الندرة فى عدد الآيات المدنية التى تصف الجنة أو النار ، ولو فى جانبهما الروحى. أما بشأن الإشارات إلى القيم الباطنة ، فالآيات كثيرة جداً فى المرحلتين . وفى المقابل نجد انه – حين يقل الحديث عن الآخرة فى الآيات المدنية – يبرز اتجاه جديد فيها يفسح مساحة أوسع للشعور بالحضور الإلهى وللنتائج العاجلة ذات الطابع الأخلاقى والاجتماعى والروحى .

كما نجد مجموعة أخرى من الآيات يتجلى فيها الواجب بسلطانه الشكلى الخالص ، مما يسمح بأن نقرر أن العالم الإسلامى قد شهد بعد الهجرة تقدما فى الأفكار الأخلاقية ، لا تراجعاً فيها .. كما يقال فى كثير الأحيان .

ومهما يكن من أمر ، ونظرا للوسائل المتعددة التى استخدمها القرآن لتسويغ أوامره ، وما افسحه للدوافع الأخلاقية السامية وما فيها من تجرد مطلق ، وخضوع للشرع احتراماً لذات الشرع . ننتهى إلى أن ما يقال فى وصم الأخلاق القرآنية بأنها أخلاق منفعة هو عين الظلم . فأقصى ما يحق المطالبة به هو أن يكون الجزاء عن الأخلاق الصرفة جزاء أخلاقياً صرفاً .. لكن هل يعاب على هذه الاخلاق ان تكون مختلطة ؟

---

[1] من المعلوم أن الآيات المدنية يبلغ عددها ثلث القرآن. (المؤلف).

غير أننا نلاحظ أن هذا المفهوم - المادى فى بعضه - عن الجزاء الأخروى ليس مفهوماً اسلامياً خالصاً ، وانما عنصر مشترك فى الاخلاق الدينية عموماً التى تقرر أن للناس حياة أخروية يتحد فيها الجسد مع الروح . بعد انفصالهما مؤقتاً بالموت - لكى يتلقيا معاً الثواب الخالد أو العقاب الأبدى.

وهذا بلا شك شأن الاخلاق المسيحية ، حيث أجمع الآباء وفقهاء الكنيسة على تلقين عقيدة بعث الجسد ، وعقيدة اشتراكه مع الروح فى تلقى الجزاء . وهما عقيدتان قائمتان على أساس متين من تعاليم السيد المسيح والرسل (متى ١٠:٢٨ و١٣:٤٣) التى كثيراً ما صورت جهنم على أنها " النار لتى لاتطفأ ، حيث دودهم لا يموت" (مرقص ٩:٤٣-٤٨ ولوقا ١٦:٢٤ ، ورؤيا يوحنا اللاهوتى ٢١:٨) . وعلى الرغم من أن الكنيسة لم تقل شيئاً عن طبيعة النار ، فإنها تقرر أنها نار حقيقية لها سماتها من اللهب والجمر والأوار الذى لا يخمد .. الخ . ومع أن الإشارات إلى الجنة كانت أقل ترديداً فى العهد الجديد من موضوع النار ، فإنها كثيراً ما تحمل طابع السعادة الحسية بجانب السعادة الروحية.(لوقا ٢٢:٢٩-٣٠ ، ١٤:١٢-١٤ ، ومتى ٢٦:٢٩ ومرقص ١٤:٢٥ ، ولوقا ٢٢:١٨، ٢٢:١٥-١٦). بيد أن الجانب الحسى من نعيم الجنة هو أكثر ظهوراً فى رؤيا القديس يوحنا (رؤيا يوحنا اللاهوتى ٢:٧ و١٧ ، ٣:٥ ، ٢١:٦ ، ٧:١٧)

والحق انه لا يوجد نص فى المسيحية يؤكد تشابه الحياتين ، كما لايوجد نص يمنع امكان وجود نوع من الاستمرارية بينهما ، بل نقول إن هذه الاستمرارية شرط ضرورى لتيسير إدراكنا للحياتين على نحو معقول .

وإنى أعلم تأويل كلمات المسيح الذى وضع من أجل تجنب هجوم العقلانيين ، فبينما هؤلاء يسلمون بآلام بدنية شديدة القسوة فى النار ، فإنهم يريدون اعتبار نصوص الانجيل المتعلقة بالمائدة الطيبة فى الجنة من قبيل الرمز . بينما هذه النصوص قد تناولها المسيحيون الأولون تناولاً حرفياً كما فعل آباء الكنيسة السريانية وكما يفعله بروتستانت القدس الجديدة .

وهذا التأويل يمكن أن نواجهه عند النظر فى آيات القرآن حين يجئ الوصف فى مواضع كثيرة على أنه " مثل " أو " رمز " ﴿ مثل الجنة ﴾ (وهذه الكلمة تعنى " الوصف" كما تعنى " المقارنة "). والقرآن يؤكد لنا أن ملذات الجنة ذات شبه بأحوال الأرض إلا أنه لا يصل إلى التماثل الجوهرى ﴿ وأُتُوا به متشابها - البقرة ٢٥ ﴾ وحتى قال ابن عباس "انها ليس لها منها سوى الاسم " فإلى أى مدى يكون التمايز والتماثل ؟ ...

ومع ذلك إذا لم يتقاسم الجسد مع النفس – بعد البعث – كل المتع المشروعة ، ألا يكون هذا البعث عبثاً ؟ والجزاء ناقصاً ؟.. ذلك أنه على حين ان الجزاء القانونى والجزاء الأخلاقى يؤثر كل منهما فقط على عنصر من الانسان " الحاسة أو الضمير"، فإن ما يميز الجزاء الإلهى انه ينبغى أن يكون كلياً وكاملاً ، فطبيعة هذا الجزاء المركبة شرط لكماله للارتباط الوثيق بين الجانب البدنى والجانب المعنوى .

وهكذا يتضح مدى رحابة النظرية القرآنية عن الجزاء ، إذ أنها لما كانت شاملة بفضل غايتها ، فإنها كذلك بفضل منهجها ، وبالتالى فإن ما تركه الأقدمون ، وما كتبه الفلاسفة المحدثون ، وما جاء به القديسون والمرسلون منذ بدء الزمن ، فلا بد لكل من هؤلاء أن يجد فى النظرية القرآنية إحدى الصيغ التى تتمشى معه ، وما ذلك إلا لأن القرآن يستهدف النفس الإنسانية بكل قواها ، وفى كل أعماقها ، وأنه يوجه دعوته إلى جميع الناس من جميع الطبقات ومن جميع مستويات الذكاء والرشاد . ويتنوع منهجه فى البرهنة بتنوع الاتجاهات والأمزجه والعقول لدى من يتوجه إليهم .

إن جلال الأمر الإلهى ومطابقته للحكمة ، وتوافقه مع الخير ، وما يمنحه من رضا لأرق المشاعر وأنبلها ، وما يؤدى تطبيقه من تحقيق للقيم الأخلاقية ، والغايات العظمى فى الدنيا وفى الآخرة .. كل هذا يسهم فى دعم سلطان الواجب القرآنى الاخلاقى.

غير أن خاتمتنا هذه ، تبدو وكأنها تثير قضية جديدة ، فهل الإرادة تستمد دوافعها من مجالات شديدة الاختلاف والتنوع ، وهى تحرك جميع الطاقات المسخرة ، وجميع القوى النشطة ، وجميع الوسائل المتاحة .. ؟ وفى نظر القرآن .. هل أى شئ يمكن أن يكون حافزاً على العمل ؟ وهل الأخلاق القرآنية لا تهتم " بالنية " ؟ بعد أن وفقت – فى مجال الجزاء – بين الاختلافات المتباينة ، واستجابت لجميع المقتضيات المشروعة. فهل تقنع بالمطابقة المادية للأعمال – أياً كان المبدأ الذى يلهمها – وحتى فى غياب الشعور بالواجب غياباً تاماً ؟..

تلك هى القضية التى تواجهنا الأن بإلحاح . وهى الموضوع الذى خصصنا له الفصل التالى ...

***

الفصل الرابع

النية والدوافع .

" النية " بمعناها الواسع هى حركة تتجه بها الارادة نحو شئ معين أما لتحقيقه واما للحصول عليه .

"والعمل " هو الموضوع المباشر للإرادة الفاعلة الذى تشرع فى أدائه . غير ان هذا الأداء لا يكون ممكناً – كاداء ارادى صرف – إلا اذا كان الانسان يرى فى ذات العمل ومن ورائه شيئاً ما من الخير ، يبرره فى نظره ، ويكون سبباً لإيجاده . وهذا هو الموضوع غير المباشر والهدف الأخير اللذان يتجه اليهما الجهد العاقل الواعى ويتطلع الى بلوغهما .

ويسمى هذا الموضوع البعيد "غاية " fin أو " هدف " but ، من حيث انه واقع مستقبل الحدوث يتعين السعى وراء بلوغه . أما من حيث انه مفهوم أو فكرة تحفز النشاط الارادى وتعده اعداداً – فيسمى " باعث" motif أو " دافع" mobile . وهما كلمتان جرت العادة على النظر اليهما على انهما مترادفتان تماماً . على حين ان بهما قدر من ألوان الاختلاف يكفى لكى يجعل لكل منهما فى تصورنا دوراً مختلفاً فى هذا "الاعداد للعمل" .

اما من حيث أنه " باعث " فتلعب فكرة الخير المستهدف دوراً عقلياً فى جوهره تؤدى الى تبرير العمل المقصود ، وبيان اساس شرعيته ، وتجعله معقولاً .. ولكن ما أن يتم تجاوز هذه الخطوة العقلية حتى تصبح فكرة الهدف قوة محركة و " دافعة " لنشاطها . فمن حيث هذا التأثير على الارادة تسمى "باعث" .

واياً كانت ألوان الاختلاف، فان نقطة بدايتنا فى هذا الفصل تتركز على توضيح الفرق بين نوعين من اهداف الارادة ألا وهما " الماهية" le quoi و " السبب" le pourquoi . فمن المسلم به ان القرار السوى الذى حظى بالقدر الكافى من عميق التفكير به نظرة مزدوجه للارادة إحداهما تتعلق بالعمل والثانية بالهدف.

وهذه النظرة المزدوجة تمثل من الناحية العلمية موضوعين مختلفين . فنرى الاخلاقيين يكثرون من استخدام النية الغائية ، بينما نجد علماء النفس والفقهاء يهتمون بدراسة النية بمعناها العام ، وخاصة جانبها الموضوعى. وعلى هذا الاساس يمكن تسميتها " النية الاخلاقية " و " النية النفسية " (السيكولوجية) لا لأن القانون الاخلاقى لا يعنى بالموضوع المباشر المختار – الذى هو شرطه الاول – وانما لأن العمل الذى يخلو

من النية يكون بعيدا عن المجال الاخلاقى أى محايدا. على حين ان الارادة عندما تستهدف غاية غير مشروعة تكون مضادة للأخلاق أى آثمة .

إذن تمنح النية النفسية العمل حق الحياة وتجعله صحيحاً ، بينما تضفى النية الحسنة الاخلاقية على العمل قيمته الذاتية .

ولا شك أنه كان الأوفق أن يطلق على كل منهما اسماً مميزاً له . إلا ان هذا لم يحدث فى اللغة العامة وجرى الخلط بينهما . مما يقتضى منا تمييز وتوضيح المعنى المراد فى مختلف الظروف والملابسات . ولهذا سوف نفرد لكل كلمة دراسة مستقلة .

١- النية :

نفترض مؤقتاً أنه يمكن للارادة ان تنحصر تماما فى العمل فى غياب أى هدف أو فى غياب أية فكرة مسبقة . ونفترض ايضاً أنه يمكن للارادة ان تنعزل تماما عن اية نظرة تتعلق بالاسباب التى تحدد العمل . هنا يمكن ان يطلق على النظرة المحصورة فى العمل الذى تنتجه الارادة – أو وهى فى طريقها لإنتاجه – اسم " النية " . ونستطيع ان نقول إذن إن " النية " وهى على عتبة التصرف تعنى القرار الحازم (العزم والقصد) ، اما حين تتزامن النية مع العمل – وهى الحالة التى تكون فيها كلمة نية انسب تعبير – تصبح الضمير السيكولوجى الذى يصاحب العمل. بمعنى موقف العقل اليقظ الحاضر تجاه العمل الذى يُؤدى .

وعلى كلٍ تتضمن النية ثلاثة عناصر أساسية على سبيل الحصر هى:

- ادراك ما يجرى عمله.
- ارادة انجاز العمل .
- استهداف ذات العمل من حيث أنه مأمور به وواجب .

اذن فكرة النية هى الشعور او الادراك الذى ينطوى عليه نشاطنا الارادى ، سواء كان نشاطنا على وشك التحرك ، أم أثناء تحركه ، مع علمنا بأن سعينا هذا يكون من أجل تحقيق واجب نلتزم بأدائه .

ان تعريف مفهوم النية على هذا النحو ، يثير أمام دراستنا عدداً من القضايا التى تتطلب الحل -:

١- ماذا يحدث لو غابت النية كلية أو جزئياً ؟

٢- الى اى مدى يمكّن للنية ان تغير من طبيعة العمل ؟

٣- لمن تكون الغلبة فى العمل الأخلاقى .. للعمل أم للنية ؟

٤- إلى اى حد تستطيع النية بمفردها ان تضطلع كاملاً بدور الواجب ؟

أ- النية كشرط لصحة الفعل .

بالنسبة للسؤال الأول عن غياب النية ، نرجع الى ما سبق أن قلناه فى موضوع المسئولية .

فقد رأينا كيف ان الشريعة الاسلامية لا تقيم وزنا لاى عمل ينقصه احد العنصرين النفسيين ألا وهما المعرفة والارادة . لأن العمل اللاشعورى أو الحدث المادى الصرف الذى يقع منا دون ان نشعر به - كأن نكون نائمين مثلا - لا يوصف بالحُسن أو بالقبح طالما انه لا ينتسب الينا . ومن هذا القبيل أيضاً العمل الشعورى حين يكون غير ارادى ، باعتبار انه يتم - لا بغير علمنا - وانما مستقلاً عن إرادتنا ، اى على شكل حدث طارئ نتعرض له صادراً عن قوة لا نملك تجاهها شيئا كالسقوط او التصادم.

والى هنا قلنا ان المبادئ القانونية والمبادئ الاخلاقية كانت تسير جنباً الى جنب.. غير أنها بدأت فى الافتراق فى الوقت الذى أصبح فيه العمل شعورياً وارادياً ولكن خالياً من النية . بمعنى ان يكون القانون فى جانب والارادة فى جانب آخر ، بحيث يمكن اعتبار العمل من الناحية المادية متفقاً مع القانون او مخالفاً له . إلا انه يمتنع وصفه بانه عمل اخلاقى نظرا للروح التى صدر عنها . كحالة القتل الخطأ ، أو الحدث الذى يقع بحسن نية ويسبب ضرراً للغير.

وبينما يقرر القانون الاخلاقى - شأنه شأن القانون الجنائى - ان اعمالنا لا تنسب الينا الا بما يتناسب مع درجة النية التى نؤديها بها . يحاول القانون المدنى هنا ان يصل الى حل وسط ، فهو يبرئ الشخص ذاته ، ويستخدم جزءا من ثروة هذا الشخص لاصلاح الضرر الذى تسبب فيه للغير .

هذه الاعتبارات التى درسناها من حيث المسئولية والجزاء ، يجب اعادة تناولها من حيث مدى صحة الفعل .

غير ان النتيجة التى توصلنا اليها تتعرض من هذه الزاوية للهجوم وللنقض فى عدة نقاط تظهر فيها الشريعة الاسلامية وكأنها تقنع بالنتيجة التى تتحقق حتى ولو كانت مخالفة لنيتنا أو حتى دون علمنا . كأن يسدد الدَّين طرف ثالث لا يخطر المدين بسداده ولا يسترد ما دفع ، أو تؤدى الأمانة ومساعدة المعوزين فى نفس الظروف . واذا رفض

الاغنياء دفع زكاة المال تستطيع الحكومة - بل يجب عليها - ان تضغط عليهم لتضمن للفقراء حقهم . وحروب الردة التى خاضها ابو كبر ﷺ معروفة.

نجد فى الأمثلة السابقة ان واجب الفرد تجاه نفسه ظل كاملا برغم ما حدث رغماً عن ارادته ، طالما انه لم يضطلع به عن رضا وبوعى كامل واقتناع بمسئوليته .اذ ان هناك تكليف مزدوج اولاً - ان على من يستولى على شئ بما يخالف الشرع ان يرده لمالكه وثانياً - ان على الأمة ان تحرص على ألا تضيع الحقوق فاذا لم يتم اداء الحائز وجب على الدولة ان تتدخل لاقرار النظام .

وهناك نقطة تحتاج الى توضيح .. تلك هى العلاقة فى الشرع الاسلامى بين المجتمع والفرد حيث يبدو هذا المجتمع قليل الالحاح من الناحية الاخلاقية بحيث يوقف اى اكراه على افراده متى حصل منهم على واقع مادى ولو كان بعيداً تماماً عن وعيهم .. وطالما ان الضمائر لا سلطان لأحد عليها فلا سبيل الا ان نفترض حسن النية لدى الناس فيقع على الأمة وحدها حفظ النظام والدفاع عن الحقوق ومنع المظالم ، وعلى كل فرد ان يراقب نفسه وأن يتحقق من مطابقة موقفه مع روح الشريعة.

اذن المبدأ الذى نستخلصه من هذا البحث ان " الاخلاقية" و " المشروعية " تنفصلان انفصالا جذريا منذ البداية ، من حيث مدى قبول الفعل فى نظر القانون الاخلاقى والقانون الاجتماعى . فمن الناحية الاخلاقية لا يدخل فى باب الاخلاق اى عمل لا يكون فى آن واحد اراديا وشعوريا ومعقودا عليه النية . بينما هذه الشروط غير مطلوبة فى الوفاء بالالتزام الاجتماعى . وانما يجب ويكفى ان يستوفى العمل بعض الشروط الموضوعية البحتة تتعلق بالمكان والزمان والكم والكيف ، حتى ولو تحقق الواقع الحادث دون علمنا ودون ارادتنا . أو كان نتيجة اكراه او صدفة .

برغم ان القرآن يستوجب منا الشعور النفسى والحضور الذهنى ، وينهانا عن اداء واجباتنا التعبدية ونحن فى حالة شرود او اغماء او سكر (النساء ٤٣). نرى الضمير الاخلاقى يطالبنا بتحقيق رضا القلب والهمة والسرور فى تأدية الواجب (التوبة ٥٤ ، ٥٦) وان شرط الأخلاقية (والايمان) ان يتقبل المرء مختاراً جميع اوامر الشريعة بخضوع وبلا تردد (النساء ٦٥) ثم تلخص السنّة الشريفة ذلك كله فى الحديث الصحيح " انما الاعمال بالنيات " بمعنى ان الاعمال لا توجد أخلاقياً إلا بالنوايا .

غير أن هناك بعض الواجبات الفردية او الشعائر الدينية تغاضى الفقهاء عن خلوها من النية . وهو موقف عام ليس فيه اجماع بينهم . كأعمال الاستبراء والتطهر وسائر مقدمات الصلاة .. كازالة النجاسة من مكان العبادة ومن البدن والملابس ثم القيام

بالوضوء أو الاغتسال ، ثم التوجه الى القبلة اثناء الصلاة ... فقد انعقد الاجماع تقريباً على عدم لزوم النية فى التوجه واللباس والنظافة. اما النظافة الدينية البحتة كالوضوء والغسل فقد اختلفت المذاهب ، حيث اشترطت مذاهب أهل الحجاز ومصر (المالكية والشافعية والحنابلة) توافر النية فيها استناداً إلى انها " واجب " بالنظر الى الصلاة ، بينما اكتفى اهل العراق (المذهب الحنفى) بالواقع العملى ولو عن غير نية .

فكيف يمكن تفسير هذه الاستثناءات التى تكاد تقوض المبدأ العام للنية ؟ سنحاول استخلاص السبب من خلال آراء هذه المذاهب :

١- * نرى ان الحالات السابقة لاتمثل قيداً على مبدأ النية . وانما مجرد اختلاف فى رؤية الموضوع الذى تستهدفه قاعدة أو اخرى من القواعد العملية . والذى ينحصر فى كلمتين: "العمل " و " حدوث حالة " فطالما ان الامر يتعلق بالعمل فلن تتحقق له الصفة الاخلاقية إلا اذا كانت النية موجودة فى الطابع التكليفى لهذا النشاط باعتبار ان الاخلاقية والنية صنوان لا ينفصلان .

* اما اذا كان الامر يتعلق " بحدوث حالة " . فلا تهم الطريقة التى تحدث بها هذه الحالة ولو مصادفة .. وتكفى النتيجة التى تتحقق للاعفاء من التكليف . حيث الواجب ان يكون الشئ وقد كان.

ومن هنا قد نتصور ان بعض القوانين لا تستوجب مجرد فعل من جانبنا ، وانما تقصد بجانب ذلك وبصفة خاصة نتيجة معينة ينبغى تحقيقها باى ثمن ، بل وقد لا تستهدف سوى هذه النتيجة وحدها .

٢- ولقد فرق علم اصول الشريعة بين خطابين فى شرح القانون :

- خطاب تكليف : وهو الذى يقوم على فعل شئ او تركه

- خطاب وضع : ويراد به وضع الشروط والاسباب ، وبيان حال الصحة وعدم الصحة

ومن الثابت فى هذا العلم ان الافراد الذين يعجزون عن ان يكونوا موضع تكليف ليسوا بأقل اهلية لأن تتوجه اليهم الأوامر الوضعية . ولذلك يفرض فى مال الصبية والمجانين ما يفرض فى مال غيرهم . ومتى أديت هذه الفروض فى وقتها يستوفى حق الشريعة ، ولا يلتزم هؤلاء باعادة أدائها مقرونة بنية حين يستردون شخصيتهم.

وهكذا من خلال التفرقة بين " واجب العمل " و " واجب الكينونة " أبرزنا فائدة هذا المبدأ القانونى القديم وطبقناه على الافعال الاخلاقية . واستطاع حل مجموعتى الصعوبات التى صادفناها . ويمكن فى الحالة الثانية تصور القانون فى صورة " عدالة محايدة " و " غير شخصية " تستهدف الاشياء لا الاشخاص . وكأن اله انون يقول " من الضرورى ان يكون هذا " لا ان يقول " يجب ان تفعلوا كذا .."

وهكذا ينعقد الاجماع على أن العمل الموضوعى تنعدم فيه الصحة الاخلاقية اذا لم تتوفر فيه فكرة الواجب من الضمير ، وتظل الرابطة العامة التى لا غنى عنها بين "العمل " و "النية" – والتى يقررها الحديث – تتمتع بالاجماع بلا أى استثناء .

ب- النية وطبيعة العمل الاخلاقى .

نبحث الأن الدور الإيجابى للنية اى درجة فاعلية وجودها . أى ما إذا كانت النية تحدث تعديلاً فى طبيعة العمل ذاتها . وبعبارة أخرى ، ما اذا كان العمل السئ الذى يقع بحسن نية يكتسب قيمة اخلاقية . ويصبح عملاً فاضلاً. وما إذا كان العكس صحيحاً .

فما المراد بعبارة نية حسنة أو نية سيئة ؟

اذا استمر افتراضنا بان الارادة حبيسة اعمالها وصفات هذه الاعمال بصرف النظر عن دوافع الارادة ، فإن حسن النية لا يتمثل فى شرف الغايات التى تحرك الارادة، اذ ان قيمة النية تنبع من حكمنا على مشروعات اعمالنا من حيث اتفاقها او مخالفتها للشرع . علما بان أحكامنا هذه ليس من الضرورى ان تتوافق مع واقع الاشياء. والمسألة اذن هى معرفة ما اذا كان يكفى ان نحكم – ونحن نتحرى الدقة فى حكمنا – بأن هذا العمل مباح أو ممنوع ، ونواصل انجاز هذا العمل بهذه الصفة ، فهل يكفى ذلك لكى يكتسب العمل الصفة التى اسبغناها عليه ،ان لم يكن فى ذاته فعلى الأقل فى نظرنا .

تلك قضية يصعب الاجابة عنها بالايجاب أوالنفى.

فاذا اخذنا – من ناحية – بالفكرة القائلة بأن النية الحسنة هى فى ذاتها " الخير الاخلاقى المطلق بلا قيود " أو كما قال " كانت " " الخير الوحيد فى العالم بل وفيما وراء العالم " فسوف يقودنا منطق هذه الفكرة الى تسويغ جميع أخطاء وضلالات الضمير فضلاً عن اتخاذها قيماً مطلقة ونماذج كاملة للفضيلة . واذا ما حاولنا استبعاد هذه الحالات بحجة أنها " اعمال مناقضة للواجب " – كما حاول كانت – فستكون محاولة فاشلة لأن صاحبها اعتقد انها مطابقة للقاعدة .

ومن ناحية اخرى ، لو اعتبرنا توجيهات الضمير عاجزة عن تغيير اى شئ فى طبيعة العمل فسوف نضطر الى قبول اشد النوايا إثما وسواداً ، وأكثر النوايا طهارة وطيبة ضمن اطار الاخلاقية بشرط ألا يكون هناك أى مأخذ عليها من حيث الشرعية .

إن عجزنا عن تقديم اجابة قاطعة (بنعم أو لا) يضعنا فى مأزق قد يصعب الخروج منه. ومع ذلك فإن هذه الصعوبة المزدوجة ترجع اساسا الى تمسكنا الزائد عن الحد بتحقيق " المطلق " ، وهو مطلب لا يجد له صدى فى الضمائر النقية.

والواقع اننا فى تقديراتنا الاخلاقية لا نستطيع ان ندعى ان آراءنا الباطنة ليس لها اى تاثير على اعمالنا الظاهرة ، غير أننا لا نذهب الى حد الغاء اى قيمة لهذه الاعمال. فمهمة الفلسفة الاخلاقية التى تريد ان تكون قريبة من " احداث الضمير " انما تنحصر فى استخلاص وابراز درجات هذا الشعور العادل - بالرغم مما يشوبه من غموض - ثم ترسم له الحدود بقدر ما تستطيع من دقة .

فكيف حاول كبار الاخلاقيين المسلمين النهوض بهذه المهمة ؟

هناك أربع حالات لمن يريد اتخاذ قرار أخلاقى : إما أنه يريد موافقة الشرع .. او يريد مخالفته .. وفى كلتا الحالتين تكون طريقته فى انجاز ذات العمل موافقة للشرع او مخالفة له .

نترك جانبا حالتى الاتفاق مع الشرع. ونقف عند حالتى المخالفة . فأى الرأيين نتخذ اساساً للتقدير ؟ أهو اسلوبنا فى تصور هذا العمل او ذاك ؟ أم حكمنا على اتفاقه أو مخالفته للقاعدة هو الذى يقرر نهائياً قيمة سلوكنا ويضفى عليه الطابع الاخلاقى ؟ .. هذه هى المشكلة

اما إجابة الاخلاقيين المسلمين فانها لا تتبع دائماً خطاً متوازياً . فتارة يكون العنصر الحاسم فى حكمهم باللوم هو النية .. حيث يكون العمل مطابقاً للشرع ومصحوباً بنية مخالفة . وتارة يكون العمل فى حالة العكس

١- فعندما يخطئ انسان فى حقيقة الطبيعة الاخلاقية لعمل ما فيتصوره مخالفاً للقاعدة وينجزه مع نية مخالفة الواجب . فلا شك انه يكون مداناً بهذا السلوك حيث (مادة العمل لا تساوى شيئاً بينما تكون النية هى كل شئ) . هذا حكم الفقهاء بالاجماع .

ويبسط الفقهاء تطبيق هذا الحكم على جميع مجالات الواجب . كأن يستولى رجل على مال يعتقد انه لغيره بينما فى الواقع هو ماله . وآخر يخطئ فيتناول عصير فاكهة على انه خمر ويشربه بهذه النية .

فكل من يباشر عملا يعتقد أنه خاطئ بينما هو مشروع فى ذاتـه ، يرتكب بهذه النية الآثمة جريمة فى حق الشرع الأخلاقى ، على الرغم مـن عدم وجـود مخالفـة ماديـة مما ينجيه من أية عقوبة .

٢- هل يكون الامر كذلك فى حالة العكس ؟ اى هل تملك النية الحسنه هذه القوة المغيّرة التى تجعل الشر خيراً؟

مثال : نعلم ان القرآن الكريم حرم الاساءة الى الآلهة الزائفة حتى لا يؤدى ذلـك الى ان يجدف المشركون فى حق الله المعبود الحق (الانعام ١٠٨) ولكـن لـو ان مؤمنـاً دفعته حماسته على ان يعبر عـن احتقـاره للأصنـام دون ان يفكـر فـى رد الفعل المحتمـل تجاه تصرفه . فهل يعتبر معذوراً بسبب نزاهة مقصده ؟

مثال آخر : ان نشر العلم الحق واجب على كل فرد على قدر استطاعته . وبمـا ان العلم سلاح ذو حدين اذ يمكن تسخيره فى خدمـة العدالـة أو فـى خدمـة الهوى . فهل يُحرم من هذا العلم الذين يحملهم المزاج او المنفعة او العادة على اسـاءة استـخدام العلـم ؟ فاذا لم يكن فى نيتى مساعدتهم فى اساءتهم ، وانما اردت فقط ان أنورهم بالعلم ثم ادعهـم بعد ذلك وشأنهم يتصرفون كما يشاءون تحت كامل مسـئوليتهم . أليسـت هـذه مـن جـانبى لفتة كريمة تستحق الثناء ؟

كلا .. هكذا يؤكد الاخلاقيون المسلمون . فإن الشـر لا يصبح خـيراً ابـداً بفعـل كيمياء الارادة او بهذا النوع من سذاجة الضمير غير المستنير . بل ان هذا التلوين الـذى نلجأ اليه يعتبر فى نظر الامام الغزالى خطأً آخر ، إذ يقول " بل قصده الخير بالشر علـى خلاف مقتضى الشرع شر آخر . فإن عرفـه فهو معـاند للشـرع وا ن جهلـه فهو عـاص بجهله (فجهله مزدوج لانـه يجهـل الشـرع ، ويجهـل انـه يجهلـه . وقـد قيـل اشـد الجهـل الجهل بالجهل) " اذ أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولا عذر عن هذا الجهـل إلا لمن كان قريب عهد بالاسلام.

فاذا كان الجهل يعتبر عذراً فهل بوسعه ان يرقى بالنية الخاطئة الى مرتبة المبدأ الاخلاقى؟ واذا كانت الاجابة بنعم فلماذا يخرج المرء من هذا الجهل ويرجع عن اخطائه؟

يقول الحديث " من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد " . أليس فـى هـذا اقـوى برهان على ان المسلك الحسن لا ينحصر فى النية الحسنة وحدهـا ولا فـى صحـة العمـل وحدها ، وانما فى مجمـوع مكـون مـن الشـكل والمـادة لا يستغنى احدهمـا عـن الآخـر ؟ ويقول حديث آخـر " إن اللـه لا ينظـر الـى صـوركم واموالكـم ولكـن ينظـر الـى قلوبكـم واعمالكم " . ويقول حديث ثالث " لا يقبل الله قولا إلا بعمل ، ولا يقبل قولا ولا عملا إلا

بنية " . ويواصل الحسن البصرى وسعيد بن جبير رضى الله عنهما التعاليم النبوية بقولهما " لا يصلح قول وعمل إلا بنية ولا يصلح قول وعمل ونية إلا بموافقة السنّة ".

إلا ان هذين الشرطين لا يستغنيان عن شرط ثالث اذ لا يكفى توافق العمل مع القاعدة ، بل يجب ان يكون هذا التوافق مرادا ومقبولا عن طيب خاطر . لهذا فلكى تتحقق مراعاة قاعدة معينة عن ارادة حرة ، يجب ان تكون معلومة مقدما . ولذلك قسم النبى ﷺ القضاة الى ثلاثة " قاضيان فى النار وقاضٍ فى الجنة . فالذى فى الجنة رجل عرف الحق فقضى به . والذى فى النار رجل قضى للناس عن جهل ، ورجل عرف الحق وقضى بخلافه ".

ألا تثير فينا هذه الاقوال أشد أنواع القلق على أنفسنا ... اذ ما الذى يضمن لنا اننا نتصرف طبقاً للاخلاقية الصحيحة ونتبع الشرع الموضوعى فى كل حالة ، على حين انه ليس فى مقدورنا تجنب الخطأ . ومن ناحية اخرى اذا كنا نريد الخير ونقع فى الشر بجهلنا ، بينما نيتنا الحسنة لا تكفى لتبرئتنا . وكل ما يمكن لهذه النية ان تبلغه هو عفو كريم. فهل تكون جهودنا فى البحث عن الحقيقة ضائعة بلا قيمة ولا جزاء بسبب فشلها؟

يبدد القانون العلوى للاخلاق القرآنية هذا القلق ﴿ لايكلف الله نفساً إلا وسعها – البقرة ٢٨٦ ﴾ اذ أن ما يجب علينا ليس هو عدم الوقوع فى الخطأ ، ولا ان نتوصل فى جميع الظروف الى الصيغة الصحيحة للواجب فى ذاته ، وانما هو ان نبذل جهداً دائباً لنزداد معرفة بهذا القانون الموضوعى ونهتدى بنوره .

ولكن شتان بين الرغبة القوية فى ان نكون على حق مع الاعتقاد التلقائى بأننا نسير فعلاً فى طريق الحق .. وبين استخدام ما فى وسعنا لكى نصل الى الحق . فارتكاب خطأ بسيط مقروناً بحسن نية يترتب عليه العفو السريع كما يقرر القرآن ، وليس معنى ذلك ان الاجتهاد الذى صاحب هذا الخطأ لا وزن له فى الميزان الاخلاقى. فالحديث يقول " اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم اصاب فله اجران . واذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر".

اصبحت بأيدينا الآن العناصر اللازمة لتفسير التناقض المشار اليه آنفاً ، فعندما كنا نميز النية السيئة بدرجة من التأثير والفاعلية لم نخص بها النية الحسنة ، كان الموقف يبدو وكأننا نتعامل مع مفهومين مختلفين لقيمة العمل الباطن – الذى يتغلب احيانا وينزوى احيانا أخرى امام العنصر المادى . أما الآن فقد تبين لنا ان هذين الحكمين لا ينطلقان الا عن مبدأ اخلاقى واحد هو : ضرورة وحتمية توافر الشكل والمادة فى نفس الوقت. فاذا ما غاب احد العنصرين أظهر فاعليته بالفراغ الذى تركه خلفه فى العمل الاخلاقى ، وبعجز العنصر الثانى المتبقى ان يقيم وحده بناء الفضيلة الكاملة .

والواقع ان الخير الاخلاقى فى جملته لا ينحصر فى حالة باطنية محضة ولا فى حالة خارجية بحتة ، وانما فى الانتقال من احداهما الى الأخرى ، وهو انتقال يجب - لكى يكون جديراً باسمه- ان يضم كلا العنصرين فى نفس الوقت ، ولا حاجة لأن نؤكد عدم كفاية العنصر المادى وحده الذى قد يستطيع فعلاً - حسب تعبير كانت - أن يحقق الشرعية. اما الاخلاقية فلا .. غير ان البرهنة على العنصر الباطنى مهمة عسيرة . أليس العنصر الروحى هو العنصر الجوهرى فى الواجب ان لم يكن هوالواجب كله ؟

وهناك وجهة نظر اضافية حيث يتعين توضيح - من وجهة نظر حق العفو - الفرق فى الدرجة بين ضرورة العنصر الباطنى وضرورة التعبير المادى عنه . وذلك ان التحام الارادة شرط لازم للاخلاقية ، حيث إن أقل تمرد باطنى يكفى - لا ليسلب من اصلح الاعمال كل قيمة - بل ليجعله عملا اجرامياً . انها ضرورة مطلقة واساسية ، على حين ان عدم التنفيذ أو عدم المطابقة الظاهرية ، رغم انهما يشوهان العمل الاخلاقى ويجعلان الفعل الذى تم بحسن نية فعلاً ناقصاً ، فانهما لا يستنكران هذا الفعل إلا بقدر عدم وجود استحالة مادية أو جهل مطبق . اذن يمكن ان نسمى هذه الضرورة ضرورة مطلقة من اجل الكمال او ضرورة شرطية للاخلاقية البسيطة.

إلا أن الموقف الاساسى للواجب هو انه يقتضى عملا كاملا ، حيث يندمج الانسان بكليته ، ويمتزج العنصر الاخلاقى بالمادى ، وتتداخل الملكة التى تبدع وتنظم مع القوة التى تنفذ ، ويلتقى العقل الذى يفكر ، بالقلب الذى يتفانى ، وباليد التى تعمل .

جـ - فضل النية على الفعل .

قمنا بتشريح العمل القائم على النية ، وفصلنا فيه بين طبقتين : ظاهرة وباطنة (النية والتنفيذ). ثم غيرنا بالتناوب ظروف كل عنصر منهما حتى يتضح مدى قيمة كل عنصر فى البناء السوى للواجب . وأدى هذا التغيير فى الظروف الى انهيار كلى او جزئى فى صرح الواجب ، فانتهينا الى ضرورة اجتماع العنصرين معاً لبناء العمل الاخلاقى الكامل .

بيد ان هذه الطريقة تمثل فقط الجانب السلبى من المشكلة - اذ ترينا الآثار السيئة التى يحدثها غياب احد العنصرين أو انحرافه - ولا تفيدنا بشئ عن الجانب الايجابى فى طبيعة مشاركتهما فى تحقيق الخير .

لهذا سوف نعيد ترتيب الامور الى تركيبها الأولى ونحاول - من خلال ملاحظتنا لطبيعة العمل الاخلاقى المزدوجة اثناء نشاطها - ان نقدر القيمة الحقيقية

لمختلف ضروب الخير التي يناط بالعمل الاخلاقي إحداثها في هذا العالم أو في ذات أنفسنا .

فمن المتفق عليه بصفة عامة تقسيم الواجبات الى واجبات نحو انفسنا وواجبات نحو الغير (باعتبار ان واجباتنا نحو الله هي في نهاية الأمر واجبات نحو انفسنا نظراً لاستحالة طاعتنا أو معصيتنا ان تزيد او تنقص من العظمة الالهية وقدسيتها شيئا) . ولما كان هناك تقارب بين مفهوم النية ومفهوم الواجب الشخصي ، كما انه يوجد ارتباط واضح بين العمل الظاهرى وعلاقاتنا الاجتماعية ، فيمكننا اجراء عملية توزيع للصلاحيات فنحدد منطقة تأثير لكل من العمل الداخلى والعمل الخارجى ، وبالتالى نصل الى تساوى كل من النية والعمل فى القيمة.

وان كانت هناك وجهة نظر تخالف ذلك . وترى للنية دورا فى اثبات وحفظ طهارة القلب ونبل النفس (أى كمال الذات) بينما ترى للعمل غايته فى تحقيق رغد العيش لافراد المجتمع وتنميته. غير أن هذه الرؤية قد تكون خطأ من ناحيتين : أولاً بنسيان ان واجباتنا الاجتماعية لا تنحصر فى الاعمال الظاهرة وحدها . وثانياً ان واجباتنا الشخصية لا تقتصر على الاعمال الباطنة بمفردها . وإلا اعتبر هذا انكاراً للتضامن الذى اثبتناه بين النية والعمل فى جميع الظروف وأياً كان الواجب (روحياً أم بدنياً).

والواقع انه حتى عندما نجاهد انفسنا لتحسين صفات اخلاقنا الشخصية ، ينبغى التمييز بين لحظتين : لحظة اتخاذ قرار الشروع فى العمل من حيث انه مأمور به شرعاً، وبين لحظة وضع هذا القرار موضوع التنفيذ . وكل دراسة تتركز على الدور الايجابى للنية يجب ألا تقتصر – كما جرت العادة – على مقارنة العنصر النفسى بالعنصر البدنى، والنفس بالبدن، وانما ينبغى ان تُبحث ملكة اتخاذ القرار، والقدرة على التنفيذ فى كل من جانبيها الباطنى والظاهرى.

وما دام الأمر يتعلق بمقارنة عمل القلب بحركة البدن ، فإن الاخلاق الاسلامية ترجح الواقع القلبى على تعبيره الحسى . فنرى القرآن الكريم يؤكد على دور العاملين معاً فى آيات كثيرة ﴿من آمن .. وعمل صالحاً–البقرة ٦٢﴾ ﴿آمنوا .. وجاهدوا–البقرة ٢١٨﴾ ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه – الأنعام ١٢٠ ﴾ ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن – الانعام ١٥١ ﴾ ﴿ ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها – الإسراء ١٩﴾ بينما لا نرى القرآن يمتدح عملاً حسناً لا يستمد منبعه من اعماق النفس الانسانية. فكثيراً ما نجده يبرز عمل القلب وحده ، سواء باعتباره قيمة فى ذاته ﴿ اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى – الحجرات ٣ ﴾ ، أو باعتباره شرطاً جوهرياً للخلاص فى الآخرة ﴿وجاء بقلب منيب - ق ٣٣﴾

ونجد فى الأحاديث النبوية وتفاسير المفسرين هذا الامتياز اكثر وضوحاً فى انفراد العنصر الباطنى به . فنأخذ على سبيل المثال " تقوى الله " التى تتركز حولها تقريبا جميع الاحكام القرآنية ، والتى يقصد بها القرآن موقف طاعة امر الله واحترامه ، سواء كان هذا الأمر مقصودا فى اوسع معانيه ﴿ ولكن البر من اتقى - البقرة ١٨٩ ﴾ او اقترن بالأمر التحريمى فى مقابل البر ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولاتعاونوا على الإثم والعدوان - المائدة ٣ ﴾ . ففى كلتا الحالتين المقصود هى الطاعة الكاملة التى تشارك فيها القوة البدنية والقوة الاخلاقية . ولكن الحديث التالى لم يركز سوى على العنصر القلبى الى درجة ان اعتبره جوهر الفضيلة ذاته " ان التقوى ههنا ". وأشار ثلاثاً الى صدره ﷺ. واتبع هذا المنهج جمعٌ من الاخلاقيين الاسلاميين الذين عرّفوا التقوى بانها العنصر الباطنى . فكتب الحكيم الترمذى يقول ان التقوى طهارة القلب والعناية بإبعاده عن الرذيلة والدنس ، كرجل خرج من الحمام ولبس الثوب الابيض واخذ يحترس من التلوث والغبار .. ويقول الإمام الغزالى ان التقوى صفة قلب انصرف عن حب الدنيا ، وضحى به إيثارا لحب الله تعالى .

وبعبارة أخرى ، اذا كان العنصر الأخلاقى يؤثر تأثيراً فعالاً بالخير أو بالشر على العنصر المادى ، فان قوة هذا التأثير تعطيه الاسبقية على العنصر المادى الذى هو اقرب ما يكون بالنتيجة. وهذا يتفق مع رؤية الاخلاق الاسلامية باعتبار ان صحة القلب تؤمّن صحة البدن سواء فى الجانب المادى ام فى الجانب الاخلاقى كما يقول الحديث " ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد ، ألا وهى القلب " ، " القلب مَلِكٌ والجوارح جنوده فإذا صلح الملك صلحت جنوده .. " .

اذن هذا هونصيب العمل الباطنى فى تحقيق الخير الموضوعى ، فهو ليس فقط شرطا ضروريا فيه ، ولكنه سبب مؤثر عن طريق العمل الظاهرى الذى يعتبر مكملاً وانعكاساً له. اضف ان أحكام القانون الاخلاقى لا تستهدف فقط اقامة العدالة فى الدنيا ، وانما كذلك سمو أشخاصنا والارتفاع بها فوق المنافع الارضية والحياة الحيوانية .

فالعمل الباطنى من حيث الخير العام - هو وسيلة بعيدة وسبب غير مباشر ، وهو من هذه الرؤية الجديدة ، أما انه غاية فى ذاته ، وإما انه الحلقة الاخيرة فى السلسة السببية ، اذ يتصل بالغاية النهائية التى يتحقق بها هدف الواجب على وجهه الاكمل

وليس معنى ذلك ان تتوقف الحاجة الى النشاط البدنى عند هذه النقطة . بل ان دوره يصبح مزدوجاً . فبدلا من ان تقتصر نتائجه على الخارج . فإنه يستدير فى نفس الوقت الى الداخل ليقوى ملكاتنا الفطرية ويزيد من تأصيلها . ألم يؤكد القرآن أن الاحسان يثّبت النفوس ﴿ وتثبيتاً من انفسهم - البقرة ٢٦٥ ﴾ ويطهر الانسان ﴿ تطهرهم وتزكيهم

بها - التوبة ١٠٣ ﴾ انه شأن ممارسة الاعمال الصالحة كلها . ويحدد الإمام الغزالى هدف هذه الأعمال الجوهرى فى تغيير صفات أنفسنا . فعملية السجود لله أثناء الصلاة ليست مطلوبة كهدف فى ذاتها ، وانما لأن التعود عليها يغرس فى القلب فضيلة التواضع. واذا مسحنا على رأس اليتيم ازداد شعورنا نحوه بالشفقة. فهذا تحليل مختصر للنظرة الاسلامية فى العلاقة بين العنصر الباطن والعنصر الظاهر ودور كل منهما فى اى فعل اخلاقى كامل

رأينا من خلال التحليل نوعاً من الحركة الدائرية التى تصعد أولاً من المركز إلى المحيط . لتتحول الى صورة خير موضوعى ، ثم تهبط بعد ذلك من المحيط الى المركز لتتحول الى خير شخصى. وقد يقال اذا كان الأمر كذلك فلماذا هذا التمييز المنهجى الذى نمنحه للعمل الباطنى ؟ .

نجيب بانه ليس هناك تماثل على الاطلاق بين الدورين . فقد بلغ العمل الباطنى من الاهمية الى درجة أن اصبحت الترجمة البدنية للعمل متوقفة تماما على وجوده الاخلاقى .. بينما يكون النشاط الذى يمارسه الجانب المادى على الاخلاق مجرد تكملة او دعامة له يمكنه الاستغناء عنها اذا لزم الأمر. اذ ان العمل الباطنى يستطيع ان يكتفى بنفسه الى حد كبير .

والمطلوب الآن معرفة ما اذا كانت هناك علاقة تسلسل تدريجى بين النية والعمل بصفة عامة فى الأخلاق الاسلامية.. أما ان يكون للنية امتياز على العمل الظاهرى.. فذلك ما يستخلص منطقيا من التدرج المقرر بين القلب والجسد . لكن هل يمكن ان يمنح هذا الامتياز للعمل الباطنى ؟

ليس لدينا سوى حديث واحد ضعيف السند يقول " نية المؤمن خير من عمله وعمل المنافق خير من نيته " . وقد اختار الإمام الغزالى احد تفاسير هذا الحديث وانتهى الى انه لا ينبغى ان يفهم من هذا الحديث ان النية بمفردها افضل من العمل بمفرده ، وإلا ادى منطق هذه المقارنة الى الاعتقاد بان العمل الخالى من النية يكون خيراً بينما فى الحقيقة هو لا شئ . ويؤكد معنى الحديث فى الحقيقة ان اتمام الواجب يتطلب اجتماع النية والعمل ، وان فى هذا الاجتماع تكون النية هى الافضل .

نتفق مع الامام الغزالى فى صحة تفسيره . ولكننا حين نتابع برهانه لا يتحقق لنا اى تقدم فى حل المشكلة التى نحن بصددها . لأنه يقتصر على هذا الاعتبار العام الذى يقصده الشرع الاسلامى من ان الغاية المقصودة هى صحة النفس. اما ما بقى بعد ذلك فلا يعدو ان يكون وسائل لبلوغ هذا الهدف . نقول ليكن..! ولكن هذا التفضيل - وهو

صحيح ازاء الاعمال البدنية – أيكون كذلك فى مواجهة العمل الباطن ؟ وهل النية افضل من الجهد الباطن ام لا ؟ ولماذا هذه الافضلية؟ ذلك ما لم يقله الامام الغزالى .

كل ما ندّعيه ان فى النشاط الاخلاقى ينبغى التفرقة بين مرحلتين . فقبل ان نشرع فى اى عمل ينبغى مسبقاً ان نؤكد المبدأ الشرعى ، ونضع له خطة ونحدد له الوسائل ، ونرسم له الهدف الاخير ، أى يجب قبل التنفيذ ان نمرره على الشريعة فان الجانب الشرعى هو الذى يسبق ويوجه الجانب التنفيذى فى الاخلاق كما هو الحال فى السياسة ، ودور النية الحسنة هو اختيار الحل من حيث هو حسنٌ اخلاقيا . اى ان الواجب يفرض نفسه بوصفه واجباً وبهذا الوصف بالذات .

وكل نشاط حتى أعمقه فى النفس واكثره اتفاقاً مع القاعدة هو فى حد ذاته نشاط محايد مبهم يمكنه ان يرتدى صفة القداسة أو الدنس ، الشرعية او المخالفة ، الحسن او القبح او اللامبالاة ، تبعاً للطريقة التى ننجزه بها . ولقد اكد الاخلاقيون المسلمون وفقهاء الحديث على هذه الفكرة استناداً الى الحديث الصحيح " إنما الاعمال بالنيات " الذى ليس له معنى غير ذلك . وعليه فإن غموض اعمالنا الظاهرة يصدق على جهودنا الباطنة . وان النية التى أنهمك بها فى أدائى لهذا العمل او ذاك هى التى تعطى لجهدى الباطنى معنى ، وهى التى تضفى عليه صفته المحددة ، انها العصب والحياة وهى أشبه بروح الروح.

د- هل تكتفى النية بذاتها ؟

عالجنا حتى الآن ثلاث حالات :

الاولى : كان العمل يحدث بلا نية ، وهى حالة " البطلان الاخلاقى ".

الثانية : كان العمل والنية حاضرين ولكن بهما بعض النقص. إما بوجود نية سيئة –وهى حالة " اللاأخلاقية " – وإما ان العمل غير مطابق للنية – وهى حالة " الإنحراف" Inconduite وهى قابلة للادانة أو للعفو .

والثالثة : كان العمل والنية حاضرين ومتطابقين – وهى " الاخلاقية الكاملة " مع أفضلية النية .

وبقى علينا ان نبحث الحالة المقابلة للحالة الأولى . والتى تكون النية الأخلاقية فيها بمفردها وغير مترجمة الى عمل . فهل تكفى النية وحدها أو تستطيع ان تنهض بالواقعة fait الاخلاقية المتكاملة ؟

نبحث اولاً معنيين " للنية " اهتم الاخلاقيون المسلمون بالتمييز بينهما " : ١- أحياناً يقصد بها العزم الثابت الذى لا توقفه إلا عقبة فعلية لا تقاوم ٢- وتعنى فى الغالب مشروع عمل فى مرحلة التدبر والتردد و الرغبة والميل ولا حاجة بنا فى ان نتعمق فى حالة المرء الذى ينقاد لعاداته السيئة ولا يبذل اى جهد لتحطيم ما يعترضه من عقبات . فهو غير جدير باكتساب الصفات الاخلاقية الحميدة ، ولا ان يجد العذر عن ضعف ارادته

وليست احاديث النفس ،والميل الطبيعى نحو لذة معينة حسية ام خيالية ، اكثر من النية الحسنة الكسولة . فكلها لا تنشئ عملا نثاب عليه ، مادامت الارادة لم تعزم عليه. والحديث يقول " ان الله تجاوز لأمتى عما وسوست به صدورها مالم تعمل به او تتكلم ".

وفيما يتعلق بالنية بالمعنى الدقيق (المعنى الأول) التى لم تترجم الى عمل لأن الاحداث خانتها . فمما لا شك فيه ان المسئولية الاخلاقية تكون كاملة متى اتخذ القرار ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾ - الإسراء ٣٦ ﴾ وحتى لو حدث تراجع فى القرار وتم العمل بعكسه ، فان النية الأولى تكون قد انتجت آثارها الاخلاقية . اللهم إلا اذا قوبلت بعزم مضاد .

غير ان القضية فى الحقيقة هى معرفة ما اذا كانت القيمة الاخلاقية هى نفسها تكون مستحقة لقرار تحقق بكامله ، ولقرار آخر مُنع من التحقق .. (مع استبعاد حالة ان تكون الحيلولة بسبب عجز من جانب صاحب القرار أو ضعف فى الجهد أو قصور فى العزم) . فمن الواضح فى هذه الظروف ان النية لا ينبغى ان تنسب الى الواقعة الاخلاقية بنفس الدرجة . فاذا كان الرجلان يستخدمان السببية الانسانية بالكامل ، وانهما لم يهملا أية وسيلة ممكنة لتحقيق عملهما . ولما كان بعد ذلك نجاح احدهما واخفاق الاخر يرجع الى شئ غريب عن العمل ومستقل عن ارادتهما . فيمكننا ان نعترف بوجود تماثل كامل بينهما

إلا اننا لا نستطيع ان ننكر ما تحقق من قيم ايجابية او سلبية فى العالم وفى ذات انفسنا نتيجة ممارسة قدرتنا التنفيذية . وان كان هذا النجاح راجعاً الى ظروف خارجية أو هبة من الطبيعة ، فانه ما يزال إنجازنا ، لأنه تم بارادتنا ، وكانت النتائج من ابداعنا ويجب ان تضاف الى رصيدنا . فكيف نضع الحالتين على قدم المساواة ؟

وتبعاً لحرفية اقوال الاخلاقيين المسلمين يكون الامر على هذا النحو نظراً لاستناد رأيهم إلى احاديث نبوية متعددة ، لا الى اعتبارات عقلانية

ومن أقوى هذه الاحاديث " اذا التقى المسلمان بسيفيْهما فالقاتل والمقتول فى النار .. فقلت يارسول الله،هذا القاتل .. فما بال المقتول ؟ قال انه كان حريصاً على قتل صاحبه". وفى حديث آخر " ان بالمدينة اقواماً ما سرتم مسيراً . ولا قطعتكم وادياً ، إلا كانوا معكم .. حبسهم العذر " . فضلا عن ان الفقراء الذين يتمنون ان يكون لهم مثل اموال المحسنين ليفعلوا مثلهم سوف ينالون نفس الثواب ، بعكس الذين يفتنون بما لدى شرار الاغنياء وما هم عليه من ترف وتبذير ، ويتمنون ان يحوزوا الاموال مثلهم لينعموا مثلهم ويفعلوا افعالهم . فهؤلاء لهم نفس العقاب .

هذه الاحاديث الصحيحة تبدو لنا وكأن كل حديث يتعلق بفئة معينة :

١- نية مع محاولة التنفيذ .

٢- نية تعطلت عرضياً .

٣- نية قائمة على افتراض .

فمَثَلُ المتقاتلَين لا يدخل فى موضوعنا الذى هو نية بلا عمل - لأن المقتول كان مستغرقاً حتى النهاية فى الصراع ، مسخِّراً كل قواه فى خدمة نيته السيئة ، يحركه الحقد والعدوان. والاثنان لا يختلفان الا فى نتيجة جهودهما . أما فى باقى الأحاديث فان النية كانت مدانة ببقائها فى حيز الافكار ، مع وجود بعض ألوان الاختلاف تجعلها تتفاوت بعدا او قرباً من العمل .

ونفترض فى احدى الحالات أن الاعاقة طرأت بعد عقد النية ، وبعد قدر من الاستعداد فى طريق التنفيذ ، أو حتى بعد اجراء عدة تجارب ناجحة . ولكن السلسلة انقطعت بحادث غير متوقع. ونفترض فى حالة اخرى ان العقبة كانت موجودة بالفعل الى درجة ان تستبعد اى عزم وان تحيل النية الى مجرد رغبة محبوسة . كأن يقول المرء لو كنت غنياً لكنت محسناً ، أو لاستمتعت بكل مباهج الحياة .

وهكذا توجد حالتان فى الطرفين وحالة فى الوسط . فبين النية الفاعلة والنية الفرضية العاجزة ، نجد النية المعطلة عرضياً . واذا كان حكم العقل على الحالتين الأوليين مختلفاً ، فانه يعتبر الحالة الثالثة حالة ملتبسة لأنها تجمع صفات الحالتين السابقتين . ومع ذلك فإن النصوص لا تفرق بين هذه الحالات الثلاث . فهل يمكن ان ننظر اليها على انها متماثلة تماماً ؟

ليس هذا رأينا ، اذ ان التماثل هو فى الطبيعة وليس فى الدرجة . وعلى اية حال فان للنية دائماً قيمتها ، إلا أنها كلما اقتربت من العمل كلما ازدادت ثراء بالقيم ، وأنها لا تبلغ قيمتها الكاملة إلا بالعمل التام .

هذا التدرج مقبول من الناحية العقلية ، ولكن ما ان يصبح الأمر متعلقاً بالجزاء الإلهى يكون من الجرأة محاولة تحديد فضل الله بمقاييسنا الناقصة ، واستناداً الى علمنا الفطرى المحدود . لأن حدودنا فى مجال الحقائق المنزلة تخضع لمنهج محدد يعتمد على النصوص التى توضح هذه الحقائق ، وعلى حسن اختيارنا من بين هذه النصوص .

اما العدالة الإلهية – كما يصفها القرآن – فلا تحكم على الاشياء جملة أو بالتقريب ، وانما تزن بميزان دقيق ﴿ **ولكل درجات مما عملوا – الاحقاف ١٩** ﴾ ﴿ **مثقال ذرة – الزلزلة ٧-٨** ﴾ فاذا كان الجهد الباطن يستحق الأجر بكامله .. فكم من الذرات تضيع . ؟

وخارج هذا المبدأ العام توجد نصوص دقيقة تؤكد صراحة الفرق بين النية المتحققة والنية غير المتحققة :

اولاً : " ان الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله حسنة كاملة . وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات الى سبعمائة ضعف ، الى اضعاف كثيرة ...."

ثانياً : والتفرقة التى اثبتها القرآن بين المجاهدين وغير المجاهدين ، وبين الضعفاء والاصحاء من غير المجاهدين ﴿ **فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة، وكلاً وعد الله الحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيماً . درجات منه ومغفرة ورحمة – النساء ٩٥ – ٩٦** ﴾ وهنا تتركز حجتنا .. اذ من اين تأتى درجة هذه الرفعة أو درجاتها ما لم تكن من الفرق بين الجهود المبذولة والتضحيات المقدمة ، وبين النية لدى غير المجاهدين . وهذا ما يقرره نص آخر أكثر تحديداً ﴿ **ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم . التوبة ١٢٠ – ١٢١** ﴾ .

ان النية خير . والعمل القائم على النية الحسنة خير اكبر. لأنه العمل الأخلاقى المتكامل .

٢- دوافع العمل :

علينا الأن ان نزيح الستار عن عنصر جديد تركناه حتى الآن بعيداً عن الانظـار خضوعاً لمقتضيات منهج البحث ، الا وهو " الجانب الغائى للارادة ". فأنا قبل ان أعمل ، اعرف ما ينبغى ان اعمل ، وبهذا الاعتبار سوف أمضى فى انجازه ، واثناء ادائى للعمـل اعرف ان ذلك هو واجبى ، فافعله عن وعى ونية

ولكن لماذا أؤدى واجبى ، ومن اجل اية غاية ؟

هذان السؤالان ماذا ؟ ولماذا؟ لا ينفصلان أبداً فـى اى عمل مـن اعمـال الارادة جدير بهذا الاسم . وقد تختلط الاجابـات حتـى تصبح اجابـة واحدة وشيئاً واحدا . ان السؤالين يفرضان نفسهما بإلحاح كما ان الاجابة على السؤال الثانى تحدد تنفيـذ الأول لأن الغاية هى التى تحدد الوسيلة (ولا أقول تبررها ان كانت غير عادلة فى ذاتها) .

وموضوع دراستنا ان نتعرف على مدى الأهمية التـى توليها الاخـلاق القرآنيـة لهذه الاجابة. أم انها لا تهتم بالغايات التى تقصدها الارادة فى خضوعها لأحكام الاخـلاق؟ وفى حالة النفى ما الغايات التى تعتبرها هذه الأخـلاق غير مقبولـة تمامـا ؟ ومـا الغايـات التى ترتضيها وتسمح بها ؟ وما المبدأ الاسمى الذى ينبغى ان يلهـم هـذه الاعمـال ؟ وهـل هذا المبدأ لابد منه فى كل الاعمال ؟ ام ان ذلك يتفاوت بحسب مـا اذا كـان الأمـر يتعلـق بواجب أو بمجرد اسلوب للحياة الفردية فى الظروف العادية للحياة اليومية ؟

ان الاجابة بطريقة واضحة ودقيقة لا تقتصر على العموميات ، سـوف تبيـن لنـا المذهب الاخلاقى القرآنى فى هذا الموضـوع .

ونلفت النظر الـى أن لفـظ " الاسـلام " يعنـى " الانقيـاد" (اى الخضـوع لـلارادة الالهية) . كما يعنى " الاخلاص " (أى استبعاد اى سلطان غير سلطان الله تعـالى علـى الارادة الانسانية) . ومن هنا كان تأكيد القرآن المتكرر على ضرورة ان يستلهم كل فـرد نيته الصافية النقية فى كل اعماله .. ولكن فيم يتمثل هذا النقـاء ؟ والـى اى مـدى يـترتب على الخلط بين الدواعى أو البواعث انتفاء هذا النقاء؟ هذا ماسنراه فى الفقرات التالية .

أ - دور النية غير المباشر وطبيعتها :

نسأل فى أول الامر إلى أى مدى تقاس فى نظر الاسلام قيمـة اى عمـل بأهدافـه البعيدة ؟ نعود لحديث "انما الاعمال بالنيات " الذى ذكرناه من قبل لاثبـات النيـة المباشـرة كشرط صحة وكشرط وجود اخلاقى ، فانه يساعدنا ايضا فى تناولنا للنيـة كمعيـار للقيمـة وشرط اخير للثواب والعقاب .

ويرجع استخدامنا المزدوج لهذا الحديث الذى عول عليه ايضا جميع المفسرين الى اصل اشتقاق كلمة " نية " بمعنى ناء بالحمل اى نهض بـه ، وبمعنـى نـأى أى ذهب بعيدا. فهما معنيان يتحققان فى آن واحد فى العمل الحاضر الذى يكلف به المرء ، وفى غايته البعيدة التى يستهدفها منه .

وعلى فرض ان هذا الجزء من الحديث يتعلق بالجانب الأول - ولا سيما الجانب السلبى منه - فسوف نرى المعنى الثانى فى بقية نص الحديث الذى يقول "وانما لكل امرئ مانوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو إمرأة ينكحها ، فهجرته الى ما هاجر اليه" . اذن مبدأ التقرير الاخلاقى لايتعين إلا بناء على نية حقيقية سوية منبثقة من المنبع العميق لذات انفسنا .. لا من بضعة افكار سطحية ناشئة عن اصطناع لغة باطنية اومنطوقة . لأن النية الزائفة قد تحجب الانطلاقة الحقيقية لدوافعنا الى حين ، ولكنها لن تغيرها باى حال. فالمرء العاقل لا يرى فى الشكلية سوى ستار رقيق لا يلبث ان ينكشف امام الحقيقة .

ولا يمكننا انكار صعوبة وضوح الدوافع الخفية فى بعض الحالات . كما لا نذهب مذهب " كانت " الذى يرى طبقاً لنظريته استحالة اكتشافها استحالة مطلقة ، وحتى على فرض اننا اكتشفنا الدوافع الحقيقية ، فانها ليست طيعة إلى درجة انه يمكن ابعادها وشغل مكانها اذا اردنا .

ونتساءل عما اذا كانت النية بصفة عامة يمكن توجيهها ؟

يرى الامام الغزالى ان المرء ليست له قدرة مباشرة فى هذا التوجيه ، لأن النية ليست شيئاً ارادياً ، وانما هى خاتمة طبيعية لسلسلة طويلة من الحقائق كالمعارف والاتجاهات والمبادئ التى سبق تبنيها كقاعدة للسلوك . واذا اردنا تصحيحها ينبغى البدء بقلب نظام هذه الحقائق: بتغيير فكرتنا عن الحياة ، وممارسة نوع من الضغط على حساسيتنا ، وانتزاع روحنا من حب الدنيا . وربطها بمثل أكثر علواً . وبعد نجاح هذه العملية - وليس قبل هذا النجاح - فإن الانسان الجديد الذى تم تعديله على هذا النحو يمكنه ان يتكلم بنية أخرى مختلفة اختلافاً حقيقياً عن النية التى كانت لديه من قبل . وأية محاولة للتصرف بطريقة اخرى ، واية محاولة لطبخ نية جديدة على عجل وبثمن بخس لن تكون الا مجرد وهم وغش .

وهب ان هذا العلاج الاخلاقى استمر ونجح ، فان كمّ الافكار والأمانى والعادات المكتسبة حديثاً ، يمكنها ان تحد وتخفف من سلطان ميولنا الغريزية ، غير ان هذه الميول

تظل حاضرة – لأن صوتها لا يختنق تماماً – حتى انه عندما يتطابق امر العقل مع دافع حب الذات ، فقد يحدث اننا لا ندرى – على وجه التأكيد – لأى الأمرين خضعنا .

ولكن هذه الاسرار الدفينة التى تميل فى الغالب الى ان تفلت من أدق الاختبارات لا يمكن ان تغيب عن رقابة الله عز وجل العليم بذات الصدور ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير – الملك ١٤ ﴾ . ولهذا نجد فى الاخلاق الدينية – اكثر من غيرها – ان هناك ضرورة تفرض نفسها على كل فرد فى ان يمارس قدراً من الدقة وعمق النظر فى اختبار ضميره، يقارب ما يمارسه من جهد شجاع لتحرير روحه من كل تاثير غريب عن الذى يفرضه الشرع او يرضاه .

والحق انه لا يوجد اى شرع عادل يمكن ان يحملنا بأكثر مما نطيقه فيكلفنا بأن ندرك مالا نستطيع إدراكه او نجاهد مالا نطيق مجاهدته. إلا أنه عندما نتوقف بفعل قوة طبيعتنا ، وقبل ان نصل الى نهاية الطريق ، عندئذ نرى مدى الاختلاف عند نقطة التوقف، بين موقف الضمير الخاضع لقانون العقل وحده ، وبين موقف الضمير الذى يتعامل مع قانون الجلال والفضل الالهى .

ففى حالة الخضوع لقانون العقل ، نرى أن عجزنا عن " فعل الأحسن " لابد وان يترجم فى ضميرنا الى شعورين متناقضين ينتهى كل منهما الى نتيجة تسئ الى النزعة الاخلاقية. فأمام القانون ساحتنا بريئة باعتبار انه لاالزام علينا بفعل المستحيل . أما أمام انفسنا – وبملاحظة نقصنا الأصيل وان كان لاإراديا – فيثور فينا شعور باحتقارنا لانفسنا، لانه لا مفر من لوم هذه الطبيعة المستعصية على العلاج ، غير الجديرة بآمالنا الاخلاقية . وقلما تكون هذه الثورة من اجل اصلاح طبيعتنا . فتؤدى هذه الكراهية – التى لا جدوى منها – بالانسان حتماً الى " اليأس " ومنه الى ذات التوقف ثم الى التراخى والتقهقر. هذا هو الانسان اذا اعتمد على قواه الشخصية وعلمه المحدود .

اما فى ظل الايمان . فالنفس مملوءه بالايمان وبالثقة بالله – الحقيقة الحية التى لا حدود لخيرها ولا لقوتها . هذه النفس لا ترتد ابداً الى ذلك اليأس القاتل ، ولا الى ذلك التساهل البليد نحو ذاتها . لأن فكرة رحمة الشرع الإلهى – الذى لا يأمرنا بالخروج عن فطرتنا – تتوازن فى ضميرنا مع فكرة العلم الواسع لله منزل هذا الشرع . هذا العلم المطلق الذى يطلع على اعماق قلوبنا ، والذى يزن حدود قدرتنا الحقيقية بميزان دقيق . والذى يحكم بحق ما اذا كنا نطيق –أم لا– بذل المزيد من الجهد لكشف وتصحيح نقائصنا المستترة لسلوكنا الباطنى .

وفضلاً عن ذلك فإن فكرة الوجود الدائم لله تعالى تملأ النفس المؤمنة اهتماماً بالاخلاق وبالتشدد نحو ذاتها . هذه الفكرة تتزن بفكرة الرحمة الإلهية التى تمد يدها دائماً الينا . لا لكي ترحب بالذين يرجعون عن غفلتهم ، ويحاولون النهوض من كبوتهم فحسب ، ولكن ايضاً من اجل مساعدتهم ومدهم بقوة متزايدة

هكذا يصف القرآن النفس المؤمنة بأنها ليست يائسة من روح الله . ولا هى آمنة من مكره ، وانما هى فى منتصف الطريق بين الرجاء والخوف ﴿يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه - الزمر ٣﴾ فهو حوار حى بين لطف وهمة ، وشجاعة وأمل ، حوار يتعهد حرارتنا دون ان يحرقنا بها . ويرطب قلوبنا دون ان يسلبها حرارتها . فكل شئ متوازن ومتناسب تماما.

هذه هى جملة الشروط اللازمة والكافية لبناء العمل الاخلاقى الخصب والدائم .. فهل يمكن للنزعة الاخلاقية ان تجد غير الاخلاق القرآنية بيانا افضل من هذا ؟

الآن وقد اثبتنا المبدأ العام للنية ، وبعد ان اوضحنا بدقة انها ليست نية سطحية ولامصطنعة ، وانما هى دوافعنا الحقيقية التى يجب ان نتعمق فيها بداخلنا حتى نعثر على جذورها العميقة ونتولى تطهيرها . الأن نستطيع ان نتناول الموضوع الرئيسى لهذا الفصل وهو دراسة فئات هذه الدوافع المختلفة ، وفحص وضعها فى الاخلاق الاسلامية كل على حدة .

ب - النية الحسنة :

من المعلوم فى الاخلاق العقلانية ان نظرية " كانت " - وهى اكثر النظريات تشدداً - تجعل المبدأ المحدد للارادة الطيبة يتركز فى الفكرة المجردة للواجب باعتبار الواجب قانوناً شكلياً للعقل .

ويجوز لنا ان ننظر الى هذه النظرية على انها نقل ميتافيزيقى مبسط للنظرية القرآنية ، الا ان القرآن يعرض الاشياء من زاوية مختلفة لأنه يملأ الشكل الخاوى للواجب بمادة ملائمة ، ويعين سلطة اكثر سموا لممارسة الواجب . لأن المؤمن لا يذعن للواجب على انه " فكرة " أو " كائن عقلى " وانما باعتباره مرادفا لحقيقة جوهرية ، وانه صادر من الله الذى زود الانسان بهذا العقل ، واودع فيه الحقائق الأولية ، بما فى ذلك وفى المقام الأول الحقيقة الاخلاقية . وفيما عدا هذه الفروق النظرية نلاحظ تطابق النظريتين فى جوهر ماتضمنته كل منهما من مقتضيات عملية .

ومن تعاليم القرآن أن الرسالة الوحيدة التى من اجلها خلق الانسان بل وجميع الكائنات العاقلة - المرئية منها وغير المرئية - تنحصر فى العبادة والخضوع للخالق جل

وعلا ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون - الذاريات ٥٦ ﴾ ، وتاتى آيات كثيرة اخرى لتكمل هذا الاعلان بصيغ أكثر تحديدا اشترطت كلها ان يكون خضوع النفس لأمر الله خالصا وخاليا من اى شرك ﴿ ونحن له مخلصون - البقرة ١٢٩ ﴾ ﴿ وادعوه مخلصين له الدين - الاعراف ٢٩ ﴾ ، ولكى نفهم ما يقصده القرآن بهذا الإخلاص هناك مجموعتان من الآيات القرآنية تقدم لنا هذا التحديد - وان كان سلبيا- إلا انه يعبر أصدق تعبير عن الخضوع الخالص لله عز وجل .

فتؤكد مجموعة اولى من الآيات على وجوب استبعاد سيطرة الهوى على احكامنا باعتبار الهوى شر وثن ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله - القصص ٥٠ ﴾ ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله - ص ٢٦ ﴾ ، وتقصد المجموعة الثانية من الآيات تحرير نفوسنا من تأثير العالم الخارجى حتى لا نستمد طاقتنا الأخلاقية من رأى الناس فينا أو من المواقف التى يتخذونها حيالنا وحتى لا نعبأ برضاهم أو بسخطهم أو مهابتهم أو قوتهم ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون احدا الا الله - الاحزاب ٣٩ ﴾ ﴿ يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم - المائدة ٤ ﴾ او نهتم بجزائهم أو عقابهم ﴿ لا نريد منكم جزاء ولا شكورا - الدهر ٩ ﴾ .

فأين يقع المبدأ الذى يحدد الارادة إذا كانت بهذه الطريقة قد قطعت تماماً الروابط التى بينها وبين كل هذه الدوافع ؟

يوضح القرآن هذا التحديد فى وصفه للإنسان التقىٰ ﴿ ... الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الاعلى - الليل ١٧ - ٢٠ ﴾ ويمضى الى حد القول بان الذى يأخذ الصدقة هو الله وليس الفقير ﴿ .. ويأخذ الصدقات - التوبة ١٠٤ ﴾ و الحديث يقول " من تصدق بصدقة من كسب طيب .. كان إنما يضعها فى كف الرحمن " .

نستخلص من هذه النصوص تعريفاً للنية الحسنة ، كحركة تتصرف بها الارادة المطيعة عن كل شئ يتعلق برغبة أو اكراه - ظاهراً كان أم باطناً - لكى تتجه الارادة الى الجهة التى تتلقى منها الأمر. انها انفصال عن الدنيا والناس وعن انفسنا للارتباط بالله - المثل الأعلى والازكى والأكمل . وفى القرآن نصوص محددة وبالفاظ معبرة تعرض لنا المثل الأعلى على انه الموضوع الوحيد الذى يجب ان يضعه المؤمن نصب عينيه اثناء انجازه للعمل .. ﴿ .. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى - الليل ١٧ ﴾ فضلاً عن ان القرآن من اوله إلى آخره يوجهنا نحو هذا الهدف من أجل انتزاع النفوس من جوالأرض ،

وتوجيه الانظار الى السماء. بل تسيطر هذه الفكرة الإلهية على الخطاب القرآني كله حتى لاتتاح للانسان فرصة النسيان او الغفلة عنها. (١)

ومع ذلك فالملاحظ ان القرآن لا يخلط ابداً فى موضوع التجرد من الغرض بين النية وبين العمل. فعلى الرغم من انه يصم اشياء هذه الدنيا بالدونية ، ولم يرد به توجيه أو وعظ يوجب على المؤمنين التنازل عن زينة الحياة زهداً فى الحياة وتقشفاً . بل انه يدين التطرف فى اى شئ . إلا انه لا يحرم الرفاهية الفردية ولارخاء المجتمع .

ففيما يتعلق بالرفاهية الفردية يقول ﴿ **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ .. الاعراف ٣١-٣٢** ﴾ اما فى مجال الرخاء الجماعى فانه يشجع دائماً على تنمية الزراعة والتجارة والصناعة وتطوير الكشف العلمى والنهضة الحضارية بصفة عامة ، وتكفى آية واحدة للدلالة على ذلك ﴿ **وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه – الجاثية ١٣** ﴾ أى أن كل ما فى الأرض وما عليها ، وكل ما فى البحر وكل ما فى الجو مسخر للناس . ولقد أرسى القرآن عدة قواعد عامة لتنظيم اكتساب هذه الموارد وتوزيعها واستعمالها لكى يكفل الخير للجميع فى عدالة ، وجعل الحياة الدنيا منزلا مؤقتا ومعبراً للآخرة ﴿ **يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار – غافر ٣٩** ﴾ ولم يجعل اهتمامات الدنيا ومتعها غاية فى ذاتها بل وسيلة لبلوغ شئ آخر ﴿**لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه-الزخرف ١٢-١٣**﴾ .

فأين يكون التجرد من الغرض الذى يذكره القرآن – ان لم يكن فىالفكر والنية؟ ذلك انه اذا كان الشر الاخلاقى ليس فى الممارسة المادية لنشاط معين من اجل انتاج الطيبات وحيازتها ، أفيكون فى غير الروح التى توجه هذه الممارسة؟

سوف نستخلص حقيقة الاخلاق الاسلامية من الأمثلة الست التالية التى تتباين فيها القيمة الاخلاقية تباين الليل والنهار :

---

(١) أحصينا ذكر الله فى القرآن فكانت ١٠٦٢٠ مرة أى ٢٠ مرة فى الصفحة الواحدة. ووجدنا ٣٢ صفحة فقط يقل ذكر الله فيها عن ١٠ مرات (والصفحة ١٥ سطراً وعدد الصفحات ٥٠٠). (المؤلف).

أولاً: حالة اللاأخلاقية الصريحة التى ينكب فيها الانسان ليستحوز على المادة بدافع من حب التملك الغريزى دون تمييز أو حرج. ويكون فيها الانسان مداناً من حيث القانون والاخلاق . وتسمى حالة "عبادة الهوى" ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه .. ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا – الفرقان ٤٣ – ٤٤﴾ .

ثانياً: ولا تقل الإدانة الاخلاقية اذا كان الامتناع عن الشر مفروضاً علينا من الغير بالإكراه أو الارهاب ، ولولا هذا الضغط الخارجى لخالفنا الشرع وانحرفنا عنه عن علم ووعى . وفى هذه الحالة يكون المرء فى " عبودية الهوى " لأن خضوعه فى تنفيذ حرفية احكام الشرع كان تحت التهديد ﴿ ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً – التوبة ٩٨ ﴾ ﴿ ولا ينفقون إلا وهم كارهون – التوبة ٥٤ ﴾ .

ثالثاً: حالة غياب خبث الطوية : كرجل توفر له مهنته اسباب العيش الشريف فهو يتمسك بالامانة ويكره الكسب الحرام – لا لأنه يعتبره مذموماً اخلاقيا ، ولكن لأنه مخالف لطبعه وعاداته . وربما لم يخطر على باله المعيار الاخلاقى . فهذا الغياب التلقائى للشر ليس نتيجة انتصار الارادة العاقلة ، وانما هو براءة الطفولة الغريزية . اما الحياة الاخلاقية فلا تبدأ إلا عندما يكون السلوك المشروع نتيجة اختيار واع ، منطلقاً من التمييز بين الخير والشر ، وقاعدته الامتناع عن المحرمات والاقتصار على المباح .. ولكن اذا كان من المستحب امتناع المرء بإرادته عن الشر ، فان الامر ليس كذلك اذا قام بعمل لا يذمه القانون الأخلاقى لأن الاباحة بعيدة عن معنى التوصية أو معنى الالزام . وانما هى بالمعنى الواسع عدم التعارض مع الشرع ، وبالمعنى الضيق الذى نحن بصدده هى الاستطاعة الاخلاقية لإنجاز عمل أو الامتناع عنه. غير ان المستطاع لا يحمل فى ذاته كل علل وجوده . واذا كانت الاستطاعة شرطا لازما لكل موجود فإنها ليست العلة الكافية .. فينبغى أن نبحث فى موضع آخر عن العنصر الذى يجعلنا نقرر استخدام حقنا بدلا من الأعراض عنه . ففى هذا الاصل تكون قيمة اختيارنا.

فما عساه ان يكون هذا الأصل ؟ نجد الاجابة فى الحالات الثلاث الاتية:

رابعاً : عندما نسأل عن سبب سعينا لتحقيق رفاهيتنا المشروعة . يكون الرد " لأنها غير محرمة " .. دون النظر لأى بواعث اخرى مكملة .. فالدافع لعملنا هنا لا يمكن ان يكون هو القانون (الذى يسمح بالنقيضين ولا يفسر اى منهما) . وبما انه ليس وراء " القانون" و "المنفعة " – بالمعنى العام – عنصر آخر يحدد الارادة ، فيكون الدافع الحقيقى لعملنا اذن هو "الميل " لاشباع حاجتنا الفطرية ، لا "الميل الاعمى المنقاد للهوى " وانما الميل المستنير الخاضع للعقل . ولكن ليست لذلك أهمية طالما ان المصلحة هى اساس اختيارنا لا القانون .. الذى اقتصر دوره على ازاحة العقبة عن طريق مزدوج وان الذى اعطى

الأمر لاختيار احد الطريقين هو الفطرة ، وكلتاهما كانت تترقب اللحظة المواتية التى يكون فيها القانون فى حالة عدم اكتراث لتختار ما تفضله هى.

ان للانتظار ولتبعية الاختيار العام قيمة عظيمة، تعكس الاختيار الخاص الذى ليس لـه معنى اخلاقى لأنـه لا يوصف بالذم أوالمدح . انـه الموقف الذى يطلق عليه "الموقف السطحى " وهو " ادنى درجة فى سلم الاخلاقية."

خامساً : لم تقابلنا حتى الآن حالات توصف بالاستحسان . فالنية الحسنة ليست هى فقط التى تكتفى بتحذيرنا من المحرمات وتلزم رغباتنا بما هو مباح ، وانما هى اكثر من ذلك تشدداً إذ أن لها اعتبارات اخلاقية ايجابية ، ولها القدرة على اثبات صحة اختيارها للعمل المرغوب . وبناء على ذلك يكون كسب الانسان لرزقـه ، واكله حتى الشبع ، وارتداؤه الملابس النظيفة ، واستخدام وسائل الراحة .. وغيرها خالية من اى معنى اخلاقى طالما ان الهدف هو استمتاعنا بالحياة دون بلوغ حد الاسراف

فلو انقضى عمر المرء فى مثل هذه الاعمال – وهو للأسف حال غالبية الناس– فلن يكون له رصيد اخلاقى يذكر يوم القيامة .فى حين ان ذات هذه الاعمال يمكن ان تتحول الى ثروات اخلاقية . اذا ما دخلت عليها عناصر طيبة لتملأ الفراغ الذى فى اهدافها . فمثلاً حين أقصد باعتنائى ببدنى ان اتقوى على أداء واجباتى ، وحين استفيد من أحاديثى العادية لعقد صداقات نزيهة مع اخوانى ، وحين ازاول نشاطى الاقتصادى لا لأشبع غريزة التملك ، وانما لأجنب نفسى واهلى العيش عالة على الغير ، أو لنشر السعادة بين من هم اقل حظاً. أو لأفسح المجال لعامة الناس لكسب الرزق الحلال ، او لكى اشارك فى نهضة بلادى ، أو لأصلح شأن الأرض التى خلقها الله واستخلفنا فيها لكى تنعم فيها الخلائق وتمجد خالقها .

هكذا ترسم الحكمة الاسلامية امام عقولنا تلك الرؤية لأعراض الدنيا كى لا نطلبها إلا لغايات معقولة تصبح فى اطارها الاشياء المباحة مستحبة اخلاقياً ولا نطلبها لذاتها ، ولامن اجل ما تحققه لنا من متاع . علما بان الذين عاشوا بهذه الرؤية لم يتميزوا بنمط خاص فى حياتهم سواء فى الحقل او فى المصنع أو فى خلوة الزهاد.

سادساً : نجد هنا أمثلة تعد شهادة بليغة فى البعد عن الغرض حيث نرى اناساً لا يهتمون بالحياة المادية إلا فى فترات متقطعة وبقدر ما يسد حاجتهم العاجلة . وهناك آخرون ليست لهم اعباء عائلية فتفرغوا تماماً لتثقيف قلوبهم وعقولهم ، ورغم انهم كانوا فى كفالة الدولة الاسلامية – لانقطاعهم للجهاد العام – فقد كانوا لا يأخذون من عطائها غير الضرورى من القوت الذى يضمن بقاءهم ويتبرعون بكل فائض . كان هذا حال جماعة

"اهل الصُفّة " (ومنهم ابو هريرة) . وعلى منوالهم اناس آخرون كانوا ينسون انفسهم وهو يقومون بالتوزيع العام (كعائشة ام المؤمنين) . ومنهم ايضاً من كان لا يتردد في ان يهب إخوانه ما كان هو في اشد الحاجة اليه ﴿ ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة - الحشر ٩ ﴾ .

هؤلاء لم تكن المنافع المشروعة في الحياة المادية لتستميلهم فيطلبونها اذا لم تكن عندهم ، أو يستخدمونها إن كانت في متناول ايديهم .فلقد تربعوا قمة السلم الاخلاقي، ولم يكن هناك ما يحملهم على الهبوط منه غير الضرورة الملحة ، ثم يصعدون من جديد الى مكانتهم العالية .

والحق ان الزهادة في العالم الاسلامي يمكن اعتبارها الاستثناء لا القاعدة لأن انتشار الزهادة يضر بسير الحياة الانسانية سواء من الناحية المادية أو الناحية الاخلاقية ، بل يمكن ان يقال ان الذين يتعمدون البقاء على هامش الحياة الاجتماعية يختارون اقل المهام الاخلاقية مشقة . فمما لا شك فيه ان قوة ملكاتنا لا تختبر الا في تشابك الاهتمامات وتعقدها . والاجتهاد في حل المشكلات يكشف عن صلابة الارادة وطهارة القلب ونور الروح . والجدول التالي يوضح سلم القيم الذى اشرنا اليه :

الموقف	التقييم الاجتماعي	المنزلة	الرمز الرياضي
١ - غير مطابق في نظر القانون والاخلاق	مخالف للشرع	الدرك الاسفل	- ٢
٢ - مطابق بالاكراه	غير اخلاقي	الدرك السفلى	- ١
٣ - مطابق بالعفوية الفطرية	محايد اخلاقيا	سطح الأرض	صفر
مطابق عن إرادة :	تتفاوت قيمته الاخلاقية		
٤ - مطابق لما تبيحه الاخلاق	مقبول	الدور الأرضي	صفر
٥ - مطابق لما توصي به الاخلاق	حسن	الدور الأول	+١
٦ - مطابق لما تلزم به الاخلاق	احسن	الدور الأعلى	+٢

وتتجلى في الدرجتين الأخيرتين (٥ ، ٦) النية الاخلاقية بالمعنى الدقيق اى الارادة المستحقة للثناء والاجر التى تُقبل على العمل المباح لأنها تجد فيه خيراً اخلاقياً جديراً بالتحقيق . وهذه الارادة تتابع وتستهدف دائماً تنفيذ الأمر الإلهي سواء تعلق بواجب اساسي أم بأمر كمال . اما في حالة الطيبة (رقم ٥) بالمعنى الاخلاقي الأوسع فتتمثل في الحرص على عدم مخالفة الشرع مع التمسك باحكامه بصفة عامة سواء بتنفيذ ما يوجبه علينا أو بألا نبيح لأنفسنا إلا ما يبيحه لنا .

غير ان هذه المطابقة الباطنية - بما فيها تلك التى تحتل اعلى درجات السلم الاخلاقى - تشتمل على درجات متفاوتة من حيث الغاية . ولقد عنى الاخلاقيون المسلمون بتمييز مختلف الدوافع الممكنة وحاول بعضهم ترتيبها فى سلم تدريجى.

فعند اداء المرء لواجبه يتساءل لماذا يفعل هذا؟ ... وقد يقول لنفسه لأنه واجبه فلو كانت هذه الاجابة صحيحة وصادقة ، فان بها درجة من الغموض تحول بينها وبين ان تتحول الى عدد من الاسباب المتزامنة او المتعاقبة . ولهذا ينبغى التفتيش اكثر فى ثنايا الضمير ، والالحاح فى هذا السؤال : ولكن لماذا نؤدى هذا الواجب ؟ فربما يتكشف لنا الدافع الفريد الذى يحملنا على الطاعة . ولنفرض ان تحركنا كان اجلالا للشرع المقدس الذى يفرض علينا هذه الطريقة او تلك . ولم يكن نتيجة اكراه أو ميل غريزى أو عادة مكتسبة فانه يبقى شئ .

يبقى ان نعرف بطريقة محددة كيفية تأثرنا بالشرع الإلهى . هلى تأثرنا به ناتج عن اجلال الله ام عن حب الله ؟ هل تأثرنا به خشية عقاب الله ام أملاً فى مغفرته ؟ هل تأثرنا به حرصاً على تحقيق الخير الذى يستهدفه الشرع ام لمجرد الخضوع للأمر من حيث شكله دون حتى النظر الى علته ؟

لقد عدد ابو طالب المكى حالات النفس التى يمكن ان تلهم المؤمن وتدفعه لأداء واجبه ، واقر بوجود تدرج بينها رغم انه جمعها تحت عنوان واحد " من اجل الله" ، ولكنه لم يقل كيف يريد ترتيبها . ظناً منه ان هذا التدرج معروف ولو فى خطوطه العريضة .

ونجد مبدأ الواجب الاساسى مقرراً - بالاضافة الى ما فى الآيات السابقة - فى تعبير جميل من تعبيرات القرآن ﴿ **هو أهل التقوى - المدثر ٥٦** ﴾ (اى ان الله بذاته جدير بأن يُتقى وان يُطاع) وهناك حديث شريف يمتدح خُلُق سالم مولى ابى حُذيفة " إن سالما شديد الحب لله . لو كان لا يخاف الله ما عصاه". هكذا كان ارساء الدرجات الأولى لسلم التدرج الذى تناوله الاخلاقيون المسلمون بعد ذلك .

فالحكيم الترمذى يركز فى كتابه " مسائل وأجوبة " على شعور الاجلال والتوقير لعظمة الله . ويبرز اهمية دوره الفعال - لا ضد نزعات الشر الداخلية والخارجية فقط - وانما ايضاً ضد الغفلة وشرود النفس . ولبلوغ ذلك يقول ان العباد فى حاجة لا الى الخوف من العقاب ، وانما لشعور الاجلال لعظمة الله . ولقد بين فى رسالة اخرى - الطريقة التى ينبغى على المؤمن اتباعها حين يقرض ماله للمحتاجين ، وانه لا يصح ان ينتظر عن ذلك اجرا ، فمن القبيح ان يقال : ماذا تعطينا يارب فى مقابل ذلك ؟

أما الإمام الغزالى فقد كان أشد دقة ووضوحاً . وهو يقول ان اكثر النيات الحسنة ندرة ، واشدها صعوبة ، واعلاها منزلة هى التى تستهدف اجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبادة . وحين يتحدث عن شعور الحب يجعله فى مستوى سمو شعور الإجلال اذ يعتبره امتياز الحكماء والاتقياء . فالاتقياء هم الذين ليس لهم طموح غير التقرب الى الله ورؤيته والاستماع اليه . وزيادة معرفته التى بها يعرفون حقيقة كل شئ، وان الاهتمام الوحيد عندهم هو المعبود ذاته . اما رأى الغزالى فى مشاعر الخوف من العقاب والطمع فى الثواب لدى المؤمنين فسوف نتعرض له فيما بعد.

ولكن الفضل كل الفضل يرجع الى الشاطبى (المتوفى عام ٧٩٠ هـ) فى بحث المقارنة الاخيرة بحثاً دقيقاً . وهى المقارنة التى تستهدف معرفة ما اذا كان من حقنا – ونحن نؤدى واجبنا – ان نوجه انظارنا الى الآثار التى يتوقع ان تنتج عن هذا الاداء ، والتى نعلم ان الشرع يستهدف تحقيقها ... ام علينا ان نحصر نظرنا فى العمل ذاته دون ان ننشغل باى شئ يترتب عليه ، وبتعبير الشاطبى .. اذا قيل للصانع او التاجر لماذا يهتم كل منهما بالصناعة او التجارة .. هل يمكن ان يكون الرد : لكى اعيش واجعل اهلى يعيشون . او يقال : ان الشرع دعانى للاشتغال بتلك الاعمال ، فانا اعمل على مقتضى ما امرت به واترك الباقى للذى ترجع اليه عاقبة الأمور . لقد تعرض الشاطبى لهذه القضية ونقيضها فى صفحات رائعة ومطولة من " الموافقات " وذكر الحجج التى تساق لتأييد كل موقف . ثم اختتم بحثه بقوله بأن الحل الأخير يتوقف على عوامل كثيرة وينبغى ان يختلف باختلاف كل حالة .

ان اهمية المشكلة ودقة تحليلها يحتمان علينا التعمق اكثر فى بحث تلك الفكرة الجدلية لكى نقدم للقارئ عنها بيانا شافيا بقدر الامكان على ان نعدل صياغة الخلاصة فى النهاية .

فنظرة الى تحليل الشاطبى – من حيث الكم – تجعلنا نقول على الفور بأن النظرية التى تساندها اكثر الحجج الاخلاقية هى التى تحتم الاستغراق المطلق للنية فى العمل . وبذلك تمزج بين " ما هية " الارادة (ماذا) و " علتها " (لماذا) فى نفس الشئ الواحد.

هذه الطريقة فى النظر الى الواجب – كما يقول الشاطبى – تتفق تماماً مع بشريتنا كخاضعين للشرع لا كاصحاب حقوق نطالب بها المشرع . وهنا تكون النية الخالصة والمنزهة عن اى منفعة . فالذى يلتفت اثناء ادائه للعمل – الى النتائج الطبيعية او الاتفاقية المترتبة عليه ولو كانت نظرة ذات طابع اخلاقى صرف – لا يخلص بكيانه كله لله لذات الله ، وانما الى حد ما الى الآثار المنتظرة . مثال قصة المتعبد الذى سمع

ان " من أخلص لله أربعين يوماً ، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه " (وهو حديث ضعيف) فانطلق متمسكاً بحرفية الدرس . وبعد انقضاء المدة دون ان يحدث شئ اخذ يبحث عن السبب . فاكتشف انه اخلص للحكمة ولم يخلص لله لذات الله .

فبالفصل الذهنى بين العمل وبين نتائجه يبرهن الانسان على ان ايمانه بالله اعظم من ايمانه بنفسه اذ انه لما فصل السبب عن نتيجته ، فإنه سيرى النتيجة صادرة عن ارادة الخالق وحده . ولكى نقدر الحالة النفسية لمن يؤدى واجبه لأنه واجبه لا غير ، يكفى ان ننظر الى ما يترتب على انتظار النتائج من قلق وتمزق وهمّ سواء قبل أداء العمل أو بعده. كل ذلك نتيجة الالتفات الى سر الغد. فإذا ما اسدلنا ستاراً بين الحاضر والمستقبل وبين العمل وآثاره تخلصنا من هذه الاحزان والهموم . وحينئذ لا نواجه سوى هم واحد هو هم تنفيذ واجبنا الحاضر . يقول الحديث " من جعل الهموم هماً واحدا كفاه الله ما أهمه من امر الدنيا والآخرة . ومن تشاعبت به الهموم لم يبال الله فى أى أودية الدنيا هلك " . فلنقبل على العمل اقبالا كاملا ، ولنكل امر الباقى الى الله فهو الذى يحمله عنا أفضل منا

ويترتب على هذا الموقف الحكيم نتاج طيبة : كالأمن النفسى ، وتركيز الجهد ، وبساطة الهدف. أما العمل فيكتسب ثباتا واستقامة وكمالا ، لأن العناية التى نضفيها عليه لإتقانه والمثابرة على ادائه سوف تجعله فى نظرنا نموذجا جديرا بالتقدير فى ذاته ، لا باعتبار الثمرة التى ينتظر ان ينتجها .

وهذه النظرة تزودنا بفضيلتين عظيمتين لمواجهة جميع الاحتمالات التى قد تترتب على اعمالنا. فاذا لم تتحقق ثمار جهودنا فقد هيأنا انفسنا تقريبا لذلك بتوقع أسوء النتائج ، وحسبنا اننا – على الاقل – لم نعلق عليها املا كبيراً . اما اذا اسفرت جهودنا عن نتائج طيبة فستكون مفاجأة سارة تجعلنا نتفانى فى شكر المنعم علينا بهذه الآثار من رحمته

هذا قدر كاف من البراهين والحجج المؤيدة للقضية التى ترى ان نقاء النية ينحصر فى ان يستغرق الانسان استغراقاً مطلقا فى الواجب منقطعا عن اية نتائج متوقعة.

اما القضية المعارضة فانها لا تزعم تقرير مبدا أفضل ، وانما فقط تنازع فى ان يستأثر هذا المبدأ بكل القيمة ويصم اية اضافة لها اعتبار آخر باللاأخلاقية . أى أنها تحاول ان تثبت عجز مفهوم " العمل الواجب او التحريمى " عن ان تتكون منه كل القوة الدافعة للعمل أو للامتناع عنه . وأن هناك ضرورة أخلاقية لإضافة وجهتى نظر اليه :

الأولى : خاصة بالنتائج الطبيعية التى تحدد مضمون ومدى العمل

الثانية : خاصة بالأثر الذى تتمثله الارادة فى نفسها والذى يبرر فى نظرها - الالتزام الاخلاقى بالبدء فى العمل .

ففى النقطة الثانية هل يجوز ان نمنع البطل المجاهد الذى يدافع عن وطنه ، والمصلح الذى يريد اصلاح حال أمته من ان يكون لهما ادنى تطلع الى هدف نشاطهما ، والاقتصار على العمل من حيث مضمونه العاجل والمباشر ، وعدم النظر الى ابعد من ذلك ؟ اليس فى هذا المنع حرمان لهما من منبع حماستهما ؟ ومن ذا الذى يقنع بذلك ؟ ولقد كان النبى ﷺ حريصا كل الحرص على نجاح رسالته . وكان القرآن يضبط هذا الحرص ويعيده الى الوضع الوسط ﴿ **فلعلك باخع نفسك - الكهف ٦** ﴾ ﴿ **ولا تحزن عليهم - النحل ١٢٧**﴾ .

اما النقطة الاولى فحسبنا ان نتأمل حال المرء الذى يخطط لعمل خبيث ، وكثافة الشر المتركزة فى نشاطه ، وخطره الاخلاقى فى امتداده كقدوة سيئة للناس ، والذى قد يبدو ضئيلاً فى اول الأمر ثم لا يلبث - كلما اتسع مداه - ان تظهر خطورته، وتتضاعف مسئوليته لأن ترويج درهم مزيف يكون اشد خطرا من سرقة مائة درهم لاستمرار دوران الغش مع تداول الدرهم . بحيث يمكن ان يقال ان الاخلاقية تكسب فى العمق كلما زادت مساحة العمل على السطح .

واستناداً الى هذا المبدأ يقول الامام الغزالى ان المرء الذى يتطلع ببصره الى الحرام حيث كان الواجب ان يغض البصر ، يقع فى الكفر بالخالق باستخدامه نعمة الله استخداما سيئا ليس فقط فيما يتعلق بالعين وانما ايضا بالارض والسماوات والكون كله. لأن العين كما يقول - لا تقوم إلا بالرأس ، والرأس بالجسد والجسد بالغذاء والغذاء بالهواء والماء والارض والشمس والقمر .... فالكون وحدة تتجمع فيها وتتضامن كل الاجزاء .

ومن هذا التعارض بينْ أدلة القضيتين ، استخلص الشاطبى انه لا ينبغى ان يكون رفضنا جملة ولا ان يكون قبولنا عاما لجميع انواع الآثار الناتجة عن العمل . وانما يجب التمييز بين أثر يشجع على العمل ، وأثر يصرف عنه أو يهون من شأنه . والأثر الاول أولى بالاهتمام .

سوف نعدل صياغتنا النهائية بغض الشئ نظراً لضرورة اضافة بيان توضيحى:

فهناك حالات يصلح فيها اسلوب تقدير الاعمال بنتائجها الموضوعية فى زيادة تمسكنا بالاخلاق ، وفى مضاعفة خطورة بعض الاخطاء ، بل وفى تغيير طبيعة احكامنا عن هذا العمل او ذاك .

فهل هناك ما يتنافى مع الشرعية اكثر من ترك الجريمة بلاعقاب والباطل يغتصب الحق والظلم يستشرى ؟ واذا ترتب على ادانة خطأ معين إثارة أخطاء اشد خطرا، وكان التشهير بالباطل يؤدى الى طمس الحقيقة ، والثورة على الطغيان – مع العجز عن اقرار النظام – تجعل المستبد أشد استبداداً .. أليس هذا هو مجال تطبيق المبدأ القائل " تجنب أسوء الشرين وتقبل أهونهما " ؟ نقول اذن " من الممكن " بل " من الواجب" أن نقدر مقدما شتى النتائج المتوقع حدوثها فى القريب والبعيد والتى قد تؤثر فى تقرير وتحديد الواجب الحقيقى .. يقر بذلك الشاطبى .

غير أننا نلاحظ فى الأمثلة السابقة ، ان نظرتنا الى اثر العمل لا تنشئ ذات " الدافع للعمل" وانما تزودنا "بشرط او بمسوغ تشريعى" له ، وتفيد فى توضيح الطريق لفهم الواجب اكثر من تحريك الارادة ، طالما ان ذلك يحدث قبل ان يصبح الواجب مفروضاً على الارادة. والحق ان طبيعة الامور تقتضى ان يكون الضمير من البداية مدركا تماما لكل ظروف العمل المطلوب اداؤه . سواء افتراضنا ان العمل إلزامى بشكل مطلق – دون أية اعتبارات اخرى – او ان الاحتياطات التى اتخذناها فيها الضمان الكافى من أن الخير الذى بدأناه لن يترتب عليه شر اكبر ، أو أن الواجب الذى نؤديه لا يبطل أثره بفعل واجب آخر اكثر منه اهمية. انه فقط عندما تتحدد ظروف العمل على هذا النحو .. يمكن ان تصبح النتائج المتوقعة من العمل غايات تعتمد عليها الارادة فى تقديرها عندما تريد طاعة الشرع بعملها

الملاحظة في محلها ولا يسعنا سوى التسليم بها .

ولنبحث الأن القيمة الاخلاقية من حيث اعتبار نتائج العمل كمحرك للإرادة التى على وعى كامل بظروف العمل . ونلاحظ هنا ان النتائج لا ينبغى ان تعامل معاملة واحدة . فهناك نتائج يمكن ان تستخدم " كغايات موضوعية " ذات قيمة اخلاقية حقيقية ، وهناك نتائج اخرى تكون " غايات ذاتية " تحتمل " مشروعيتها" الجدل ، وهناك غايات ثالثة " ذاتية " ايضا ولكن بالمعنى الادنى للكلمة أى " الانانية المذمومة" "وهذه الانواع الثلاثة من الغايات تتفق مع الطبقات الثلاث للنية " التى نحن بصددها .

والمقصود بعبارة "غاية موضوعية " الغاية التى يرى الضمير مكانها اساساً خارج الذات ، وان الفائدة التى يمكن للذات ان تجنيها منها غير داخلة فى حساب الارادة من حيث موضوعيتها مع امكانية ان تتحقق فى نفس الوقت بمفردها ، او ان تكون هدفا لحركة اخرى للارادة . اما " الغاية الذاتية " فالبعكس ، هى النتيجة التى ننتظرها الذات من العمل بوصفه "ذى منفعة ".

بينما " المبدأ الأسمى " للاخلاقية يلتمس فى "موضوع النية " . باعتبار ان الارادة التى يمكن ان توصف بأنها " طيبة " ليست هى الارادة التى تطلب أو تبحث عن ثمن لجهدها ، وانما هى التى تبذل نفسها وجهدها بلا حساب و " تنسى ذاتها فى سبيل مثلها الاعلى " .

وهذا المثل الاعلى يظهر لنا فى شكلين يعرضهما القرآن . تقف النية فى الشكل الأول عند الواجب المجرد : اطع الله لأنه حقيق بان يطاع امتثالا لأمره ولنيل رضاه ، دون ان تحاول ان تفهم لماذا اصدر الامر أو ما هى الاسباب التى تسوغه . اما الشكل الثانى فهو عدم التوقف عند الشكل والغوص فى اعماق معنى الأمر ، ومحاولة توفيق هدفنا الخاص مع هدف المشرع وان نبتغى الخير الذى نعرف او نتوقع انه مقصود الشرع .

ويقدم لنا القرآن فى الشكل الأول هدف الارادة الطيبة فى نصوص تجعل الخير مثلا اعلى للنية . عندما يحّرض المؤمنين على جهاد اعدائهم طاعة لله وانقاذاً للمستضعفين ﴿ **وما مالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين - النساء ٧** ﴾ ولوضع حد لما يتحمله هؤلاء من المحن القاسية ومحاولات فتنتهم عن دينهم ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله - البقرة ١٩٣** ﴾ علماً بأن الجهاد فى سبيل الله هو فقط " لتكون كلمة الله هى العليا " .

فأى الموقفين يكون اكثر نبلاً من الناحية الاخلاقية ؟ فى رأينا أن الاجابة يجب ان تختلف تبعاً للأولوية التى نعطيها .. للايمان ام للعقل ؟

والحق ان الانسان العقلانى لا يرضى ان ترتفع الثقة المعصوبة العينين الى اعلى درجات السلم بينما يهبط الضمير المستنير الى المرتبة الثانية . فالانسان الذى يطيع امرا دون ان يبحث عن اسبابه ليفهمها ، يخضع للحكم من حيث طابعه الأمر فقط . اما الذى يطيع الأمر وهو مدرك تمام عدله ومعقوليته فانه يشعر تجاه الشرع بقدرعظيم من الاعجاب والاحترام معاً . وهكذا نرى النية التى تستهدف المعنى العميق للحكم ، تزيد الايمان بما يدعمه ويحصنه ويرسخه ، ولا تنقص من جمال الايمان شيئاً.

اما الانسان المعتمد على الايمان ، فيرى ان الايمان المحصور فى دائرة العقل هو ايمان معاق ومشوه لكى لا يقال غير موجود ، ويدل على ان ثقتنا فى علمنا الناقص اقوى من ثقتنا فى رصيدناالايمانى بينما الايمان الصحيح يبدأ حيث ينتهى هذا العلم الناقص ، لاعتماده على سبب شامل وعام يشيع فى كل شئ ويكمن فى السلطة التى تحكم فى القضية ، لا فى البحث عن دليل خاص ومناسب لدعم صدق وعدالة القضية

المطروحة. وان من يعتمد على عمله الخاص لكى يوفق بين نيته واهداف التشريع الإلهى يظل دائما دون مستوى المثل الاعلى الكامل ، مهما سما هدفه ومهما كان بعيداً عن الغرض ، وأن أى جهد عقلانى ليس بوسعه مطلقا ان يكتشف او يحيط بحكمة الله البالغة فى اى حكم من احكام الله .

اذن فلا شئ من الاهداف التى تتجه اليها جهودنا ، يمكن ان يكون مساويا فى السعة أو فى المنزلة لما يحقق الرضا الالهى الذى لا يتحقق بتمامه الاعندما نريد ما تريد هذه الارادة العليا سواء عرفنا العلل ام لم نعرفها. وهنا نقطة الذروة التى تسمو فوق كل القيم. ولا يوجد فوقها اى هدف مستطاع لأكمل النوايا.

وليس معنى هذه المقارنة ان نستبعد احد الهدفين أو ان يتعاقب كل منهما أمام الارادة ، وانما هما عنصران متكاملان ومتعايشان فى الأنفس المطمئنة يغلب احدهما تارة ويغلب الآخر تارة اخرى داخل الضمير المستنير. فإن المؤمن حين لايرى فى الاوامر علة فلا يقلل ذلك من اعتقاده الجازم بان هناك حكمة بالغة لكنها خافية عليه ﴿ **ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم . ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم واشد تثبيتا – النساء ٦٦** ﴾ فهواذن يخضع لها ويسعى الى تحقيقها رغم عدم فهمه لطبيعتها .

ومن جهة اخرى ، فإن حرص المؤمن على تحقيق الخير الاخلاقى الذى يكتشفه دون كبير عناء فى اكثر الأوامر وضوحا فى عدلها ، لا ينفصل مطلقا فى ضميره عن شعور آخر يحمل فى طياته رضا المؤمن العام غير المشروط تجاه كل الأوامر الأخرى . وإلا فلن يكون جديراً بصفة المؤمن ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمون فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليماً – النساء ٦٥** ﴾ .

وهكذا نجد فى الاخلاق الدينية ان وجهتى النظر تتضافران وتشتمل إحداهما على الاخرى دون ان ينقص ذلك من الحقيقة شيئا ، وان أنبلهما وارحبهما أفقا هى وجهة نظر الايمان المطمئن والخضوع المطلق. اذ ان فكرة طاعة الله لا تخلو من الاعتقاد بأن أوامره هى احكم الوسائل لتحقيق أعظم الخير للانسانية وللكون كله . فاذا ترتب على طول النظر وعمق التأمل ان تصبح هذه الفكرة واضحة وراسخة لا تتزعزع ، وانه لكى تحتل هذه الفكرة مركز الصدارة فى ضمير المؤمن تحتاج الى توفر درجة اعلى فى الرقى الاخلاقى، فان ذلك لا يقلل من حقيقة وجود هذه الفكرة فى صلب ايمان كل مؤمن مهما قلت درجة ثقافته ، وان اكتنفتها درجة من الغموض .

ونركز الآن على الصيغة الاساسية التى تحتوى على مختلف الدرجات ألا وهى: " تطابق موضوع الارادة مع موضوع الشرع ، سواء بالتوقف عند الشكل ، ام بالتغلغل فى الجوهر" . إن التركيز على الموضوع هو " الموضوعية " التى يتجلى فيها نبل النفس وشرفها ، سواء بالتوقف عن بُعد اجلالاً للشرع ، أو بالاقتراب بفعل جاذبية الحب أو دافع العرفان .

***

بمجرد ان نغادر نقطة القمة هذه نهبط فوراً الى مستوى الغايات الذاتية اى " المنفعة " . فلا مفر امام الارادة من احد أمرين : اما ان تكون فى خدمة الشرع أو الخير فى ذاته ، وإما ان تبحث عن المنفعة الشخصية . وقد يقال ان من الخير ان يتطابق هذان الامران وان يمتزجا تماماً . وكم أتمنى ان يكون الخير العام هو فى نفس الوقت الخير الخاص ، ولكن الانسان الفاعل يمكن ان يتساءل : هل بوسع الذات بحركة واحدة ان تفيض خارجها حرصا على تطبيق الشرع ، وتستدير نحو نفسها لتحقيق منفعتها ؟ . وحتى على فرض ان هذا ممكن فان هذا الهدف المزدوج يرجع الى طبقتين من الدوافع سوف نتناولها بالدراسة منفصلتين مؤقتا فى الفقرة الأخيرة من هذا الفصل تحت عنوان " اختلاط الدوافع ".

والمهم الأن ان نعرف كم تساوى هذه الدوافع الذاتية . هل ينبغى ان ندين اى اهتمام بالخير الشخصى ولو كان مشروعاً باعتبار ان هذا الاهتمام لا يتفق مع وصفنا كعباد لله مخلصين .. علينا ان نكرس كل شئ لله تعالى ؟

هذا هو رأى اكثر الاخلاقيين المسلمين تشدداً حتى ان صرامة مذهب " كانت " لا تعد شيئاً بجانبهم . فهم يرون ان واجب كل فرد ليس فقط تقييد رغباته واخضاعها لقاعدة الشرع ، بل عليه ألا يكون له اى رغبة اخرى سوى رغبة العبادة ، لأن مجرد توجيه بعض الجهد لاشباع الفطرة معناه إقامة إله آخر غير الله . وهذا هو مبدا " الطرف الثالث المرفوض فى مجال الاخلاق " . فليس بين الفضيلة والرذيلة حد وسط . فاذا لم يكن فكرنا موصولاً بالله فانه يكون مضاداًله.

اما المعتدلون الذين يمثلون الأغلبية فانهم لا يفكرون على هذا النحو . وسوف نرى ان اعتدالهم ينتهى بهم الى ما نطلق عليه " الصرامة الكانتية ".

فقد تساءلوا اول الامر عما اذا كان هذا التجرد المطلق عن الغرض حيال الفطرة ممكن الحدوث عملياً .. او انسانيا ؟ فمن الذى يستطيع ان يفخر بانه لم يعرف الاهتمام بشخصه ، وانه يمكنه الاستغناء عن اية نتيجة اخلاقية أم مادية قد تنتج عن

عمله؟ ومن فى استطاعته ان يدعى ان الصحة والحياة والرفاهية والخلاص وصداقة الجار . وكذلك العلم والعقل وصفات القلب والروح – هى كلها اشياء تافهة ليس لها اية جاذبية او سلطان عليه؟

لقد وصف ابو بكر الباقلانى بالكفر أنصارهذه النزعة التجريدية المطلقة وحاول ان يقلب عليهم حجتهم . فقد كانوا يريدون ان يجنبوا المؤمنين الوقوع فى نوع من الشرك الذى هو عبادة المنفعة ، فرأى انهم قد وقعوا فى نفس الشر لأنهم ألهوا الإنسان حين نسبوا اليه درجة من الكمال ، هى صفة من صفات الله الخالصة .

ان جهد المعتدلين يتركز فى ازالة هذه اللعنة (التى وصم بها بعض الصوفية كل عمل ذى غاية ذاتية بلا تمييز ومهما كان) . ثم فى جعل التقسيم الثنائى تقسيما ثلاثيا . فبين " الثواب " والعقاب " توجد " البراءة " . وبين اكتساب القيمة وفقدانها توضع " اللاقيمة " la non-valeur ، وبين مستوجب الثناء ، ومستوجب الذم مجرد " المشروع " وبين التحريم والالزام توجد " الاباحة " . وهذا التقسيم الثلاثى نراه فى جميع جوانب التشريع القرآنى ونجده عن النية فى حديث مشهور عن تربية الخيل " الخيل لرجل اجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر .. " فالذى يربيها بأمر الله وفى سبيل الله يثاب على نيته ، اما من يمسكها تفاخراً واداة عدوان ضد المؤمنين فهو آثم ، واما الذى يهتم بها لإشباع حاجاته الخاصة دون ان يغفل واجباته فانه لا يستحق ثواباً ولا عقاباً ويكون بتعبير أدق "ناجياً " .

ليس لدينا أدق ولا اوضح من هذا الدليل لدعم صحة رأينا الذى هو راى الجمهور .

وهكذا تستأثر " الارادة المتفانية " بكل القيمة الايجابية .. اما "الارادة الذاتية " فلها درجتان : ان العمل من اجل المنفعة الشخصية يكون إما " مقبولا" أو " مباحا " ، وإما "مرذولا" أو " مؤثما" بحسب الشروط المعقدة التى سنتناولهما فى الفقرتين التاليتين:

ج– براءة النية .

براءة النية فى اى عمل هى الصفة التى تكتسبها الارادة عندما تقنع بموقف وسط يتمثل فى انقيادها لتحقيق " منفعة مشروعة " ومباحة فى نظر القانون. بينما لاترقى الارادة بهذا العمل الى مستوى نبل التفانى المنزه عن الغرض ، ولا هى تهبط الى مستوى تحقيق غاية دنيئة . وكل حالة تندرج تحت هذا العنوان تكون صحيحة من الناحية الشرعية ، اما من الناحية الاخلاقية وطبقا لأكثر المذاهب الاسلامية تسامحا فقيمتها صفر. اى انها لا تستحق مدحاً ولاذماً ، ولا تجلب لصاحبها ثواباً ولا عقاباً . وهو موقف

يوصف "بعدم الكمال " . ومن المؤسف حقاً ان يقنع انسان ببراءة ذمته وبأن يكون " ناجياً " فقط في الوقت الذى يكون باستطاعته ان يزيد من كسبه من حيث القيمة الاخلاقية .

ويتطلب اندراج الاعمال تحت هذا الوصف تحقيق شرطين : احدهما يتوخى الغاية والثانى : الوسيلة.

فمن حيث الغاية يجب ان يكون العمل مسموحا به شرعاً ، ومعلوماً بهذه الصفة من الفاعل – وهذا هو تعريف هذه الفئة (فى مقابل الفئة الثالثة). إلا انه علاوة على ذلك – يجب ان يكون الوعى بهذه الشرعية شرطاً " يكّيف "حركة الارادة نحو تلك الغاية ولا يكتفى " بمصاحبتها " . ويجب فى تطابق الهوى مع القاعدة ان تحد القاعدة الشرعية من تأثير الهوى وان يكون هذا التقييد طواعية دون اكراه . وهناك نقطة قد تغيب عن الاذهان ، وهى انه عند الضرورات القصوى التى تباح فيها المحظورات يؤكد القرآن على من يستخدم هذا الحق ألا يشوب عمله ميل الى المحرم الذى أباحته له هذه الظروف ﴿ من اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم .. – المائدة ٣ ﴾ .

فكيف نميز فى هذه الظروف بين القاعدة وبين الهوى المقيد ؟

هناك طريقة متاحة لكل شخص مع تفاوت فى درجة فاعليتها – وهى تغيير ظروف التجربة – ولو ذهنيا – وذلك بان يتساءل عما كان سيعمله لو أن القاعدة الشرعية تحرم تلك المنفعة ؟ وسوف تزيد الاجابة من فرص الكشف عن دافعنا الحقيقى بقدر ما لنا من تجارب سابقة عن مدى اهتمامنا بواجباتنا المفروضة علينا . فاذا كنتُ فى حالة التحريم قد اكتسبتُ قدرا من الانتظام فى سيطرتى على شهواتى والتحكم فيها ، فاستطيع ان أحكم حكما قريبا من الحقيقة انه فى حالة الاباحة فان اعتبار الشرع هو الذى سوف يسيطر على سلوكى وتخضع له منفعتى . اما فى حالة تنازع الواجب والهوى فإنى `اعترف بأن الهوى هو الذى سينتصر فى الغالب . واما فى حالة اتفاقهما فباستطاعتى ان اتأكد ان الهوى ايضاً هو الذى سيتحكم وتكون له الأولوية .

ولقد أفاض القرآن فى فضح هذا الموقف غير المستقر، لأنه كثيرا ما يغير وجهه حيال الشرع ، تارة بالخضوع له وتارة بالبعد عنه ، بحسب ما يجد أو لا يجد الفرصة لتحقيق المصالح الأنانية ﴿ واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون . وإنْ يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين. أفى قلوبهم مرض ؟ .. – النور ٤٧ – ٥٠ ﴾ كلا.. ان سلطان الواجب يجب ان يكون غير مشروط بالنسبة لشهواتنا التى عليها أن تذعن له طوعاً أو كرها ﴿ انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله رسوله ليحكم بينهم ان يقولوا "سمعنا وأطعنا"- النور ٥١﴾ وهو شعار المؤمنين الدائم امام اوامر الله ورسوله.

فاحترام هذه العلاقة المتدرجة هو السمة التى يتميز بها الهوى المستنير الذى يعتبر اشباعه طبيعياً بل ومباحاً . وأما قلب هذه العلاقة بتقديم ما كان ينبغى ان يتاخر فهو الهوى الاعمى الذى لا يتوقف القرآن عن تحذيرنا منه .

غير انه لا يكفى ان يكون الهدف المنشود شيئاً مباحاً فى ذاته ، وانما يجب ايضا - وهذا هو الشرط الثانى - ان يصلح العمل المستهدف لأن يكون وسيلة اخلاقية لبلوغ هذا الهدف . وهنا تتدخل فكرة الغائية [1] بكل تعقيداتها . وسوف نرى فيما بعد تقدير اهدافنا من هذا العمل أو ذاك ليس فقط فى ذاتها وإنما بسبب اتفاقها او اختلافها مع غاية الشرع.

فمثلاً ليس للانسان اهتمامات اكثر طبيعية من ان يعيش حياة هادئة منتظمة وان يعقد صداقات متينة مع اخوانه .. والمسلك الطبيعى الذى لا غبار عليه لتحقيق الحياة المادية هو أن يبذل جهده فى الانتاج والمبادلات والاعمال الشريفة والمنتجة. ولكى يكسب مودة اصدقائه ان يتصرف معهم بافضل اساليب الكياسة والمجاملة والسماحة . وعلى أية حال لا يعتمد لتحقيق ذلك على العبادات والانفاق فى وجوه البر والاحسان ، باعتبار ان هذه الاعمال لا تستهدف سوى قداسة الواجب ، واذا ما اتخذت لغايات دنيوية فتلك هى النية الآثمة الدنسة .

ولكن اذا كانت ممارسة الفضيلة بنية تحقيق بعض المنافع عند الناس - جريمة، فهل هى كذلك اذا كان أداؤها بأمل الحصول على ثواب الله وبسبب الخوف من عقابه ؟ هذا السؤال اثار إحدى اعظم القضايا الجدلية بين الاخلاقيين المسلمين .

نعلم حجة المتشددين بأن الانسان لم يخلق إلا من اجل طاعة الله والتوجه اليه بنية صافية نقية ، فاذا ما تطلع الى بعض النتائج السارة او غير السارة من اعماله ، فمعنى ذلك انه يقلب نظام الغائية ويصير الواجب وسيلة والمنفعة غاية وموضوع العبادة.

مما اقتضى من خصومهم فى الرأى تقديم حجة بارعة للرد عليهم بأن اثبتوا ان للخلق غاية مزدوجة ، وبأن اكدوا ان استهداف غايات ثانوية لا يضر بالغاية الاساسية .

فقالوا ان الانسان لكونه مكلفاً فينحصر دوره فى اداء واجبه على اكمل وجه . وكل من يميل الى الخروج عن الواجب سوف يجبر على العودة اليه بمختلف العقوبات.

---

[1] سوف نرى أنها معقدة تعقيداً مضاعفاً ، إذ يجب أن نقدر فى العمل الواحد غايات المشرع وغايات الفاعل سواء كانت رئيسية أم ثانوية. (المؤلف).

ليس هذا فحسب ، وانما الذى يدخل اداء الواجب فى اعمال العبادة فلن يكون له شئ عند الناس ولا عند الله . اما عند الناس ، فقد رأينا ذلك . فضلاً عن ان الشريعة الاسلامية تحرم على العلماء والقضاة ان يتقاضوا شيئا من الناس. واما عند الله فالرسول ﷺ يقول: "لن يدخل احداً عملُه الجنة " اى ان العمل وحده لا يكفى ..

والحق ان الانسان بوصفه محلا لرحمة الله وعدله ، سوف يُدعى يوم القيامة لكى يجنى ثمار عمله ، وعندما يجئ يلتمس – لا أقول ما " يستحق" وانما " ما وُعد به" فلن يكون ذلك إلا تحقيقاً لمشيئة الله " كمجازى للعباد " أو " كمشرع للناس " .

ونذكّر هنا بحقيقتين لا ينكرهما احد حتى من وجهة نظر الشريعة . الاولى : ان الخوف والرجاء فى نظر الدين من الصفات التى تقصد لذاتها ، وهما أشبه بجناحين لا غنى للايمان والتقوى عنهما للازدهار والارتقاء . بينما ينظر الناس الى قسوة القلب وعدم حساسيته على انهما عيب فى قلوب الكافرين ، وقد افاض القرآن فى هذا المعنى شأن كل الكتب المقدسة . والحقيقة الثانية هى ان هذه المشاعر الدينية ذاتها يمكن شرعا ان تكون دوافع لأعمال تتناسب معها . فالآلام التى يعانيها المؤمن او يخشاها توجهه تلقائياً الى الموقف الصوفى الذى يجعله يكل كل اموره الى الله طالباً عونه . وملتمساً رحمته .. والقرآن يدعونا لذلك صراحة ﴿ استعينوا بالصبر والصلاة – البقرة ١٥٣ ﴾ والسنّة تعلمنا ان النبى ﷺ " كان إذا حزّبه أمر فزع الى الصلاة " .

فاذا ما تم التسليم بهاتين الحقيقتين فإن دائرة الغلو سوف تنكمش حتما .

وفى المقابل سوف يتنازل المذهب المعارض عن نقطة هامة . حين يضيق دور المشاعر التى نحن بصددها . فمع الاعتراف بقيمتها الذاتية ، ومع الإقرار بأن الهروب من الالم والحرص على السعادة بالطرق المناسبة ينشأ عن ميول شرعية ، فإن النظرية الشائعة لا تضفى على هذه المشاعر أية قيمة اخلاقية حين تحرك الضمير نحو واجب من الواجبات . والإ لكان ذلك تقريراً لشئ لا نجد فى القرآن ما يؤيده .

وهناك نقطة ترتب على اغفالها خلط مؤسف فى كثير من الاذهان وقع بين مفهومين متميزين تماماً فى التعاليم القرآنية ، وهما " النية " باعتبارها موقف الفاعل الاخلاقى – وبين" الجزاء " باعتباره رد فعل المشرع . فقد قرر القرآن الواجبات من جهة، وحدد نتائجها الجزائية من جهة اخرى . فاذا ما رفع شرف الفضيلة وأثيبت ، واذا ما استنكرت الرذيلة وعوقبت .. ماذا فى ذلك غير العدل ؟ولكن شتان ما بين ان نحدد لأعمالنا النتائج المترتبة عليها ، وبين ان نقترح على الارادة مبدأ يلهمها . ولقد صاغ

القرآن هذا المبدأ فى مواضع كثيرة وهو مبدأ مختلف تماماً .. انه المثل الأعلى الأكثر نقاء .

فالانسان الذى يؤدى واجبه متأثرا بالخوف أو بالرجاء ، متخذا من مصيره فى الآخرة قوة محركة لارادته المطيعة ، لا يخلط ويدمج فحسب بين نوعين مختلفين من الغائية " غاية وجودية " (العاقبة) و " غاية اخلاقية" (الهدف) . لكنه ايضا يغفل شرطا جوهرياً عن المصير الموعود . لأن القرآن خط طريقاً يتبع وخطوات تتخذ من اجل الوصول الى سعادة الآخرة ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن..- الإسراء ١٩﴾ وليست الجنة الا للقلوب السليمة الراجعة الى الله ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم - الشعراء ٨٩ ﴾ ﴿ وجاء بقلب منيب - ق ٣٣ ﴾ .

ولكن اذا قربنا بين القضية ونقيضها على هذا النحو فهل يمكن المزج بينهما ؟ الاجابة انه ليس تماماً برغم هذا .. لأن نقطة النزاع لا زالت قائمة .

فبينما النظرية المتشددة ترى ان كل ما ليس صافيا استنادا لوصف القرآن الصريح ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله - البقرة ٢٧٢ ﴾ هو دنس غير نقى . نجد النظرية المتسامحة تعتبر ان بين النقاء المطلق المستحق للمدح والثواب . وبين الدنس المستنكر والمدان من النصوص ، توجد هذه النقاوة الوسط والنسبية التى لم يرد ذكرها صراحة فى القرآن سواء بالاستحسان او بالاستنكار ، مما يدعونا الى الاعتقاد انها لا تستحق مدحاً ولاذماً وانما هى مباحة فقط لا غير .

بل يمكننا القول بان القرآن قد اباح هذا الموقف الانتفاعى ان لم يكن قد شجعه على نحو ما بمجرد أن أعلن عن الثواب والعقاب فى الآخرة . فمن المؤكد انه لم يقل "أدوا واجباتكم وانتم تنظرون الى سعادة الآخرة" . وانما قال " أدوها لوجه الله ، وبعد أدائها على هذا النحو ستتحقق لكم السعادة " . غير ان هذا الفارق الدقيق قد غاب عن بعض الفلاسفة فضلاً عن صعوبته على فهم عامة المؤمنين . فالانسان الوسط يحتفظ دائماً بصورة الوعود الجميلة كثواب للمتمسكين بالفضيلة (والتهديد المرعب للاشرار) ونظرا لضعفه وحساسيته بطبيعته مع افتراض الايمان فيه ، فإنه يندفع بفطرته الى تنمية الآمال (ومعاناة المخاوف) إلى جانب شعوره بالواجب. وما أن يجتمع شعور الواجب بشعور الحاجة الى النجاة ويسكنان الضمير ويزداد تجاورهما بصفة دائمة ، فلا توجد قوة على وجه الارض - متى تحركت الطبيعة وقامت بدورها - يمكنها ان توقف الآثار المترتبة على هذا الالتصاق المستديم . فكيف يستطيع اى تشريع عادل ان يحرّم ثمرة بعد ان غرس بذرتها فى القلوب . ؟ ..

ولنتناول الموضوع من الزواية العقلية ..

فاذا قيل ان العمل خشية العقاب هو أبعد ما يكون عن أية قيمة اخلاقية. فنحن أول يسلم بذلك . ولكن هل هذا الدافع فى حقارة الغش والفخر والغرور ؟ هل يمكن أن نجعل شعور الخوف من الله فى وضاعة الخوف من الناس ؟ ألا ينبغى ان نعترف على الاقل بوجود فرق بينهما هو ان الخوف من الناس يلهم النفاق والجبن ويحمل على مخالفة الشرع طالما ان مصدر الخوف لا يمكنه ان ينال منا ؟

وقد يقال ان الامل فى سعادة الآخرة : مسألة ارتزاق وحرص على الأجر .

نعم اذا قورن بالحب الخالص الذى يتغاضى عن كل شئ سوى المحبوب ذاته . ومع ذلك فمن ذا الذى لا يرى ان مجرد قبول هذه الصفقة والإعراض عن كل مال ملموس ومؤكد يدفع نقداً ، نظير سعادة غير محددة وغير مؤكدة وبعيدة كل البعد حتى انه يجب ان يموت ثم يحيى قبل ان يتحصل عليها . من ذا الذى لا يرى فى هذا ارتفاعاً فوق الغريزة الحيوانية المرتبطة بالحاضر والمباشر ، وانه دليل على الاتصاف بصفات عليا مثل الصبر وضبط النفس وسعة الافق وفى كلمة واحدة بنوع من المثالية .

وقد يقال : انه ذكاء مضارب .. !

ولكن يالها من مضاربة عجيبة !.. ليس فيها اى حساب للاحتمال إلا بتدخل الايمان . ولكن ما الايمان ؟ .. ان لم يكن الاعتقاد فيما هو ليس مدركاً بالحواس ولا هو قابل للاثبات بالعقل وحده . فهو حساب – ان وجد حساب – ارفع قدرا وأقل غرضا من حساب المضاربين جميعاً – طالما ان مخاطره فى نظر الفطرة السليمة العملية هى اكثر بكثير من فرص النجاح ، ومع ذلك نوافق عليه ونقبله الى حد التضحية باعز مانملك استنادا الى فضيلة الثقة وحدها .

وقد يؤكد البعض على المساوئ الاخلاقية التى تنتج عن عكس العلاقة بين الغاية والوسيلة . فلنتفاهم اولاً عن مقياس الانعكاس هذا . انه كما رأينا الاستقلال الذى نمنحه للمنفعه على حساب الواجب . ولنسأل أى مؤمن اذا كان هذا يمكن ان يكون حاله .. أو ليسأل نفسه هذه الاسئلة . اذا تصورتُ المستحيل بان طاعة الشرع ليس لها اى ثواب ، فهل كنت سأفكر فى المطالبة بأى اجر ؟.. واذا كانت مخالفة الواجب لا يترتب عليها اى عقاب .. فهل كنت سأظل متمسكا بالطاعة ؟ واذا كنت لسبب من الاسباب قد حصلت على تأكيد بان جميع ذنوبى سوف تغتفر .. هل ستكون فرصة لكى ارتكب منها المزيد ؟ ألا يكون الافضل كما قال النبى ﷺ ومبررا اكثر لأن يكون الانسان " عبدا شكورا " ؟ وتأمل قول الشاعر :

هب البعث لم تأتنا رسله وجاحمة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحق ثناء العباد على المنعم ؟

وهكذا نجد ان الاهمية التـى يعلقها المؤمـن الحـق على سعادة الآخرة لا تمثـل سوى منفعة ثانوية وفرعية وزيادة قد يستغنى عنها لو حدث اى تهديـد لهدفـه الحقيقـى ألا وهو رضاء الله . هذا الموقف الحكيم والنبيل الذى يجمع فى آن واحد المثل الاعلى الخالص وضعف الطبيعة البشرية ، نرى صورته الكاملة فى دعاء النبى ﷺ حين تعـرض للجحود وللاضطهاد " اللهم إليك اشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس .. ان لم تكن ساخطا علىّ فلا ابالى غير ان عافيتك اوسع لى " .

ولنسأل أنفسنا عن درجة وقوة الطموح فى السـعادة الأخروية .. لكـى نكتشـف مدى قدرته على ان يكوّن دافعاً مستقلاً يوجه وحده ارادة المؤمن. فمن طريقة القرآن فى صياغة وعوده عن الآخرة يفهم انه لابد مـن شـرطين لاستحقاق السـعادة الخـالدة : نقـاء القلب والايمان الدائم حتى الموت وبالأخص فى نهايـة العمـر . فمـن هـذا الانسـان – وان كان من اشد الناس طاعة – الذى يدّعى عن يقين استيفاءه لهذيـن الشـرطين ؟ فهل يمكـن لأعظم المكافآت التى تفوق الخيال– ان يكون لها من القوة ما يحرك نفس المؤمن القلقة ؟ والقرآن يقول ﴿ وما أدرى ما يفعل بى ولا بكـم – الاحقـاف ٩ ﴾ ﴿يؤتـون مـا آتـوا وقلوبهـم وجلة – المؤمنون ٦٠ ﴾ .

غير ان فاعلية الشعور العكسى تثير الجدل ايضا. فهل توقع العذاب المؤجل الـى يوم القيامة – مهما يكن مرعبا – يكفى حقا للتغلب على الاغراء الحاضر للشـر وصـرف الارادة عنه ؟ لنا ان نشك فى هذا اذا وضعنا أمام هذا التهديد مدى سعة الرحمة الالهية.. إلا انه فى الظروف الطبيعيـة لا يمكـن لاحـدى هـاتين الفكرتيـن ان تسـيطر وحدهـا علـى قلوب المؤمنين . وهذه حقيقة مؤكدة عند وصف القرآن للأنفس المتمسـكة بالفضيلـة انهـا تتأثر فى وقت واحد بالحالتين المتعارضتين معا : الخوف والرجاء . ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية .. وادعوه خوفاً وطمعاً – الاعراف ٥٥،٥٦ ﴾ ﴿ ويرجون رحمته ويخـافون عذابـه – الاسراء ٥٧ ﴾ ﴿ .. ساجدا وقائماً يحذر الاخرة ويرجو رحمة ربه – الزمر ٩ ﴾ .

أية نتيجة تنتظر من مزج هذين العنصرين المتضادين سوى شعور غامض غير قابل للوصف عن الارادة المستسلمة والخاضعة لاحكام الواجب مهما تكن النتائج؟ " افعل ما يجب وليكن ما يكون " هذا فى نهاية المطاف هو الموقف الذى يؤدى اليه الشك الـذى يهز قلب المؤمن .

فاذا اردنا ان نطلق – بأى ثمن – اسما على هذا المولود الجديد فلن نجد افضل من " شعور الحياء " وهى حالة وسط بين انفعالين شديدين ، واقرب ما تكون من " شعور الاحترام " وتعريفه " الابتعاد عن الشر خشية الوقوع فى الدنس والاحمرار خجلاً امام النفس وامام الله " . ومن المصادفة السعيدة ان نجد لدى النبى ﷺ نفس هذا المفهوم على انه السمة المميزة للاخلاق الاسلامية " لكل دين خلق ، وخلق الاسلام الحياء " .

ولقد جرت العادة على وصف الاخلاق اليهودية بانها " شريعة الخوف " والاخلاق المسيحية بانها " شريعة الحب " .. ولم يحاول – فيما نعلم – اى كاتب ان يستخلص العنصر الاكثر سيطرة على الاخلاق الاسلامية . وها هو مؤسس هذه الاخلاق نفسه قد حدده ، مما يؤيد مرة اخرى الفكرة الاساسية لدراستنا هذه ، ألا وهى ان النظرية الاسلامية تجمع مختلف المبادئ التى لا غنى عنها للحياة الاخلاقية وتضمها فى تركيب منسجم ، وتجعلها تتلاقى كلها فى نقطة الوسط والاعتدال .

***

لنعد الى موضوعنا ونفترض ان شعورا واضحاً من الخوف ومن الرجاء قد خلق لدى المؤمن طاعة نفعية من خلال توقع النجاة الموعودة . سوف نقول اذن ان العمل الذى عن طريقه تجعل الارادة من هذه الغاية الوجودية غاية ارادية – اى دافعا للعمل – سوف يخلق علاقة جديدة ، ونوعا من التفاوت بين وجهة نظر المشرع ووجهة نظر الفاعل . ولما كان هذا التفاوت يتعذر تجنبه تقريبا فى النفوس الضعيفة فإنه لا يعتبر جريمة اخلاقية وانما نوعاً من السطحية ينبغى على الشريعة العادلة ان تغفرها مع تجريدها من اية قيمة اخلاقية ايجابية .

ولقد راينا كيف عرّف الإمام الغزالى " النية الحسنة " بأنبل ما فى الكلمة من معنى .. ولما تحدث بعد ذلك عن الذين يُقبلون على الطاعة خشية العقاب أو باغراء الثواب اضاف انه رغم ان هؤلاء فى درجة ادنى من الأولى إلا انهم مقبولون ولكن فى مستوى السذج .

ان البحث عن سعادة الآخرة حالة خاصة لمفهوم اكثر شمولاً هو السعى الى غايات ذاتية (مشروعة ولكنها عادية). وقد قلنا ان شرط تسمية " الوسط " الا تكون الارادة مستقلة عن الشرع وهى محمولة الى الموضوع المراد ، وانما بناء على تصريح – ولو ضمنى – باستمرار السعى فى هذا الموضوع بهذا العمل أو ذاك .

ولنضف شرطا آخر ظل مستتراً . فلاستحقاق تسمية " الوسط " يجب ايضا ان يكون التاثير الذى يمارسه القانون الاخلاقى على هذه الارادة النفعية ذا طابع " مقيد " و

" محدد " . بمعنى ان يمنع الارادة من تجاوز الحد دون ان يقدم لها اى سبب يشجعها على العمل ، وإلا فإن الارادة ستسترد اهليتها وتصبح النية حسنة اخلاقياً .

والواقع ان الارادة طالما انها لا تتمسك من الموضوع المطلوب إلا بطابعه المباح ، فكيف يتسنى لها ان تمتد نحو هذا الموضوع بدلا من ان تتجه إلى عكسه (وهو ايضاً مباح على سبيل الافتراض) ، اذا لم تكن مدفوعة بشئ من خارج الشرع كالميل أو العادة ؟ ان الشهوة هى الشهوة ولو كانت مقيدة بالقاعدة الاخلاقية . ولهذا نصف السعى وراء الخير الشخصى عاجله وآجله - بالمبتذل التافه من باب المباح فقط .

ولن يستمر الحال على هذا النحو حين تكتشف الارادة وراء عدم المبالاة التى يبديها القانون فى ظاهره - اسبابا ايجابية تجعل الاقبال على العمل " أفضل أخلاقياً من الامتناع عنه " فيصبح سعى الارادة الى هذا الموضوع لا من اجل اشباع رغبة ، وانما لأن وراء هذا الاشباع فرصة لتحقيق خير اخلاقى دعا اليه الشرع .

وفيما يلى أمثلة من السنّة النبوية :

١- الكسب

هكذا تتغير قيمة النشاط لاكتساب الخيرات الدنيوية بحسب الهدف الاساسى الذى يرمى اليه وتبعاً للروح التى تحركه . فاذا كان المنشود لذة التملك والتمتع بالحياة يظل الهدف منحصراً فى الطبيعة البشرية ، ولا يستحق وصفا أكثر من " لا بأس به " كقول النبى ﷺ " لا بأس بالغنى لمن اتقى " .

اما اذا كان مصدر هذا النشاط نظرة مجردة من الغرض . والفاعل يتطلع لنظام افضل فى توزيع السعادة العامة ويرجو ان يسهم فى هذا النظام بنسيان نفسه أو باعتباره فردا فى هذا النظام الشامل ، عندئذ تستحق النية التقدير والثناء بعد ان كانت مبتذلة . وفى الحديث الشريف عن المال " فنعم صاحبُ المسلم . ما اعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل " . وقد سبق الحديث الشريف عن الخيل .

ب - الكماليات .

نفس القيمة يمكن ان تنسب الى الاستخدام المعتدل لوسائل الراحة وللرفاهية بصفة عامة (ومنها الملبس الحسن والنعل الحسن) . اذا فكرنا فى هذه الكماليات لا على انها تحقيق لتطلعاتنا ولحاجتنا الطبيعية وانما باعتبارها من نعم الله التى تجعلنا اكثر استجابة لمشيئته (ان الله جميل يحب الجمال) واعترافا بفضله (ان الله يحب ان

يرى أثر نعمته على عبده) . هذه النظرة تجعل المتع المباحة متعا مرغوبة بقدر ما تتيح لنا من فرص لشكر المنعم على فضله علينا .

جـ - الاستثناءات .

ان الحرمان الارادى مما وفره الله لنا يشبه الجمود والاعتراض على مقاصد الفضل الإلهى . وهذا ينطبق على الحالات الاستثنائية التى يقررها الشرع خروجا على القاعدة ليخفف عنا بعض المصاعب . والحديث يقول " ان الله يحب ان تؤتى رخصه ، كما يحب ان تؤتى عزائمه (أو) كما يكره أن تؤتى معصيته " . فمن استخدم هذه الرخص بروح النظام والطاعة - لا عن ضعف - يبرهن على خشوعه لله . ويسمو فوق مستوى براءة العوام . اما من يدعى القوة على تحمل المشقة ويتمسك بالاجراء المقرر فى الظروف العادية فكأنما يقول لله عز وجل " يمكننى الاستغناء عن رحمتك " .

د- اللعب .

ليس فى نظر القرآن ما هو أكثر ابتذالاً من اللعب واللهو . ومع ذلك فإن النبى ﷺ يقول عن بعض الالعاب انها ذات قيمة " كل شئ ليس من ذكر الله فهو لعب ولهو . إلا اربعة : ملاعبة الرجل امرأته ، وتأديب الرجل فرسه ، ومشى الرجل بين الغرضين ، تعليم الرجل السباحة " . وكان بعض الصحابة يقول " روحوا القلوب ، فانها اذا كرهت عميت " " انى لأستجم نفسى بشئ من اللهو ، فيكون ذلك عوناً لى على الحق " . لكى يستعيدوا طاقتهم لاستئناف نشاطهم الاخلاقى الحقيقى .

من هذا نخرج بنتيجتين واضحتين فى الاخلاق الاسلامية : الأولى : ان فى هذه الاخلاق منطقة وسط بين الحسن والقبيح . والثانية : ان تدخّل النية الحسنة يحّول الاعمال المباحة أو المسموح بها ، أو حتى الاعمال التى أوصى بها الشرع عامة ، الى اعمال صالحة مستحقة للمدح .

***

اذا كان الأمر كذلك فكيف نفسر تشدد بعض الحكماء والنساك عندما حرّموا على اتباعهم واحياناً على انفسهم المباح من الاعمال أو استخدام أية رخصة أو تلبية اى ميل ولو كان شرعياً ، إلا للضرورة القصوى للحفاظ على حياتهم؟ لقد كان منهجهم ان يستفتى الفرد هواه ليتخذ الموقف المضاد له ، وان يشغل نفسه " بواجب " اساسى أو بواجب كمال " مندوب " ويبتعد عن " المباحات " تماما " كالمحرمات " . أليس فى هذا الاتجاه خلط بين نمطين حرصت النظرية على التمييز بينهما ؟ وهل يمكن التوفيق بينه وبين القرآن والسنة ؟

لقد اعتمد شيوخهم على هذا الاسلوب لتشكيل تلاميذهم فى مرحلة انتقالية بقصد التغلب على قوة الشهوة الحسية تمهيداً لسيطرة العقل .. ومتى ما تخففوا من اثقال هذه القوى المناهضة للاخلاق ، يسمح لهم بارخاء العنان شيئاً فشيئاً ، بعد ان يكونوا قد زودا قلوبهم بقدر من النور يعصمها من ظلمات الحواس.

هذه الطريقة فى معالجة المبتدئين لاتبدو لنا ابتكارا جديدا اذا وضعناها فى جملة الانظمة الانسانية المناظرة لها . فقد اتبع هذا المنهج فى كل عصر... أما النساك انفسهم فقد اقتصرت هذه القسوة على المرحلة التدريبية وبعد ذلك اتبعوا المسيرة العادية .

واذا ما رأيناهم فى مرحلتهم الاخيرة يمتنعون عن المباح ، فلا ينبغى ان نعتبر ذلك ممالا يجيزه الشرع . لأن لدينا تفسيرين لهذا السلوك : فإما انهم لم يشعروا بحاجتهم الى استعماله . واما انهم لانشغالهم بمراقبة حركة القلب وتوجيهها الى أحسن نية - يسقطون العمل الذى تحركهم اليه نية مبتذلة ، مؤثرين عليه عملاً لا يرتابون فى قيمته الاخلاقية. وكما قال الإمام الغزالى عن العفو - باعتباره عملاً موصى عليه بشدة - وعن الانتقام العادل - باعتباره عملا مباحاً - فإن اختيارهم يتغير من حالة الى اخرى بحسب ما يمليه دافع أنبل . وهو موقف مخلص ومعقول اذا اتيحت فرصة وقت للعمل. اما اذا اقتضت الظروف عملاً سريعاً فهو ليس كذلك . لأنه يجب ان نميز بين اداء واجبين : .. ان نعمل .. وان نكون على نية حسنة . فاذا لم تتحقق الثانية هل يكون هذا سبباً لاهمال كل شئ ؟ اذن لم يذهب حكماؤنا الى حد اللامعقول لا فى انتظارهم ولا فى بحثهم عن القيمة العليا..

والقرآن يدعونا الى الصبر والتحمل والمصابرة حتى فى الأيات التى يمنحنا فيها الرخص ... ومن المفيد ان نرى كيف تتعاقب الافكار الثلاثة فى نفس الآية (١) الاباحة (٢) النصيحة بالصبر والجلد ٣- استبقاء الرفق ﴿ **فعدة من أيام أخر .. وان تصوموا خير لكم .. يريدالله بكم اليسر - البقرة ١٨٤ - ١٨٥** ﴾ ﴿ **ذلك لمن خشى العنت ... وان تصبروا خير لكم ... يريد الله ان يخفف عنكم - النساء ٢٥ - ٢٨** ﴾.

والمسلم الحكيم لا ينكر هذه الدرجات ، لأن الوقوف ضد الفطرة حتى النهاية جريمة كما يقول مسروق : " ومن اضطر الى شئ مما حرم الله عليه ، فلم يأكل ولم يشرب حتى مات دخل النار " ، لأننا لا نملك انفسنا مطلقاً لا فى ان ننفقها ولا فى ان ندخرها ، وحين يفرض علينا الشرع الاخلاقى تضحية معينة يجب علينا قبولها عن رضا .. لأن الامتثال لأمر الفطرة بناء على امر الشرع الاخلاقى يؤدى قطعا الى النية الباسلة،

ولكن لا حرج فى أن نمتثل للامر بمقتضى الرحمة ذاتها حين يبيح الشرع ذلك . وكل ما يؤخذ على السعى لغايات ذاتية مشروعة انه لم يأخذ من الاخلاقية سوى طابعها السلبى .

****

ولكن قد يقال : انك قسمت غايات الارادة الى مجموعتين : موضوعية وذاتية وبعد ان حصرت القيمة الاخلاقية فى الارادة التى تستهدف غاية موضوعية ، قسمت الغايات الذاتية الى مشروعة وغير مشروعة .. وأن أفضل ما ارتضيته للنية الذاتية ان تكون إما بريئة وإما جائزة . افلا توجد غايات تكون ذاتية وذات قيمة وهى ذاتية ؟ وهل كل منفعة شخصية تكون دائماً منتقصة على هذا النحو ؟ وان لم تكن مدانة ادانة يتعذر اصلاحها ، فعلى الاقل هابطة الى ادنى درجات الاخلاقية ، وغير قادرة على انشاء دافع صحيح شرعا؟

فيما يتعلق بالخير الحسى الذى لا يمت للاخلاقية بصلة إلا من بعيد. فاننى اسلم بهوان منزلته .

ولكن هناك ما يخصنى من الخير الاخلاقى بالمعنى الصحيح . فهل تنوى ايضاً ان تحكم عليه بنفس المصير وأن تطرده من مجال الصحة الشرعية للارادة ؟ فإذا كنت أعكف على الفضائل بدافع من رغبتى فى اكتساب الصفات النفسية المتينة : نقاء قلبى ونور عقلى وقوة ارادتى – فهل يقال ان الارادةالتى تبحث عن خيرها الاخلاقى لا تحركها نية اخلاقية حسنة ؟

إجابتنا هى: ينبغى ان نعلم انه فى ظل نظام اخلاقى عقلانى مثل اخلاق قدماء الاغريق ولا سيما الرواقيون – مثل هذه النية لا تعتبر حسنة فحسب بل افضل ما فى الامكان . واذا كان جوهر النفس هو معرفة الحقيقة وملازمة الفضيلة من جهة ، واذا كان أكمل الاعمال فى كل شئ هو العمل الذى يستهدف تحقيق كمال جوهره – من جهة اخرى – نخلص الى ان المبدأ الأخير فى الاخلاقية هو البحث عن هذا الكمال .

غير انه يستحيل من وجهة نظر الاخلاق القرآنية ان نجمع بين هذين النوعين من الخير الشخصى . لأن القرآن حين يتعرض لموضوع البحث عن الرفاهية المادية يعتبرها مباحة الا انه يجعل من نقاء القلب ليس فقط شرطاً للنجاة ولسعادة الآخرة ، وانما ايضاً السند القيمى الذى يحثنا على اكتسابه ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم – الشعراء ٨٩ ﴾ ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب – ق ٣٣ ﴾ ﴿ خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها – التوبة ١٠٣ ﴾ { انما يريد الله ليُذهِب

عنكم الرجس - اهل البيت - ويطهركم تطهيرا - الاحزاب ٣٣ ﴾ ﴿ ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن - الاحزاب ٣ ﴾ .

أليس من الواجب اذن ان نجعل هذا النوع من الخير الشخصى استثناء من القاعدة العامة ؟

على الرغم من كل الاعتبارات التى تؤيد هذه الخاتمة فإننا نعتقد انه يوجد فى مبدأ " الكمال " قدر من الغموض ، وبالتالى " عدم كفاية " لأن يكوّن بمفرده الباعث الاخلاقى الأعظم .

فالذى يحدث عندما ننشد الكمال فى صفاتنا العليا - العقلية منها والاخلاقية - أننا ننشدها لكى نحصل على شئ من المرونة وسرعة العمل .. دون ان نحرص على الخضوع فى ذلك خضوعا دقيقا للواجب . وفى هذه الحالة يكون الكمال وسيلة لبلوغ غايات اخرى ينبغى الحكم على قيمتها بالمقياس الاخلاقى .وحتى عندما يكون الكمال غاية اخيرة يصبح عملنا حينئذ اشباعاً لميل فطرى بان يحقق كل كائن كمال جوهره .

وهكذا برغم التناقض فى هذا الاستنتاج ، فان شتى الغايات الذاتية المشروعة - وان اختلفت فى ذاتها - فانها لا تختلف على صعيد النية حيث تكون قيمتها نسبية ومشروطة، ولهذا ينبغى البحث عن المبدأ الأخير للاخلاقية فى غاية موضوعية ثابتة لا تتغير، وتظل الارادة خاضعة لها ومخلصة لها بصفة دائمة .

لهذا نرى القرآن وهو يصف الذين ينفقون اموالهم تثبيتا لانفسهم ، لا يذكر هذه الغاية الا فى المرتبة الثانية باعتبار ان النية الأساسية هى "ابتغاء وجه الله وكسب رضاه" ﴿ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من انفسكم كمثل جنة..البقرة ٢٦٥﴾ ولذلك قال المكى ان طهارة القلب وسكينة النفس واستقامة السلوك يجب الحرص عليها من منطلق النظام والتأديب ... لا استناداً الى ميل طبيعى أو جريا على عادة .

فلنتناول دراسة المجموعة الثالثة ...

د- النية السيئة .

وكما لا يمكن ان يكون بين نقطتين فى مساحة أقليدية سوى خط مستقيم واحد ، فبين ذات الالتزام وموضوعه -عن طريق النية - لا توجد سوى سبيل واحدة الى الفضيلة ، حيث تكون نية الفاعل كاملة اى موافقة لقصد المشرع . فإذا كانت مماثلة لمقصود امره (اى بدافع الواجب) فهى نية " حسنة " ، أما اذا كانت مماثلة لمقصود رحمته (اى بموجب رخصة) فهى نية " مقبولة " .

واى انحراف إرادى وعن وعى بعيداً عن هذه السبيل يفضى لا محالة الى نية آثمة . وما اكثر الاتجاهات والانحرافات والمنعطفات خارج هذا الصراط المستقيم ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله – الانعام ١٥٣ ﴾

ونظرا لتعذر اجراء احصاء كامل لكل الانحرافات . أو تصنيف عام لأنواعها لأن طبيعتها لا تقبل مثل هذا الاجراء ، فسوف نقتصر على ابرز الحالات التى ركز عليها القرآن والحديث .

(١) نية الاضرار .

سنت الشريعة الاسلامية مجموعة من الاحكام . لو أُحسن تطبيقها لأُقيم مجتمع سعيد وقوى ومتضامن ترفرف عليه العدالة والرحمة . ولما كانت اعدل الشرائع تصبح عاجزة بدون الارادة الطيبة لدى الذين تنطبق عليهم أو المطلوب منهم تطبيقها ، فإن أسوأ المواقف واضرها ان يتظاهر الناس تجاهها بمظهر الورع متمسكين بشكلية احكامها فى حين انهم يتصرفون بما يؤدى الى صرف غاياتها فتصبح ظالمة ومنفرة. وهو ما اطلق عليه القرآن "اتخاذ آيات الله هزوا " بمناسبة بعض المصالحات الزوجية التى تتم بسوء نية بقصد سوء استخدام الحق الممنوح للرجال فيجعلون منه اداة كيد لزوجاتهم ، سواء بتأخير قرار الطلاق خلال المدة المحددة لهم ، أو بالنطق به فى آخر لحظة ، أو أن يعيدوا زوجاتهم بقصد تطليقهن من جديد ثم امساكهن معلقات لمجرد اطالة قيود تسريحهن ومنعهن من عقد زواج جديد .

وتجاه مثل هذه النيات الآثمة يستخدم القرآن فى تحذيره الفاظاً قاسية كقوله ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه – البقرة ٢٣١ ﴾ وكقوله فى انذار الموصين الذين يقصدون حرمان ورثتهم الشرعيين ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار – النساء ١٢ ﴾ ولهذا سن النبى ﷺ القاعدة الشاملة " لا ضرر ولا ضرار".

(٢) نية التهرب من أداء الواجب .

ومن طرق التحايل على الشرع طمس ظروف التطبيق باثارة مفاجأة تغير من المدلول الشرعى للظروف مما يجعلها لا تدخل تحت طائلة القاعدة الشرعية . وهنا لا تكون نية الفاعل عدوانية فى حقيقتها – حتى ولو ترتب على ذلك ضرر للآخرين – لأنه لم يحرص على ضررهم ، وانما استهدف نفعه الشخصى بدافع من انانيته. ويتجلى ذلك فى صورتين إحداهما " ساكنة " أو " محافظة " . والثانية " حركية " أو " محتكرة " . واقل انواع الانانية تلك التى تجعل الانسان ينطوى على نفسه فيصبح قليل الإيثار والاحسان ،

ضنيناً بما يملك . اما الانانية الجشعة فتجعله يبالغ فى جمع المكاسب والمنافع بكل الطرق الممكنة .

وحيل الشكل الأول معروفة فى الشريعة الاسلامية والحلول الموضوعة محددة فى باب فريضة الزكاة .

ومن أبسط وسائل التهرب من الزكاة ، انه عند اقتراب موعد جبايتها يقوم المالك بتحميل راسماله بالمصروفات والقروض والمبادلات حتى يجعله اقل من النصاب الذى تجب فيه الزكاة. فما موقف الشرع تجاه ذلك ؟

يتوقف على نية المالك . فإذا كانت تصرفاته مطابقة للواقع ، أو كانت تحت ضغط ظروف حقيقية ، فلا لوم عليه من الناحية الاخلاقية ولا من الناحية الشرعية ، أما اذا كانت بقصد التهرب من دفع الزكاة ، فموقفه عكس ذلك اخلاقيا لمخالفته روح الشريعة .. كما ان جميع الفقهاء متفقون على اعادة الاوضاع الطبيعية بمجرد فوات الأجل. اما اذا كانت الاموال المبعدة لا تعود الى ملكيته فهل يجب ادانته ام ابراء ذمته ؟ المسألة محل خلاف حيث يعفيه اللخميّ وابو حنيفة بتفسير الشك لصالحه وترجيح براءته .. بينما يرى آخرون ان توافق هذا التصرف مع تاريخ استحقاق الزكاة دليل كاف على غشه .

وعلى نفس المنوال هناك حيلة اخرى بتجميع رؤوس اموال كثيرة ، او قطعان ماشية لمختلف الاشخاص (او حسب الطريقة الانفع لهم بتقسيم رأس مال يشتركون فى امتلاكه) بقصد تخفيف العبء الضريبى على كل منهم. ولقد حرم الحديث هذه الحيل " لا يُجمع بين مفترق. ولا يُفرّق بين مُجتمع خشية الصدقة " .

واذا تمكن بعض الاغنياء قساة القلوب من التهرب من العدالة الانسانية ، فهل بوسعهم بهذه الوسائل الهروب من العدالة الإلهية ؟ لا .. ولقد ساق القرآن قصة اصحاب الجنة (بسورة ن ١٧ - ٣٣) الذين قصدوا التحايل لإسقاط حق المساكين فعاقبهم الله على هذا القصد بتدمير جنتهم وهم نائمون .

(٣) نية تحقيق كسب غير مشروع .

تكثر الوسائل الملتوية بصورتها الثانية فى الحياة اليومية لبعض رجال الاعمال المهتمين بالتمسك بمظهر الشرعية .

ولا نتعرض هنا لما يستخدمه بعض الصناع والتجار لإخفاء عيوب سلعهم .. فتلك مفاسد ذكرها الحديث والقرآن واشترط توافر رضا الطرفين الكامل ﴿ .. **لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل . إلا ان تكون تجارة عن تراض منكم - النساء ٢٩** ﴾ " الدين النصيحة

... لله ولرسوله ولخاصة المسلمين وعامتهم" . وهذا التراضى يفترض ان يكون كل شئ متفقاً مع الشرع صراحة .

واكثر الطرق تحايلاً تلك التى يلجأ اليها الدارسون للشريعة ويحاولون ان يجدوا فيها ثغرة تشبع انانيتهم دون ان يصطدموا بحرفية الشريعة . وقد اشار الحكيم الترمذى فى كتاب " الأكياس والمغترين " الى عدد منها : مثل القاضى الذى يأخذ شيئاً من اطراف النزاع على أنه " هدية " بينما هو رشوة . والمدين الذى يحصل على مخالصة عامة وغامضة لاتغنيه من الله شيئا. والزوج الذى تتنازل له زوجته عن جزء من مالها لتفادى سوء معاملته (هذا التنازل لا يعتبر بكامل اختيارها وهو ادنى من العطية ، لأنه يأخذه منها عن كره ووعيد وإلحاح . وقد قال الله : ﴿ **فإن طبن لكم عن شئ منه نفسا** ﴾ (ولم يقل : قلبا) .

وفى التاريخ اليهودى اشار القرآن الى حيلهم باستباحة الصيد يوم السبت دون الوقوع فى الاثم ﴿ **.. اذ يعدون فى السبت ، اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرّعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم – الاعراف ١٦٣** ﴾ . وقصة الشحم الذى كان محرماً عليهم فامتنعوا عن أكله حسب القاعدة وباعوه تجارة . بينما تحريم الشئ يحرم امتلاك ثمنه . ولذلك حرم الاسلام كسب السحرة والكهنة والعاهرات.

وهناك حالات أخرى كثيرة مدروسة فى كتب الشريعة فى المذاهب المختلفة استخدمها الناس برغم مخالفتها للشرع . وان كان الفقهاء لم يتفقوا على عدم شرعيتها غير ان الملاحظ ان الذين اقروها لم يقصدوا ان يثبتوا لها الطابع الاخلاقى وينفوا الشك عن فاعليها .

فمثلاً عقد " المخاطرة " أو " بيع العينة " . وهو حيلة لاخفاء وجه الربا ، والذى نعاه باسكال Pascal على اليسوعيين الذين استباحوه " حتى لو كانت النية الاساسية تحقيق الربح " .

وفى هذه العملية يقدم المقرض للمقترض سلعة يبيعها له بيعاً آجلاً بثمن اعلى ، ثم يشتريها منه نقداً بثمن اقل . فالمقترض يقبض نقداً الأن ، ويتعهد برد اكثر مما قبض فيما بعد . وقد استخدم دخول وخروج السلعة فى العمليتين لتغطية الكسب غير المشروع.

نعلم كيف ان القرآن يحرم الربا تحريماً قاطعاً مطلقاً لا بالمعنى العصرى المقيد (الفائدة التى تزيد عن سعر معين) وانما بالمعنى الاقدم والاوسع للكلمة : كل منفعة مادية أو غير مادية تؤخذ من المقترض . باعتبار ان الاقراض ليس متاجرة وانما معاونة نزيهة ﴿ **فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون – البقرة ٢٧٩** ﴾.

فما قيمة هذه الصفقة فى الفقه الاسلامى ؟

اذا كان الطرفان قد اتفقا مسبقا على اعادة بيع ما سبق شراؤه لنفس الشخص فقد اجمع الفقهاء على بطلان هذا العقد باعتباره ربوياً .

أما إذا كانت العمليتان متتابعتين دون اتفاق مسبق. فهل نعتبرهما وحدة واحدة ؟ أم صفقتين منفصلتين تقررت الصفقة الثانية على اثر ندم على الصفقة الأولى ؟ هنا تظهر صعوبة الحكم اليقينى على نية الناس ، مما أحدث خلافا بين الفقهاء. فالمالكية يرون ان الكسب غير مشروع وهو ربا. بينما الشافعية يقرون شرعيته ، ويرون عدم حمل الناس على التهم لأن البراءة هى الاصل. ويرى المالكية ان الأمر ليس أمر اتهام وانما أمر ملاحظة الواقع فى مدلوله العقلى. وهو شديد الوضوح فى هذه الصفقة. وهكذا نرى أن الحالة ملتبسة يتعين تفسيرها لنعرف إن كانت تخفى أو لاتخفى النية السيئة. والخلاف فى النهاية يدور حول حكم وجود لاحكم قيمة. إذ أن حكم القيمة لاخلاف عليه.

مثال آخر: وهو كيفية تفسير اليمين التى تحتمل معان متعددة. وهى التى تقع فى نذر ، او فى قرار شخصى بعمل شئ أو بالامتناع عنه. فكيف يمكن ان نحكم على صدق الحالف أو كذبه.

ينظر المالكية أولا إلى نية الحالف ، فإذا لم تتضح ، فإلى المعنى الذى صاغ فيه الحالف يمينه ثم إلى المعنى الذى يعطيه العرف لهذه الصيغة فى بيئة الحالف. أى يحاولون معرفة نية الحالف بكل الوسائل المحتملة مع عدم الانتقال إلى مرحلة أبعد إلا إذا تعذر الوقوف على أخرى أقرب.

ويأتى الأحناف والشافعية على النقيض فيدخلون مباشرة إلى الكلمات المنطوقة ويتمسكون بمعناها الحرفى. والعجيب فى موقف الاحناف أنه لايتفق مع نظريتهم العامة الكثيرة الاعتماد على العقل. وانهم فى مواجهة النصوص يتميزون بثاقب الفكر مستخدمين القياس وربما بافراط. أما حين يفسرون عقداً أو نذراً او مايقتضى كفارة او جزاء فإنهم يمتنعون عن التفسير ويسلّمون بالوسائل الملتوية طالما أنها لاتتعارض مع الحرفية الجافة للقاعدة.

ولقد هاجمهم ابن حزم – احد علماء المدرسة الظاهرية – إلا أنه لم يصل إلى حد اتهام الحنفية بالرغبة فى تبرير تحايل متعمد على الشرع ، وكل مأأخذه عليهم انهم يفوتون بعض الوقائع الإجرامية دون عقاب بحجة عدم توفر بعض شروط العقوبة. وسواء الذى حدث كان بطريقة طبيعية أم مصطنعة فلادليل عليه. لأنهم لايريدون أن يفتشوا عن الدليل وربما كانت هذه نقطة ضعفهم.

وهذا الرفق فى تطبيق العقوبات فى الحالات المشتبهة مقرر فى الشريعة الإسلامية ذاتها "فإن دماءكم واموالكم واعراضكم بينكم حرام ..". كل مايؤخذ على موقفهم أنهم يمنحون مزيداً من الحرية لأولئك الذين لايحسنون استعمالها.

(٤) نية إرضاء الناس (الرياء) .

هو نموذج آخر من الأنانية الجشعة إلا أنها ليست أنانية معتدية أو ضالة أو مادية ، وإنما هى أكثر نعومة وألفة. ان حب الذات إحساس طبيعى يكون مشروعا فى بعض الظروف على تفاوت فى درجة المشروعية - ولكن عيبه هنا أنه يتحكم فى واجب ولذلك فهو فى غير محله.

والمرائى ليس هو الذى يتخذ مظهراً متكلفاً وتكون حركته الظاهرة مختلفة عما فى قلبه وفكره أى يظهر خلاف مايبطن الذى هو النفاق (وهو أشد إجراماً والنية السيئة التى تحركه أكثر عمقا) وإنما المرائى هو الذى يبسط للناس مفاخره دون تلبيس لفكره أو اخفاء لمشاعره ، وذلك حتى ينظر الناس إليه باعجاب ويصبح فى نظرهم شخصاً بارزاً، فهو يشعر بالحاجة إلى تشجيع خارجى يحرك جهوده ، وليس لديه قوة تحفزه على اداء واجباته إلا حيث يوجد الاستحسان والمدح والاعجاب والتصفيق. وهى انانية منكرة وان ارتدت ثوباً مفرطاً فى الرقة.

ولقد حكم القرآن على الذين ينشدون ثمن الفضيلة فى تقدير الناس حكما غاية فى القسوة ، واعلن بطلان اعمالهم ﴿ .. لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس - البقرة ٢٦٤ ﴾ فهم ﴿ لايقدرون على شئ مما كسبوا ﴾ ﴿ فويل للمصلين ... الذين هم يراءون - الماعون ٤-٦ ﴾ وهلاك اشخاصهم.

أما الحديث فقد قرر أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة: أولهم شهيد قاتل حتى قُتل ليقال انه جرئ. وثانيهم : رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ليقال انه عالم. وثالثهم رجل اعطاه الله من اصناف المال فانفق منه ليقال انه جواد.

ومن الواضح ان الناس بهذه النية المخربة قد اشركوا فى العبادة مع الله وشبه النبى ﷺ هذه الرذيلة بعبادة الأوثان وسماها "الشرك الأصغر " .

وقد خصص الاخلاقيون المسلمون وبخاصة المحاسبى والغزالى فصولاً ممتازة فى بحث منشأ هذا الفساد القلبى واشكاله وعلاجه. فنحيل القارئ اليهما لمزيد من التفاصيل.

هـ - اخلاص النية واختلاط البواعث .

هكذا - بحسب ماذا كنا نطيع الله لذاته أو كان لنا غاية نفعية شرعية أو غير شرعية ، يكون وصف النية بأنها حسنة أو عادية أو سيئة.

ويفترض هذا التشريع أن يحكم الارادة مبدأ واحد سواء كان صحيحاً أم غير صحيح. ولكن الإمكانية النظرية لهذا الانفراد - وان كنا لاننكرها - نادرة الوجود إلى اقصى حد. أما الحالة الأكثر حدوثافهى التى يتضافر فيها عديد من الاسباب لصنع القرار. فما هى - طبقا لمبادئ القرآن - القيمة الأخلاقية لقرار تشترك فيه جملة من البواعث؟

نذكّر بالنصوص التى اوردناها آنفا والتى يمجد القرآن فيها ويطالبنا بقوة بأن يكون لنا قلب بعيد عن مؤثرات الدنيا وعن ميوله الخاصة ، ويكون الله الغاية الوحيدة فى كل أعماله. وهى جملة الشروط التى يتحدد بها " الخضوع الخالص" الذى ماخلق الانسان إلا من أجله .

والنبى ﷺ بصفته المفسر الأول للقرآن قد فهم مدلول النصوص بمعناها الشامل. وتدل الظروف التى نزلت فيها بعض الآيات القرآنية على ان اهتمام الناس بالخلط بين الدوافع كان فى المقام الأول. ومنها ظروف نزول آخر آية فى سورة الكهف حيث قال رجل " يارسول الله إنى أقف أريد وجه الله واحب ان يرى موطنى" فلم يرد عليه بشئ حتى نزلت الآية ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه احدا - الكهف آخر آية**﴾.

أما أقوال النبى ﷺ . فقد قال اعرابى " يا رسول اله: الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليُذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه. فمن فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ " من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله". ويقول المحاسبى أن الاخلاقيين يرون أن هذا الحديث أشد حديث فى شأن نقاء النية إذ لم يجعل للفطرة شيئا سواء كباعث منفرد أم إضافى. وسأله رجل فقال: ارأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر .. ماله؟ فقال ﷺ " لاشئ له . ثم قال: إن الله لايقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه" . وفى الحديث القدسى " قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه" .

وهكذا نرى من هذه النصوص أن كل البواعث التى تضاف إلى " إرادة الطاعة" تفسد قيمة العمل وتحرمه من رضا الله تعالى.

وهنا يثور سؤال: إذا كانت النفس حين تواجهها جوانب مختلفة للواجب ، فتنقاد لسلطان الأمر ولملاءمته فى نفس الوقت. أتكون مستحقة للّوم بنفس الدرجة كالنفس التى تتبع هواها بلا قيد أو شرط.؟

هناك حالة متفق عليها أنه لايقلل من قيمة النية فى شئ تدخل الشعور الحسي فيها ، عندما يكون القرار قد اتخذ موافقا للشرع ثم يزيد به السرور بعد ذلك على إثر استحسان الناس له. فإن السرور هنا ليس السبب فى عملنا وإنما هو نتيجة له بصورة ما. وفى الحديث أن رجلا قال " يارسول الله ، أسرُّ العمل ، لاأحب أن يُطّلع عليه ، فيُطّلع عليه فيسرنى ذلك " فقال النبى ﷺ عنه " له أجران أجر السر وأجر العلانية" فلم يحدث هنا انكشاف السر إلا بعد أن تم العمل ، فهل يصدق ذلك على الحالة التى يفاجأ فيها الإنسان أثناء أدائه العمل ؟

أراد المحاسبى حسم النقاش فأجرى تمييزاً نوافقه عليه. فقد أوضح أن السرور الذى يحس به المرء حين يُرى وهو فى طريق الخير قد تكون له عدة اسباب تتفاوت فى القيمة. كأن يعطى القدوة الصالحة من نفسه للآخرين ، لالنيل الحظوة عندهم . وانما ليكون للفضيلة عاملين بها. وليس محظورا ان يرضى المرء بهذا الانكشاف غير المتوقع والذى لم يحرص عليه ، فيرى فيه نوعا من الأجر الإلهى ، ودليلا على ان اعماله الصالحة قد تستحق رضا الله تعالى.

اما سرور الانسان الفطرى بان يكون مقدّرا من الناس – والذى يُعد نقصاً فى نظرنا – فانه لايعتبر اثما إلا إذا توقفنا عنده ورضينا به. فإذا ماانخفض حتى صار شعوراً لاإرادياً وعابراً ، فلا ينبغى المبالغة فى خطورته. ولم يمنع هذا الشعور النفوس الكبيرة من التألم. وكم تمنت لو تخلصت منه تماماً.[1]

تبقى المشكلة الحقيقية حين تسبق الرؤية النفعية العمل وتصبح جزءاً من الأسباب التى تحدده. وهو مايسمى " باختلاط البواعث" .

قلنا أن النية المسبقة يجب أن تكون خالصة حتى يمكن أن يقال أنها حسنة ، ولكن هذا النقاء المطلق هل هو واجب صارم لايشتمل على درجات ، وان اهمال هذا الواجب إثم تبلغ خطورته استهداف المنفعة بلا قيد ولاشرط ؟ وقبل ذلك هل الفطرة

---

[1] نقرأ ضمن الأدعية النبوية " واستغفرك لكل خير اردت به وجهك فخالطنى فيه ماليس لك". (المؤلف).

الانسانية قادرة دائما على تحقيق هذا النوع من التجرد؟ وأن تكرس نفسها كلية لمثلها الأعلى دون أن تجد فيه فى نفس الوقت أية جاذبية؟

وأياً كانت الاجابة ، نعتقد أن مبادئ القرآن تستميلنا لتكون أقل تشددا فى النقاط الوسط عن النقاط التى فى أقصى النقيض.

فاذا لم يكن الشئ فى حدود استطاعة نفوسنا ، وطالما انه لاتُكلُف نفس إلا وسعها ، فيجب أن نفسر جميع النصوص التى تطالب بهذا النقاء المطلق على أنها تحدد نقطة الذروة للقيمة الاخلاقية كى تتجه جهودنا نحوها دون أن تبلغها. وبذلك يكون الابتعاد عنها " عيبا" وليس "ذنبا" و "عدم كمال" وليس "فجورا".

ويكفى ان نلاحظ اختلاف اللهجة فى صيغة الحكم عن النية السيئة والحكم عن النية المختلطة حيث يختفى التهديد بالعقاب ويقتصر الحكم على القول بان ذلك لايستحق ان يوصف بانه " فى سبيل الله" أو أنه " لايرضى الله" أو أن الله غنى عنه" وهى بعيدة عن صيغة التاثيم. وكأن الأحكام تجردها من القيمة الإيجابية فقط.

أما إذا ثبت أن الفكرة الخالصة للواجب تستطيع أن تسيطر على القرار - سواء كان ذلك بنوع من الاستعداد الفطرى أم بتكرار الجهد - وأن أى تغيير يعكر نقاءها راجع إلى اهمال ناشئ عن خطأ . فتلك نقطة تؤخذ فى الاعتبار وهى درجة الذنب.

إذ كيف لانفرق فى حكمنا على نفس حالكة السواد شديدة الفساد ، ونفس أخرى تحاول وهى فى صراعها مع الإغراءات أن تخفف أو توازن أو تمحو الشر بالخير؟ وقد حدثنا القرآن عن الذين ﴿ **خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم** - التوبة ١٠٢ ﴾ وان كانت الآية تتحدث عن عملين منفصلين ، بينما الحالة التى نحن بصددها عن عمل واحد هو نفس العمل مدفوعا بنية مختلطة تأخذ من كل من الحسن والقبح معا. لكننا نعتقد ان الاختلاف فى الحالتين هو فى التفصيل بينما التماثل بينهما جوهرى. وسواء ظهر الخلط فى جزء أو فى اجزاء فهذا لايهم ولن يغيب عن الحَكَم العدل حيث توزن الاعمال بمثقال الذرة.

ولقد تمكن الامام الغزالى - انطلاقاً من القرآن - من وضع نظرية فى هذا الموضوع راعت إلى حد كبير تنوع المواقف. حيث رأى أن ندرس تأثير كل عنصر من هذا الخليط كل على حدة كما لو كان بمفرده فى مجال الضمير ، ثم ندرسه فى علاقته بالعنصر الآخر . وبعد الدراسة والمقارنة تتضح ثلاث حالات ممكنة : فإما ان الباعثين قوّيان لدرجة ان كل واحد منهما كان يستطيع بمفرده دفعنا إلى العمل. واما انهما يكسبان قوتهما باجتماعهما معاً ، واما ان احدهما يملك القوة والآخر مكمل له. وتسمى الحالة

الأولى: مرافقة ، والثانية: مشاركة ، والثالثة: معاونة. ومع ذلك نرى أن الحالتين الأولى والثانية تندرجان فى مجموعة واحدة هى حالة المساواة (فى الفعل أو فى الترك) . اما الحالة الثالثة فتنقسم إلى نوعين مختلفين بحسب ماإذا كانت السيطرة للقوة الأخلاقية أم للهوى. ولايبقى للحكم على المجموعات الثلاثة سوى نصب الميزان.

ومن الواضح أنه إذا تساوى تأثير الواجب والمنفعة ينبغى اعتبار العمل باطلاً لأن الخير والشر فيه يلغى احدهما الآخر ، فإذا رجح الباعث الأخلاقى كان له أجر . وبالعكس لو ان باعث الهوى كان أقوى من باعث الواجب ، استحقت العقوبة ولكن اقل مما لو كان العمل قد تم لسبب خبيث.

وكما ان اصغر كمية من الغذاء أو الدواء تحدث تأثيرها الطيب أو السئ على ابداننا ، فإن أقل ميل للارادة واخف اتصال لها بالخير أو الشر ، يضفى على نفوسنا قدرا مساويا من النور أو الظلام . ومن القرب أو البعد عن الله.

ويحتمل ان كثرة الشر تسحق قلة الخير سحقاً ، أوان قلة الشر تمحو كثرة الخير محواً كاملاً . فلو حدث هذا لأدى بنا القانون الى طريق مسدود والى حرماننا من كل امل اذ لن تستطيع النفس الانسانية الافلات من هذا المزيج إلا فى ظروف نادرة جداً.

ويدعم هذه النظرية إباحة القرآن للحجيج الاشتغال بالتجارة الى جانب واجباتهم الروحية بشرط ان تكون الواجبات الروحية هى المحرك الاول ﴿ **ليس عليكم جناح تبتغوا فضلاً من ربكم – البقرة ١٩٨** ﴾ .

والامام الغزالى لا يدّعى أنه وجد الحل العملى النهائى للمشكلة والمقياس الصحيح للحكم على انفسنا بانفسنا عن طمأنينة بل إنه يحذرنا من " الخطر العظيم" فى ان نركن الى احكامنا التى قد ترجح عنصراً على غيره من مجموعة البواعث . ويقول انه قد يحدث ان نعتقد اننا نتصرف اساسا عن اخلاص بينما الباعث الاقوى يكون الهوى الخفى ..وانه لا امل إلا فى الاخلاص دون الاختلاط.. وهذا الاخلاص قلما يستيقنه المرء من نفسه وان بالغ فى الاحتياط .

وهذا الشك نجده عند المحاسبى ويذكّرنا بنظرية ديكارت عن الدليل النظرى ، مع بعض الاختلاف . فهو مع تسليمه بامكانية بل بالضرورة الاخلاقية ان لا نبدأ عملاً إلا بيقين اننا نقصد به وجه الله وحده، فإنه يرى بمجرد ان تنقضى لحظات إلا وتتاح الفرصة للنسيان والغفلة . مما يثير المخاوف من تسرب اشياء أخرى الى نفوسنا لا

نكون منتبهين لها[1] . وهذا الخوف لا يؤدى بطبيعته الى تبديد الأمل بل بالعكس طالما اننا بدأنا بيقين النقاء وانتهينا بوسوسة سوف يكون لنا مع زيادة الوسوسة - الامل المشروع فى ان نزيد فى النقاء ، ونزيد فى الشعور بالسرور من جراء العمل .

خاتمة الفصل .

لقد وجدنا هنا إجابة مفصلة ومحددة عن السؤال الذى طرحناه فى نهاية الفصل السابق .

فلا يكفى القول بان الاخلاق الاسلامية لا تهتم بعمل يقتصر على تعبيره المادى البحث حيث ينعدم وعى الضمير به . ولا يكفى ايضا ان يكون للعمل حقيقة نفسية مزدوجة - اى عن وعى وعن ارادة معاً - لكى يكون موجودا اخلاقيا . لأن هذا الوجود يفترض ان يدخل فى الضمير عامل جديد تماما.

فمتى ما كان المرء امام واجب عمل ، فان العمل المطلوب ينبغى مواجهته من خلال "علاقته بقانون " باعتباره مطابقا لقاعدة ما . اذ يجب ان تدخل فكرة الواجب فى فلك الضمير وان تكون جزءا من هدفه . اما اذا تمت مواجهة العمل على غير هذا النحو اى فقط من خلال جانبه العادى ، وفى تعريفه المادى . فانه يظل خارج مجال الاخلاقية ويكون مجرد حدث " غير دينى" .

وهذه النظرة العقلية الى الطابع الاخلاقى للعمل ليست فقط ضرورية لكى يتصف العمل بالصفة الأخلاقية بوجه العام ، وانما فى الغالب استناداً الى الطريقة الدقيقة التى نعتمد عليها فى تقدير مشروعات اعمالنا والحكم عليها فى واقع الأمر . ولا ريب ان الاخلاق الاسلامية لا تذهب الى حد ان تعتبر مفاهيمنا الاخلاقية المعيار الوحيد الذى يعفينا من مطابقتها للشريعة الموضوعية فى ذاتها . وانما فى حالة الجهل المطبق يمكن ان تعذرنا نيتنا الحسنة ، أما اذا تعارضت فكرتنا الذاتية مع الشريعة ، اى عندما نقوم بعمل نظن خطأ انه غير مشروع فإن هذه النية السيئة وحدها تكفى لإدانة سلوكنا برغم

---

[1] فى مسألة ماإذا كان يجب عقد نية جديدة لكل عمل والتأكد من اخلاصها ، لايبدو المحاسبى متشددا . ومع تفضيله التصرف على هذا النحو ، يكفى - كما يقول - ان يكون المرء قد عقد نية عامة بالا يطيع الا الله لذات الله. ولكن بمجرد ان يشعر المرء بهجوم فكرة أخرى عليه ، وجب عليه طردها بازدراء ، مجددا نيته بألا يعمل إلا لله (المحاسبى - الرعاية - ص ٢٠٠) (المؤلف).

مشروعية العمل فى حقيقته . وعلى هذه النقطة انعقد اجماع العلماء . ولا حاجة بنا إلى أية زيادة لاثبات تفوق النية على العمل .

وهكذا نجد ان الشرط الأول للفعل الاخلاقى هو وجود ارادة حاضرة تندفع الى العمل من خلال علاقتها مع القاعدة ، وبهذه الصفة على وجه التحديد .

ولكن اذا كان وعى الضمير هذا شرطا لا غنى عنه . فإنه ليس الشرط الكافى للنية الحسنة اخلاقياً . لأن هناك فوق الاختيار الاخلاقى للموضوع المباشر (اى العمل) اختياراً للهدف البعيد (الغاية) ، وانه فى هذا الاختيار تتمثل النية الاخلاقية بأخص معانيها .

فما هى القاعدة التى تحكم هذا الاختيار .؟

لقد رأينا كيف استخدم القرآن فى تلقينه للاخلاق جميع وسائل الاقناع الكفيلة باكتساب جميع العقول إذ قلنا " ان جلال الأمر الإلهى ومطابقته للحكمة ، وتوافق موضوعه مع الخير فى ذاته ، والرضا الذى يمنحه لأنبل المشاعر وأرقها ، والقيم الاخلاقية التى يؤدى تطبيقه الى تحقيقها للنفس ، والنتائج العظيمة فى هذه الدنيا وفى الأخرة ..كل ذلك يسهم فى دعم سلطان الواجب القرآنى ".

هذه الطريقة فى عرض الشريعة لم تحسم قضية ما اذا كانت البواعث التى استخدمها المشرع لتبرير اوامره وتحديد جزائها يمكن حقا ان تكون للانسان بمثابة المبادئ التى تحكم ارادته للطاعة. وهل من حقه عند مواجهة اتخاذ قرار أخلاقى ان يستمد بلا تمييز بواعثه من اى مصدر من هذه المصادر او من غيرها ؟ هذا هو السؤال الذى طرح من قبل والذى خصصنا هذا الفصل للإجابة عليه .

بوسعنا الآن ان نقول ما الأمر والنصوص تحت ايدينا. فإن القرآن لم يحتفظ من كل الحجج المطروحة امام العقل إلا بنقطة واحدة فرضها على الارادة المطيعة كهدف وحيد وصحيح وكمبدأ وحيد يجب ان تستلهمه فى تصرفها : " اعمل وغايتك الله وحده " هذا هو الموضوع الرئيسى الذى يكرره القرآن فى مواضع مختلفة وبنفس الالفاظ تقريبا . ولا نجد فى القرآن مطلقا التعبير الغائى " افعل هذا من اجل ذاك " ويكون موضوعه المباشر منفعة شخصية أو عامة ، حسية أم معنوية .

اما الخير الحسى فليس هناك نص عنه لا كهدف رئيسى ولا تكميلى . ولكن مما يثير الاعجاب ان الخير الاخلاقى الذى ينشده الحكماء (بوصفه اعلى الدرجات)، الكمال الذاتى والتفانى من أجل الغير – هذا الخير الاخلاقى لايظهر فى القرآن فى مجال

النية إلا كقيمة من الدرجة الثانية وكإضافة تابعة للمبدأ الاسمى ألا وهو رضوان الله تعالى .

ما الذى يتبقى لنمنحه للفطرة على صعيد القيم الاخلاقية ؟ – لا شئ .

ألا يوجد استثناء فى البحث عن الخلاص وعن السعادة الموعودة فى الآخرة؟–لا

وفيم اذن الخلاف بين المشتددين والمعتدلين ؟ هذا الخلاف لا يدور الا على هامش القضية ولا يقلل من صحة الخاتمة التى استخلصناها . فالبعض يرى أن ما سوى المبدا الاسمى " دناءة وضياع للقيمة " ، بينما يرى البعض الأخر انه " سطحية وعدم قيمة". والذين يبحثون عن القيم العليا الدائمة ويفضلونها على المتع الزائلة يعرفون الشروط الواجب توافرها لهذا الترشيح . والمقاعد محجوزة للقلوب المخلصة المتجهة الى الله .

ولا يكفى نشاط مستنير عن وعي بذاته وبعلاقته بالشرع ، متيقظ للامر الإلهى كنموذج يتبع ، ثم ينقاد لمبدأ آخر غريب عنه ، انما يجب ان يكون هذا النشاط حيّا وموجها ومتحركا بقيادة نفس الأمر الجليل .. يجب ان يصبح محركاً للنظر المتأمل.. يجب ان يتحول هذا النور الى قوة .. يجب ان يكون الموضوع المباشر هو فى نفس الوقت الغاية الأخيرة .

لقد بدأنا الحياة الاخلاقية فى " مرحلة الصحة " بفكرة الواجب " كموضوع مباشر " ونصل بها كغاية اخيرة الى ذروة " القيمة " .

لقد كان " كانت "على صواب فى هذه النقطة ، غير أنه لم يفعل سوى ان قلد وجهة نظر الاخلاق الدينية بعد ان جردها من مادتها الحيوية .

***

الفصل الخامس

الجهد

بعد أن ميزنا بين عنصرين لا ينفصلان فى البناء الاخلاقى ، هما " النية و " العمل " . وبعد ان عرفنا الدور المزدوج للنية (كشرط صحة وقيمة للسلوك) ، يبقى علينا الآن ان نبين الاهمية الخاصة للعنصر الثانى الا وهو " العمل " . باعتباره السلاح الوحيد فى معركة الفضيلة هجومياً كان ام دفاعياً . فسواء كان الموقف يتطلب قراراً اخلاقياً يتخذ او ينفذ ، او كانت سجية اخلاقية يراد تحسينها ، أو نية يقصد تطهيرها ، فان العون الوحيد للمرء – كما انه واجبه الأوحد – هو ان يستخدم قواه المعنوية والبدنية لكى توصله الى غاياته .

وربما كان من غير المفيد ولا المعقول ان يمارس المرء نشاطا لاكتساب الفضيلة ، بينما النفس الانسانية بطبيعتها هى فى قمة الكمال ، أو انها قد بلغت من النقص درجة يتعذر معها ان تتحسن. ان ضرورة تدخلنا المؤثر تنطوى على مسلّمة مزدوجة هى ان الكائن الاخلاقى كما انه ناقص فهو فى نفس الوقت قابل لاكتساب الكمال .

وهذا هو حال الكائن الاخلاقى كما يرشدنا اليه القرآن الكريم .

فالانسان مزود بملكات تحقق له كل ما يتمناه من المعارف العقلية والحسية برغم عدم وجودها وقت ميلاده ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة – النحل ٧٨** ﴾ . وما ان يتم اكتمال نمو روحه حتى يلهمه الله الخير والشر ﴿ **ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها – الشمس ٧-٨** ﴾. وتلك المجموعة من الوسائل صارت بها النفس الانسانية قادرة على ان تتصور المثل الاعلى ، وان تشعر بالرغبة فى بلوغه ، وان تقرر بنفسها القيام بتحقيقه . ومع ذلك فانها دائما قابلة للصعود والازدهار ، وللهبوط والذبول بفعل ذات ارادتها . ومن هنا كانت الضرورة الاخلاقية ان على الانسان ان "يعمل " وان يتحمل مسئوليته " ﴿ **و قل اعملوا فسيرى الله عملكم – التوبة ١٠٥** ﴾ .

غير ان مفهوم " الجهد لا يُعَرف بانه " العمل بصفة عامة " وانما " العمل بعزم" .. ويكون موضوعه اما "مقاومة قوة " أو قهر مقاومة " . وهذا تعريف يتفق مع المعنى المادى الا انه ينبغى ان يشمل المعنى الاخلاقى. نظرا للتماثل بين المجالين . والنفس فى طريقها فى الابداع الخيرى كثيراً ما تقابل – فى الموضوع وفى ذاتها – عقبة مزدوجة : خمولا فى المادة التى ينبغى تعديلها ، وقصوراً فى حيوية الارادة الخلاّقة . وهو ذات

الموقف عند الرغبة فى الامتناع عن الشر إزاء القوى التى تحثنا عليه . ففى جميع الاحوال لا يكفى ان " نعمل " وانما علينا ان " نجاهد " بقوة واصرار " .

فوجودنا العضوى والمادى صراع دائم مع جميع الشرور التى نقابلها فى رحلة الحياة حتى الموت . وقد اشار القرآن الى هذا الوضع الملازم لطبيعة الانسان طوال حياته ﴿ يا أيها الانسان انك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه - الانشقاق ٦) . إلا انه فوق هذا الجهد "الطبيعى" الذى تفرضه الغريزة، هناك جهد آخر يقتضيه " العقل " وينبغى ان يوضع فى خدمة "مثل أعلى " . هذا النوع من الجهد هو الذى ننوى دراسته فى الاخلاق الاسلامية .

وأول ما يقال إن مطالبة القرآن باستخدام طاقتنا الاخلاقية قد ترددت بكثرة .. فنسمع فى كل موضع النداء الى الصراع المتصل والمستمر ، سواء لعمل الخير ولمقاومة الهوى او لتحمل الآلام والسيطرة على الغضب ، أو للاضطلاع بواجباتنا الدينية. وان كان حقاً ان الله لا يكلفنا بما لا نطيق ، فانه مع ذلك يدعونا الى طاعته بما نملك من "كل قوانا " ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم - التغابن ١٦ ﴾.

فبذل هذا النشاط فى الطريق الصاعد للرقى الاخلاقى ، هو ما يسميه القرآن فى تشبيه مجازى رائع " اقتحام العقبة" . ولا يكتفى القرآن بحث الناس على هذا الصعود وانما بلغ به حدا أن أدخل فكرة الجهد هذه فى تعريف الايمان ذاته ﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا ... وجاهدوا .. أولئك هم الصادقون - الحجرات ١٥ ﴾.

فهل بوسع أحد ان يرفع قيمة الجهد الاخلاقى اعلى من هذا المقام ؟.

وبما أننا لا يمكننا الاكتفاء بهذه العموميات فسوف نتناول الموضوع من خلال النقاط التالية :

١- هل قيمة الجهد تستبعد قيمة الانبعاث التلقائى ؟ وبأى شرط ؟
٢- ما نصيب الجهد العضوى فى هذه القيمة؟
٣- والجهد حين يكون واجبا هل له حدود معلومة ؟

١- جهد وتلقائية :

كان "سيجور " يقول " ان الانسان يتباهى بكل ما هو جهد " .

هذا الاتجاه الغريزى الذى يمجد روح الكفاح والتضحية . وهو اتجاه قد يكون مشروعاً فى بعض الظروف وفى حدود معينة - يمكن ان يصل بنا الى جعل هذه الروح غاية اخيرة وقيمة فى ذاتها ، فهل تستحق هذه الرؤية مجرد التأكيد على رفضنا لها .

ان النشاط الذى "يبذل من اجل ان يبذل " هو اللعب بكل معنى الكلمة . فالشعار الذى يمجد الجهد مجرداً سواء للضرر أو للنفع بمعنى " اذا انت لم تنفع فضر" .. هو شعار تمليه الغريزة العمياء لا الضمير المستنير .. وهل يمكن فى يوم من الايام ان نقدر جهد المجرم تقديراً اخلاقياً كمصدر للابداع ؟ .. وهو بعيد كل البعد عن خدمة الفضيلة؟

هناك موقفان فلسفيان يميليان الى االمبالغة فى تقدير هذا الجهد الاخلاقى ، وان كانا لا يستلهمان المبدأ الذى رفضناه حالا الا انهما جعلا له على الاقل معادلاً عملياً :

الموقف الاول : ينطلق من نظرة وجودية .. ويقرر ان النفس الانسانية تجد صعوبة فى الخضوع للقانون الاخلاقى طواعية وبدافع الحب . كما انها لا تنتصر على الشر إلا بالتضحية وبالضغط على ذاتها .. وبذلك يكون الكفاح شرطا للفضيلة .. والوسيلة الوحيدة لاكتساب السلوك الحسن فى كل زمان ومكان .

ويحلو " لكانت " ان يكرر قول القديس بولس " كما هو مكتوب انه ليس بار ولا واحد " (اى انه ليس هناك أناس يوصفون بالعدل ولا حتى شخص واحد) . وتبرز نزعته التشاؤمية كثيراً وهو يقول " وربما كان من تفاهة التفكير والسطحية وشطحات الخيال ان نصف الروح " بطيبة تلقائية.. لا تحتاج الى حافز يحركها أو لجام يقيدها " وهو ينكر " ان يكون فى قدرة مخلوق ان ينفذ شتى القوانين طواعية دون ان يحدث ان تكون لديه رغبة لمخالفتها ولو مرة " . وهو يوافق على امكان " ان يتحول الخوف الممزوج بالاحترام الى ميل ، وان يتحول الاحترام الى حب .وهذا هو كمال النية المكرسة للقانون لو حدث ان كان فى طاقة مخلوق يبلغ ذلك "

اما **الموقف الثانى** : فلا يذهب الى حد انكار قدرة الانسان تماماً على اداء واجب معين طواعية وبهمة . غير ان العمل فى هذه الظروف يكون قليل القيمة والثواب.

اذن بين " الجهد " و " القيمة " علاقة على درجة من الثبات حتى ان وجود احدهما وزيادته أو غيابه ونقصه يستتبع حتماً نفس الاثر فى الآخر وبنفس النسبة .

ومما لاشك فيه انه طالما انه لا يمكن تحقيق الالتزام بالقاعدة الا ببذل مجهود متفاوت فى الدرجة ، فإن كل جهد يدخر تترتب عليه خسارة فى الثواب بنفس الدرجة . وهل العكس صحيح ؟ اى اذا كانت قدرة الفاعل الاخلاقية تؤدى التزاماتها بغير جهد .

اختلف الاخلاقيون المسلمون فى هذه المسألة فأيدها اصحاب ابى سليمان الدارانى، وعارضها علماء البصرة . ولو استفتينا الضمير العام لوجدنا نفس التعارض وذات التردد .

والحق ان الفضيلة فى أية مرحلة من مراحل الحياة الاخلاقية ليست هبة طبيعية خالصة ، ولا هى مكتسبة اكتسابا مطلقا .. وان الناس مختلفون فى حظهم من كل عنصر من عنصرى الفضيلة . كما انهم لا يتساوون فى موضوع كفاحهم ولا فى الشكل الذى يتجلى فيه جهدهم الاخلاقى .

وهنا علينا ان نتعمق اكثر للتوصل الى صيغة توفيقية لاحكامنا الاخلاقية ، ونعتقد ان الحل يكمن فى التفرقة التى ميز بها القرآن بين نوعى الجهد ، وأطلق على احدهما " جهد المدافعة " وعلى الأخر " جهد الابداع " .

أ – جهد المدافعة .

نقصد بهذا الجهد .. العملية التى نعارض بها الميول السيئة التى تحثنا على الشر باستخدام قوة مقاومة كفيلة باستبعاد هذه الميول .

ولا يستطيع احد ان ينازع فى لزوم هذه العملية فى كل مرة نواجه فيها قوة معادية تحاول ان تسيطر ، فيكون واجبنا العاجل فى هذه اللحظة هو كبت هذه الاهواء . ولقد رأينا كم يطالبنا القرآن بابداء هذه المقاومة ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى – النازعات ٣٤-٤١ ﴾ . ومن بين الاحكام العملية للتدريب على التخلص من عبودية الهوى فريضة الصوم شهراً كل عام وصوم التطوع فى احوال كثيرة .

فهل النصر دائماً وفى كل مكان يكون باهظ التكاليف . ويتطلب تضحية شاقة ؟

بعيدا عن نظرة تشاؤمية ترى الشر قانوناً طبيعياً لا يرحم ، وعن فطرة ملائكية لا تفعل إلا الخير ، او حالة مرضية تفتقد القدرة على فعل الشر .. نجيب بانه ليس الأمر كذلك دائما .

ففى مجال الفطرة الانسانية الكاملة المزودة بالغرائز وبالعقل ، نلاحظ لدى كثير من الاشخاص – وعلى درجات متفاوتة صعوداً وهبوطاً – نوعاً من التلقائية فيما يتخذون من قرارات خيرة . بمعنى ان هذه القرارات لا تقابلها اية إعاقة من الميول السيئة المضادة ، بل تتم بيسر وطواعية ، بعكس الرجل العادى الذى يحتاج ذلك منه الى جهد كبير .

وتحدث هذه الشبه تلقائية بطريقتين : اما بفضل استعداد فطرى موهوب ، واما " كثمرة جهد " تفاوت فى طوله وفى مشقته .

ففى الأولى: بعد كبح الاهواء حتى لا تكاد تدرك ، وبعد بلوغ فكرة الخير فى النفس منزلة عليا ، يتحول العمل الفاضل الى موضوع للحب والابتهاج . وهذه حال كبار الصالحين مثل الرسل الذين اصطفاهم الله من البداية لتبليغ رسالته ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته - الانعام ١٢٤** ﴾.

والحالة الثانية : تشبه الاولى الى حد معين ويزيد عليها كفاح شخصى متكرر .. ولا يرجع ذلك فقط الى ان استخدام اية ملكة فى الانسان يقويها بنفس القدر وانما هناك تدخل إلهى بمعونة ايجابية لمن يبحث عن الهدى ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين - العنكبوت ٦٩** ﴾ وفى الحديث القدسى " وما يزال عبدى يتقرب الىّ بالنوافل حتى أحبه . فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصره به ويده التى يبطش بها ، ولئن استعاذنى لأعيذّنة .. " .

واذا نزلنا الى مستوى الانسان الوسط ألا نلاحظ بعض الشبه بذلك ؟ فعندما نكون قد ألفنا الوقوف فى وجه الاغراء ، سواء بالتفكير فى طابعه الذى لا يليق بكائن عاقل ، او فى تقدير نتائجه السيئة ، ألا نشعر فى داخلنا بقوة شديدة - لم نكن ندركها حتى تلك اللحظة - تجعل بُعدنا عن الشر اكثر يسراً ؟

إذن سواء كان الولى مدفوعاً " بالحب " ، والرجل الوسط مستنداً الى " العقل " ، والرجل العامى مقيداً " بالخوف " منجذباً " بالرجاء " ، فان خط السير واحد عند الجميع .. وهو ان هناك دوافع اخرى تدعم الارادة وتعاونها فى رقيها ، وعندئذ يصبح القرار اسرع وأيسر ، والجهد المطلوب اقل . وليس معنى ذلك انه لم يعد هناك صراع بل انه موجود حتى فى الحالة الحدية كما يتجلى ذلك من النصوص التالية .

غير ان القوتين الحاضرتين هنا ليستا مسلحتين بنفس الدرجة . فالقاعدة العامة ﴿ **إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى - يوسف ٥٣** ﴾ والحديث " ما منكم من واحد الا وقد وُكِّل به قرينه من الجن . قالوا : وإياك يارسول الله ؟. قال و إياى ، إلا ان الله أعاننى عليه فاسلم فلا يأمرنى إلا بخير. " وتلك حال عباد الله الصالحين ، فان الشيطان ﴿ **ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم توكلون - النحل ٩٩** ﴾ ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان - الاسراء ٦٥** ﴾ وان التاثير الذى تتعرض له فطرتهم الحساسة للعمل الشيطانى اقل دواماً من عامة الناس وكانه ظلام خفيف لسحابة عابرة لا يلبث ان ينكشف ﴿ **ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون - الاعراف ١٠٢** ﴾ والصدمة التى يحدثها فى نفوسهم التماس الشر لا تتجاوز شكة الإبرة ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله - الاعراف ٢٠٠** ﴾ والحق ان اكثر الناس صلاحا اناس

يتمتعون بفطرتهم الكاملة . وكان النبى ﷺ يقول عن نفسه انما أنا بشر ، ارضى كما يرضى البشر ، واغضب كما يغضب البشر "

والواقع ان "الرجل الصالح فى الاسلام " ليس على مثال " الحكيم البوذى " المجرد من الشهوة . ولا " الحكيم الرواقى " غير المبالى بالألم .. وانما هو على العكس .. فبعض الاشياء تروق له كما كان النبى ﷺ " يحب الحلواء والعسل " ، واشياء أخرى يكرهها ، كما كان النبى ﷺ يكره الثوم والبصل . ولم يأكل لحم الضب رغم عدم تحريمه. وكان النبى يمزح ولا يقول إلا حقا .. ولم يستطع منع دموعه عند رؤية حفيده أو أحد اصحابه يموت .. فطالما ان هواه الفطرى أو الذى ألفه لا يتعارض مع واجب فانه لا يقاومه .

إلا ان مشاعر النبى ﷺ الاكثر حيوية وعمقاً لا نجدها فى هذه الاشياءالعادية ، وانما في انشغاله بخلاص الناس . وما كان يعانيه بسبب ضلالهم ﴿ **لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين – الشعراء ٣** ﴾ . كما كان نشاطه الوجدانى يتجه اكثر نحو القيم العليا "وجعلت قرة عينى فى الصلاة " .

ولهذا فان " الصلاح فى نظر الاسلام " ليس فى التغاضى عن الفطرة ، وانما فى تفضيل القيم العليا تفضيلاً لا يفوقه شئ . ولهذا لم يصف القرآن المؤمنين بأنهم " لايحبون إلا الله " وانما قال ﴿ **والذين آمنوا أشد حباً لله – البقرة ١٦** ﴾

إذن لكى نطرح قضية "الجهد والتلقائية " لسنا فى حاجة لأن نفترض حالة تستبعد فيها القوى المعارضة للواجب ، وانما يكفى ان ننطلق من عدم المساواة بين القوى المتصارعة . لأن اقل تفوق للشعور الخيّر ينبغي ان يخفف بنفس النسبة من ثقل الالزام ومن مقدار التضحية التى تقتضيها المقاومة . ولقد ذكر القرآن هذه الملاحظة ، إذ قال بعد ان حث بشدة على الاستعانة بالصبر والصلاة ﴿ **وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين – البقرة ٤٥** ﴾

وليس من الصعب ان نرى من خلال النزاع الذى يضع هذه القوى غير المتكافئة في مواجهة بعضها البعض – انتصاراً يرتسم او يتّجلى فى خطوطه العريضة كمجرد اتجاه يحدد ثقل الميل الاكثر نضجاً ونمواً . ونقول فى خطوطه العريضة لاننا لسنا بصدد عمل معين نكون قد أقبلنا عليه وقت اللزوم بطريقة مباشرة وآلية.

والآن ما هى قيمة العمل الذى يُؤّدى فى الظروف التى وصفناها ؟ وهوعمل ليس تلقائياً تماماً ولا هو كسبى بشكل كامل ، وانما هو ثمرة قوتّين متزاوجتين : الفطرة

والشخص ، كما هو شأن اى عمل انسانى مع اختلاف فى المقادير ، ولكن هل بمقدار الزيادة فى مشاركة الفطرة فى العمل ينبغى ان ينقص الثواب ؟

هذه هى القضية ..

هناك حالة لا يعقل الرد فيها بالايجاب . هى حالة رجل وسط حقق تقدما اخلاقياً. وكانت المرونة الفطرية من كسب ارادته . فاذا بخسنا قيمة العمل الاخلاقى بحجة انه اصبح اكثر سهولة نسبياً ، أليس فى هذا استخفاف بالجهد ذاته وقد حقق افضل النتائج ؟ ولقد قيل ان علة الصراع لا تكمن فى الصراع نفسه وانما فى النصر الذى يحققه، على الا يكون نصراً عرضيا او مصادفة ، اذ ماذا لو ان الصدفة لم تقم بجانب من العمل ؟ وهذا هو السبب الذى جعل ارسطو يضع الفضيلة فى فئة العادات . أما اذا تغيرت الظروف وأتيحت الفرصة لتكرار النصر .. هل استطيع عندئذ أن أنشرح له ؟ .. ليس انشراحاً كاملاً حتى الآن.

ذلك انه اذا كان علىّ فى كل مناسبة أن اعتمد على نفس الدعم وأتغلب على ذات المصاعب لكى أحقق فى سلوكى المطابقة الاخلاقية المطلوبة ، فلا شك اننى سوف أرى ان فطرتى على درجة كبيرة من التمرد لكى لا أقول عاجزة عن الترقى . والمثال التقليدى للطفل الذى يجاهد لإغراق الكرة فى الماء دون جدوى يقدم لنا صورة المحاولات المتكررة والمتطابقة التى لا تحقق اى نجاح .

ولا نغالى اذا قلنا ان العلاج الاخلاقى الذى وضعه المتصوفة المسلمون كانت غايته انهاء هذا الانهماك فى المقاومة ، وتحقيق نوع من التوازن الداخلى او الاقتراب منه على قدر الامكان . وهذا مثال من الف مثال يقدمه لنا ابو محمد المرتعش فى وصفه لحاله ، فقد كان من عادته اثناء أدائه للحج سنوياً ان يفرض على نفسه شتى انواع المشقات ويتحمل الجوع والتعب دون أية إعاقة داخلية ، حتى ظن انه اصبح متحكماً فى ميوله الطبيعية إلى ان وقع حادث غير ذى اهمية إلا انه فتح له عينيه . فقد طلبت منه امه ان يملأ لها جرة بالماء . فشق ذلك عليه . فنظر الى سالف اعماله وأدائها جميعاً وأدرك ان مهمته لم تبلغ غايتها بعد .

" فالهدف من الجهد اذن هو تقليل الجهد " ، واعظم ميزة نحصل عليها منه هو زيادة استقلالنا عنه شيئا فشيئا ، فى الوقت الذى يجعلنا اكثر تعوداً على العمل الذى يبذل فيه هذا الجهد . و يكون ذلك على شكل عادة فى صورتها السكونية التى ليس فيها اية مبادرة ، وانما كمصدر ديناميكى يزيد مع التطبيق ، ويعدل نفسه بتعديل موضوعه ، ويتيح لنا السيطرة على الموقف فى اكثر الظروف تنوعاً وبعداً عن الحسبان . والصراع

يجب ان يدخل الى الاعماق ، وان تترسخ جذوره ، وان يتحول الى سجية خاصة ويصبح طبعاً ثانياً . بهذا فقط يمكننا ان نتكلم عن اخلاق تم امتلاكها ،لا عن اخلاق ما زالت منشودة .

وهاتان المرحلتان من الصراع والانتصار ، أو بصفة أعم من العطاء الخارجي والانطلاق التلقائي صاغتهما اللغة العربية فى لفظين "خُلق " و تخلُق " . فكلمة خُلُق أو اخلاقية تعنى القدرة الفطرية أو القدرة المكتسبة التى ينبثق عنها السلوك التلقائي . وبعبارة أخرى الخُلق هو الشكل الثابت لوجودنا الباطنى ، فى مقابل " الخَلْق " وهو الشكل الخارجي الموهوب من الله لكل مخلوق . وطالما اننا لم نحصل على هذا الثبات الذى بفضله تنبثق الاعمال باندفاع كريم وتلقائى فاننا نظل فى مرحلة " التخلُق " اى مرحلة المحاولة والتجربة لكى يكون سلوكنا على هذا النحو أو ذاك . ويستخدم اللفظ عادة بالمعنى المذموم القريب من التصنع والتظاهر . وهكذا مجرد النظر لمعنى الكلمات يوضح لنا فى اى جانب توضع القيم العليا .

وما ينطبق على "العمل " ينطبق على " المعرفة " . وكما هو الحال عندما نريد ان "تعمل " أو ان نصدر " حكماً " ، فإنه يجب ان يتوفر لدينا " رأسمال " نقتطع منه.واذا كان الباحث عن الحقيقة لا يتوفر تحت يده نظام من المبادئ الاولية ومن القوانين العامة، وانه لا يدرى فى اى اتجاه يوجه بحوثه فلا شك ان عمله سيكون طويلاً وشاقاً . فهل يكون من حقنا ان نقول ان الانسان يزداد فى مكانته كعالم بقدر ما يزداد بطؤه فى التوصل الى الحقيقة ؟ اعتقد انه لايوافقنى على ذلك أحد . إذن ألا يجب ان نعرّف الرجل الأكثر تمسكاً بالفضيلة انه الذى تتوفر تحت تصرفه جملة من الوسائل الباطنية الكفيلة بإسكات صوت الهوى على الفور ، وان تجعل قراره المتعلق بعمل الخير اسرع واكثر اطمئناناً ؟

اما التمسك بالرأى المخالف الذى يرى أن العمل الاخلاقى هو الذى يؤدّى مع اكبر قدر من المقاومة ، فمعناه الاصرار الغريب على ان يظل الانسان فى المرحلة الاولية محاصرا بحشد من المشاعر الفظة والجامحة التى لايستطيع ان يدفعها عن نفسه إلا باللجوء الى جهد المقاتلين . هذه المرحلة الأولية التى يعتبرها أكثر الاخلاقيين المسلمين تشددا – حالة عابرة سريعة الاجتياز والاستبدال بحالة عكسية ، هذه المرحلة لا تعتبر " قانونا " أو "مقياسا عالميا " للقيمة . وإلا كانت الحياة الاخلاقية المثلى بناء على هذا الرأى حياة المبتدئين والاغرار ، بل الاحرى حياة الفاسدين والاشرار . ويصبح نموذجنا اذن هو الانسان الذى لا يستطيع ان يعزم على السير فى الحياة الشريفة إلا اذا فرض على فطرته نوعا من الالتواء العنيف ، وعلى نفسه الشدة والقسوة .

والقرآن يتبنى وجهة النظر المخالفة تماما . ولقد رأينا كيف أدان بشدة اولئك الذين لا يؤدون واجبهم بسرور وهمة ﴿ **لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون – التوبة ٥٤** ﴾ . وكان ارسطو اذن على حق حين قال ان الذى لا يؤدى الاعمال الطيبة بسرور ليس انساناً خيّراً حقاً.

لقد درسنا حتى الآن الحالة التى لا يكون فيها هذا الطابع الكريم الخيّرهبة من الطبيعة وانما ثمرة الجهد والصراع . وكيف ان العمل الذى يُؤدّى بعد هذا التحوّل – رغم انه بلا مقاومة فعلية – هو محصلة مقاومة متجمعة من الماضى قلّت أو كثرت ..ونؤكد ان العمل الذى تم فى هذه الظروف يجب ان يحتسب لصالح الاستحقاق الشخصى. وان التلقائية المتولدة عن الجهد نشأت عن جذوره التى هى استمرار وتتويج لها كغاية ووسيلة .

وقد يعترض علينا احد بان تفكيرنا على هذا النحو يصور الارادة الانسانية وكانها تتمتع بهذه القوة المطلقة القادرة على تغيير الكائن الاخلاقى بصرف النظر عن العناصر الآخرى التى تساهم فى هذا التغيير ، بل وكأنها مستقلة حتى عن الفضل الإلهى .. نقول حاشى لله ان نسقط فى مثل هذا الخطأ الفادح .. ونحن نتناول الاخلاق القرآنية بالشرح والبيان . وقد حان الوقت الذى ندرس فيه هذه النقطة . ونوضح كيف يتم تدخل العنصر العلوى طبقاً للقرآن والحديث .

هذا التدخل يقوم فى الغالب بدور محدد فى تشكيل الطابع الاخلاقى ، ويكون على شكل رد على جهد انسانى بدأ أو تم انجازه ، وعلى اثر هذا الجهد يأتى لمساعدته ولدعمه أو ليجعله مثمراً ويبلغه غايته ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا – العنكبوت ٦٩**﴾ ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى ، وآتاهم تقواهم – محمد ١٧** ﴾ ﴿ **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم – يونس ٩** ﴾.

هناك اذن دائماً شئ يأتى من جانبنا أولاً . فالانسان لكى يتلقى النور – عليه ان يبدا بطلب النور والانفتاح له ، عليه ان يظهر حاجته اليه وان يمد يده اليه وان يخطو خطوات الى الامام . كقول النبى ﷺ " .. وانه من يستعفف يعفّه الله ، ومن يتصبر يصبّره الله ، ومن يستغنى يغنه الله .. " . فالمدد الالهى متوقف على جهد انسانى ، وهذا الجهد يحتفظ بقيمته كاملة ، ولا يقلل من الثواب ما يعقب النصر من سكينة وراحة .

والملاحظ ان القرآن لا يذكر هذه العلاقة فىبعض آياته ، واحياناً لا يشير الى المبادرة الانسانية ، وحين يتحدث عن هداية الأصفياء يعرضها على انها إنعام مباشر من فضل الله وبلا مقابل ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام – الانعام ١٢٥** ﴾

﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه - المجادلة ٢٢ ﴾ ﴿ هو الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين - الفتح ٤ ﴾ ﴿ ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان - الحجرات ٧ ﴾.

غير ان عدم ذكر الشئ لا يعنى نفيه ، واذا رجعنا الى بعض الآيات القرآنية سوف يتضح لنا أن المنحة السماوية كانت عن مواقف حسنة اتخذها المؤمنون ﴿ فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً - الفتح ١٨ ﴾ ﴿ هو الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم - الفتح ٤ ﴾ فهناك اذن ايمان يدعم ومشاعر طيبة تستحق الثواب .

ولن نذهب الى حد الادعاء بأن العمل الانسانى كان هو الأول والسابق مطلقاً ، فمن البديهى ان كياننا العضوى والنفسى والاجتماعى كان سابقاً فى وجوده على كياننا الاخلاقى . وفى داخل هذا الكيان الاخلاقى تسبق مكتونات النشاط الواعى وتجهزه . بل اننا نقول ان للنفوس المهيأة جيدا مدداً إلهيا ايجابيا . وزيادة فى القوة توفر عليها قدرا كبيرا من جهد المقاومة ضد الميول السيئة .

ولكى ندفع الى النهاية استدلالنا عن النظرية التى على النقيض ، نتوقف امام هذه الحالة .

هب أن النصوص تعنى هذه النفوس المتميزة ، وان القوة المكتسبة لا ترجع فى بعضها الى تدخلها الارادى المناضل ، ونقرر مع القرآن ان باستعدادها الطيب للتقوى ﴿ كانوا أحق بها واهلها - الفتح ٢٦ ﴾ استحقت ذلك ﴿ فضلاً من الله ونعمة - الحجرات ٨﴾ . عندئذ يثور سؤال . ماذا يتبقى كجزاء لهم ؟ وكيف نفسر ان القرآن لم يتوانى فى مدحهم ووعدهم بالحسنى .

هنا يظهر بوضوح " التناقض " بين " الجهد " و " التلقائية ".

فأما أنصار القيمة الذاتية غير المشروطة للجهد ، فقد يرغبون فىالتخفيف من تشدد موقفهم فيقترحون علينا نوعاً من المصالحة . وسوف يقولون بان غياب الجهد ازاء هوى غائب لا يعيب الاخلاقية ، طالما أن هذا الجهد يظل فى حالة تحفز ونشاط لمجاهدة اهواء أخرى موجودة ، وانه لا يحدث إلا فى حالات قصوى فقط (عندما يتم قهر جميع الميول السيئة) ان تصبح " الاخلاقية " لا وجود لها وتحل عندئذ محلها " القداسة ".

هذا الحل لا يبدو لنا كافيا ..

ابتداء لأن النصوص لا تفرق بين النفس التى اعفيت كلية أو جزئيا من هذا النضال بل يبدو انها تضفى اعلى قيمة على النفس التى تمقت كل الرذائل ﴿ وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان - الحجرات ٧ ﴾.

ومن ناحية اخرى أن الصيغة الجديدة - برغم تلطيفها - تقتبس كثيراً من نفس المبدأ المناقض الذى تأسست عليه الصيغة القديمة . فالنظرة موجهة دائماً الى الجانب "الفظ " من النفس. فلا وجود للاخلاقية إلا بمقدار وجود هذا الشر أو ذاك لكى يتم مقاومته . باعتبار ان الاخلاقية والجهد الدفاعى على علاقة وثيقة بعضهما ببعض بل هما شئ واحد .

أما حلنا فشئ مختلف تماماً .

من ناحية نترك للنصوص شمولها . حيث نرى أن النصر - مهما اتسع مداه وأيا كانت علته - يمنح النفس التى تخلصت من خبثها أجراً أعلى وافضل من اجر النفس التى تتجاذبها اغراءات الشر المتحفزة .

وبدلاً من ان يظل تقديرنا متوازيا مع مقدار مشقة المقاومة فانه يزيد كلما نقصت هذه المشقة . والصيغة الصحيحة فى رأينا هى ان العلاقة عكسية بين القيمة ومقدار الجهد المناضل . باعتبار ان القيمة تكون مرتبطة بانحسار هذه الضرورة لا بزيادتها .

وفى مقابل ذلك لا نقفل دائرة الاخلاقية خلف هذا الانتصار . وبدلا من ان نوفق بينها وبين جانب واحد من نشاطنا ، نجعل لها "مجالين" ثانيهما أعظم قيمة . فبعد الصراع ضد الظلام نقابل النضال فى النور ، وكل نزعة هوى يتم قهرها تمثل عقبة قد ذللت ، ودرجة اعلى للحرية والاثمار قد تحققت. وما ان تجد الارادة الحسنة نفسها وقد تخلصت من مضايقة عدوها ، وان جهد النضال لم يعد مطلوباً فإن " جهدا آخر يظهر ويفرض نفسه " . فالوقت والقوة اللذان كانا مخصصين " للهدم ورفع الانقاض " سيوجهان لأعمال " البناء والانتاج " دون ان يتبدد منهما شئ.

ولقد عُرّفت الاخلاقية فى بعض الاوقات بانها " فن السيطرة على الاهواء " وهو تعريف ناقص لأنه يتركز على الجانب السلبى من العمل والمظهر الاقل قيمة ، بل نقول انه يمثل مرحلة اعدادية، لأن الاخلاق بمعناها الكامل هى بعث للحياة فى القيم الاخلاقية . وصيغة الأمر المبدئى ليست " امتنع عن الشر" وانما " افعل الخير " . وكل ما فى الامر انه يحدث ولسوء الحظ ان نجد انفسنا مضطرين لتوجيه نضالنا ضد عدو يريد

تحويل انظارنا عن هدفنا الجوهرى . وللاقتناع بهذا تكفى قراءة هذه الاحكام الاسلامية المتدرجة:

قال النبى ﷺ " على كل مسلم صدقة . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق . قالوا : فإن لم يستطع (أو لم يفعل) ؟ قال فيعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا فإن لم يفعل ؟ قال فيأمر بالخير (أو قال بالمعروف). قالوا : فإن لم يفعل ؟ قال: فيمسك عن الشر فانه له صدقة " .

واذا كان فن الطب يعالج امراض الجسم ليحقق له الصحة ، فلا شك ان اهتمامه يكون اكثر بوقاية الحالة العادية وتحسينها . وينبغى ان يناط بطب النفوس مهمة مماثلة بأن يبين لكياننا الداخلى نظام التغذية وافضل طريقة لرقيه وتقدمه .

وهكذا نرى " جهد الابداع " أعلى منزلة من " جهد المدافعة " وسوف نرى موقف القرآن منه .

ب- جهد الابداع.

نفرض الآن اننا تغلبنا على أحد ميولنا السيئة او كثيراً منها أو كلها . نكون بذلك قد حققنا تقدماً . وكلما خلّصنا حقل عملنا من الاعشاب الضارة كلما اصبح اصلح للزراعة ، وليس معنى ذلك انه صار جاهزا ، لأن استبعاد الميل السئ ليس معناه ايجاد الميل النافع . فبعد نزع الاعشاب الضارة ينبغى البحث عن بذر جديد واذا اتخذنا موقفا محايداً تجاه غرسنا يكون موقفا مضادا للاخلاق .

نفرض ايضا ان ميولاً طيبة وقوية تشغل عندنا الآن المقام الاول . فلا شك انها خطوة جديدة تجعلنا اكثر صلاحية للاخلاقية (وان كنا لم ندخل بعد ميدان الاخلاقية). فى هذه المرحلة نتمثل الخير على انه المستحب أو الافضل باعتبار اننا ما زلنا فى مجال الميول . وشتان بين أن " نميل " وأن " نريد " . فأول الأعمال الاخلاقية ان نريد ، لا ان نريد " الخير " كفكرة عامة يحوطها الغموض الذى نجده فى التعميمات ، وانما نريد هذا الخير أو ذاك على وجه التحديد ومن حيث الكيف والكم والغاية والوسائل والمكان والزمان .

ولكن بأى معنى يمكننا ان نتحدث عن العمل الفعال ؟ .. هناك ثلاثة معانى :

* يلزم فى بادئ الأمر " البحث الجاد " عن الحل المحدد الذى تم اقراره دون اهمال او تراخى . إذ لا ينبغى ان نكل مهمة تحديد موضوع ارادتنا الى احداث الطبيعة الخارجية ولا الى حركات طبيعتنا الداخلية نيابة عنا . وانما يجب ان نسمو فوق جميع

المعطيات الداخلية والخارجية وان ننظر من اعلى الى شتى الحلول الممكنة وان نختار اختياراً واضحاً بعيد النظر . وهذا هو نصيب شخص الانسان باعتباره فاعلاً يتمتع نسبياً بالحرية والاستقلال .

والقرآن – فضلاً عن الآيات التى تذكرنا بواجباتنا الخاصة .. عنى بالتأكيد على اهمية هذا الواجب العام الذى يضم جميع الواجبات الأخرى . إذ انه فى استثارته لهمتنا بلا تحديد يستخدم الفعل " اعملوا " (بدون مفعول) ﴿ اعملوا فسيرى الله عملكم – التوبة ١٠٥ ﴾ ﴿ ونعم اجر العاملين – آل عمران ١٣٦﴾.

ان النزعة الجبرية الاتكالية الكسولة هى العدو الأول للاخلاق الاسلامية بدليل الواقعة التى حدثت مع النبى ﷺ " انه كان في جنازة .. فقال ما منكم من احد إلا كُتب مقعده من النار أو الجنة . قالوا ألا نتكل ؟ قال : اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له " ثم تلا ﴿ فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى – الليل ٥-١٠ ﴾

هذه درجة تمهيدية للجهد لا غنى عنها لتحقيق الاخلاقية . فهى روحها وجوهرها وعدم وجود هذه الدرجة لايسمى ضعفاً ، وانما " عجز " حقيقى كما سماه الرسول ﷺ "احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ".

* غير ان الجهد المبدع له "معنى ثان " لا ينحصر " فى اختيار ارادى" أيا كان نوعه وإنما فى " اختيار صالح " .ولكى يكون الحل المنشود مقبولاً لا يكفى ان يستهدف الخير وانما يجب – فى بنائه ذاته – ان يستلهم الشرع وان يتطابق مع قواعده . ومع ذلك فقد يكون احد الحلول مرضيا جدا بينما حل آخر اقل من ذلك درجة أو درجات .

ولنأخذ مثال " الصدقة " . فمادامت الكلمة فى معناها العام فالمعنى واضح ومشترك فى جميع الضمائر . ولكن متى اردنا التحديد لكى يعرف كل فرد ما يفعله للوفاء بالتزامه يحدث الخلاف وتتفاوت الدرجات من التبرع بدرهم الى كل الثروة . ولكن الشرع الاسلامى قرر حدوداً منها ٢,٥ ٪ سنويا كحد ادنى من الثروة النقدية و ٥ ٪ أو ١٠٪ من المحصول (حسب طريقة الرى) ،، وجعل ثلث التركة حداً اقصى فى الوصية لغير الورثة. وهكذا يصبح واجب المؤمن محددا ، فلا يقل عن الحد الادنى الواجب ولا يتجاوز الحد الاقصى المباح .

واذا كان هذا التحديد عن الكم ، فهناك اعتبارات اخرى تتعلق بالكيف والزمان والمكان . وهى شروط واجبة لكى يكون الاختيار فى نظر الاخلاق الاسلامية اختيارا صحيحا وإلا كان مخالفا . ويأتى بعد ذلك اختيار الاشخاص المستحقين وطريقة توصيل

المساعدة لهم (سراً أو علانية) ونوعية العطاء اذا كان عيناً ... وباختصار كلما تعمقنا فى التجربة الفعلية كلما وجدنا البدائل المتاحة دون ان نخرج عن واجبنا الحقيقى .

* نتناول الآن " المعنى الثالث" : فعند التعرض لحل مشكلة أخلاقية نجد كثيراً من الحلول الصالحة بدرجات متفاوتة ما بين الاكثر والاقل جدارة . فاذا كان " البحث عن الافضل " هو ما ينشده الجهد المبدع فى هذا المعنى ، فهل تصر الاخلاقية القرآنية أيضاً على طلب " الافضل " كما أكدت على طلب " الخير " دون زيادة ؟

ان القرآن ما يزال يدعو الى هذا النوع من الجهد ويوصى به ﴿ **فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . اولئك الذين هداهم الله واولئك هم أولوا الالباب – الزمر ١٧ – ١٨** ﴾ ﴿ **واتبعوا أحسن ما انزل اليكم من ربكم – الزمر ٥** ﴾ ﴿ **فاستبقوا الخيرات – المائدة ٤٨** ﴾ ﴿ **والسابقون السابقون اولئك المقربون – الواقعة ١٠ – ١١** ﴾ اى ان الذين تفوقوا اخلاقيا فى الدنيا هم اول من يلقاهم الله يوم القيامة . وفى الحديث "ان الله تعالى يحب معالى الاخلاق ، ويكره سفسافها ".

وعلى هذا المنوال نجد مثالاً فى واقعة تاريخية معروفة . فعندما قرر النبى ﷺ والمسلمون الثأر من قريش بسبب ما اقترفوه فى حق المهاجرين واخوانهم المستضعفين الباقين بمكة ، كان امامهم إما التصدى لقافلة تجارتهم العائدة من الشام ، وإما الاشتباك مع قواتهم التى تفوق المسلمين عدة وعدداً . واستشار النبى ﷺ اصحابه قائلاً " ان الله وعدنى احدى الطائفتين : العير أو النفير " . ومال الاتجاه العام أول الأمر الى الحل الأقل خطراً . ولكن الله اراد افضل الحلول تأثيراً وشرفاً وحسماً للنزاع بين الحق والباطل ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم . ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون – الانفال ٧–٨** ﴾ وقد كان .. وهكذا يدعو القرآن المسلمين الى اسمى وأنشط الأعمال .

والسؤال الملح الآن هو الى أى درجة يطلب هذا الجهد الرفيع ؟ وهل هو مطلوب بنفس الصرامة التى فى الدرجتين السابقتين ؟

اذا كانت احدى القيم العليا فى خطر نقول نعم بلا اى شك . فخير برهان على الايمان هو التضحية بكل شئ – حتى بالنفس – من اجل القيمة العليا الأغلى من الحياة .

أما فى الظروف العادية فهل يمكننا الرد بالايجاب ؟ لا نظن ذلك . وإلا نكون قد ألغينا فكرة التدرج فى التقديرات الاخلاقية . ويصبح ميدان العمل ضيقا لا يسع سوى مكان واحد لعمل مفرد ليس فيه اختلاف بالزيادة او النقصان. وسوف يوصم الجهد الشجاع الذى توقف قبل الانهاك التام بعدة نقاط باللاأخلاقية كأى عمل بليد أو دون

المتوسط أو متوسط . بل واكثر من ذلك ان الفضيلة ذاتها ستصبح فكرة خرافية لا وجـود لها إلا فى عالم الاساطير .. ولكى يؤكد الانسان انه استخدم كل قواه يكـون دليلـه الوحيد على ذلك ان ينتحر باستهلاك نفسه . وهكذا نرى الى اى سخف ولا معقوليـة يقودنـا مثل هذا الافتراض .

اما موقف القرآن فانه يختلف عن ذلك تماما .

فمن ناحية انه حدد مكان فكـرة " الكمـال" بين الاستبسـال غير المعقول وبين الجهد المتوسط . ومن ناحية اخرى فانه – مع تشجيعه للناس على البحث عن الافضـل – ينشر رحمته على جميع الشرفاء من اضعفهم الى اقواهم . فـنرى القـرآن يقيس المسـافة التى بين المجاهد بنفسه وماله ، وبين الذى يبقى فى المؤخـرة ﴿ لا يستوى القـاعدون مـن المؤمنين غير أولـى الضرر والمجـاهدون فـى سبيل اللـه اموالهـم وانفسـهم ﴾ ويقـرر تفـوق المجاهد﴿ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم علـى القـاعدين درجـة ﴾ ثـم يضيـف هـذا التحفـظ علـى الفـور ﴿ وكـلا وعد اللـه الحسنى – النسـاء ٩٥ ﴾ . ونفس المقارنـة ونفـس التقدير للمنفقيـن فـى سبيل اللـه : الـذى انفـق فـى الظـروف الشـاقة والـذى انفق بعـد ان تضاءلت المشقة ﴿ لا يستوى منكم من انفق مـن قبل الفتـح وقـاتل .اولئك اعظـم درجـة مـن الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى – الحديد ١٠ ﴾ . ومن هنا كان القـانون العام الذى بينه النبى ﷺ " المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيـف ، وفـى كل خير ". ونفهم بسهولة لماذا تغيرت اللهجة . فمنذ قليل عندما كان الموقف قـد انعدمـت فيه الطاقة تماما وسيطر الاهمال والتراخى كان التحريم صريحا واللـوم شـديدا . امـا هنـا فإن الموقف يتضمن شرا اقل وضعفا بسيطا فكان التسامح مناسباً وله ما يبرره .

ومبدأ التدرج هذا – الذى قررته نصوص لا تحصى – دفع الاخلاقيين والعلماء المسـلمين لإجـراء ترتيب تدريجـى لمفهـوم الخيـر والشـر حتـى جعلـوا لكـل منهمـا فئتيـن رئيسيتين . وبهذا يمكن للعمل الصالح ان يكون اما ملزمـا بشـدة ، وامـا مفضـلا مستحق التقدير . والعكس يكون إما محرماً صراحة ، وإما مذموماً غير مستحب فقط .

أصبحنـا الآنَ قـادرين علـى الاجابـة عـن السـؤال المطـروح . فباسـتخدامنا للمصطلحات المتفق عليها من الجميع ، نقول ان البحث عن أفضل الممكن – متى تجـاوز منطقة معينة لكل واجب هو فيها مـلزم بشـكل مطلـق – يدخـل بعـد ذلـك فـى فئـة الخـير النافلة . ونذكر الاعرابى الذى جاء يستعلم عن واجباته الاساسـية فـى الاسـلام . وبعد أن علم انطلق وهو يقول " والذى اكرمك لا أتطوع شيئاً ، ولا أنقص مما فرضـه اللـه علـىَّ شيئاً، فقال رسول الله ﷺ " افلح ان صدق " .

ثم نقول ان كلمة " الافضل " لا تؤخذ بمعنى الحد الاعلى وانما بمعنى المقارنة فالمستوى المطلوب بلوغه من جهد كل انسان ليس هو الحد الأدنى في الدرجة ، وانما امامه كل المساحة الممتدة فوق مستوى الالزام بالمعنى الضيق للكلمة . وفي رحابة هذا الامتداد الذى يسع منافسة الناس اجمعين ، يكون الفرد مطالبا بان يرتقى تدريجياً من نقطة الى اخرى بحسب قدراته وبالتنسيق مع باقى التزماته .

وتسهم هاتان الملاحظتان فى ابراز طابع الرحمة فى الاخلاق الاسلامية ، فضلا عن انهما تلقيان الضوء على جانب جديد بالاضافة الى الجانب الذى سبق بيانه .

والخلاصة ان العناصر الثلاثة التى يتكون منها الجهد المبدع باكمل معانى الكلمة هى " **الاختيار الارادى** " و " **والاختيار الجيد** " و " **الاختيار الأفضل** " . فالعنصر الأول يمثل جوهر الأخلاق بصفة عامة ، والثانى يحقق لكل من الاخلاقيات الخاصة لون الاختلاف المميز لكل منها بمراعاة القواعد المتعلقة بها. اما الثالث فانه يأتى ليكمل ويتمم عمل الاثنين .

واذا كانت غالبية المذاهب الاخلاقية تقوم على اساس مبدأ مفرد إما الواجب وإما الخير، فإن الاخلاق القرآنية هى فى آن واحد اخلاق واجب واخلاق خير . وعلى فرض ان الجهد بمعناه الكامل كان فى طاقة الناس اجمعين ، فإن الاخلاق الاسلامية لا تشدد إلا بشأن الدرجة الأولى والدرجة الثانية ، اما تجاه الدرجة العليا فإن تشددها يتحول الى "حث" و " تشجيع " .

نرى الأن كيف امكن توفيق سلّم من القيم الاخلاقية المتدرجة مع هذه المراحل الثلاث للجهد الخلاق . واصبح الربط (بين كثافة الجهد والترقى فى القيمة) الذى رفضناه بشأن جهد المدافعة ، مقبولا فى الجهد المنتج . ولكن لما كانت زيادة " الجهد المنتج " ميسرة بشكل طبيعى بفضل انخفاض " جهد المدافعة " ، فإن النتيجتين اللتين استخلصناهما تتفقان وتعزز احداهما الأخرى ، لأنهما فى حقيقة الأمر ترجمتان لنفس الحقيقة الواحدة .

وميزة هذه الفكرة انها تعيننا على حل عدد من " القضايا " .

* فهى تتيح فى البداية ترضية الحرص المشروع الذى تتضمنه النظرية القائلة بأن " الجهد شرط كل قيمة اخلاقية " . وهى النظرية التى تستند الى الشعور بالحيرة ازاء الثواب الذى يناله الصالحون على ما لم يكن ثمرة صراع خاضوه . والحق ان المبدأ الذى تدافع عنه النظرية مبدأ ممتاز إلا انها تطبقه تطبيقاً سيئاً ومن جانب واحد فقط ، ولا ترى ان النقص فى جانب تعوضه زيادة مستفيضة فى الجانب الآخر . لأن جهد الولى لا

يستهدف تلافى الأخطاء الجسيمة واتقاء السقوط فى " قاع " الأخلاق بقدر ما هو تلافى التوقف عند درجة معينة من الكمال أيا كانت ، والحرص دائما على الصعود الى اعلى .. الى الطوابق العليا . فأخلاق الولى ليست حربا وانما هى حياة بكل ما تتضمنه الحياة من نضال من اجل إكمال المسيرة وتحقيق الرقى . ولهذا فانه يشعر اثناء وقفات راحته القصيرة انه مطالب باستئناف العمل . وهذا النداء الخفى عنده كان دعوة صريحة من القرآن للنبى ﷺ ﴿ **فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب - الانشراح ٧-٨**﴾

وهكذا بعيداً عن ان نسلّم باعفاء مخلوق- مهما يكن - اعفاء نهائياً من خوض النضال ، نرى كيف ينفتح أفق لا نهاية لرحابته امام النفوس الطاهرة لكى تبذل فيه جهودها . وحتى عندما تكون هناك فرصة لابداء اية مقاومة ضد الميول المخالفة للشرع، سيكون علينا دائما ان نتغلب علىالخمول ، وان نقاوم تثاقل الفطرة حتى نحلّق فى آفاق تزداد ارتفاعاً .

وهنا نصل الى نتيجة لم يسبق إليها أحد وان كان فى ظاهرها تناقض : فبدلا من ان نضع " القداسة " خارج مجال الاخلاق ، نسميها " الاخلاق فى غاية الامتياز " . وهو وصف القرآن لأخلاق النبى ﷺ ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم - ن ٤** ﴾.

* والقضية الثانية قد نجد حلها فى ضوء نفس المبدأ اى معرفة ما اذا كانت "القداسة" تتضمن درجات ؟ ولا شئ يمنعنا ان نجيب بالايجاب ، طالما ان جميع الدرجات تكون داخل اطار الكمال بالمعنى الواسع للكلمة . وموقف القرآن واضح تماماً فى هذه النقطة ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض - البقرة ٢٥٣** ﴾ ﴿**ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض - الاسراء ٥٥** ﴾.

إلا انه ينبغى ان نحترس من ان نخلط بين فكرتين متميزتين تماماً - وان كان بينهما تقارب من بعض الجوانب - وهما " الأقل كمالا " " والمعيب " . فكثيراً ما ينزلق الذهن من إحداهما إلى الأخرى بدون ارادة منه ، ويصل الى حد إساءة تقدير رجل كامل ومقارنته برجل اكثر كمالا . ولقد حرص رسول الاسلام ﷺ على تحذيرنا من الوقوع فى مثل هذا الموقف تجاه رسل الله فقال " لا تخيّرونى على موسى .. " واذا كان القرآن يلقن المسلمين هذا الدعاء ﴿ **لا نفرق بين احد من رسله - البقرة ٢٨٥** ﴾ (اى الايمان ببعضهم وانكار البعض الآخر كما جاء بآية سورة النساء ١٤٩ -١٥٠) . فانه ينبغى ان ينصرف التحذير من اى تمييز يؤدى الى اضفاء تقدير على بعضهم يحرم منه آخرون . ولهذا السبب فى رأينا لم يتبع القرآن الترتيب التاريخى ولم يراع اى نظام محدد عند ذكر الانبياء ، وذلك لازالة الوهم بان بينهم تدرج فى المقام .

* اما القضية الثالثة فهى معرفة ما اذا كانت " القداسة " يمكن ان تتحقق مع وجود " المعصية " ؟ والاجابة يمكن ان تكون " نعم " او " لا " حسب تعريف كل كلمة .

فاذا كان المقصود بكلمة " معصية " المعنى العادى اى عصيان متعمد ، فمما لا شك فيه انها لا تنطبق على من يناط بهم هدايتنا ، لان عصمة الرسل الاخلاقية لا ينبغى ان تكون موضع شك- فعلا وقانونا - لافتراض اننا نقتدى بهم ، وانهم اذا وقعوا فى المعصية فقد يقر فى اذهاننا انها ليست من قبيل " الذنب " وانما من قبيل " الواجب ". اما الاصفياء الذين ليست لهم رسالة يبلغونها للناس ، رغم ان عصمتهم -قانونا - هى اقل تأكيدا ، فانها - واقعاً - موجودة بصفة عامة واذا ما حدث ان يذنبوا فما ذلك الا نادرا ندرة شديدة نتيجة نسيان أو غفلة توقف مؤقتا نشاط ضمائرهم العادى ، ولكن سرعان ما يفيقون ﴿ اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - آل عمران ١٣٥﴾ ﴿ يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب - النساء ١٧ ﴾.

فاذا حملنا كلمة " معصية " على معنى رقيق فانه يعنى " تأخر قليل ، وتوقف مؤقت فى استيعاب القيم " . وتكون المعصية بهذا المعنى فى اختيار حل يراه الولى حسناً بل وممتازاً، بينما قد يكون هناك حل آخر افضل منه فى الحقيقة . وعندما يكتشف هذا الحل الآخر فيما بعد ينتابه الندم وتأنيب الضمير بدرجة تعادل ما يشعر به الرجل الصالح اذا ارتكب احدى الكبائر .

وبهذا المعنى يفسر المفسرون الفاظاً مثل " العصيان " ﴿ وعصى آدم ربه - طه ١٢١ ﴾ و" الظلم " ﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء - النحل ١١ ﴾ " والذنب " ﴿ ما تقدم من ذنبك وما تأخر - الفتح ٢ ﴾ والتى قد ينسبها القرآن احيانا الى الانبياء وحتى الى رسول الاسلام ﷺ. هذه الالفاظ جميعاً اذا نسبت الى عامة الناس فانها تعنى اشد الذنوب واعظمها ، اما هنا عند الانبياء فلها معنى مخفف جداً كالنسيان . ﴿ فنسى ولم نجد له عزماً - طه ١٢١ ﴾ وسوء الفهم ﴿ لِمَ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين - التوبة ٤٣ ﴾ ورد الفعل الطبيعى ﴿ انى لا يخاف لدى المرسلون - النمل ١٠ ﴾ التى تتعرض لنوع من التضخيم فى ضمائر الاصفياء . ولقد قيل دائماً بحق . " ان النبل له مقتضياته " . والقرآن يبين لنا ان ذنوب الكبار ضعف ذنوب غيرهم ﴿ يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين - الاحزاب ٣٠ ﴾ ﴿ يا نساء النبى لستن كاحد من النساء - الاحزاب ٣٢﴾ . بينما تغفر الصغائر برحمة من الله للذين يجاهدون لتلافى الكبائر ﴿ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - النساء ٣١﴾ ﴿الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش- إلا اللمم. ان ربك واسع المغفرة- النجم ٣٢﴾

وهكذا نجد لكل درجة من درجات الرقة مقتضياتها الخاصة ، أما لبلوغ مستوى الكمال الكلى فإن هناك الترقى والارتقاء إلى مالا نهاية ..

درسنا الفكرة القرآنية عن الجهد فى جانبها الدفاعى وجانبها الهجومى . ورأينا ان الجهد - بشكل او بآخر وفى كل الدرجات - هو اداة لا غنى عنها للحياة الاخلاقية سواء لدفع الشر أو لأداء الخير أو لبلوغ الكمال . فالنضال قدر الانسان لاكتساب الفضيلة أو الحفظ حياتة ﴿ لقد خلقنا الانسان فى كبد - البلد ٤ ﴾ . ولقد تركزت دراستنا حتى الآن على الجانب الباطنى من الجهد وعلينا تناوله فى جانبه الحسى .

٢- الجهد البدنى :

اذا كانت هناك اخلاق ترى ان الالم الذى ينزل باجسادنا هو قيمة فى ذاته جديرة بأن تطلب لذاتها ، أو باعتبارها نظاماً للخلاص النفسى ، فان هذه ليست اخلاق القرآن بكل تأكيد التى فرقت بين الجهد البدنى الذى يقتضيه واجب مقرر أو يصحبه بطريقة طبيعية ، وبين جهد مفتعل عن نزوة خالصة. وقد رفضت هذا الجهد الأخير وحرمته .

ولعلنا نعرف خبر بعض اوائل المسلمين الذين فرضوا على انفسهم ضروبا مختلفة من الحرمان والتعذيب كنوع من العبادة المحمودة فدمغها القرآن بالمبالغة والمخالفة ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تعتدوا - المائدة ٨٧﴾ وورد فى السنّة هذا الموقف " فقال بعضهم لا أتزوج النساء . وقال بعضهم لاآكل اللحم . وقال بعضهم لا انام على فراش .. فقال النبى ﷺ.. لكنى أصلى وأنام ، وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى. " ومثال ان رجلاً نذر أن يقوم ولا يقعد .. ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم. فقال النبى ﷺ " مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه" .

ألا يترتب على ذلك ان الجهد البدنى فى الاسلام ليست له قيمة منفصلة عن مضمونة ؟

اذا كان اداء الواجب لا يتم إلا مع بعض المشقة البدنية فإن القرآن والحديث يطالبان بهذا الجهد على اختلاف صوره .

* جهد من اجل كسب القوت ﴿ فانتشروا فى الأرض - الجمعه ١٠ ﴾ ﴿ فامشوا فى مناكبها - الملك ١٥﴾.

* جهد من اجل كسب ما يمكّن من التصدق به (وقد سبق حديث الصدقة) .

* جهد فى اداء الصلاة فى وقتها المحدد ﴿ كتابا موقوتاً - النساء ١٠٣ ﴾ حتى اثناء الحرب ﴿ فان خفتم فرجالا أو ركبانا - البقرة ٢٣٩ ﴾ واداء الصوم فى اطول الايام وفى اقصرها ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه - البقرة ١٨٥ ﴾ واداء الحج فى اى فصل يكون ﴿ الحج أشهر معلومات - البقرة ١٩٧ ﴾ ومن المعلوم قبل الاسلام ان العرب كانوا يوفقون بين تجارتهم وبين الحج بعملية تأجيل تسمى " النسئ " ليقع دائما فى الربيع . وقد ألغى القرآن هذه العادة ﴿ إنما النسئ زيادة فى الكفر - التوبة ٣٧ ﴾ .

* جهد الدفاع عن الحقيقة السامية ﴿ ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ ... انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وانفكسم فى سبيل الله ... لو كان عرضا قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بَعُدت عليكم الشقة. وقالوا لاتنفروا فى الحر . قل نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون .. لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ... إلا كتب لهم به عمل صالح - التوبة ﴾.

هذه الروح النضالية القوية لا تظهر فقط فى الامر بالجهاد ، وانما نجد صداها فى صيغ مبايعة اوائل المسلمين للنبى ﷺ " السمع والطاعة فى العسر واليسر .. وان نقول الحق اينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم " . وفى حديث آخر " افضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر " .

ومن المفيد أن نبين بالامثلة مدى تفاوت قيمة الجهد البدنى تبعاً لعلاقته بالخير الذى يستهدفه الواجب ، وسوف نرى ان هذه العلاقة تبلغ احياناً درجة التطابق مع الجانب الرئيسى للواجب ، واحياناً مع جانب ثانوى من العمل ، واحياناً اخرى تنخفض الى علاقة مجاورة .

أ - النجدة.

عندما يكون الأمر انقاذ حياة غريق أو صيانة حياة يتيم اى حفظ الحياة الانسانية التى يقول فيها القرآن ﴿ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً - المائدة ١٢ ﴾ فما هو واجبنا فى هذه الاحوال ؟

من البديهى انه ليس اطالة الأعمار حيث لا سلطان لنا عليها . مع أن هذا هو الخير الحقيقى ، وانما واجبنا هو التوجه الى هذه الغاية بالوسائل المتاحة اى ان نمارس بعض الاعمال وان نبذل بعض الجهود : ذهنياً نكشف به الوسيلة ، وأخلاقيا تمليه الارادة الطيبة لكى نقرر استخدام الوسيلة ، وعضليا لتنفيذ القرار (بالقفز فى الماء مثلاً) والخطوة الأخيرة هى التى اوصلتنا الى أعلى درجة من الخير إذن الجهد البدنى هنا كان الجزء الأساسى الذى لولاه لظلت مهمتنا غير مستكملة .

ب-الصلاة.

عناصر الصلاة (الفكر - اللغة - حركة الجسم وتتضمن الفكرة - عمل القلب) هى نفس تعريف الصلاة . فضلاً عن الاستعدادات لتى تسبقها.

ومع ذلك فإن الجوانب كلها ليست لها نفس النصيب فى التكليف . اذ يمكن فى بعض الظروف اغفال هذا الجانب أو ذاك الا الجانب الاساسى الذى هو عمل القلب . فالمحتضر الذى لا يتحرك أو ينطق بكلمة عليه أداء الصلاة اداء ذهنياً بشرط وجود الوعى والذاكرة .

وهكذا نجد ان العمل البدنى الذى كان فى المرتبة الأولى (فى النجدة) اصبح هنا دوره ثانوياً ، وان كان متمماً للواجب فى الظروف العادية (باعتبار ان ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب) .

جـ - الصوم.

هو نظام غذائى يتبع شهراً فى العام ينظم الوقت ولا يمس كمية الأكل ولا نوعه. يبدأ من الفجر الامتناع عن تعاطى اى شئ طوال النهار ، وبعد الغروب يصبح كل شئ مباحاً . وهذا النظام ينطبق على العلاقات الجنسية . والجهد هنا ذو طابع اخلاقى فى جوهره . وهو نوع من " التدريب " المفروض على " الارادة الانسانية " لتحصل على نوع من الانتظام والثبات فى خضوعها " للارادة الالهية " . فالارادة الانسانية تحكم الجسد. أما تجاه الارادة الالهية فعليها ان توفق بين الامر الالهى والامر الذى تصدره للجسم باتباع احدهما للأخر . وخيرها فى اتباع دور الوسيط هذا . وشرها فى قلب هذا النظام والخضوع لما تشتهيه النفس . وهذا التدريب لا يقتصر هدفه على الموضوع المادى الذى يطبق عليه وإنما يقصد سلوكنا فى جملته . ولذا فان من يقترف المعاصى وهو صائم لم يستفد من الدرس وليس لله حاجة فى ان يدع طعامه وشرابه .

وتعريف الصوم ورد فى حكمه ﴿ كتب عليكم الصيام .. لعلكم تتقون-البقرة ٧٩﴾ وجاء فىالحديث " الصوم نصف الصبر" " الصوم جنة " وليس فى هذه النصوص ولا فى غيرها اشارة إلى الألم البدنى باعتباره واجباً أو نتيجة من نتائج الواجب التى يستهدفها الشرع

ومع ذلك فقد يحدث الألم البدنى طوال الصوم او فى بدايته كشعور بالتوعك الضعيف او القوى كنتيجة طبيعية للحرمان او لتغيير نظام الغذاء ، وهنا يلح السؤال عن حكم التعامل مع الألم .

الواجب ليس فقط ان نتحمله بصبر وكرامة كما ينبغى مع اى حادث يصعب تلافيه ﴿ ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ، وبشر الصابرين - البقرة ١٥٠ ﴾ وانما نعتبره فرصة عظيمة للتأمل فى فطرتنا وفى علاقاتنا بالله وبالناس . وننظر فى خشوع الى ضعفنا امام ضغط الضرورات على ابداننا ﴿ وخلق الانسان ضعيفاً - النساء ٢٨ ﴾ . ومدى العظمة والرحمة التى ندين بها لله على هدايته لنا ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون - البقرة ١٨٥﴾ وننظر الى اخواننا الذين يتاملون فى حياتهم العادية دون ان تضطرهم الى ذلك التزامات اخلاقية أو ظروف طبيعية عامة . وتصبح اغاثة المساكين نتيجة منطقية وطبيعية للصوم . وفريضة عقب اتمامه . فالمظهر المادى للامتناع يكون فى تحمل الآلام لا فى العمل ضدها . فهو عمل سلبى صرف لايسمى جهداً حقيقياً .

ويمكن استخلاص موقف القرآن ازاء " مشكلة الألم البدنى فى الاخلاق " .. فالتضحية هنا " لا ينبغى البحث عنها بطريقة مصطنعة وتعسفية ، ولا الهروب منها اذا فرضت علينا ضمن واجب من الواجبات " .

وسوف يتجلى هذان المبدآن عندما نتأمل تطبيق النبى ﷺ للمبدأ القرآنى على شتى القضايا الخاصة . ونكتفى هنا بقضيتين متناقضتين ناقشهما الاخلاقيون الاسلاميون بكثرة هما " الصبر والسخاء" و " العزلة والمخالطة " .

أ- الصبر والسخاء.

أى الفضيلتين أعظم : الصبر فى البأساء ام السخاء فى الرخاء؟

هب اننا نملك تحسين وضعنا وزيادة ثرواتنا ، كما نملك افساد وضعنا وتدمير ثرواتنا. هل واجبنا فى مرحلة التحول من حال الى حال ان نغير وضعنا أم نتصرف بطريقة تتناسب مع الظروف ؟

الاجابة نجدها فى حديث الرسول ﷺ "اذا سبب الله لأحدكم رزقا من وجه ، فلا يدعه حتى يتغير له او يتنكر. " فإذا نقلنا هذه الصيغة الى المجال الاخلاقى ، يمكننا ان نؤكد ان الانسان طالما انه يستطيع الوفاء بواجبه كاملا فيجب ان يظل على حاله ، وانه لا شئ يستدعى ان يصطنع جواً يثير عليه واجباً مناقضاً ؟ وهناك اجابة صريحة فى المجال الاخلاقى فى قول النبى ﷺ لبنى سلمة " انه بلغنى أنكم تريدون ان تنتقلوا قرب المسجد. قالوا نعم يارسول الله قد اردنا ذلك . فقال يا بنى سلمة . دياركم تكتب آثاركم . دياركم تكتب آثاركم " . أى أن خطواتكم سوف تحسب لكم .

نفرض ان الواجب فى بعض الحالات يتطلب تغييرا . كرجل بائس عليه ان يبذل قصارى جهده ليكوّن ثروة له فهل العكس صحيح ؟ (اى ان يفقر الموسر نفسه) كلا .. فان موقف الاسلام صريح فى هذا الشان . فقد كان النبى ﷺ يحث الناس على العمل " ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده " . وكان يحرم على الاصحاء طلب الاحسان " لأن يغدو احدكم فيحطب على ظهره فيتصدق ويتسغنى .. خير له من ان يسأل" " لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرّة سوى " . وكان يحرم على الموسرين تعريض انفسهم واهليهم للفقر ، إما بالتبذير أو بهبة ما لهم كله بقول له " امسك عليك بعض مالك فهو خير لك . " "لا .. الثلث والثلث كثير. انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس " ، " ياتى احدكم بجميع ماله فيقول هذه صدقة ثم يقعد يتكفف الناس " . بل قال " لا باس بالغنى لمن اتقى" " فنعم صاحب المسلم . ما اعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل".

والحق ان القرآن والسنة يهوّنان من شأن متاع الحياة الدنيا ، ويطالبان بالإعراض عنه . وهذا الزهد شمولى روحى ولا ينبغى فهمه بالمعنى المادى إلا فى ظروف شديدة الندرة . كحالة رجل بلا اعباء أو علاقات او تكاليف تضطره للتكسب وحاجاته العاجلة مشبعة . فالافضل له ان يسخر جل جهده للارتقاء بقلبه وروحه . وهى حالة المتصوفة المسلمين الذين سبقهم بعض الصحابة ولا سيما اهل الصفة . فعلى المسلمين أن يكون لهم موقف روحى متحفظ تجاه متع الحياة الدنيا ، وقدر من الترفع عن الحب الزائد الذى يستعبد " الروح " لخدمة " المادة " ، ويجعل من الوسيلة " غاية " . وليس هناك بعد هذا المعنى المزدوج اى موقف مشروع فى الاسلام تجاه الزهد . يحدده النبى ﷺ على هذا النحو " الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا اضاعة المال . ولكن الزهادة فى الدنيا ألا تكون بما فى يدك أوثق مما فى يدى الله " .

ومن ثم لا ننصح موسراً بأن يفتقر باختياره بحجة ان يصير مسلما حقاً . ولا العكس. كحالة رجل يتمتع بالضرورى قانعاً متعففاً يشتغل بالقيم العليا ، فلايجوز ان نثنيه عن مثله الاعلى لكى يغتنى مادياً .

أما ما يجب على المرء فهو ان يكون لديه النية الثابتة المستعدة لكى يغير هو موقفه بمجرد أن تتغير الاوضاع ، اى ان يكون دائما على استعداد للهجوم والدفاع والعطاء والصبر . ولما كان لكل وضع مقتضياته الاخلاقية فإن عليه ان ينهض بما يتطلبه الواجب الكامل فى كل وضع . فالاخلاق الاسلامية لا تطالبنا بان نلوى طبيعة الاشياء وانما بأن نكيف انفسنا معها . أى ان نجمع بين " الشجاعة " و " الكياسة ".

اذن الموقفان متساويان فى القيمة من الناحية العملية - حتى لو لم تتوفر النصوص ..! فما بالنا والنصوص كثيرة ، الحديث " عجباً لأمر المؤمن ، ان أمره كله له خير. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، ان اصابته سراء شكر فكان خيراً له . وان اصابته ضراء صبر فكان خيراً له " ، " الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر " اى ان الرجل الذى يشبع ويستثمر قوته فى عمل الخير وشكر الله ، يتساوى فى المنزلة مع الصائم الذى يتحمل مشقة الصوم .

واذا طرحنا المشكلة على بساط البحث النظرى من حيث تقدير الخير فى ذاته مستقلاً عن امكاناتنا ، فان الحل الاسلامى يتجه - فيما يبدو- الى منح الأولوية للفضيلة التى ينشأ عنها الخير الايجابى المشترك ، اى التى تفترض وجود درجة من الرخاء والرفاهية ، لا تلك التى يقتصر خيرها على مالكها وتحتم الحرمان والألم . هذا ما يبدو من الحوار الذى دار بين النبى ﷺ وبعض الصحابة ، ذلك ان فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ واعربوا عن حزنهم لعجزهم عن فعل الصالحات التى اوصلت الاغنياء الى " الدرجات العلا والنعيم المقيم " . فلم يناقش النبى ﷺ رأيهم وانما دلهم على عمل روحى قائلاً " افلا اعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد افضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا : بلى يا رسول الله : قال تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة " . وبعد ذلك رجعوا الى الرسول ﷺ فقالوا : " سمع اخواننا اهل الاموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله ﷺ " ذلك فضل الله يوتيه من يشاء " .

ب - العزلة والمخالطة .

والقضية الثانية هى التناقض بين حياة العزلة والحياة الاجتماعية . ونلاحظ أيضا هنا تفضيل الخير الايجابى العام من خلال بذل اكبر قدر من الجهد واعظم درجة من التضحية. وبطبيعة الحال لن نجد حكماً قاطعا لأن الأمر - كما قال الإمام الغزالى - يتوقف على الاشخاص وعلى الحالات .

فالعازب الذى يعتزل المجتمع ويهرب من المشاكل الاخلاقية (كالخطيئة) ويخلق لنفسه عالماً مصطنعاً لكى يكون اكثر طهارة وعفة .. يعتمد على قوة الاشياء المحيطة به لا على قوته الذاتية . ولهذا لا يستحق البطولة والتقدير كالذى يواجه الحياة الاجتماعية بما فيها من مسئوليات ومغامرات وتضحيات وجهد للتغلب على العقبات .

ولهذا نرى النبى ﷺ طبقاً لما نص عليه القرآن ﴿ **وانكحوا الأيامى منكم ... وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً** - النور ٣٢ ﴾ يوصى الشباب بالزواج اذا كانوا قادرين

على واجباته " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ... ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " (والصيام هنا اجراء مؤقت واستثنائى محدد بظرفه لا كوصية عامة للحالة العادية الدائمة) . وفى حديث آخر إجابة محددة عن " اى الناس خير ؟" قال النبى ﷺ "رجل جاهد بنفسه وماله ، ورجل فى شِعْب من الشّعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره " . ونجد هذا التدرج فى حديث آخر أن صحابيا اراد ان يعتزل الناس فقال له النبى ﷺ" لا تفعل فإن مَقام احدكم فى سبيل الله افضل من صلاته فى بيته سبعين عاما " .

ولا شك ان هناك ظروفا تضطر العاقل ان يتجنب الناس لدواع شخصية أو لأسباب عامة كالاضطرابات الاجتماعية والحديث يقول " ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ... من يشرف لها تستشرفه . ومن وجد منها ملجأ أو معاذاً فليعذ به " . والدواعى الشخصية مثل شخص له طبع شديدالحساسية أو بشدة تجعله لا يستطيع ان يعيش على وئام مع اخوانه. فعليه اتباع وصية تناسيه " ليسعك بيتك ، وامسك عليك لسانك، وابك على خطيئتك " . ولكن شتان بين الرجلين " : المسلم اذا كان يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذى لا يخالط الناس ولا يصبرعلىاذاهم " .

ولقد فهم المجربون الثقات ذلك فقالوا ان " العارف " (اى عارف الحقيقة) هو انسان " حاضر غائب " اى انه على علاقة بالمجتمع بشواغله العادية ، منفصل عنه بفكره المتعلق بالله تعالى .

غير ان العزلة النافعة والمرغوبة والتى تنمى القيم الاساسية ، هى العزلة الجزئية اى الابتعاد الجزئى عن الضجيج الدنيوى بالقدر الذى يحقق الاستجماع والتأمل المثمر الذى يؤدى الى اضاءة افكارنا واعلاء مشاعرنا وشحذ عزائمنا ودعم صلاتنا بالقيم المطلوبة. ويتحقق ذلك داخل المدينة لا خارجها وخلال ساعات فراغنا وبخاصة اثناء الليل ﴿ إن ناشئة الليل هى اشد وطئاً وأقوم قليلا - المزمل ٦ ﴾.

وكان النبى ﷺ النموذج الامثل لهذه العزلة الجزئية والمتقطعة قبل بعثته وبعدها وبخاصة فى العشر الأواخر من رمضان . وكان ذلك فى بيته أو بجوار البيت فى مسجده. واقتدى به كثير من الصحابة ومازال بعض المسلمين عليه حتى يومنا هذا .

٣- جهد وترفق :

تثير الحالة التى تقتضى تدخلا من طاقتنا لتحقيق الخير الاخلاقى (بمعناه الواسع) التساؤل عن المدى الملزم لهذا التدخل .. أنستخدم طاقتنا بأكملها ؟ ام الى حد معين اذا تجاوزته يتحول جهد الواجب الاساسى الى واجب كمال(كما اوضحناه فى

دراسة درجات الجهد الاجتماعى) والاقتضاء الملح الـى نـوع من الاجـازة أو نـوع مـن التحريم ؟

استناداً الى بعض النصوص فان الجهاد يستهدف المثل الأعلـى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون .. وجاهدوا فى الله حق جهاده – الحج ٧٧-٧٨** ﴾ (الجهاد هنا بمعناه العام) ﴿ **اتقوا الله حق تقاته – آل عمران ١٠٢** ﴾.

ولكن آيات كثيرة فى القرآن واحاديث عديدة فى السنّة تذكّرنا بإمكاناتنـا البشـرية ﴿**فاتقوا ما استطعتم – التغابن ١٦**﴾ وتوضح حد العمـل – لا طبقاً لكون اللـه جديراً بـه بمقتضى صفاته المطلقة – وانما طبقاً لقدرة الناس ، وتعفيهم مما يتجاوز هذه القدرة مـع حثهم على تسخير كل قواهم فى سبيل هذا المثل الأعلـى .. فهل الاخـلاق القرآنية تـأمر باستهلاكنا وبذل حياتنا بإنهاك قوانا ؟

هذا اللبس يبدده حكمان ﴿ **ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيماً– النساء ٢٩**﴾ ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم فى التهلكة –البقرة ١٩٥** ﴾ (بالمعنى الحقيقى والمجازى) . وكلما نزلنـا الى الاحكام الخاصة كلما رأينا الحرص على ان يكون تطبيقها اكثر انسانية وعقـلاً . فـان توقع الموت بسبب الحرمان أو الاكراه يجيزان مخالفة الشرع بل ان المرض والشيخوخة و ضرورات الحرب ومتاعب السفر تفرض فى الصلاة نوعاً مـن التخفيـف أو التـأجيل أو التعديل .

وفى اطار اهتمام القرآن بتعديل الواجب تبعاً للموقف ، نلاحظ ان هـذه الحـالات استثناء وليست قاعدة ، وذلك من ناحيتين : فهى استثناء فى الواجبات لأنها تتصل اساسـا بالواجبات الدينية . ولا شأن لها بالالتزامات الانسانية ، وهى استثناء فى التطبيق لانهـا لا تعفى سوى الضعفاء والمعوقين . وحتى فى المجال الدينى لا علاقة لهذه الحالات بالايمان القلبـى , لأنهـا لا تمـس سـوى جـانب مـادى مـن الواجـب مـع المحـافظــة علــى العنصــر الجوهرى. لأن أشد المعوقات لا تعفـى مـن الصـلاة ، ولا تبيح زحزحـة موعـد الحـج .. والتعديل فى هذا النطاق لا يعتبر إلغاء ولا تنازلاً .

والحق انـه فيمـا عدا هـذه التعديـلات المحـددة فـى النصـوص والتـى لا يصـح تعميمها، فان القرآن والسنّة يقرران أن "للضرورة احكام " بصفة عامة ﴿ **إلا ما اضطررتم اليه – الانعام ١١٩**﴾ كما يبرزان هذه الضرورة فى جانبها الواسع والانسانى ليوفرا علينـا جهدا قاسيا وضارا فى ممارستنا العادية وبخاصـة ممارستنا الدينية والنصـوص متعـددة حيث التركيز على طابع الرحمة فى الشريعة القرآنية .

هل يكون فى هذا تشجيع على التهوين من شأن الجهد ؟

من المفيد أن نتأمل لهجة القرآن فى تعبيره عن الاستثناءات وحذره الشديد فى تناوله لها حتى لا نكاد نسمعها . واذا تأملنا من قريب لرأينا ان الضرورة لا تلغى التكليف وانما ترفع أثر الانتهاك فحسب فيتم العفو عنه فور وقوعه ﴿ فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم - النور ٣٣ ﴾ ﴿ فمن اضطر فى مخمصة .. فان الله غفور رحيم - المائدة ٣ ﴾ . وفى الحالة التى يسمح القرآن فيها بدرجة اقل من الجهد يستثير فى الحال شجاعتنا لمقاومة اغراء الضعف وينصحنا بتحمل المشقة المترتبه على المقاومة واتباع الحل الانبل ﴿ وان تصبروا خير لكم - النساء ٢٥ ﴾ ﴿ وان تصوموا خير لكم - البقرة ١٨٤ ﴾ هذا التوجيه الى نبل الجهد لازمة تتكرر فى القرآن ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - الاحقاف آخر آية ﴾ و﴿ ولَمَن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور - الشورى ٤٣ - آل عمران ١٨٦﴾. وبصفة عامة يدعونا الى اختيار الاكرم والانبل من درجات الخير الاخلاقى فالسخاء افضل من العدل ، والعفو أولى من القصاص . فشعار القرآن جاهدوا ، اصبروا ، صابروا ، افعلوا الاكثر خيرا .

ولا يمضى القرآن إلى حد الافراط فى هذا التوجيه ، وإنما يضع حدين أمام جهدنا المتحمس ، احدهما مادى والآخر أخلاقى .فالأول ان المريض ليس واجبا عليه ان يؤدى نفس الجهد الذى يؤديه الصحيح . والثانى انه ليس بواجب فى بعض الحالات ان ينهمك المرء فى بعض الشعائر على حساب شعائر اخرى ﴿ علم ان سيكون منكم مرضى، وآخرون يضربون فى الارض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله . فاقرءوا ماتيسر منه .. - المزمل ٢٠ ﴾ . فالجهد يجب ان يتوزع بالعدل على جميع الواجبات . وفى الحديث " ان لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فاعط كل ذى حق حقه " . ولهذا كان النبى ﷺ فى مناسبات كثيرة يلوم او يذم الافراط فى العبادة ، كقيام الليل الطويل وصوم الدهر أو الصوم فى السفر الشاق أو الحج سيرا على الاقدام.

ولكن السنّة تروى ان النبى ﷺ كان من عادته ان يبذل جهداً يشبه ما كان ينهى عنه غيره . فلم ينم ليلة كاملة ، وكان يقوم الليل حتى تتورم قدماه ، وكان يعتكف فى العشر الأواخر من رمضان ، وكان يأمر اهله بذلك ، وكثيراً ما كان يواصل الصوم ليلا ونهارا اياما كثيرة متوالية . وكان يقول " افلا أكون عبداً شكوراً " أو يقول " انى لست مثلكم ، إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى" .

وهنا ندرك الطابع النسبى للجهد المطالب به . فالناس ليسوا سواسية فى طاقتهم الاخلاقية فضلاً عن قوتهم المادية - فما يعد افراطا بالنسبة الى البعض ليس كذلك بالنسبة

لغيرهم. ولذلك تمسك عدد كبير من المسلمين بروح التضحية والاستبسال مثل مافعل صهيب ﴿ **ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله – البقرة ٢٠٧** ﴾ فقد عرّض حياته للخطر ثم عرض على المشركين امواله وبيته لكى يتخلوا عنه . وعلق النبى ﷺ على ذلك قائلاً " ربح البيع .. ربح البيع " . وقصة الاخوين الجريحين فى أُحُد معروفة .

اذن هذه الرحمة التى كان يبديها النبى ﷺ تجاه عامة الناس لا تنفى لديه ولا لدى الذين يريدون ويستطيعون الاقتداء به – التزاما متميزا نحو انفسهم ببذل اشجع الجهد وفى نفس الوقت اعقله وأوفقه . وجملة القول اننا امام تركيب يجمع بين الشدة والرفق يمثل الفقه القرآنى ﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج – الحج آخر آية** ﴾ والآية تجمع بين الفكرتين معاً . وتؤكد السنّة سمات النظام الاسلامى فهو "متين " و " يسر " " أن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق " و " لن يشاد الدين أحدٌ إلاغلبه " أى سوف يفشل فى مهمته .

هل يمكن ان نتوصل الى طريقة لتعريف محتوى هذه الفكرة المركبة (فكرة الجهد النبيل المعتدل)؟ اذا كنا نريد تعريفا بصيغة رياضية شاملة فيجب ان نعدل عن ذلك .. وانما علينا تحليل هذه الفكرة من الخارج ومن الداخل .

* اما من الخارج فيمكننا القول اجمالا ان جدلية عنصرى الفكرة يجب ان تضعهما فى مركز وسط بين " الخمول " وبين " السعى الحثيث " . وهذا المركز الوسط لا يتصور كنقطة هندسية تقع على بعد متساوى من نقطتين ، نظرا لاختلاف التصرفات الفردية التى تتوقف بدورها على آلاف الظروف التى لا نملك السيطرة عليها ، وان المقياس العام يشبه منطقة مركزية تتأرجح بين قطبين يميلان تارة نحو جانب وتارة اخرى نحو الجانب الاخر وتشتملان على درجات لا نهاية لها فى التفاوت. ولتحديد هذه المنطقة المركزية ليس امام الناظر وسيلة سوى اللجوء الى الحس المشترك والتقديرات التقريبية المستنبطة من التجارب اليومية . وفى الحقيقة اننا نعلم متى تفتر الطاقة وتقترب من الخمول ، ومتى تهيج وتصبح محمومة وبالتالى نستطيع تحديد مكان للجهد المعقول بينهما وعلى درجات مختلفة .

ولقد استخدم القرآن هذا المقياس المشترك فى ارشاداته لعامة الناس ، ولهذا يرى ان البرد والحر والعرق والتعب والجوع والعطش .. وما شابهها من الصعوبات التى لا تعوقنا فى مزاولتنا لاعمالنا المهنية ، لا ينبغى ان تمنعنا من استخدام كل قوانا للوفاء بواجباتنا الاخلاقية. وكما يحدث ان نبذل احيانا قدرا اضافيا من الجهد لتلبية بعض حاجات الذين نعزهم ونتكفل بهم . علينا ان نتحمل اكثر ونبذل تضحية اكبر إزاء اى واجب اخلاقى اشد الحاحا ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً – التوبة ٤٠** ﴾ ﴿ **وقالوا لا تنفروا فى الحر**

قل نار جهنم اشد حراً – التوبة ٨١ ﴾ ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ومخمصة فى سبيل الله .. إلا كتب لهم به عمل صالح – التوبة ١٢٠ ﴾.

ورغم عدم الدقة التى تبدو فى هذا التعريف الخارجى فان له ميزة مزدوجة : انه يتوافق مع منهج القرآن من جهة ، ويلبى المتطلبات الاساسية الأخلاقية من جهة أخرى .

ونلاحظ ان القرآن فى المواضع التى يتحدث فيها عن دواعى الاعفاء ، يستخدم عبارات نوعية مثل " مرضى " و" ابن السبيل " ... الخ مكتفياً بالمعنى القريب الذى نطلقه بصفة عامة دون ان يحدد درجة المرض ولا مسافة السفر ولا مدته . حتى ان الفقهاء عندما حاولوا تحديد الحد الأدنى للمسافة التى يطلق عليها سفر اختلفت آراؤهم وتباينت .

غير ان اسلوب عدم التحديد هذا ، لا غنى عنه لحفظ حرية الضمير الاخلاقى . فبدونه لن يجد الفرد اى مجال للاختيار. وبهذه الطريقة فى التعبير التى جمعت بين الوضوح والمرونة ، استطاع القرآن ان يرسم اطاراً متجانساً نوعاً ما لتحديد الخط الاخلاقى الوسط والمشترك لكل افراد المجتمع ، والغنىّ بألوان الاختلاف والعديد من درجات القيمة .

وداخل هذا الاطار يدعى كل فرد لمزاولة نشاطه وليتشبث بدرجة مرتفعة على سلم القيم تناسب طاقته المادية ومطامحه الاخلاقية . وعلى هذا الاساس ندرك ما جاء بالسنّة من ان الصحابة فى سفرهم مع النبى ﷺ كان لا يعيب فيهم الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم .

والقرآن عندما يغفل تحديد شروط هذه الرخصة أو تلك ، يعتمد على الضمير الانسانى ، بل ويرجع اليه صراحة لتحديد بعض الواجبات الاسرية والاجتماعية التى اكتفى بطلب أدائها بطريقة انسانية (بالمعروف) **﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف – البقرة ٢٢٨ ﴾﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف – البقرة ٢٣٣ ﴾ ﴿ متاعاً بالمعروف – البقرة ٢٣٦ ﴾** . بل ان القرآن كثيراً ما يضع الخير والشر تحت اسم "المعروف والمنكر ".

* غير أن المقياس الحقيقى لهذه الفكرة لا يتوفر إلا من الداخل ، اذ يجب أن يعهد به لعناية كل فرد – لا ليحدد صياغته مرة واحدة بصفة نهائية – وانما لكى يضاهى فى كل تجربة بين مدى قوته المتاحة ، وبين مدى اهمية العبء الملقى عليه دون ان يغفل التنسيق بين جملة التزاماته .

وقد يحدث ان ينقاد المرء لرغبة خفية للافلات من الواجب . فيستغل مرونة القاعدة العامة ويطبقها على حالات مقاربة تكون فى ظاهرها من نفس الطبيعة .. فى هذه الحالة تتحقق المظهرية ، اما الأخلاقية فلا .. اذ لايمكن التحدث عن الاخلاق إلا بقدر ما يكون المرء صادقا مع نفسه . وهذا المبدأ لا يزال القرآن يردده فى آذاننا ﴿ **غير متجانف لإثم – المائدة ٣** ﴾ ﴿ **ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله – التوبة ٩١** ﴾ وهو يقرر من حيث المبدأ العام بطلان اى عذر لا يتفق مع الصدق والاستقامة ﴿ **بل الانسان على نفسه بصيرة ولو القى معاذيره – القيامة ١٤ – ١٥** ﴾ .

وقد يحدث ان يتخلى المرء عن بذل الجهد قبل أن يواجه اية عقبة ، نتيجة التراخى والاهمال .. لا عن سوء نية . فقد يتخيل مسبقا قيام عقبات مستقبلة فيقول لنفسه : لن افعل هذا .. سوف أمرض . او لن أفعل ذاك فقد يعيبه الناس علىّ . أو لن اعطى الفقراء فقد افتقر .. وهذه فى الغالب أوهام أو بلغة القرآن افكار شيطانية ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء . والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً – البقرة ٢٦٨** ﴾ كلا لا يجوز التراجع إلا امام عقبة فعلية واضحة ، او على الاقل عرفناها عن تجربة معرفة كافية .

اذن ينبغى دائما ان نبدأ بالرغبة الصادقة فى الطاعة ، وان نباشر العمل ولو بدت المهمة شاقة ﴿ **ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا–النساء ٦٦**﴾ (لأنفسهم) وقد نصل الى طريق مسدود فيظهر الحل على الفور بفضل من الله.وتكفينا تجارب النفوس الكبيرة مثل ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام ومثل ام موسى .. فهذا هو حال الذين يستسلمون لارادة الله ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً – الطلاق ٢** ﴾ ﴿ **إن مع العسر يسرا . ان مع العسر يسرا – الانشراح ٥–٦** ﴾.

ويحدث للمرء ان يكتفى بواجباته الجوهرية ويتجنب الكبائر ويرضى بالمستوى المتواضع للرجل الطيب . معنى هذا انه بدأ جهده بتحديد مثله الأعلى عند درجة متوسطة تناسب مستوى هذا الجهد المتوسط . وهذا خطأ يحدث نتيجة خلط " الغاية " "بالعمل " . لأن اعتدال العمل لا ينبغى ان يبدأ او يتحقق إلا من نية تستهدف أعلى قيمة أى أسمى درجات الكمال . ويكون للتحديد الذى يقل عن ذلك انعكاسات على الارادة مثل : التوقف والانكماش والزهادة فى المستوى .

والآيات التى تأمرنا بالجهاد حق الجهاد فى سبيل المثل الاعلى ، بغض النظر عن امكاناتنا ليس لها معنى انسانى آخر . فهى تحاول فى الحقيقة ان تدفع جهودنا الى اعلى درجة ممكنة من حيث الكثافة لكى ننشد الافضل ونتنافس على الدرجات العلا . والنبى ﷺ يقول " خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرا صابرا . ومن لم تكونا فيه لم

يكتبه الله لا شاكرا ولا صابرا .من نظر فى دينه الى من هو فوقه فاقتدى به . ونظر فى دنياه الى من هو دونه فحمد الله على مافضله به عليه . كتبه الله شاكراً صابراً . ومن نظر فى دينه الى من هو دونه ، ونظر فى دنياه الى من هو فوقه فأسف على مافاته منها لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا . "

خاتمة الفصل.

عرفنا الآن الجهد الذى يطالب به القرآن أو يحث عليه . إنه بدايةً نشاط اخلاقى وبدنى مسخر لخدمة الواجب ويقارن به . ولا علاقة له بما هو " استبدادى " . ثم هو بعد ذلك نشاط "مستنير" استنارة مزدوجة باعتبار ان نظره لاينحصر فى الطاقات المتاحة لاستخدامها بدراية تامة ، وانما يضم بنظرة واحدة شتى علاقات الفرد (بربه وبالناس وبنفسه) كى يتوزع النشاط بين هؤلاء توزيعا عادلا ويشبع متطلباتهم المتنوعة .

وأخيراً هو نشاط " نبيل " "مدرك لعواقب الأمور " لايستهلك نفسه فى الحال فيصير بلا أثر وبلا غد . وانما على العكس يتأهب لنوع من الدوام ومن الثبات لا يقل فيه السرور والاستبشار وانما يتزايدان دائماً .

وهكذا بعد ان يأخذ الجهد فى اعتباره مثل الواجب الاعلى مزودا بعناصره الثلاثة (القوة والمكان والزمان) ينطلق بطريقة ما بحيث انه كلما ارتقى فى نبله كلما تجنب الافراط ، وكلما نزل الى حد الاعتدال كلما تجنب التقصير .

وهذا يحملنا على التفكير فى نظرية ارسطو عن "الوسط العادل " التى جاءت فى كتابه " الاخلاق " ، ويجعلنا نعقد تقارباً بين النظرتين (مع استبعاد احتمال حدوث اى اقتباس لأن اول اتصال للفكر الاسلامى بالفلسفة اليونانية كان بعد قرنين من ظهور الاسلام) وينحصر بحثنا فى كشف ما بينهما من اوجه التشابه والاختلاف .

ان فكرة " المقياس " فكرة قديمة . اذ يرى أتباع فيثاغورس ان العالم عدد وتناسق . ويقر افلاطون على الصعيد الاخلاقى بوجوب تنفيذ كل شئ بمقياس العقل السليم وطبقا لمقتضياته . ولكى يعرض ارسطو هذه الفكرة بطريقة اقل تجريداً قال انه يجب الالتزام بالوسط العادل وتجنب الإفراط والتقصير.

ونجد ذات هذا المبدأ العملى فى القرآن - لا بشأن الجهد فى التقوى فحسب كما رأينا - وانما فى الزهد ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا - الأعراف ٣١ ﴾ وفى العفة ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على ازواجهم - المؤمنون ٥-٦ ﴾ وفى السخاء ﴿ والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً - الفرقان ٦٧ ﴾ وفى خفض الصوت واللطف فى السير ﴿ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك - لقمان ١٩ ﴾.

الى هنا واوجه التشابه واضحة .

وهاهو أول اختلاف . إذ لاتجد فى القرآن صيغة عامة تجمع بين الفضيلة والعمل المتوازن كصيغة ارسطو حين يقول " الفضيلة نوع من التوسط لأن الهدف الذى نتوخاه نوع من التوازن بين الطرفين .. وبينما المبالغة والتقصير ينمّان عن الرذيلة فإن الوسط العادل يجسد الفضيلة " .

هل يعتبر هذا التعريف كاملاً ؟ أم دقيقاً ؟ أم قائماً على استقراء كامل ؟ وفى البداية هل جميع الافكار الاخلاقية تسلم بهذا الاختلاف فى الكم بالزيادة والنقصان والمساواة .

نستبعد مثال " الصدق " الذى اعتبروه استثناءً من القاعدة استنادا الى ان من يضيف الى الحقيقة بعض المبالغة ،ومن يخفى منها شيئاً كلاهما فى الخطأ سواء . ونميل الى تعريف الرجل الصادق بالذى يقول الحقيقة كاملة .

فكيف نثبت اذن ان التقسيم الثلاثى فى عمل اخلاقى باطنى لا يقبل القسمة ؟ لنأخذ مثال "الامانة " من حيث هى اتفاق باطنى للمرء مع نفسه ازاء موقف معين . هنا يبدو لنا مبدأ الطرف الثالث المستبعد منطقياً بكل قوة . لأن المرء إما ان يكون صادقاً مع نفسه أو لا يكون مثلما انه يرى أو لا يرى ..

ويبدو ان تعريف أرسطو يعتريه الخطأ إما "بالزيادة " - حين ضم حالات لا تتفق مع الشئ المعّرف - وإما "بالنقص" لعدم اشتماله على كل ما هو معرّف . فالتعريف ليس جامعاً ولا مانعاً. بحيث يمكننا القول بان الحكمة القرآنية عرفت كيف تتوقف حيث ينبغى لها أن تتوقف حين تجنبت اصدار صيغة جامعة فى هذا الموضوع .

لنتقدم خطوة وننظر للحالة التى تتفق فيها النظريتان على التوصية بالاعتدال . فيما يتمثل هذا الاعتدال ؟ تحتوى الاجابة على اختلافات طفيفة .

اكتفى ارسطو ببعض العموميات المجردة وعهد لكل فرد فى النهاية بتحديد ما عساه ان يكون هذا " الوسط الممتاز " ودلنا فقط على عناصر التعريف .. فقال " يجب أن تظهر اعمالنا ومشاعرنا " فى اللحظة المناسبة بناء على اسباب مقنعة ، حيث يوجد الاشخاص الذين يستحقونها ، ومن اجل غايات وفى ظروف ملائمة " . حسن جداً ولكن ما هذا " المناسب والمقنع والملائم " ؟ .. الذى يدل على ذلك هو العقل السليم . بناء على ذلك يكون مقياس الفضيلة غير مفهوم لعامة الناس .

وإذا أخذنا مثال" السخاء " فيقول " إن معرفة لمن نعطى وكم متى ومن اجل أية غاية وبأية طريقة ؟ .. هذه هى الصعوبة .. ولهذا فإن الاستعمال الحسن للمال نادر للغاية .. ويجب على من يريد الاعتدال ان يبتعد عن كل ما يبعد عنه .. وان يرضى باقل قدر من الشر ... " هذا هو كل التحديد.

أما القرآن مع السنّة المفسرة له ، فانه قدم لكل فضيلة مقياسا محددا يسهل التعرف عليه ، وتنعدم معه فرص الخطأ والالتباس . وبعد ذلك جعل التناسق مع مجموع الفضائل يتحقق عن طريق القاعدة العامة التى توجب علينا التوفيق بين واجباتنا .

واخيراً فيما يتعلق بدرجة الجهد فان الوسط الحكيم الذى يدعو اليه القرآن ليس " المتوسط الحسابى " ولا هو " نقطة الذروة " اللتين يتأرجح بينهما فكر ارسطو ، وانما يتمثل فى " نبل" يقترب بقدر الامكان من الكمال مصحوبا بالسرور وبالامل . وهو ما عبر عنه الرسول ﷺ فى دعوته الى الرفق فيما هو عدل فى ذاته " فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا " .

***

الخاتمة العامة.

تعليم الناس واجباتهم الحقيقية من اكبر المهام التى نهض بها القرآن على أكمل وجه . ومع كونها الهدف الرئيسى لتعاليمه ، فقد اضطلع القرآن الى جانبها بمهمة أخرى نظرية . فقدم لنا العناصر اللازمة لتتكون لدينا رؤية صحيحة عن الاخلاق .. فالالزام والمسئولية والجزاء والنية والجهد هى الاركان الرئيسية لكل نظرية اخلاقية تعرف قدر نفسها . ولقد خصصنا فى هذا البحث دراسة لكل عنصر منها .

فلنلق الأن نظرة شاملة تضم جملة النتائج التى انتهينا إليها . والى جانب ذلك سوف نضيف بعض المعالم المميزة لهذه الاخلاق .

نسأل فى البداية بأى معنى وإلى أى حد يمكن وصف الاخلاق القرآنية بأنها دينية ؟

لا شك انه ليس بمعنى ان القواعد التى قررتها هذه الاخلاق كان موضوعها الوحيد أو الجوهرى هو تنظيم علاقة الانسان بربه . اذ من اليسير التأكد من ان تشريع هذه الاخلاق قد تضمن جميع أوجه النشاط الانسانى[1] ، وان مساحة الشعائر العملية الدينية تشغل اقل حيز . فلم تعرف الانسانية اخلاقاً فى كمال الاخلاق القرآنية فى هذا الجانب .

والحق انه يجب ان نفرق بين وجهتى نظر " الامتداد" و" المقدار التكثيفى " أو "الظاهر والباطن " . واذا كان نشاط المسلم فى الميدانين (الحيوى والاجتماعى) يشغل فى مظهره الخارجى مساحة اوسع مما تشغله العبادة ، فإن حياته الباطنة تتميز بالتدين بشكل مكثف : فهو يحب الله اشد من اى شئ ، ويخضع كل شئ لارادة الله . ويستلهم أمر الله ورضاه فى كل شئ .

ولا يجوز أن نفهم أن الأخلاق القرآنية دينية بمعنى ان رقابتها فى السماء وان جزاءها فيما بعد الموت ، بل إنها تعهد بهذه السلطات لقوتين فعالتين هما الضمير الأخلاقى والسلطة الشرعية الزمنية ، وانها تكلف كل فرد فى المجتمع بأن يمنع انتشار الشر والظلم بكل الوسائل المشروعة .

وهى ليست دينية بمعنى ان محركها الخوف والرجاء ، وان تسويغها فى إرادة عليا تملى أوامرها بطريقة استبدادية مستقلة عن كل متطلبات العقل والشعور الانسانى ،

---

[1] انظر الايات القرانية المصنفة تحت عنوان " الاخلاق العملية" بالقسم الثانى. (المؤلف).

وأن ما على الانسان سوى الخضوع لها دون مناقشة او فهم .. انما العكس هو الصحيح .. اذ ان القرآن لا يتوانى فى الدعوة الى المفاهيم الانسانية ليبرر احكامه ، وقد زود تعاليمه الاخلاقية بنظام تربوى بلغ من الكمال انه يصلح لجميع المستويات الاخلاقية ، ويشبع حاجة الجميع الى الاقتناع سواء على المستوى العقلى أو العاطفى، الصوفى او الانسانى.

من خلال هذه العلاقة الثلاثية يدخل العنصر الدينى جزئياً فى اعتبار المشرع ، إما كجانب من جوانب الحياة الانسانية يحتاج الى قاعدة تنظمه ، وإما كأكبر ضمان لتطبيق الشرع بنجاح ، وإما كمسوغ لما قد تغيب عن ادراكنا أهميته وعن علمنا كشفه وتفسيره عقليا. وعلى كل حال فالعنصر الدينى والعنصر الاخلاقى لا يمكن تركيب احدهما على الآخر ولاان يعّرف احدهما الآخر .

ألا يمكن تحقيق هذا التركيب من جانب واحد حين ننظر الى الاخلاق القرآنية من حيث مصدرها التشريعى ؟ وهل هيمنة الواجب علينا لاترجع فى نظر القرآن الى .. " سلطة دينية خالصة " ؟ اننا نتردد فى الرد بالايجاب الصريح ودون قيد او تحفظ .

اولاً : لأن قانون الضمير كما يقرر القرآن سابق فى وجوده على شريعة الدين الوضعية فمنذ خلق الانسان والشعور بالخير والشر والعدل والظلم مطبوع فى روحه .

ثانيا : لأن الشريعة الوضعية لم تات لإلغاء القانون الطبيعى وإقامة السلطة الباطنية التى تثبت دعائمه . وانما صدقت عليه ومدت فى سريانه وزادته تحديدا. أما بالنسبة للضمير فقد سلمت بأهميته واعتمدت عليه لدعم سلطانها بعد ان أمدته بالغذاء والمعرفة .

والواقع انه لاالشريعة الايجابية ولا القانون الطبيعى يمكن فرضهما على الانسان دون قبوله . فالامر الالهى لا يصبح الزاماً أخلاقياً الا برضانا " لأن الواجب الأول هو الايمان بالواجب " . وينبغى ان أتلقى من ذاتى الباطنة الأمر بطاعة هذا الأمر العلوى .. ولذلك نجد القرآن يذكّر المؤمنين بالتزامهم العام الناشئ عن عقد الايمان قبل ان يطالبهم بالطاعة المخلصة . وهكذا شأن الطابع الالهى للأمر القرآنى .. انه لحظة وسيطة بين شعورين لدى الانسان يستحثهما القرآن دائماً.

فمن الناحية التحليلية يعتبر " العنصر الدينى " و " العنصر الاخلاقى " مفهومين مستقلين بلا رابطة بينهما . وهما استجابة لنوعين من المثل الاعلى ، احدهما يتعلق " بالكائن " والثانى " بالمآل " . ففى المجال الاول يكون موضوع المعرفة والتأمل والحب هو المثل الاعلى فى الكائن الكامل والحق والجمال ، وفى المجال الثانى يكون موضوع الطموح والابداع هو المثل الأعلى فى العمل الكامل اى فى الفضيلة .

ويقول " كانت" ان التقريب بين هذين المفهومين يتم نتيجة اتفاق منطقي وحكم تركيبي عندما نعتقد ان الله الخالق " سيدٌ " و"مشرعٌ " ونتخذ من توجيهه أمراً اخلاقيا ولبلوغ هدا يجب ان نمر بمجموعة ثالثة من الافكار الوسيطة . فإننا نؤمن بان للخالق صفات أخلاقية مثل العدل والحكمة والرفق ، وفضلا عن ذلك فإننا نعتبر شرعه "شرعنا " وأمره " امرنا " وإلا ظل المفهومان منفصلين دائماً .

ثالثا واخيراً : يلاحظ المتأمل في الاخلاق القرآنيـة ان واجبات أسرية واجتماعية كثيرة تركت من حيث الكم بلا تحديد لكي يتولى الضمير المشترك تحديدها. بل ان كل إلزام قرآني يحدد - كشرط لتطبيقه - جملة من الاعتبارات يجب ان تراعى في القدرة الانسانية والواقع المادى والتناسق بين الواجبات . ومن هذا المنطلق تخول لضمير كل فرد جزءاً لا غنى عنه من العمل التشريعي لصياغة واجبه المادى في كل لحظة. وعندما يعلن القرآن ان سلطته رفيقة وحمله خفيف ، فإن هذا يرجع في بعضه الى التدخل الثلاثي للضمير الانساني في الاقرار بالواجب وفي بنائه .

نرى الآن كيف ان هذا التدخل قد احاط بالعنصر الديني حين وضع قبله ومعه وبعده ، عناصر انسانية وحوله الى عنصر اخلاقي بالمعنى الصحيح . وبناء على ذلك فمن حيث التشريع - فضلاً عن الجزاء والتسويغ والمادة التى هى موضوع تعاليمه - لا نستطيع ان نصف هذه الاخلاق بصفة واحدة انها دينية فقط لا غير لأن العنصر الديني عنصر واحد ضمن عناصر كثيرة .

ومع ذلك فهناك مجال يتسع فيه الطابع الديني ويكتسح بل ويحتل مساحة الضمير كلها .. انه مجال " النية " (أو جانب القصدية) حيث ينفرد المعنى الديني بلا منازع . مما يجعل من الممكن بل من الضرورى اطلاق اسم "الاخلاق الدينية " على هذه النظرية.

والغاية التى يتواخاها المؤمن من نشاطه عندما يريد الوفاء بواجبه لا تستهدف طيبات الدنيا ولا سعادة الأخرة ومجدها . ولا ارضاء شعوره الخيّر ، بل ولاكمال ذاته الباطنية .. ان الله وحده هو الغاية فهو الذى يجب ان يكون نصب عينيه. وكل غاية اخرى تحرك الانسان تعتبر نقضاً للقيمة الاخلاقية . ولا شك اننا يجب ان نخاف وان نأمل ، وانه بوسعنا ان ننشد رفاهيتنا المادية والمعنوية لذاتها ، أو لأن هذا هو واجبنا بل وحقنا ، على ألا يكون ذلك ثمنا لطاعتنا وإلا كان ذلك امتهانا وخرقا للشرع بل ونقضا للاخلاقية التى علمنا القرآن قانونها .

واذا كانت السمة المميزة لأية نظرية أخلاقية تنبع من المبدأ التى تطرحه على الارادة كغاية لنشاطها ، ندرك الآن فى اية اسرة يمكننا تصنيف الاخلاق القرآنية . فليست اللذة ولا المنفعة ولا السعادة ولا الكمال فى نظر هذه الاخلاق بالتى تستطيع انشاء هذا المبدأ . لأن كل شئ يجب ان يخضع لسلطة " الواجب " فى اقدس معانيه واكثره واقعية وأسماه درجة .

وقد جرى العرف على تسمية القوانين الاخلاقية بحسب العنصر المسيطر على مضمونها : نزعة فردية أو اشتراكية او صوفية أو انسانية .. شريعة عدل وشريعة بر واحسان وهكذا .. كل هذه المسميات احادية الجانب لا تناسب الاخلاق القرآنية .. لأن هذه الشريعة تدعو معاً الى " العدل " والرحمة " وتتكافل فيها العناصر " الفردية " و "الاجتماعية " و " الانسانية " و " الالهية " . فاذا بحثنا فى رحابة هذا النظام عن الفكرة المركزية اى " الفضيلة الأم " التى تتركز فيها كل الاحكام سنجدها فى مفهوم " التقوى " التى هى " الاحترام البالغ العمق للشرع " .

وهكذا نعود الى فكرة الواجب مطروحة هذه المرة كمحرك للارادة على الصعيد العاطفى حيث يحتل " الاحترام " مركزاً بين شعورين فى الطرفين هما " الحب " و "الرهبة " يتولى الاحترام تركيبهما وتلطيفهما . وينتج عن زواج الشعورين عنصر جديد يقوم بدورهما المزدوج كمحرك وكلجام فى آن واحد ويسمى " الحياء " . وهو الوصف الذى اطلقه النبى ﷺ على روح الاخلاق القرآنية .

فمهما كانت الوجهة التى يتجه اليها البحث نجد ان هذه الاخلاق وهى تستهدف المثل الاعلى فى قمته – تجمع كل القوى وكل اشكال الحياة الاخلاقية وتعيدها الى نقطة توازنها .

ونؤكد بصفة خاصة على الطريقة التى وفّقت بها هذه الاخلاق بين " حرية " الفرد و " تنظيم " ارادته . هذا التوفيق الذى حققته بفضل طابعها " نصف المرن " و " نصف المتشدد " الذى جبلت عليه ، والذى مكّنها من التكيف مع أكثر ظروف الحياة اختلافاً ، دون أن تتراخى امام إغراء الشهوات وتقلبات الاحاسيس .

هذه الشريعة تميز بين ميول النفس الانسانية العميقة ، وبين حاجاتها العابرة (سواء كانت مشروعة ام غير مشروعة) وتفرق بين ما لا ينبغى ان يمس (باعتباره مفروضاً بقرار شامل وثابت) وبين ما يعهد به الى حكم كل فرد (طالما انه يتغير بحسب الظروف والملابسات) وبين ما ينبغى تصحيح وضعه او استبعاده (بوصفه

اضافة ذات طبيعة غريبة وضارة) وبسبب اخذ هذه الحقائق فى الاعتبار قررت الاخلاق القرآنية المبدأ الثلاثى " الفرض " "والمباح " و " المحرم ".

فهذا هو العنصر الأول الذى جعل من الوسط العادل للحكمة القرآنية ، تحالفاً كاملاً بين الحرية والتنظيم .

وإليك عناصر اخرى :

بعد تقرير المبدأ والجوهر لكل قاعدة على هذا النحو ، ينبغى ان يستثمر ثباتهما الى الابد وتقديسهما على وجه الشمول . إلا ان صياغة بعض منها لم تحدد تحديداً مادياً. ولهذا فإن تعريفها وشكل تطبيقها يتوقف كل منهما صراحة على حكم الذوق السليم . وهكذا اصبحت القضية قضية حكم وذوق شخصى سليم .

ولكن صياغة واجباتنا التى ورد بها تحديد فى الكم ، جاءت على شكل اشارات من بعيد وفى خطوط عريضة ، وبذلك اصبحت بين حدين متباعدين ليتم تجنب أى تجاوز فى الطرفين اثناء ممارسة نشاطنا فلا يحدث سقوط ادنى مما تتطلبه الفضيلة ، ولا تشتت بلا جدوى وبلا حدود . وبين هذين الحدين تطالب الحرية الفردية بالتمرس فى البحث عن الدرجات المتزايدة فى العلو ، ولكن بالتنسيق الدائم مع مقتضايات الحياة الاخلاقية المختلفة .

هذه الطريقة التى يعرض لنا القرآن بها قاعدة الواجب تتميز بانها تخفف من سطوة الالزام كما تصون قيمة الشخصية الانسانية ، فلاتتحول الى مجرد آلة صماء ولا تنحصر ميزتها فقط فى انها قد حققت اشباعا عادلا ومعقولا لاتجاهين متعارضين للارادة الفردية (اى حاجتنا المزدوجة للامتثال وللمبادرة) . ولكنها ابرزت اهميتها القصوى على الصعيد الاجتماعى .. فبفضلها استطاع القرآن - كما قلنا - ان ينشئ اطاراً على درجة من التجانس يحدد هذا الوسط الاخلاقى المشترك لدى افراد المجتمع ، ولكنه ايضاً على درجة من التنوع تمكنه من قبول شتى درجات القيمة داخل حدوده .

واهم عامل فى هذا النجاح يتمثل فى ان جميع القواعد أو اغلبها قد تضمنت أمرين فى وقت واحد : " أداء واجب " و " تحقيق خير " أو على الاصح اداء " واجب جوهرى " و " واجب كمال " . وموقف القرآن من النقطة الاولى يتسم بالتشدد وعدم قبول اية مساومة ، بينما فى النقطة الثانية خففه الى الحث والتشجيع .

وعلى هذا المنوال ينبغى ان تتضمن جميع انظمتنا الاجتماعية جانبا سكونيا محافظا - فى مأمن من نزوات الناس وتقلبات الظروف - وجانبا آخر نشيطاً تطوريا

متحررا . وبهذه الطريقة تتحقق احلامنا فى " الاستقرار والثبات والدوام " وتشبع حاجتنا الى " النظام و " الارتقاء " .

اضف الى ذلك انه على الطريق الموصل من الواجب المشترك الى الواجب الكامل (الذى يتوقف على مبادرة كل فرد وشجاعته) يعين القرآن كل مرحلة بدرجتها فى الجدارة ، ويدعو هؤلاء وأولئك ان يصعدوا ودائما الى اعلى ، واثناء ذلك يغمر بكرمه شتى التطبيقات المتدرجة للفضيلة .

وبناء على ما تقدم نختتم البحث بقولنا :

على فرض ان الحياة الانسانية سوف يمتد خلودها الي ما لانهاية .. وان ظروفها سوف تتغير الى ما لانهاية .. فإننا نقرر انها سوف تجد دائماً فى القرآن قاعدة اخلاقية تنظم نشاطها ، ووسيلة تستنهض جهدها ، ورحمة تغمر الضعفاء فيها ، ومثلاً اعلى للاقواء منها .

وأقل ما يقال عن الاخلاق القرآنية : انها تكفى نفسها بنفسها مطلقاً .. إنها " أخلاق متكاملة " .

***

المراجع

أ - المراجع العربية

ابن تيمية	منهاج السنة	طبع بولاق بالقاهرة ١٣٢٢ هـ (٤ أجزاء)
ابن حزم	المحلى	طبع منير بالقاهرة ١٣٥٢ هـ (١١ جزءاً)
ابن حزم	الناسخ والمنسوخ	المطبعة البهية بالقاهرة ١٣١٠ هـ (على هامش تفسير الجلالين)
ابن الديبع	تيسير الوصول	المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٦ هـ (٤ أجزاء)
ابن رشد	بداية المجتهد	طبع الخانجى بالقاهرة ١٣٢٩ هـ (جزءان)
ابن عباد	الرسائل الكبرى	طبع فاس ١٣٢٠ هـ
ابن عبد الشكور	مسلّم الثبوت	طبع بولاق بالقاهرة ١٣٢٥ هـ (جزءان)
ابن ماجة	السنن	المطبعة العلمية بالقاهرة ١٣١٣ هـ (جزءان)
أبو داود	السنن	طبع الخشاب بالقاهرة ١٣١٠ هـ (٤ أجزاء على هامش الموطأ)
احمد بن حنبل	المسند	المطبعة الميمنية بالقاهرة ١٣١٣ هـ (٦ أجزاء)
الألوسى	روح المعانى	طبع بولاق بالقاهرة ١٣٠١ هـ (٩ أجزاء)
البخارى	الجامع الصحيح	طبع بولاق بالقاهرة ١٢٨٩ هـ (٩ أجزاء)
الترمذى	الجامع (أو السنن)	طبع بولاق بالقاهرة ١٢٩٢ هـ (جزءان)
الترمذى الحكيم	١-كتاب الأكياس والمغترّين ٢-جواب كتاب ٣-كتاب الكسب ٤-مسائل وأجوبتها ٥-كتاب الرياضة	مجموعة خطية بمكتبة الأستاذ ماسينيون بباريس منقولة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق
دراز	المختار	مطبعة ابى الهول بالقاهرة ١٣٥٠ هـ
الرازى (فخر الدين)	مفاتيح الغيب (المعروف بالتفسير الكبير)	طبع بولاق بالقاهرة ١٢٧٨ هـ (٦ أجزاء)
الزمخشرى	الكشاف	طبع مصطفى محمد بالقاهرة ١٣٥٤ هـ (٤ أجزاء)
السيوطى	اسباب النزول	المطبعة البهية بالقاهرة ١٣١٠ هـ (على هامش تفسير الجلالين)

السيوطى	الجامع الصغير (مع زياداته التي ضمها إليه النبهاني وجمعهما تحت اسم الفتح الكبير)	طبع الحلبى بالقاهرة ١٣٥٠ هـ (٣ أجزاء)
السيوطى	الدر المنثور	طبع الحلبى بالقاهرة ١٣١٤ هـ (٦ أجزاء)
الشاطبى	الموافقات (بشرح الشيخ دراز الكبير)	طبع مصطفى محمد بالقاهرة ١٩٣١م (٤ أجزاء)
الطبرى	غريب القرآن	طبع بولاق بالقاهرة ١٣٢٣ هـ (٣٠ جزءاً)
العينى	عمدة القارى (شرح البخارى)	طبع استامبول ١٣٠٨ هـ (١١ جزءاً)
الغزالى	إحياء علوم الدين	طبع الحلبى بالقاهرة ١٣٤٦ هـ (٤ أجزاء)
الغزالى	جواهر القرآن	طبع الكردى بالقاهرة ١٣٢٩ هـ
الغزالى	المستصفى	طبع بولاق بالقاهرة ١٣٢٥ هـ (جزءان)
القسطلانى	إرشاد السارى (شرح البخارى)	طبع بولاق بالقاهرة ١٣٠٦ هـ (١٠ أجزاء)
القشيرى	الرسالة (بشرح الشيخ زكريا الأنصارى)	طبع بولاق بالقاهرة ١٢٩٠ هـ (٤ أجزاء على الهامش)
مالك	الموطأ (بشرح الزرقانى)	طبع الخشاب بالقاهرة ١٣١٠ هـ (٤ أجزاء)
المكى (أبو طالب)	قوت القلوب	مطبعة محمد عبد اللطيف بالقاهرة ١٣٥١ هـ (٤ أجزاء)
مسلم	الصحيح	طبع استامبول ١٣٢٩ هـ (٨ أجزاء)
النسائى	السنن (بشرح السيوطى)	طبع مصطفى محمد بالقاهرة ١٣٤٨ هـ (٤ أجزاء)

ب - المراجع الأجنبية

La Bible	trad dr. par Louis Ségond	Imprim: Univ De Cambridge , 1932
Andrae	Mahomet, sa Vie et sa Doctrine	Paris, Maisonneuve ,1945
Arısote	Ethique à Nicomaque (trad. fr.)	Paris , Garnier,1940
Bergson	Essai sur les Données Immédiates de la Conscience	Paris , Alcan , 1930

Bergson	Les Deux Sources de la Morale et de la Religion	Paris , Alcan , 1932
Boulanger	La Doctrine Chrétienne	Lib.Catholique 1913
Boutteville	La Morale de l'Eglise et la Morale Naturelle	Paris , Michel , 1866
Carrel(Alexis)	L'Homme , cet Inconnu	Paris , Plon , 1942
Cousin (Victor)	Introduction à l'histoire de la Philosophie	Paris , Dıdier, 1861
Descartes	Œuvres publiees par V, Cousin	Paris, Leurault,1824
Fauconnet	La Responsabilité	Paris, Alcan, 1928
Fillion	Vie de Notre Seigneur Jésus-Christ	Paris , Letouzey , 1925
Gaudefroy-Demombynes	Institutions Musulmanes	Paris, Flammarion , 1946
Gauthier	Introduction -à l'Etude de la Philosophie Musulmane	Paris, Leroux, 1923
Guyau (Marie-Jean)	Esquisse d'une Morale sans Obligation ni Sanction	Paris Alcan 1909
Janet (Paul)	La Morale	Paris , Delagrave , 1873
Jouffroy (Théodore)	Cours De Droit Natural	Paris Préost- Crocius , 1834
Kant	Critique de la Raison Pratique (trad. Fr. par Aiquié)	Paris , Presses Univ 1943
Kant	Fondements de la Mètaphysique des mœurs (trad,fr. Par Del bos)	Paris , Delagrave , 1939
La Beaume	Le Koran Analysé	Parıs, Maïsonneuve, 1878
Le Senne	Traité de Morale Générale	Paris, Presses Univ. 1942
Lévy-Bruhl	L'Idée de Responsabilité	Paris, Alcan , 1884
Pascal	Les Provinciales	Paris , Didot , 1851
Picot	Code Napoléon	Paris , Imprimerie Napoléon , 1860
Sabatier (Armand)	La Philosophie de l'Effort	Parıs, Alcan , 1903
Tassy (Garcin de-)	Le Koran , Doctrines et Devoirs	Paris, Lib.or 1840

الكتاب الثانى

القسم العملى

دستور الأخلاق العملية

فى القرآن الكريم

* * *

الكتاب الثانى

مختصر مقدمة المؤلف

دستور الأخلاق العملية فى القرآن

اجتهدنا فى الكتاب الأول من هذا البحث (القسم النظرى) أن نحدد مفهوم النظام الأخلاقى فى القرآن نظرياً : ما هو مصدر الواجب ؟ وما مداه ؟ ما هدفه ؟ مامصيره .. ولقد وجدنا فى الآيات القرآنية إجابة واضحة ومحددة على كل هذه الاسئلة..

وتتركز قيمة مثل هذه الدراسة وأهميتها فى أن تجعلنا ندرك بعمق ما نحن مطالبون بأدائه ، وما مدى متانة الأسس النظرية التى يستند إليها هذا الأداء. غير أن كل هذا لا يشبع فينا إلا حاجة عقلية نظرية فحسب ، ولا يمثل إلا جانباً ثانوياً من القضية الأخلاقية ، فقد يكون الإنسان فاضلاً دون أن يستطيع تعريف ما هى الفضيلة ...

أما حاجتنا إلى ارشادنا الى الفضيلة العملية فهى أشد من حاجتنا إلى فهم تعريفها .. ما الذى يجب علىّ عمله ؟ .. هذا هو السؤال الأوسع شمولاً ، والأكثر إلحاحاً .. إنه الغذاء اليومى الذى لا غنى عنه لروح الإنسان .

ولهذا كم كان سيكون بحثنا ناقصا ، لو أننا – بعد أن استخرجنا من القرآن الأسس النظرية والمبادئ الكلية للأخلاق –لم نطلع على البناء الرائع الشامخ الذى يقدمه لنا القرآن عن " دستور الأخلاق التطبيقية " .

وفيما يلى الكتاب الثانى (القسم العملى) وبه بيان الأخلاق العملية التى يجد فيها نشاطنا الأخلاقى فى جميع ميادين الحياة الطريق المرسوم الواضح سواء فى سلوكنا الشخصى أو فى تعاملنا مع الناس أو مع الله ..

ولقد اكتفينا بعرض الآيات القرآنية المختارة عرضاً بسيطاً ، مصنفة تصنيفاً منهجياً بحسب ميادين النشاط الإنسانى ، مع إضافة بعض الملاحظات للتوضيح أو المقارنة فى اضيق الحدود.

والله ولى التوفيق ..

د. محمد عبد الله دراز

الفصل الاول

الاخلاق الفردية

اولاً – الأوامر :

تعليم عام: ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون – النحل ٤٣ – الانبياء ٧ ﴾

تعليم أخلاقى :

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كلِ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدينِ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم – التوبة ١٢٢ ﴾

جهد أخلاقى :

﴿ فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ؟ . فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما.. – البلد ١١–١٧ ﴾ ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا – العنكبوت آخرها ﴾ ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ، وآتاهم تقواهم – محمد ١٧ ﴾ ﴿ إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى – الليل ٤–١٠ ﴾ ﴿ والله يحب المطهرين – التوبة ١٠٨ ﴾

طهارة النفس :

﴿ ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها – الشمس ٩–١٠ ﴾ ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال : ... ولا تخزنى يوم يبعثون ، يوم لاينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بِقلب سليمٍ – الشعراء ٨٧–٨٩ ﴾

﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكلِ أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بِقلب منيب – ق ٣١ – ٣٣ ﴾

الاستقامة :

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه – فصلت ٦ ﴾ . ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك – هود ١١٢ ﴾

العفة – الاحتشام – غض البصر :

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا

لبعولتهن أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أوأبناء بعولتهن ، أو إخوانهن ، أو بني إخوانهن ، أو بني أخوانهن ، أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال ، أو الطفل ، الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن – النور ٣٠ – ٣١ ﴾ ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله – النور ٣٣ ﴾ ﴿ والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن – النور ٦٠ ﴾ ﴿ قد افلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هو العادون – المؤمنون ١-٧ ﴾ . ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ، إن اتقيتنّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولاً معروفاً ، وقرن في بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً – الاحزاب ٢٣-٣٣ ﴾

التحكم في الاهواء :

﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى – النازعات ٤٠ – ٤١ ﴾ ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله – ص ٢٦ ﴾ ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً – النساء ١٣٥ ﴾

الامتناع عن شهوتي البطن والفرج :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياماً معدودات ، فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيراً فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من ايام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر – البقرة ١٨٣ – ١٨٥ ﴾ ﴿ ثم أتموا الصيام إلى الليل، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها – البقرة ١٨٧ ﴾ ﴿ ويسألونك عن المحيض قل : هو أذى ، فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين – البقرة ٢٢٢ ﴾

كظم الغيظ

﴿ أُعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين – آل عمران ١٣٤ ﴾

الصدق :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين – التوبة ١١٩ ﴾ ﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً – الاحزاب ٧٠ ﴾ ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به ، أولئك هم المتقون – الزمر ٣٣ ﴾

الرقة والتواضع :

﴿ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير – لقمان ١٩ ﴾ ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا – الفرقان ٦٣ ﴾

التأنى فى اصدار الأحكام :

﴿ يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم – الحجرات ١٢ ﴾ ﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على فعلتم نادمين – الحجرات ٦ ﴾ ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل ، فمن الله عليكم ، فتبينوا ، إن الله كان بما تعملون خبيراً – النساء ٩٤ ﴾

الإحجام عند الشك :

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً – الإسراء ٣٦ ﴾

الثبات والصبر :

﴿ ولربك فاصبر – المدثر ٧ ﴾ ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله – النحل ١٢٧ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا – آل عمران آخرها ﴾ ﴿ أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم – البقرة ٢١٤ ﴾ ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين – العنكبوت ١-٣ ﴾ ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله – العنكبوت ١٠ ﴾ ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا اذى

كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور - آل عمران ١٨٦ ﴾ ﴿ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين - البقرة ١٥٥ ﴾

الاقتداء بالقدوة الحسنة :

﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل - الأحقاف آخرها ﴾ ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر - الاحزاب ٢١ ﴾ ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ؟.. قال الحواريون نحن أنصار الله - الصف آخرها ﴾ .

الاعتدال :

﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلاً - الاسراء ١١٠ ﴾ ﴿ وعباد الرحمن الذين ... والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً - الفرقان ٦٧ ﴾ ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط - الإسراء ٢٩ ﴾ ﴿ ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان- الرحمن ٧-٩ ﴾

الأعمال الصالحة :

﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا - هود ٧ ﴾ ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ، لنبلوهم أيهم أحسن عملاً - الكهف ٧ ﴾ ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم احسن عملاً - الملك ٢ ﴾

التنافس :

﴿ ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات - البقرة ١٤٨ ﴾ ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون - المائدة ٤٨ ﴾

حسن الاستماع وانتقاء أحسن النصائح :

﴿ فبشر عباد ، الذين يستمعون القول ، فيتبعون احسنه - الزمر ١٧- ١٨ ﴾

إخلاص النية

﴿ وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله - البقرة ٢٧٢ ﴾

﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً - النساء ١١٤ ﴾

ثانيا - النواهى :

انتحار الانسان ، وبتره لعضو من اعضائه ، وتشويهه :

﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكه - البقرة ١٩٥ ﴾ ﴿ ولاتقتلوا أنفسكم - النساء ٢٩ ﴾ ﴿ لا تبديل لخلق الله - الروم ٣٠ ﴾ ﴿ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ، ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً - النساء ١١٩ ﴾

الكذب :

﴿واجتنبوا قول الزور الحج ٣٠ ﴾ ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون - النحل ١٠٥ ﴾

النفاق :

﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألد الخصام ... وإذا قيل له : اتق الله ، أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ، ولبئس المهاد - البقرة ٢٠٤ - ٢٠٦ ﴾

افعال تناقض الأقوال :

﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون - البقرة ٤٤﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنو لِمَ تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون - الصف ٢-٣ ﴾

البخل :

﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون - الحشر ٩ ﴾ ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً - البقرة ٢٦٨ ﴾ ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل - النساء ٣٧ ﴾

الاسراف :

﴿ ولا تبذر تبذيراً ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين - الإسراء ٢٦ - ٢٧ ﴾

التباهى :

﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا .. الذين .. والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس – النساء ٣٨ ﴾ ﴿ فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون – الماعون ٤-٧ ﴾

التعالى :

﴿ ولا تمش فى الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور – لقمان ١٨ ﴾ ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحاً ، انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً – الإسراء ٣٧ ﴾

الكبر ، والعُجْب والتبجح:

﴿ إنه لا يحب المستكبرين – النحل ٢٣ ﴾ ﴿ ألم ترَ الى الذين يزكون أنفسهم ، بل الله يزكى من يشاء – النساء ٤٩ ﴾ ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم – النجم ٣٢ ﴾

التفاخر بالقدرة والعلم :

﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل ، وجعلنا بينهما زرعاً ، كلتا الجنتين آتت أكلها ، ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً ، وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره : أناأكثر منك مالاً ، وأعز نفراً ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال : ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت الى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً ، قال له صاحبه ، وهو يحاوره : أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ، ثم سواك رجلاً ، لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً ، ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ما شاء الله ، لاقوة الا بالله ، ان ترن أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ، ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقا أو يصبح ماؤوها غورا فلن تستطيع له طلباً. وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها، وهى خاوية على عروشها ويقول: يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً– الكهف ٣٢-٤٢﴾ ﴿ قال انما أوتيته علىعلم عندى ، أو لم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً – القصص ٧٨ ﴾ ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون – غافر ٨٣ ﴾

التعلق بالدنيا :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا -الكهف ٢٨ ﴾ ﴿ ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى - طه ١٣١ ﴾

الحسد والطمع :

﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله - النساء ٥٤ ﴾ ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض. للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، وأسالوا الله من فضله - النساء ٣٢ ﴾

الأسى على ما فات وشدة الفرح بما حدث :

﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ، ولا ما أصابكم - آل عمران ١٥٣ ﴾ ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - الحديد ٢٣ ﴾

الفجور : [١]

﴿ ولا تقربوا الزنا ، أنه كان فاحشة وساء سبيلا - الإسراء ٣٢ ﴾ ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة - النور ٢ ﴾

---

[١] وينبغى هنا ، فضلا عن هذا الجزاء المفروض على الجريمة المقترفة ، أن نتذكر الاجراءات الوقائية التى اتخذها القرآن فى مواجهة هذا الانحلال الأخلاقى:
١ - الحث على الزواج (النور - ٣٢) ٢ - إباحة الزواج شرعاً بزوجة أخرى فى ظروف معينة (النساء ٣) ٣ - تحريم ارتداء المرأة لأى زى فاضح ، إلا أن يكون أمام الزوج او ذوى الأرحام (النور ٣٧ - والأحزاب ٥٩) ٤- الأمر بغض البصر أمام مفاتن النساء. (النور-٣٠) ٥ - تحريم القذف بما لم يثبت من الفواحش ، وفرض حد قاس للقذف (النور -٤ ، ١٥-١٩ ، و ٢٣-٢٥) ٦- النهى عن الدخول إلى بيوت الآخرين. دون استئذان أهلها (النور - ٢٧-٢٩) ٧ - وأخيرا تحريم الخمر (انظر النصوص التالية).

ولنذكر من ناحية أخرى أن الطريقة التى يتحدث القرآن بها عن هذا الفساد الأخلاقى تدل على انه يعتبره نوعا من القتل المعجل ، ومن ثم يذكره غالبا بين نوعين من جرائم القتل . (انظر مثلا المائدة -١٥١ ، الاسراء - ٣١-٣٣) (المؤلف).

تعاطى الخمر وتناول الخبائث :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ، لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون – المائدة ٩٠ – ٩١).

﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمركم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث – الاعراف ١٥٧ ﴾ ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل به لغير الله – البقرة ١٧٣ ﴾

كل دنس (أخلاقى او مادى) :

﴿والله يحب المطهرين–التوبة ١٠٨﴾ ﴿وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر – المدثر ٤–٥ ﴾

أخذ المال الحرام :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم – النساء ٢٩ ﴾ ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون – البقرة ١٨٨ ﴾ ﴿ الذين يأكلون الربا إلا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا : انما البيع مثل الربا ، واحل الله البيع ، وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ، ويربى الصدقات – البقرة ٢٧٥– ٢٧٦ ﴾ ﴿ ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف – النساء ٦ ﴾ ﴿ انّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيراً – النساء ١٠ ﴾ ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم – البقرة ١٧٤ ﴾ ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا – النور ٣٣ ﴾

سوء الادارة :

﴿ ولا تؤتوا السفهاء اموالكم لتى جعل الله لكم قياماً – النساء ٥ ﴾

ثالثاً - مباحات :

التمتع بالطيبات باعتدال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً - المائدة ٨٧-٨٨ ﴾ ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا الله - البقرة ١٧٢ ﴾ ﴿ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم ، وريشاً ، ولباس التقوى ذلك خير - الأعراف ٢٦ ﴾ ﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ، ولاتسرفوا ، إنه لايحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة - الأعراف ٣١-٣٢ ﴾

رابعا- المخالفة بالاضطرار:

﴿ وقد فصل لكم ماحرم عليكم ، إلا ما اضطررتم إليه - الأنعام ١١٩ ﴾ ﴿ فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلا إثم عليه - البقرة ١٧٣﴾

•••

الفصل الثانى

الأخلاق الأسرية.

اولاً : واجبات نحو الأصول والفروع :

الاحسان الى الوالدين ، خفض الجناح لهما ، طاعتهما :

﴿ وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى – النساء ٣٦ ﴾ ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلهما فلا تقل لهما : أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمها كما ربيانى صغيراً – الإسراء ٢٣ – ٢٤ ﴾ ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله فى عامين ، أن اشكر لى ولوالديك ، إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً– لقمان ١٤– ١٥﴾

المحافظة على حياة الأولاد :

﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم – النساء ١٥١ ﴾ ﴿ ولا تقتلوا اولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خِطْئا كبيراً – الإسراء ٣١ ﴾ ﴿وإذا المؤودة سئلت ، بأى ذنب قتلت .. علمت نفس ما احضرت– التكوير ٨–٩–١٤﴾

التربية الأخلاقية للأولاد ، للأسرة عامة :

﴿ يايها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن – الأحزاب ٥٩ ﴾ ﴿ ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ، وقودها الناس والحجارة – التحريم ٦ ﴾

ثانياً : واجبات بين الأزواج

أ–تأسيس الأسرة

علاقات محرمة

﴿ ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء – النساء ٢٢ ﴾ ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ، بناتكم وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، بنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم ، ربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين ، إلا ماقد سلف ، إن الله كان غفوراً رحيماً ،

والمحصنات من النساء ، إلا ماملكت أيمانكم - النساء ٢٣-٢٤ ﴾ ﴿ ولاتنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه - البقرة ٢٢١ ﴾ ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين - النور ٣﴾

علاقات حلال :

﴿ واحل لكم ما وراء ذلكم ، أن تبتغوا بأموالكم محصنين ، غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، إن الله كان عليماً حكيماً ، ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ، فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف ... ذلك لمن خشي العنت منكم ، وان تصبروا خير لكم - النساء ٢٤ - ٢٥ ﴾ ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات ... والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم - المائدة ٥ ﴾

خصال مطلوبة ومستحبة :

﴿ فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله - النساء ٣٤ ﴾ ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن ، مسلمات ، مؤمنات ، قانتات، تائبات ، عابدات ، سائحات ، ثيبات و أبكاراً - التحريم ٥ ﴾ ﴿ يأيها النبي قل لأزواجك : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الأخرة فإن الله اعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً- الاحزاب ٢٨ - ٢٩﴾

الرضا الحر والمتبادل :

﴿ لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها - النساء ١٩ ﴾ ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف - البقرة ٢٣٢ ﴾

الصداق :

﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شئ منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً - النساء ٤ ﴾ ﴿ والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن - المائدة ٥ ﴾ ﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة - النساء ٢٤ ﴾

شروط تعدد الزوجات: [١]

﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء: مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أوما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا - النساء ٣ ﴾

ب - الحياة الزوجية :

روابط مقدسة ومحترمة :

﴿ يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء،واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام،إن الله كان عليكم رقيباً- النساء ١ ﴾

---

[١] ومن ذلك يتضح لنا كيف أحاط القرآن إباحة تعدد الزوجات بالكثير من التحفظات ، فليس فى الأمر حظر مطلق مناقض للفطرة. والواقع أننا نجد فى كل زمان ومكان - من الرجال من لايكتفون بزوجة واحدة ، أليس فى منع هؤلاء من التزوج بأخرى فى ظل شروط عادلة وشرعية - إثارة لمشاعرهم بالحقد على زوجاتهم ودفعاً لهم إلى خيانتهن .. ومع ذلك فيبدو لنا أنه لم يحدث أن جاءت قاعدة أخلاقية عن طريق الوحي بالتشدد فى منع التعدد ، بل وجدنا العكس لدى كثير من القديسين والأنبياء ، فى الكتاب المقدس .. ومن المحتمل أن الشعوب التى ألغت التعدد قد أخذت هذا التحريم من تقليد عنصرى ، أكثر منه دينياً. ولكن هل يسرى هذا الإلغاء فى الواقع حقاً ؟ هذا أمر مشكوك فيه .. بيد أن الذين يمنعون زواج الرجل بأخرى يسمحون فى الوقت نفسه بكل صنوف الاتصال الجنسى الحر بشرط ألا يوقع الطرفان عقدا رسميا يضفى الشرعية على العلاقة .. أليس الانخفاض التدريجى فى معدل المواليد و العدد الهائل من الأمراض الجنسية . والأطفال المجهضين ، والعاهرات علناً وسراً ، والكثير من ضروب البؤس- أليس هذا كله نتيجة منطقية للشذوذ فى التشريع؟.. لاريب أننا ينبغى أن نعترف بمساوئ التعدد ، كالغيرة والمنافسة الحاقدة بين الزوجات وبين الأولاد من زيجات متعددة .. ولكن أليست هذه الحجة مما يثار أيضاً ضد التعدد غير المشروع ؟ .. ثم ألا يحدث هذا الشقاق فى الأحوال العادية ، بين الأولاد من زيجات متتابعة ، بل بين الإخوة والأخوات من أب وأم ؟.. الحق أن هذه العيوب ذات طابع عاطفى ، ويمكن بالتربية علاجها ، وهى عيوب غاية فى التفاهة، إذا ماقورنت بالعفونات الأخرى التى تشقى منها المجتمعات الحديثة .. وهو موضوع يدعو المصلحين إلى التفكير. (المؤلف).

غايات الزواج :

سلام داخلى ، مودة ، ورحمة :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة – الروم ٢١ ﴾

زيادة النسل :

﴿ نساؤكم حرث لكم – البقرة ٢٢٣ ﴾ ﴿وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة – النحل ٧٢﴾

المساواة فى الحقوق والواجبات :

﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة – البقرة ٢٢٨ ﴾ ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم – النساء ٣٤ ﴾

تشاور وتراضٍ مشترك :

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس إلا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك ، فإن أرادا فصالاً على تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف – البقرة ٢٣٣ ﴾

تعامل إنسانى :

﴿ وائتمروا بينكم بمعروف – الطلاق ٦ ﴾

معاشرة بالمعروف ، حتى فى حال الكراهية :

﴿وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً – النساء ١٩ ﴾ ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً – النساء ١٢٩ ﴾

الصلح فى حالة النزاع :

﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فى جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح – النساء ١٢٨ ﴾

التحكيم :

﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ، إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما – النساء ٣٥ ﴾

ج- الطلاق :

الافتراق شر مذهب :

﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم – البقرة ٢٢٦ - ٢٢٧ ﴾

فترة انتظار :

﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ، إن كنّ يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أردوا إصلاحاً – البقرة ٢٢٨ ﴾

السكنى ، والمعاملة بالمعروف على أمل الصلح :

﴿ يأأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبيّنة وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدرى ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً – الطلاق ١) .
﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فإن أرضعن لكم فآتوهن اجورهن ، وائتمروا بينكم بمعروف. – الطلاق ٦ ﴾

لا عدة للمرأة المطلقة قبل الدخول :

﴿ يا أيها الذين أمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ، فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً – الاحزاب ٤٩ ﴾

وبعد العدة .. إما عودة بنوايا حسنة :

﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف ، أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزواً ، واذكروا نعمة الله عليكم، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به - البقرة ٢٣١﴾

واما الافتراق الذى يسمح بالزواج مرة اخرى :

﴿ واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فلاتعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف - البقرة ٢٣٢ ﴾

لا غصب لشئ من المرأة المطلقة :

﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فى تأخذو منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً - النساء ٢٠ ﴾ .

لا يكون الطلاق بائناً إلا فى المرة الثالثة :

﴿ الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان ، .. فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ، فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله - البقرة ٢٢٩ - ٢٣٠ ﴾

تعويض للمطلقة غير الممهورة :

﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره ، متاعاً بالمعروف حقا على المحسنين ، وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ، إلا أن يعفون ، أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ، وأن تعفوا اقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم ، إن الله بما تعملون بصير - البقرة ٢٣٦ - ٢٣٧ ﴾

تعويض للمطلقات بصفة عامة :

﴿ وللمطلقات متاع بالمعرف ، حقا على المتقين -البقرة ٢٤١ ﴾

ثالثا: واجبات نحو الاقارب :

اشراك الغير فى سعادتنا :

﴿ فآت ذا القربى حقه - الروم ٣٨ ﴾

الوصية :

﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ إن ترك خيراً الوصيةُ للوالدين والأقربين بالمعروف ، حقاً علىالمتقين – البقرة ١٨٠ ﴾

رابعاً – الأرث :

حق لا يقتصر على الذكور أو الاولاد الكبار أو الاولاد الوحيدين :

﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر ، نصيبا مفروضاً – النساء ٧ ﴾

قواعد القسمة :

﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه ، لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمّه السدس ، من بعد وصية يوصى بها أو دين ، آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون ايهم اقرب لكم منفعاً ، فريضة من الله إن الله كان عليما حكيماً ، ولكم نصف ما ترك ازواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ـ وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ، وله اخ أو اخت، فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث ، من بعد وصية يوصى بها أو دين ، غير مضار وصية من الله والله عليم حليم – النساء ١٢ ﴾ ﴿ إن امرؤ هلك ليس له ولد ، وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ، يبين الله لكم ان تضلوا ، والله بكل شئ عليم – النساء آخرها ﴾ .

الارث فضل من الله وليس حقا :

﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن – النساء ٣٢ ﴾

***

الفصل الثالث

الأخلاق الاجتماعية

أولاً:المحظورات :

قتـــل الانسان :

﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق – الانعام ١٥١ ﴾ ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرئيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً – المائدة ٣٢ ﴾ ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا – النساء ٩٢ ﴾ ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنه، وأعد عذاباً عظيماً – النساء ٩٣﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة – البقرة ١٧٨ ﴾ ﴿ ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب – البقرة ١٧٩ ﴾

السرقة:

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما – المائدة ٣٨ ﴾

الغش :

﴿ ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون – المطفيين ١-٣ ﴾

القرض بفائدة :

﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس اموالكم لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون – البقرة ٢٧٨- ٢٧٩ ﴾

اى اختلاس :

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم – الاعراف ٨٥ ﴾

كل تملك غير مشروع :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم – النساء ٢٩ ﴾

تبديد مال اليتيم :

﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حوباً كبيراً – النساء ٢ ﴾ ﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا – النساء ٦ ﴾

خيانة الأمانة ، والثقة :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ، وتخونوا أماناتكم – الانفال ٢٧ ﴾

الايذاء بلا مبرر :

﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً – الاحزاب ٥٨ ﴾

الظلم :

﴿ وقد خاب من حمل ظلماً – طه ١١١ ﴾ ﴿ إنه لا يحب الظالمين – الشورى ٤٠ ﴾ ﴿ ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً – الفرقان ١٩ ﴾

التواطؤ على الشر :

﴿ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان – المائدة ٢ ﴾

الدفاع عن الخونة :

﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً – النساء ١٠٥ ﴾ ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً – النساء ١٠٧ ﴾

عدم الوفاء بالعهد:

﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً – النحل ٩١ ﴾ ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب ، وهم يعلمون ، بلى ، من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ، إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم – آل عمران ٧٥-٧٧﴾

الغدر والخداع :

﴿ إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ، يستخفون من الناس ، ولا يستخفون من الله – النساء ١٠٧ – ١٠٨ ﴾

غش القضاة وإفسادهم :

﴿ ولا تأكلوا أمولكم بينكم بالباطل ، وتُدلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم، وأنتم تعلمون –البقرة ١٨٨ ﴾

شهادة الزور :

﴿ واجتنبوا قول الزور – الحج ٣٠ ﴾

الكتمان :

﴿ ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه – البقرة ٢٨٣ ﴾ ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون – البقرة ١٥٩ ﴾

قول السوء :

﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ، وكان الله سميعاً عليماً ، إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً – النساء ١٤٨ – ١٤٩ ﴾

سوء معاملة اليتيم والفقير :

﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر – الضحى ٨–٩ ﴾

السخرية :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكون خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهنّ ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون - الحجرات ١١ ﴾ .

احتقار الناس :

﴿ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخروا – لقمان ١٨ ﴾

التجسس : ﴿ ولا تجسسوا – الحجرات ١٢ ﴾

الافتراء والغيبة :

﴿ ويل لكل هُمَزَة لُمَزَة - الهمزة ١ ﴾ ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ، ايحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً - الحجرات ١٢ ﴾ ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى - المجادلة ٩ ﴾

علاقة مؤذية وسذاجة متواطئة :

﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين - الحجرات ٦ ﴾

القذف :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة . ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم - النور ٤-٥ ﴾ ﴿ إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بافواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم ، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ، إن كنتم مؤمنين - النور ١٥ - ١٨ ﴾ ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة -النور ١٩﴾ ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين - النور٢٤ -٢٥ ﴾

التدخل الضار :

﴿ ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ، وكان الله على كل شئ مُقيتاً -النساء ٨٥﴾

موقف اللامبالاة بالشر العام :

﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون - المائدة ٧٨-٧٩ ﴾

ثانياً الأوامر :

أداء الأمانة :

﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها - النساء ٨ ﴾ ﴿ فليؤد الذى أؤتمن أمانته - البقرة ٢٨٣ ﴾

توثيق المعاملات المالية لتجنب الشك :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئاً ، فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يُمِلّ هو ، فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه ، صغيراً أو كبيراً إلى أجله ، ذلكم اقسط عند الله وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا ، إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، واشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شئ عليم ، وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهانٌ مقبوضة ، فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى ائتمن أمانته – البقرة ٢٨٢ – ٢٨٣ ﴾

الوفاء بالعهود والوعود :

﴿ يأيها الذينَ آمنوا أوفوا بالعقود – المائدة ١ ﴾ ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً – الإسراء ٣٤ ﴾ ﴿ ولكن البر من آمن بالله .. والموفون بعهدهم إذا عاهدوا – البقرة ١٧٧ ﴾ ﴿ إنما يتذكر اولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق – الرعد ٢٠ ﴾

أداء الشهادة الصادقة :

﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى – الانعام ١٥٢ ﴾ ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين الأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما – النساء ١٣٥ ﴾

إصلاح ذات البين :

﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون – الحجرات ١٠ ﴾ ﴿ فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم – الانفال ١ ﴾ ﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس – النساء ١١٤ ﴾

التشفع أو التوسط فى الخلافات :

﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها – النساء ٨٥ ﴾

لا للأشرار :

﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً ... ولاتجادل عن الذين يختانون أنفسهم . إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً - النساء ١٠٥ - ١٠٧ ﴾

التواضع والتراحم المتبادل :

﴿ والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم - الفتح ٢٩ ﴾ ﴿ أذلة على المؤمنين ، اعزة على الكافرين - المائدة ٥٤ ﴾ ﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة ، أولئك اصحاب الميمنة - البلد ١٧-١٨ ﴾

الاحسان ، ولا سيما الى الضعفاء :

﴿ يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، وماتفعلوا من خير فإن الله به عليم - البقرة ٢١٥ ﴾ ﴿وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم - النساء ٣٦ ﴾

استثمار أموال اليتامى :

﴿ ويسألونك عن اليتامى ، قل : إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ، والله يعلم المفسد من المصلح - البقرة ٢٢ ﴾

تحرير العبيد :

﴿ ولكن البر من آمن بالله .. وآتى المال على حبه ذوى القربى .. وفى الرقاب - البقرة ١٧٧ ﴾ ﴿ وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقبة - البلد ١٢ - ١٣ ﴾

أو تيسير تحريرهم [1] ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من الله الذى آتاكم - النور ٣٣ ﴾

---

[1] والقرآن - فضلا عن هذه الوصايا الحية - ينص على حالات يكون فيها تحرير الرقيق مفروضا للتكفير عن ذنب معين ، مثل حالة القتل الخطأ (النساء-٩٢) وحالة اليمين (المائدة-٨٩) كما أن جزءاً من الزكاة السنوية مخصص لافتداء الأسرى ، وجزءاً آخر "للغارمين" المدينين من المواطنين ، (التوبة-٦٠). أما السنّة فإنها لم تقتصر على تضييق مصدر الاسترقاق ، بقصر حقه على المقاتلين فى حرب مشروعة ، دفاعا عن العقيدة - وحسب ، بل انها اختصرت المسافة التى يمكن أن ينشئها هذا النظام القديم بين طبقات المجتمع. -

العفو :

﴿ والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس- آل عمران ١٣٤﴾ ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون - الشورى ٣٧ ﴾

عدم تجاوز الاساءة فى جميع الأحوال :

﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير حق ، أولئك لهم عذاب أليم ، ولَمَن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور - الشورى ٣٩ - ٤٣ ﴾

درء السيئة بالحسنة :

﴿ ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار - الرعد ٢٢ ﴾ ﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة،ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم - فصلت ٣٤﴾

الدعوة الى الخير ، والنهى عن الشر :

﴿ وتعاونوا على البر والتقوى - المائدة ٢ ﴾ ﴿ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون - آل عمران ١٠٤ ﴾ ﴿ والعصر ، إن الانسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصو بالحق ، وتواصوا بالصبر - العصر كلها ﴾

= والرسول ﷺ يفرض على الموالى يقول " هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فاطعموهم مما تاكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولاتكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتوهم فأعينوهم".. بل إن من يسئ إلى عبده يجب عليه أن يعتقه ، وقد روى ابن مسعود : كنت اضرب غلاماً لى فسمعت من خلفى صوتا : اعلم أبا مسعود ، للّه أقدر عليك منك عليه ، فالتفتُّ فإذا رسول الله ﷺ فقلت: يارسول الله: هو حر لوجه الله ، فقال: اما لو لم تفعل للفحتك النار" .. ومن ثم يذهب المالكية إلى : ١- أن الجرح الذى يحدثه السيد فى عبده يستوجب عتقه تلقائيا. ، ٢- وأن السيد إذا عاود تكليف عبده بعمل شاق لايطيقه وجب عليه تحريره. (المؤلف).

نشر العلم :

﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك – المائدة ٦٧ ﴾ ﴿ وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث – الضحى – ١٠ –١١ ﴾ ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم – التوبة ١٢٢ ﴾ ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه – آل عمران ١٨٧ ﴾ ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون –البقرة ١٥٩ ﴾

الصداقة والكرم :

﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أتوا – الحشر ٩ ﴾

الحب الشامل :

﴿ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم – آل عمران ١١٩ ﴾

العدل والإحسان معاً :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وايتاء ذى القربى – النحل ٩٠ ﴾

ثلاثةمواقف مشروعة بدرجات متفاوتة :

١ – تمسك الإنسان بحقوقه :

﴿ لا تَظلِمون ولا تُظلَمون – البقرة ٢٧٩﴾

٢ – الكرم فى الرخاء :

﴿ وأن تعفوا اقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم – البقرة ٢٣٧ ﴾ ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم – البقرة ٢٨٠ ﴾

٣ – الايثار البطولى :

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون – الحشر ٩ ﴾

الواجب الدقيق هو الوسط :

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : العفو – البقرة ٢١٩ ﴾

العطاء واجب شامل :

﴿ لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قُدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله – الطلاق ٧ ﴾

شروط مطلوبة فى ممارسة الاحسان :

١- جهة الصرف :

﴿ قل ماأنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل – البقرة ٢١٥ ﴾ ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ، لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافا – البقرة ٢٧٣ ﴾ ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليكم حكيم – التوبة ٦٠ ﴾

٢ – النية :

﴿ وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله – البقرة ٢٧٢ ﴾ . ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أُكُلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطَلّ – البقرة ٢٦٥ ﴾ ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً واسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكورا – الانسان ٨-٩ ﴾ ﴿ وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى – الليل آخرها ﴾

٣ – صفة العطاء :

﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه – البقرة ٢٦٧ ﴾ ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون – آل عمران ٩٢ ﴾

٤- طريقة الاعطاء :

١ – الأفضل أن يكون سراً : –

﴿ إن تبدوا الصدقات فنعمّا هى ، وإن تخفوها ، وتؤتوها الفقراء ، فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم – البقرة ٢٧١ ﴾.

ب- عدم إهانة الآخذ :

﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم ، يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الأخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلّداً ، ولا يقدرون على شئ مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين- البقرة ٢٦٢ - ٢٦٤ ﴾ ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكِبَرُ ، وله ذرية ضعفاء ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، كذلك يبين الله لكم الأيات لعلكم تتفكرون - البقرة ٢٦٦ ﴾

الدعوة الى السخاء :

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها - التوبة ١٠٣ ﴾ ﴿ فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة - البلد ١١ - ١٦﴾ ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم ولا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة - البقرة ٢٥٤ ﴾ ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموتُ فيقولَ : رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها - المنافقون ١٠ - ١٦ ﴾ ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة - البقرة ٢٤٥ ﴾ ﴿ آمنوا بالله ورسوله ، وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير - الحديد ٧ ﴾ ﴿ ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون - الحشر ٩ - التغابن ١٦ ﴾ ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار ، سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون - البقرة ٢٧٤ ﴾ ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم - البقرة ٢٦١ ﴾ ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين .. وفى أموالهم حق للسائل والمحروم - الذاريات ١٦ ، ١٩ ﴾

ذم الاكتناز :

﴿ ويل لكل هُمَزَة لُمَزَة الذى جمع مالاً وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لينبذن فى الحطمة - الهمزة ١-٤ ﴾ ﴿ أرأيت الذى يكذّب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ... ويمنعون الماعون - الماعون - ١-٣،٧ ﴾ ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون

ما بخلوا به يوم القيامة – آل عمران ١٨٠ ﴾ ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم – ﴿ محمد ٣٨ ﴾ ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون – التوبة – ٣٤ – ٣٥ ﴾ ﴿ خذوه فغلّوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذَرْعَها سبعون ذراعاً فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين – الحاقة ٣٠ – ٣٤ ﴾ ﴿ يتساءلون عن المجرمين ، ما سلككم فى سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين – المدثر ٤٠– ٤٤ ﴾ ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ، فيقول : ربى أهانن ، كلا بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضّون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلاً لمّاً ، وتحبون المال حباً جمّاً – الفجر ١٥ – ٢٠ ﴾ ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ، إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طاف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين : ان اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون . ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حَرْد قادرين ، فلما رأوها قالوا : إنا لضالون ، بل نحن محرومون . قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون؟ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا : يا ويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ، إنا الى ربنا راغبون. كذلك العذاب، ولعذاب الأخرة أكبر لو كانوا يعلمون– ن ١٧–٣٣﴾

ثالثا : قواعد الأدب :

الاستئذان للدخول على الغير :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو ازكى لكم ، والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ما تبدون ، وما تكتمون – النور ٢٧ – ٢٩﴾ ﴿ يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم ، والذين لم يبلغوا الحُلُم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ... وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم – النور ٥٨ – ٥٩﴾

خفض الصوت وعدم مناداة الكبار من الخارج :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ... إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون - الحجرات ٢-٤ ﴾

التحية عند الدخول :

﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة - النور ٦١ ﴾

الرد على التحية بأحسن منها :

﴿ وإذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسنَ منها أو ردوها - النساء ٨٦ ﴾

الجلوس فى الصف :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ، وإذا قيل انشزوا فانشزوا - المجادلة ١١ ﴾

أن يكون موضوع الحديث خيراً :

﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون - المجادلة ٩ ﴾

استعمال أطيب العبارات :

﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى احسن ، إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للانسان عدواً مبيناً - الاسراء ٥٨ ﴾

الاستئذان عند مغادرة الاجتماع :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه - النور ٦٢ ﴾

•••

الفصل الرابع

أخلاق الدولة.

اولاً العلاقة بين الرئيس والشعب:

أ- واجب الرؤساء :

مشاورة الشعب :

﴿ فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ـ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك. فاعف عنهم ، واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر – آل عمران ١٩٥ ﴾

إمضاء القرار النهائي بهمة :

﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين ٠ آل عمران ١٩٥ ﴾

طبقاً لقاعدة العدل :

﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نِعِمّاً يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً – النساء ٥٨ ﴾

اقرار النظام :

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فساداً أن يُقتّلوا أو يُصلّبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الأخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم – المائدة ٣٣ – ٣٤ ﴾

صون الاموال العامة وعدم المساس بها :

﴿ وما كان لنبى أن يغل ، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ، ثم توفى كل نفسى ما كسبت وهم لا يظلمون – آل عمران ١٦١ ﴾

عدم قصر الانتفاع بها على الأغنياء :

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كيلا يكون دُولَةً بين الأغنياء منكم – الحشر ٧ ﴾

للأقليات الدينية داخل المجتمع الاسلامى حريتها القانونية :

﴿ فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين ، وكيف يحكمونك وعندهم التوارة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين .. ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون ... وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ... فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق – المائدة ٤٢ – ٤٨ ﴾

ب- واجبات الشعب :

النظام :

﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب – الحشر ٧ ﴾

الطاعة المشروطة :

﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً – النساء ٥٩ ﴾

الاتحاد حول المثل الأعلى :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا – آل عمران ١٠٣ ﴾ ﴿ ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا بينهم ، وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون – الروم ٣١ – ٣٢ ﴾

مناقشة القضايا العامة :

﴿ وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا .. وأمرهم شورى بينهم – الشورى ٣٦ – ٣٨ ﴾

تجنب الإخلال بالنظام والتخريب :

﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها – الأعراف ٥٦ ﴾ ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، أولئك لهم اللعنة ، ولهم سوء الدار – الرعد ٢٥ ﴾ ﴿ وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد – البقر ٢٠٥ ﴾

إعداد الدفاع العام :

﴿ وأعدوا لهم مـا استطعتم مـن قـوة ومـن ربـاط الخيل ترهبـون بـه عدو اللـه وعدوكـم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شـئ فـى سـبيل اللـه يـوف إليكم وأنتم لا تظلمون – الانفال ٦٠ ﴾

الرقابة الأخلاقية :

(عدم نشر جو الهزيمة أو النفاق ، ومراجعة المصدر الرسمى)

﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أوالخوف أذاعوا بـه . ولـو ردّوه إلـى الرسـول وإلـى أولـى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم – النساء ٨٣ ﴾

تجنب موالاة العدو او التواطؤ معه :

﴿ يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بمـا جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهـاداً فى سبيلى ، وابتغاء مرضاتى ، تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم ومـا أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضـل سـواء السبيل – الممتحنـة ١ ﴾ ﴿ لاينهـاكم اللـه عن الذيـن لـم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم مـن ديـاركم أن تـبروهم وتقسـطوا إليهـم ، إن اللـه يحـب المقسـطين ، إنمـا ينهـاكم اللـه عـن الذيـن قـاتلوكم فـى الديـن ، وأخرجوكـم مـن ديـاركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون – الممتحنة ٨-٩﴾ ﴿ لا تجد قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولـو كـانوا آبـاءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم – المجادلة آخرها ﴾ ﴿ ومن يفعل ذلك فليس مـن اللـه فى شئ ، إلا ان تتقوا منهم تُقاة – آل عمران ٣٨ ﴾

ثالثاً – العلاقات الخارجية:

أ– فى الأحوال العادية :

الاهتمام بالسلام العام:

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بـالمؤمنين رؤوف رحيم – التوبة ١٢٨ ﴾

الدعوة إلى مذهب السلام :

﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بـالتى هـى أحسـن – النحـل ١٢٥ ﴾ ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، الا الذين ظلمـوا منهم وقولـوا

آمنا بالذى أنزل الينا وانزل اليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن لـه مسلمون – العنكبوت ٤٦ ﴾

... دون إكراه :

﴿ لا أكراه فى الدين – البقرة ٢٥٦ ﴾ ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر – الغاشية – ٢١-٢٢ ﴾ .

... و إثارة الكراهية :

﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم ، كذلك زينـا لكل أمـة عملهم ، ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون – الانعام ١٠٨ ﴾

ترك التسلط وإثارة القلاقل :

﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين – القصص ٨٣ ﴾

عدم المساس بأمن المحايدين :

﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلَمَ فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً – النساء ٩٠ ﴾

حسن الجوار ، العدالة ، البر :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين – الممتحنة ٨ ﴾

ب– فى حال العدوان :

عدم المبادرة باستخدام السلاح :

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب– المائدة ٢﴾

الامتناع عن القتال فى الاشهر الحرم :

﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهمن أنفسكم – التوبة ٣٦ ﴾

او فى المناطق المحرمة :

﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه – البقرة ١٩١ ﴾

للحرب المشروعة حالتان :

الدفاع عن النفس :

﴿ فإن لم يعتزلوكم ، ويلقوا إليكم السلَم ويكفوا ايديهم ، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً – النساء ٩١ ﴾ ﴿ أُذِن للذين يقـاتَلون بـأنهم ظُلِمـوا وإن الله على نصرهم لقدير – الحج ٣٩﴾

٢ – مساعدة المستضعفين المحرومين من وسائل الدفاع :

﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوالـدان ، الذيـن يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعـل لنـا من لدنك نصيراً – النساء ٧٥ ﴾

قتال المقاتلين دون غيرهم:

﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولاتعتدوا ، إن اللـه لا يحـب المعتديـن – البقـرة ١٩٠ ﴾

عدم الفرار عند ملاقاة المعتدين :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهُم الأدبار – الانفال ١٥﴾

الثبات والاتحاد :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، واطيعوا الله ورسوله ، ولا تَنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكم – الانفال ٤٥ – ٤٦ ﴾

الصبر والامل :

﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحـون – آل عمـران آخرها ﴾ ﴿ ولا تهنوا ولاتحزنوا ، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين – آل عمران ١٣٩ ﴾

عدم الخوف من الموت ، فسيأتى فى موعده :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقـالوا لإخوانهـم إذا ضربـوا فـى الأرض أو كانوا غزى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ، والله يحيي ويميت ، والله بما تعملون بصير – آل عمران ١٥٦ ﴾ ﴿ قل لـو كنتـم فـى بيوتكـم

لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم - آل عمران ١٥٤ ﴾ ﴿ فلما كُتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله او اشد خشية ، وقالوا : ربنا لِمَ كتبتَ علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى، ولا تُظلَمون فتيلا ، اينما تكونوا يدرككّم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة – النساء ٧٧– ٧٨ ﴾ ﴿ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين .. الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم – آل عمران ١٧١ - ١٧٤ ﴾

الخوف أكثر من مكائد الكفار واغوائهم :

﴿ والفتنة اشد من القتل – البقرة ١٩١ ﴾ ﴿ والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون– البقرة ٢١٧﴾

لا استسلام :

﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلّم، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم–محمد ٣٥﴾

وإنما قبول السلام وعدم ملاحقة العدو المنسحب :

﴿ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم .. فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين– البقرة ١٩٢ - ١٩٣ ﴾ ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هوالسميع العليم ، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره ، وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم – الانفال ٦١ - ٦٣ ﴾ ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام : لست مؤمناً ، تبتغون عرض الحياة الدنيا – النساء ٩٤ ﴾

الوفاء بالمعاهدات المبرمة :

﴿ يأيها الذين امنوا أوفوا بالعقود – المائدة ١ ﴾

عدم مواجهة الخيانة بمثلها :

﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين – الانفال ٥٨ ﴾

الوفاء بالشروط وإن كانت مجحفة ، وعدم العدوان بدافع الطمع :

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتمُ اللهَ عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم ، أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنمَ يبلوكم الله به ، وليبيننّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون - النحل ٩١- ٩٢ ﴾

الاخوة الانسانية :

١- رباط مقدس فوق التعصب لجنس أو نوع :

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تَساءلون به والأرحامَ ، إن الله كان عليكم رقيباً - النساء ١ ﴾ ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا - الحجرات ١٣ ﴾

٢- معيار الثواب :

﴿ إن أكرمكم عند الله اتقاكم - الحجرات ١٣ ﴾ .

•••

الفصل الخامس

الأخلاق الدينية.

واجبات نحو الله .

الايمان بالله وبالحقائق التى انزلها :

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال - البقرة ١٧٧ ﴾ ﴿ آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً - النساء ١٣٦ ﴾

طاعة الله بلا قيد او شرط : (١)

﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم واشد تثبيتاً - النساء ٦٦ ﴾

تدبر آيات القرآن :

﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون - الاعراف ٢٠٤ ﴾ ﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، ان تحبط اعمالكم وأنتم لا تشعرون - الحجرات ٢ ﴾ ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته وليتذكر أولو الألباب - ص ٢٩ ﴾ ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها - محمد ٢٤ ﴾ ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً - النساء ٨٢ ﴾

---

(١) قد يقال : أليست الطاعة فى حدود الاستطاعة ؟ ﴿ فاتقوا الله ماستطعتم - التغابن ١٦ ﴾ - نعم ولاشك ، ولكن عكس ذلك لاينشئ قيدا على الطاعة ، بل على صدور الأمر الإلهى نفسه ، الذى لايمكن ان يصدر فى مثل هذه الحالة ﴿ لايكلف الله نفسا إلا وسعها - البقرة ٢٨٦ ﴾ .. ولاريب أن طاعة الرسول فى حدود رسالته هى جزء مكمل لطاعة الله ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله - النساء ٨٠ ﴾ ﴿ فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما - النساء ٦٥ ﴾ (المؤلف).

.. وتدبر صنع الله :

﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون - الذريات ٢٠ - ٢١ ﴾ ﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعده يؤمنون - الاعراف ١٨٥ ﴾ ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى - الروم ١٨ ﴾ ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا الله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد - سبأ ٤٦ ﴾

الاقرار بنعم الله (وشكره) :

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله - النحل ٥٣ ﴾ ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون ، إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المُزْن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون. أفرأيتم النار التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم - الواقعة ٦٣ - ٧٤ ﴾ ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ .. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إلهٌ غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون- القصص ٧١-٧٢﴾ ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون - الزخرف ١٢ - ١٤ ﴾ ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل السمع والأبصار و الأفئدة لعلكم تشكرون - النحل ٧٨ ﴾

تحمل البلاء برضا :

﴿ ولنبلونْكم بشئ من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ، الذين إذا اصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، واولئك هم المهتدون - البقرة ١٥٥ - ١٥٧ ﴾ ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء ، وزُلزلوا حيث يقولَ الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ .. ألا إن نصر الله قريب - البقرة ٢١٤ ﴾ ﴿ ألم . أحسب الناس أن يُتركوا ، أن يقولوا : آمنا وهم لا يُفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلَمَن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين - العنكبوت ١-٣ ﴾

الاعتماد على الله والثقة به :

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصرُكم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون – آل عمران ١٦٠ ﴾ ﴿ فإن تولوا فقل : حسبى الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم – التوبة آخرها ﴾ ﴿قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنيَ الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل حسبى الله ، عليه يتوكل المتوكلون – الزمر ٣٨ ﴾

عدم اليأس من رحمته:

﴿ ولا تيأسوا من روح الله ، أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون– يوسف ٨٧﴾
﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون – الحجر ٥٦﴾

.. أو الأمن من بأسه :

﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسُنا بياتاً وهم نائمون ؟ أوَ أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ افأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون – الاعراف ٩٧ – ٩٩ ﴾

تعليق كل فعل مستقبل بمشيئته :

﴿ ولا تقولن لشئ : إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله – الكهف ٢٣ ﴾

الوفاء بالنذر لله والوعد لله :

﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون – التوبة ٧٥ – ٧٧ ﴾

عدم إثارة المشركين لسبّ الله:

﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم – الانعام ١٠٨ ﴾

تجنب مجالسة الخائضين فى آيات الله:

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين – الانعام ٦٨ ﴾ ﴿ وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، إنكم إذا مثلُهم – النساء ١٤٠ ﴾

عدم الاكثار من الحلف بالله :

﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ، أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ، والله سميع عليم - البقرة ٢٤٤﴾

احترام اليمين بعد القسم :

﴿واحفظوا أيمانكم - المائدة ٨٩ ﴾

دوام ذكر الله :

﴿يا أيها آمنوا أذكروا الله ذكر كثيراً - الاحزاب ٤١ ﴾ ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون - الحشر ١٩ ﴾ ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين - الزخرف ٣٦ ﴾

تسبيحه وتكبيره :

﴿يأيها الذين آمنوا أذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكرة اصيلاً - الاحزاب ٤١ - ٤٢﴾ ﴿يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيرا ، لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة واصيلاً - الفتح ٨-٩ ﴾

أداء العبادة اليومية:

﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً - النساء ١٠٣ ﴾ ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض ، وعشياً وحين تظهرون - الروم ١٧-١٨ ﴾ ﴿ أقم الصلاة لِدُلُوك الشمس ، إلى غسق الليل ، وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً - الإسراء ٧٨ ﴾ ﴿حافظوا على الصلوات ، والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين - البقرة ٢٣٨ ﴾ ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً - الإسراء ١١٠ ﴾

حج البيت (على الأقل مرة فى العمر) :

﴿ إن أول بيت وُضع الناس لَلّذى ببكه مباركاً ، وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقامُ ابراهيم ، ومن دخله كان آمناً ، ولله على الناس حجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين - آل عمران ٩٦ - ٩٧ ﴾ ﴿ الحج أشهُرٌ معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ، ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى - البقرة ١٩٧ ﴾ ﴿وأذّنْ فى الناس بالحج يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامر ، يأتين من كل فجّ عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم

الله فى أيام معلومات على مـا رزقهم مـن بهيمـة الأنعام ، فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطّوفوا بالبيت العتيق ، ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير لـه عند ربه - الحج ٢٧ - ٣٠ ﴾ ﴿ لن ينال اللـه لحومُها ولا دماؤُها، ولكن يناله التقوى منكم - الحج ٣٧ ﴾

دعاء الله دائماً مع الخوف والأمل :

﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم - الفرقان آخرها ﴾ ﴿ أدعوا ربكم تضرعـاً وخُفْيـة ، إنه لا يحب المعتدين ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفاً وطمعاً ، إن رحمة الله قريب من المحسنين - الاعراف ٥٥ - ٥٦ ﴾ ﴿ وقال ربكم : أدعونى أستجب لكم - غافر ٦٠ ﴾

الرجوع الى الله والتماس مغفرته :

﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً ايها المؤمنون لعلكم تفلحون - النور ٣١ ﴾ ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً - النساء ١١٠ ﴾

واخيراً حب الله :

﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونـه ، أذلـةٍ علـى المؤمنين ، أعزة علـى الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم - المائدة ٥٤ ﴾

وأن يكون حبه فوق كل شئ :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حباً للـه - البقرة ١٦٥ ﴾

***

الخلاصة

مجموعات من أمهات الفضائل الاسلامية

" بعض مجموعات من أمهات الفضائل التى يميز بها القرآن المسلم الحق " :

﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب ، واقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء ، وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون - البقرة ١٧٧ ﴾

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقا - الانفال ٢-٤ ﴾

﴿ وبشر المخبتين ، الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمى الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون - الحج ٣٤ - ٣٥ ﴾

﴿ قد افلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هو االعادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، اولئك هم الوارثون - الذين يرثون الفردوس وهم فيها خالدون - المؤمنون ١-١١ ﴾

﴿ الله نور السموات والارض ... يهدى الله لنوره من يشاء .. فى بيوت أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغُدُو والأصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار - النور - ٣٥- ٣٧ ﴾

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراماً ، أنها ساءت مستقراً ومقاماً ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتُرُوا وكان بين ذلك قواماً. والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مُهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما ، ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب الى الله

متاباً ، والذين لا يشهدون الزور ، واذا مروا باللغو مروا كراماً ، والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماماً ، اولئك يجزون الغُرفة بما صبروا ويُلقّون فيها تحية وسلاماً ، خالدين فيها حسُنت مستقراً ومقاماً - الفرقان ٦٣- ٧٦ ﴾

﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكّروا بها خرُّوا سجداً ، وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطعماً ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أُخفى لهم من قُرة أعين ، جزاء بما كانوا يعملون - السجدة ١٥ - ١٦ ﴾

﴿ إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، اعد الله لهم مغفرة واجراً عظيماً - الاحزاب ٣٥ ﴾

﴿ الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد - الزمر ٢٣ ﴾

﴿ فما أُوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا واصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين - الشورى ٣٦ - ٤٠ ﴾

﴿ محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم رُكّعاً سُجّداً، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوهم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة - الفتح ٢٩ ﴾

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، اولئك هم الصادقون - الحجرات ١٥ ﴾

﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم ، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم - الذريات ١٦ - ١٩ ﴾

﴿ إن الانسان خلق هلُوعاً ، إذا مسه الشر جزُوعاً ، وإذا مسه الخير منُوعاً ، إلا المصلين، الذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، والذين يصدقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، اولئك فى جنات مكرمون - المعارج ١٩- ٣٥ ﴾

***

فهرس تحليلى

أ- امكانية التصرف : ص ٢١

خلاف الفقهاء حول تكليف المحال - استدلال خطأ للرازى - مغالطة أخرى.

ب- اليسر في العمل : ص ٢٣

الاسلام والاديان السابقة - تطبيق ورع ومعتدل - التوافق مع الظروف - التربية على مراحل.

ج- تحديد الواجبات وتدرجها : ص ٢٦

هل الخير والشر فكرتان متعايشتان : كانت ومفكرون آخرون - المفهوم الاسلامى - درجات مختلفة للخير الاخلاقى - سلّم القيم الايجابية والسلبية - خطأ جوتييه - المعانى القرآنية للمسموح والمتغاضى عنه .

٣- تناقضات الالزام : ص ٣٠

أ- وحدة القانون وتنوع الطبيعة ب- سلطة الشرع وحرية الفرد - ننحاز الى جانب ام نعقد صلحاً ؟ نظريات متحيزة " كانت و " روه " .

خاتمة الفصل : ص ٣٣

التشبث بالرأى : نقص مشترك فى المذاهب المتطرفة - نفس النقص فى نظرية المعرفة - الضمير همزة وصل بين المثل الاعلى والواقع وبين المطلق والنسبى - المفهوم القرآنى عن الالزام : التوفيق بين الطرفين - الرجوع الى الضمير المستنير لدى المؤمن الامتناع عند الشك - تحديد القاعدة يقلل من فرص الخطأ ويزيد الحرية عمقاً - المبادرات الفردية : ١- فى الجانب غير المحدد ٢- فى تشعب الواجبات ٣- فى التشريع: تعاون او بالاحرى انصهار الارادتين .

الفصل الثانى : المسئولية

ص ٣٧-٦٨

لازمة اولى فكرة الالزام - تعريف اشتقاقى - منهج الفصل .

١- تحليل الفكرة العامة للمسئولية : ص ٣٧

مسئولية كامنة ، علاقة الفاعل بافعاله العارضة ، امكانية الاختيار - المسئولية الفعلية المفروضة - المسئولية الفعلية المحمولة - اسناد المسئولية - ثلاثة أنواع للسلطة : اخلاقية ، اجتماعية، دينية - كل مسئولية مقبولة تصبح مسئولية أخلاقية - حدود المسئولية الناشئة عن الالزام التلقائى - او نتيجة الضغط الاجتماعى - تنازع المسئوليات: المسئولية الدينية فى المقام

الأول – مسئولية كل مخلوق عاقل امام الخالق وامام نفسه – مسئولية الفعل أو الترك فى حدود إمكاناتنا – المسئولية شاملة وليست غير مشروطة .

٢- شروط المسئولية الأخلاقية والدينية : ص ٤١

أ- الطابع الشخصى للمسئولية المزدوجة : ص ٤١

قضية الخطيئة الأولى – دراسة الحالتين اللتين فى ظاهرهما استثنائيتان – التحديد فى موضوع المسئولية الفردية : التوسع فى المساحة والزمن – المسئولية الجماعية – محاباة – مفاهيم الشفاعة – لا استعارة فى الجدارة .

ب- الاساس القانونى للمسئولية : ص ٤٥

لتحمل المسئولية ينبغى العلم المسبق بالواجب – الخلاف حول ضرورة التعليم الايجابى – القانون لا يلزم إلا البالغ السوى – نظام الطفولة – متى يكون مجرد صدور القانون ملزماً للمسئولية ؟ – متى يكون الجهل عذراً : أراء ارسطو وباسكال – النسيان .

ج- العنصر الجوهرى فى العمل : ص ٤٧

العمل الارادى عن وعى – مصحوب بنية – بنية مزدوجة – اعذار الخطا : يشبه الحق ام لا – المخلص وغير المخلص – النية الموجهة والنية الحقيقية – قيمة النية فى نظر "كانت " وفى نظرنا.

د-الحرية : ص ٥٠

المسئولية متناسبة مع الحرية – مذاهب ذات نزعة حتمية شوبنهور ، وسبينوزا ، كانت ، هوم – انصار حرية الاختيار : ديكارت – حجة ليفى بروهل الحتمية وتفنيد القرآن لها- العلة الفاعلة والعلة النهائية للفعل الارادى – ثلاثة اتجاهات فى الفلسفة الاسلامية : ١- اهل السنة ٢- المعتزلة ٣- الزمخشرى – تفنيد حجة المعتزلة -تفنيد آراء الحتميين – القوة الاخلاقية غالبة – القوة،الاخلاقية تنشئ القوة المادية – القرآن وقضية الحرية – الاختلاف عليها- القضاء والقدر – عناصر تبعية الارادة الانسانية للارادة الالهية – عون الصفوة المختارة ..الخلاف – موقف القرآن – تحفظات ضرورية – سكوت القرآن عن النقطة الحاسمة – المسئولية مقررة ومسوغة.

٣- الجانب الاجتماعى للمسئولية : ص ٦٢

المسئولية العقابية لها نفس شروط المسئولية الاخلاقية – اليونانيون والرومان ... واليهود والنصارى لم يتوصلوا الى هذه المفاهيم إلا متأخرا – بعض الفروق بين المسئولية العقابية

والمسئولية الاخلاقية فى الشريعة – التوبة هل تمنع العقاب ؟ – الحرابة والزنا – الفرق بين المسئولية المدنية والمسئولية.العقابية – كفارة الذنوب – التضامن الجماعى .

خاتمة الفصل : ص ٦٧

الاساس المتين لنظرية القرآن عن المسئولية .

الفصل الثالث : الجزاء

ص ٦٩-١٣٠

اللازمة الثانية لفكرة الالزام – تعريف – تقسيم ومنهج الفصل

١- الجزاء الاخلاقى : ص ٦٩

هل يوجد جزاء اخلاقى حقيقى – مقارنة مع القانون النفسى – الجزاء الاخلاقى لا يؤثر على حواسنا الخارجية – الندم والرضا – الجزاء الاخلاقى الحقيقى هو التوبة – ثراء فكرة التوبة فى الاسلام – جسامة الخطأ الاجتماعى – الجزاء الاخلاقى الثوابى – هل جُعل الانسان من اجل القانون ام العكس – محاسن الفضيلة وقبح الرذيلة .

٢- الجزاء القانونى : ص ٧٤

الجزاء الثوابى – الحدود والتعزيرات – القتل وحقوق ذوى الشأن – السرقة – الحرابة ، الزنا ، القذف ، شرب الخمر – تأملات فى قسوة العقوبات فى الاسلام .وعن عقوبة الزنا بصفة خاصة – البراءة هى الاصل – لا يجوز استطلاع اسرار الغير – هل يجب فضح المذنبين .. أو فضح الانسان نفسه – التعزيرات أو العقوبات التأديبية متروكة للقاضى .

٣- نظام التربية القرآنى : ص ٧٩

فكرة شائعة لدى الغربيين – طرق التوجيه فى الكتاب المقدس – نظام التربية القرآنى.

أ- مسوغات الذاتية : ص ٨٣

تعريف – منهج البحث – كيف يعرض القرآن دعوته العامة – واحكامه العملية الايجابية – ألقاب مدح الفضيلة – كيف يصوغ القرآن المحرمات – وكيف يذم الرذيلة .

ب – اعتبارات البينة : ص ٩٧

تعريف – قاعدة الاختيار – اربع مراحل اولاً : موقف الطاعة الصريحة . ثانيا : موقف يتضمن الاحتمالات . ثالثا: موقف الميل نحو الشر . رابعاً : موقف التمرد.

أ- النية كشرط لصحة الفعل : ص ١٣٣

مسئولية وصحة - صحة اجتماعية وصحة أخلاقية - النية كشرط للصحة الاخلاقية - هل توجد استثناءات - اجابات - الاجابة الحق : التمييز بين السلوك والكينونة - اتفاق المدارس على النية مع العمل .

ب- النية وطبيعة العمل الاخلاقى : ص ١٣٦

صعوبة وجود اجابة شاملة ، عدم كفاية صيغة كانت - اربع حالات ممكنة : حالتا اختلاف - الاجابة الاسلامية : ايجابية فى حالة النية المدانة - سلبية فى حالة الخطأ بحسن نيه - جهل مزدوج - صيغة كاملة للواجب - تبديد القلق - العمل الاخلاقى انتقال من القرار الى التنفيذ - التخطيط ليس هو ارادة الشئ - إرادة الشئ حركة مركزية - القرار والتنفيذ .

ج- فضل النية على الفعل : ص ١٤٠

افضلية عمل القلب - الخير والشر الاخلاقى يؤثران على الجانب المادى - وبالتالى العمل الظاهر يغذى الملكات - مصير مزدوج للعمل الاخلاقى - اولوية النية على الجهد الداخلى ذاته.

د- هلى تكفى النية بذاتها : ص ١٤٤

تعريف - قرار منفذ وقرار منعته الاحداث هل لهما نفس القيمة الاخلاقية ؟ الحجج الجارية - تصنيف ونقد الحجج - اسباب الحجة المطروحة .

٢- دوافع العمل . ص ١٤٨

ماذا ؟ ولماذا ؟ الاسلام معناه الخضوع والنقاء:

أ- دور النية غير المباشرة وطبيعتها : ص ١٤٨

قيمة العمل بغاياته - معنى مزدوج للنية - نية عميقة وحقيقية ونية مصطنعة - صعوبة كشف وتعديل الدوافع ،كانت والغزالى - صعوبات اكبر امام الاصفياء عن العامة - الأخلاق العقلية والأخلاق الدينية - تصنيف الدوافع -عناصر الحكم .

ب- النية الحسنة : ص ١٥١

تعريف ، كانت والقرآن - الوجهه العامة للتربية القرآنية - احصاء عدد مرات ذكر الله فى القرآن (هامش) - التشدد فى النية لا ينطبق على العمل - ستة نماذج للتكسب - امثلة من الصحابة - الزائد الضرورى - جدول احصائى بالنماذج الستة - لماذا يؤدى الواجب - التدرج عند المكى - اساس التدرج فى القرآن والحديث - التدرج عند الحكيم الترمذى - .. عند الغزالى - دراسة الشاطبى عن التنزه عن المنفعة - القضية - القضية المضادة - التصالح - تحفظات على صيغة الشاطبى - ثلاث فئات · غايات موضوعية ، غايات ذاتية مشروعة،

غايات غير مشروعة - جانبان للنية الغائبة - الاولوية للخضوع المطلق - الخلاف حول النية الذاتية - الاعتدال يعود الى التشدد الكانتى - حجة ضد اللامبالاة التامة - مبدأ التقسيم الثلاثى موضح فى الحديث .

ج- براءة النية : ص ١٦٥

اول شروطها - اختلاط الدافع الرئيسى مع دافع فرعى - شرطان ... - المتشددون ورد القرآن عليهم - رد المعتدلين - التقريب بينهما - صحة القضية المعتدلة - تحليل نفسانى - دافع اساسى : الحياء - شرط ثالث - عندما تصبح الإباحة توصية. امثلة : ١- الكسب - ٢- الكماليات ٣- الاستثناءات - ٤- اللعب.

د - النية السيئة : ص ١٧٧

صورة قرآنية واقليدية - اربع حالات ١- نية الاضرار - ٢- نية التهرب من اداء الواجب ٣- نية تحقيق كسب غير مشروع - تحايل اليهود وغيرهم - عقد "المخاطرة " هل يبطل العقدان ؟ خلاف - كيفية تفسير الأيمان المبهمة ٤- نية ارضاء الناس (الرياء) - التفرقة بين النفاق والرياء .

هـ- اخلاص النية واختلاط البواعث : ص ١٨٣

صيغ الاخلاص المطلق - الخلط الذى طرأ فيما بعد لا يضر - الاخلاص المطلق هل هو ممكن ؟- شرح نصوص تبدو متشددة - نصوص صريحة اقل تشدداً - نظرية الغزالى عن درجات الخلط - رأى المحاسبى .

خاتمة الفصل : ص ١٨٧

طبيعة العمل الاخلاقى : العنصر الاول : العلاقة بالقانون - العنصر الثانى : اختيار الغايات : قاعدة الاختيار - المبدأ الأوحد ... - الصحة والقيمة - الاخلاق عند كانت والاخلاق الدينية .

الفصل الخامس - الجهد.

ص ١٩٠-٢٢٢

ضرورة الجهد تأتى من الفطرة الناقصة والقابلة لاكتساب الكمال - تعريف - اتفاق المعنى المادى والاخلاقى - ارساء المبدأ - منهج الفصل .

١- جهد وتلقائية : ص ١٩١

الجهد وسيلة وليس قيمة فى ذاته - الغلو فى موقفين فى تقدير الجهد - تردد الضمير العام - الحل المقترح : التمييز بين جهد المدافعة وجهد الابداع.

أ - جهد المدافعة ص ١٩٣

تعريف - درجة المقاومة - شبه تلقائية فطرية أو مكتسبة - لكن دائماً هناك تأثير الفطرة - الاسلام والبوذية والرواقية - سخاء الطبع هل يقلل الجزاء؟ - النصر وسبب الصراع - فى اى الظروف يكون النصر - هدف الجهد تقليل الجهد - خُلُق وتَخلّق - العمل والمعرفة يتطلبان قدرا من الاستعداد المرن - القضية المضادة لا يقبلها العقل - العون الالهى فى تشكيل الطباع- محاولة التقريب - نقد واقتراح الحل - الصيغة الكاملة : الطابع المزدوج .

ب- جهد الابداع : ص ٢٠١

التمهيد : غرس الميول الحسنة - ثلاث درجات لجهد الابداع - ١- اختيار حر ، بحث جاد - القدرية الكسولة - ٢- الاختيار الجيد : مثلا الاحسان ٣- البحث عن الافضل - مثال - الى أى حد هذه الدرجة الأخيرة مطلوبة ؟ - مبدأ التدرج - الأخلاق القرآنية أخلاق واجب وأخلاق خير معاً - مقابلة بين الجهد المبدع والقيمة .حل بعض القضايا : القداسة والاخلاقية - هل القداسة بها درجات ؟ القداسة والخطيئة .

٢ - الجهد البدنى : ص ٢٠٨

الجهد البدنى ليس غاية - قيمته حسب موضوعه - تنوع العلاقة بين الجهد والخير المقصود من الواجب - امثلة :١- النجدة ٢- الصلاة ٣- الصوم - المعنى الأخلاقى للصوم - الحرمان غير مستهدف فى الواجب وإنما يفرض واجبات - تطبيق المبدأ القرآنى على قضيتين مشهورتين : ١- الصبر والسخاء ٢- العزلة والمخالطة - اصل وشرط الزهادة فى الاسلام - حالة العزلة الشرعية - العزلة الروحية - العزلة المستحبة .

٣- جهد وترفق : ص ٢١٤

المثل الاعلى - حدود الجهد المطلوب : طاقة الانسان - معنى هذا التوفيق - الضرورة لا تلغى الالزام بل تعذر المخالفة - الحث على ابذل الجهد حتىّ عند الصعوبات - الحد البدنى والحد الاخلاقى - القانون متشدد فى الجهد - تراكب التشدد والرفق - تعريف خارجى : تعريف غير دقيق إلا انه مطابق لمتطلبات الاخلاق الفردية والجماعية - الرجوع الى الضمير العام - تعريف داخلى مع تحفظات - الجهد المعتدل يستهدف المثل الاعلى الامثل - مفتاح الموقف .

خاتمة الفصل .ص ٢٢٠

خصائص الجهد الممتدح - مقارنة بالوسط العدل عند ارسطو - تشابه واختلاف ..

ثالثاً : المباحات : ص ٢٤٢

التمتع بالطيبات باعتدال

رابعاً : المخالفة بالاضطرار ص ٢٤٢

الفصل الثانى : الأخلاق الأسرية

ص ٢٤٣-٢٤٩

اولاً :_ واجبات نحو الاصول والفروع ص ٢٤٣

الاحسان الى الوالدين – المحافظة على حياة الاولاد – التربية الاخلاقية للاولاد وللاسرة بصفة عامة .

ثانياً : واجبات بين الازواج : ص ٢٤٣

أ – تأسيس الأسرة : ص ٢٤٣

علاقات محرمة – علاقات حلال – خصال مطلوبة ومستحبة – الرضا الحر والمتبادل – الصداق – شروط تعدد الزوجات .

ب- الحياة الزوجية : ص ٢٤٥

روابط مقدسة ومحترمة – غايات الزواج ١ - سلام داخلى ومودة ورحمة ٢- زيادة النسل – المساواة فى الحقوق والواجبات – تشاور وتراض مشترك – تعامل إنسانى – معاشرة بالمعروف حتى فى حالة الكراهية – الصلح فى حالة النزاع – التحكيم

ج- الطلاق : ص ٢٤٧

الافتراق – شر مذهب – فترة الانتظار – السكنى والمعاملة بالمعروف على أمل الصلح – لاعدة للمرأة المطلقة قبل الدخول – وبعد العدة .. اما عودة بنوايا حسنة – اما الافتراق الذى يسمح بالزواج مرة اخرى – لا غصب لشئ من المرأة المطلقة – لا يكون الطلاق بائناً الا فى المرة الثالثة – تعويض للمطلقة غير الممهورة – تعويض للمطلقات بصفة عامة .

ثالثا : واجبات نحو الاقارب : ص ٢٤٨

اشراك الغير فى سعادتنا – الوصية .

رابعاً : الارث: ص ٢٤٩

حق لا يقتصر على الذكور أو الاولاد الكبار أو الاولاد الوحيدين - قواعد القسمة - الارث فضل من الله وليس حقاً.

الفصل الثالث - الاخلاق الاجتماعية

ص ٢٥٠-٢٦١

اولاً : المحظورات . ص ٢٥٠

قتل الانسان- السرقة - الغش - القرض بفائدة - اى اختلاس - كل تملك غير مشروع - تبديد مال اليتيم - خيانة الامانة والثقة - الايذاء بلا مبرر - الظلم - التواطؤ على الشر - الدفاع عن الخونة - عدم الوفاء بالعهد - الغدر والخداع - غش القضاة وإفسادهم - شهادة الزور - الكتمان - قول السوء - سوء معاملة اليتيم والفقير - السخرية - احتقار الناس - التجسس - الافتراء والغيبة - علاقات مؤذية وسذاجة متواطئة - القذف - التدخل الضار - موقف اللامبالاة بالشر العام .

ثانياً : الاوامر : ص ٢٥٣

اداء الامانة - توثيق المعاملات المالية لتجنب الشك - الوفاء بالعهود والوعود- اداء الشهادة الصادقة - اصلاح ذات البين - التشفع او التوسط فى الخلافات - لا .. للأشرار - التواضع والتراحم المتبادل - الاحسان ولا سيما الى الضعفاء - استثمار أموال اليتامى - تحرير العبيد - أو تيسير تحريرهم - العفو - عدم تجاوز الاساءة فى جميع الاحوال - درء السيئة بالحسنة - الدعوة الى الخير والنهى عن الشر - نشر العلم - الصداقة والكرم - الحب الشامل - العدل والاحسان معاً - ثلاثة مواقف مشروعة بدرجات متفاوتة ١- تمسك الانسان بحقوقه ٢- الكرم فى الرخاء ٣- الايثار البطولى - الواجب الدقيق هو الوسط - العطاء واجب شامل - شروط مطلوبة فى ممارسة الاحسان : ١ - جهة الصرف ٢ - النية ٣ - صفة العطاء ٤ - طريقة الإعطاء : أ - الافضل ان يكون سراً ب - عدم إهانة الأخذ - الدعوة الى السخاء - ذم الاكتناز.

ثالثا : قواعد الادب : ص ٢٦٠

الاستئذان للدخول على الغير- خفض الصوت وعدم مناداة الكبار من الخارج - التحية عند الدخول - الرد على التحية بأحسن منها - الجلوس فى الصف - ان يكون موضوع الحديث خيراً - استعمال أطيب العبارات - الاستئذان عند مغادرة الاجتماع

الفصل الرابع - اخلاق الدولة :

٢٦٨-٢٦٣

اولاً : العلاقة بين الرئيس والشعب : ص ٢٦٢

أ- واجبات الرؤساء : ص ٢٦٢

مشاورة الشعب - تنفيذ القرار النهائى بهمة - طبقا لقاعدة العدل - اقرار النظام- صون الاموال العامة وعدم المساس بها - عدم قصر الانتفاع بها على الاغنياء - للاقليات الدينية داخل المجتمع الاسلامى حريتها القانونية .

ب- واجبات الشعب : ص ٢٦٣

النظام - الطاعة المشروطة - الاتحاد حول المثل الاعلى - مناقشة القضايا العامة - تجنب الاخلال بالنظام والتخريب - إعداد الدفاع العام - الرقابة الاخلاقية - تجنب موالاة العدو أو التواطؤ معه .

ثانياً : العلاقات الخارجية : ص ٢٦٤

أ- فى الاحوال العادية : ص ٢٦٤

الاهتمام بالسلام العام - الدعوة الى مذهب السلام - دون اكراه - ولا إثارة الكراهية - ترك التسلط وإثارة القلاقل - عدم المساس بأمن المحايدين - حسن الجوار والعدالة والبر .

ب- فى حالة العدوان : ص ٢٦٣

عدم المبادرة باستخدام السلاح - الامتناع عن القتال فى الاشهر الحرم - او فى المناطق المحرمة - للحرب المشروعة حالتان ١- الدفاع عن النفس ٢- مساعدة المستضعفين المحرومين من وسائل الدفاع - قتال المقاتلين دون غيرهم - عدم الفرار عند ملاقاة المعتدين - الثبات والاتحاد - الصبر والامل - عدم الخوف من الموت فسيأتى فى موعده- الخوف أكثر من مكائد الكفار وإغوائهم - لا استسلام - وانما قبول السلام وعدم ملاحقة العدو المنسحب - الوفاء بالمعاهدات المبرمة - عدم مواجهة الخيانة بمثلها - الوفاء بالشروط وان كانت مجحفة وعدم العدوان بدافع الطمع - الاخوة الانسانية ١ - رباط مقدس فوق التعصب لجنس أو نوع ٢ - معيار الثواب .

الفصل الخامس - الأخلاق الدينية

ص ٢٦٩-٢٧٤

واجبات نحو الله : ص ٢٦٩

الايمان بالله وبالحقائق التى أنزلها - طاعة الله بلا قيد أو شـرط - تدبر آيـات القرآن - تدبـر صنع الله - الاقرار بنعم الله (وشكره) - تجمل البلاء برضا - الاعتماد على الله والثقة به - عدم اليأس من رحمته - أو الامن من بأسه - تعليق كل فعل مستقبل بمشيئته - الوفـاء بـالنذر لله والوعد لله - عدم اثارة المشركين لسب الله - تجنـب مجالسـة الخـائضين فـى أيـات اللـه - عدم الاكثار من الحلف بالله - احترام اليمين بعد القسـم - دوام ذكـر اللـه - تسـبيحه وتكبـيره- اداء العبادة اليومية - حج البيت - دعـاء اللـه دائمـاً مـع الخـوف والأمـل - الرجـوع الـى اللـه والتماس مغفرته - حب الله - ان يكون حبه فوق كل شئ .

الخلاصة

مجموعات من امهات الفضائل الاسلامية

ص ٢٧٤-٢٧٦